

مركز الدراسات الشرقية
جامعة القاهرة

فيروس التعصب حل الشفرة السياسية الإسرائيلية

تأليف

أولك نيتسر

ترجمه عن العبرية ، وعلّق عليه

د/ عبد الوهاب محمود وهب الله
كلية الآداب - جامعة القاهرة

سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية
العدد (٢٣)
١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م

فيروس التعصب
حل الشفرة
السياسية الإسرائيلية

تأليف

اولك نيتسر

ترجمه عن العبرية ، وعلّق عليه

د/ عبد الوهاب محمود وهب الله

كلية الآداب - جامعة القاهرة

سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية

يصدرها مركز الدراسات الشرقية - جامعة القاهرة

تحت إشرف أ.د/ محمد خليفة حسن

تصدر هذه السلسلة تحت رعاية

أ.د نجيب الهلالى

رئيس جامعة القاهرة

ورئيس مجلس إدارة المركز

و

أ.د أحمد فؤاد باشا

نائب رئيس الجامعة

ونائب رئيس مجلس إدارة المركز

رقم الايداع	٢٠٠٣/٧١٦١
الترقيم الدولى	I.S.B.N. 977-223-761-x

مطبعة العمرانية للأوفست

الجيزة ت : ٧٧٩٧٥٥٠

المحتويات



تقديم

يسر مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة أن يقدم للقارىء الكريم إصداره الجديد عن ظاهرة التعصب واللاإنسانية فى السياسة الإسرائيلية خلال الفترة ١٩٧٩ - ١٩٩٩م . وعنوان الكتاب " فيروس التعصب - حل الشفرة السياسية الإسرائيلية " . والكتاب صدر بالعبرية ومؤلفه عالم نفس خبير فى العلوم السلوكية ، ويقدم فى هذا الكتاب تحليلاً نفسيًا للسلوك اللاإنسانى المسيطر على السياسة الإسرائيلية . وهو يعتبر هذا السلوك اللاإنسانى ظاهرة نفسية تشير إلى مرض اجتماعى أصاب السياسين والعسكريين فى المجتمع الإسرائيلى . وهو يقدم هذه الدراسة النفسية من خلال نهج إكلينيكى فى بحث الأمراض الاجتماعية . وقد استخدم المؤلف أولك نيتسر كلمة فيروس ليشير إلى وباء اجتماعى فتاك متأثراً فى ذلك بالمتخصصين فى بحوث الفيروسات الذين يدرسون الأمراض للبحث عن وسائل علاجية وقائية وعن أدوية مضادة لانتشار الفيروس . والفيروس الذى يبحثه المؤلف هنا هو فيروس التعصب والتعصب مرض نفسى ويمثل وباء اجتماعى يحتاج إلى التحليل والدراسة من أجل الوصول إلى علاج وقائى يمنع انتشار عدوى التعصب . ويعبر المؤلف عن هذا بقوله : " يجب علينا أن نشرع فى التصدى للتعصب والعنصرية ، وانعدام الإنسانية ، وسفك الدماء والحماقات والجهالة والشلل الفكرى . وهى أمور تتشكل فى أنماط تفكير سياسية وأيديولوجية دينية وغير دينية .... كما يشرع إنسان مثقف عالم فى عصرنا الحالى فى التفكير فى التصدى لمرض الإيدز أو السرطان " . ويطلب المؤلف من الجمهور الإسرائيلى أن ينظروا إليه نظرتهم إلى طبيب جراح يجرى عملية جراحية وبكل المسئولية لمريض عزيز عليه وقريب له " . إن الطريق الذى يؤدى إليه انتشار فيروس التعصب واللاإنسانية يصفه المؤلف بأنه " طريق جهنم سياسى دكتاتورى استبدادى " . فالجميع يعانون . من يَقتلون ومن يُقتلون بسبب فيروس التعصب . ولا يعرفون كيف يواجهون المرض وكيف يقاومونه .

ويحاول الكتاب أن يجيب على مجموعة من التساؤلات المهمة منها :

ما هى أعراض مرض التعصب ؟ وما هى الأعضاء والوظائف الإدراكية والفكرية التى يصيبها فيروس التعصب ؟ وما الذى يمكن عمله لوقف هذا الوباء ؟ .

وقد اعتبر صدور هذا الكتاب حدثًا مهمًا فى مجال الفكر السياسى الاجتماعى فى إسرائيل . فهو يحلل السياسة كسلوك إنسانى ويقترح سبلاً لمعالجة ظاهرة التعصب واللاإنسانية المسيطرة على المجتمع الإسرائيلى ، ويحلل ظاهرات التعصب والعنصرية وغياب الإنسانية وانتشار سفك الدماء ويحلل مظاهر الحماقة والعمى والشلل الفكرى الذى أصاب المجتمع الإسرائيلى باعتبار هذه الظواهر تمثل اضطرابات نفسية معدية .

ويعتبر الكاتب حرب ١٩٦٧م البداية الحقيقية لانتشار فيروس التعصب واللاإنسانية . فمن وجهة نظره أن إسرائيل قبل حرب ١٩٦٧م حافظت على صيغة سياسية ديمقراطية وإنسانية وغلب عليها طابع أخلاقى مثله ما يسميه الكاتب باليسار الصهيونى . ولم تكن لدى إسرائيل أطماع توسعية وكانت راغبة فى السلام داخل حدودها . وبعد حرب ١٩٦٧م وجدت إسرائيل نفسها مسيطرة على خمسة أضعاف مساحتها وعلى ملايين البشر وبدأ مرض اللاإنسانية والتعصب فى الانتشار حتى سيطر تمامًا على إسرائيل وعلى سياستها .

والكتاب يحلل السلوك السياسى الإسرائيلى ويُشرِّحه من خلال نهج إكلينكى يشخص الداء ويقترح الدواء . وينقسم الكتاب إلى بابين يتناول الباب الأول فيروس اللاإنسانية من حيث اكتشافه وتوضيح أعراضه وتحليل طبيعة الشخصية المتعصبة ، وانتقال المرض إلى الأجيال القادمة . ويعالج الباب الثانى انتصار اللاإنسانية فى إسرائيل ، وتغيير الحدود القيمية لإسرائيل خلال سنوات الضم مشرحًا لحدود الديمقراطية ، وحدود الصهيونية ، وحدود الأمن ، وتغيير الحدود الأخلاقية حول النزاع . ويتناول الاختبار الأخلاقى لإسرائيل فى الانتفاضة الأولى ، ويعطى عرضًا تاريخيًا لمذابح إسرائيل وتشريحًا للضمير والسمات المميزة للأخلاقيات الاجتماعية لدولة فى حالة حرب . وفى الخاتمة يقدم مجموعة نصائح ويطرح تساؤلاً مهمًا : ماذا تفعل مع الكارثة النازية ؟ حيث يقول : " لست أرى خطراً أكبر على مستقبل دولة إسرائيل من حقيقة أن الكارثة قد غُرست بمنهجية وبقوة فى وعى كل الجمهور الإسرائيلى ، وحتى فى وعى القسم الكبير الذى لم يمر بالكارثة النازية ... إنها دعوة للكراهية المستمرة

والعمياء . وهى عقدة نفسية يتم توريثها للأطفال ، فالشخصية القومية الجماعية تنمى عقدة النازية بدلاً من العمل على التغلب عليها ، وفى هذا كل الخطر على مستقبل إسرائيل .

ولا يسعنا بعد هذا التعريف السريع بمحتويات هذا الكتاب الخطير إلا أن نتوجه بالشكر الجزيل لمترجمه الدكتور عبد الوهاب وهب الله الذى بذل مجهوداً ضخمًا فى ترجمة هذا الكتاب الصعب الذى سيطرت عليه لغة علم النفس والتحليل النفسى . فالكتاب يقدم صورة واقعية لحقيقة المجتمع الإسرائيلى المريض نفسيًا والمصاب بأكبر مرض إنسانى عرفته البشرية وهو مرض اللاإنسانية .

أ.د. محمد خليفة حسن
مدير مركز الدراسات الشرقية
جامعة القاهرة



مقدمة المترجم

تأتى ترجمة هذا الكتاب فى وقت تتزايد فيه الحاجة من جانب المهتمين والسياسيين والباحثين والقراء بشكل عام إلى مزيد من المادة المعرفية والتحليلية عن تركيبة المجتمع الإسرائيلى السلوكية والقيمية وانعكاس كل ذلك على مجريات الأمور فى الساحة السياسية وتفشى ظاهرة التعصب لدى قطاعات عريضة من الإسرائيليين ، خاصة النظرة إلى الآخر ، فى ظل الصراع المحتدم حاليًا بين قوات الاحتلال الإسرائيلى وأبناء الشعب الفلسطينى وسلطته المنتخبة فى الضفة الغربية وقطاع غزة .

ومما يضفى أهمية خاصة على ترجمة هذا الكتاب قلة وندرة الكتب والدراسات المتخصصة التى تتناول هذا الموضوع المهم والذى يتمثل فى ظاهرة " فيروس التعصب " على حد قول المؤلف ، والتى تتفشى فى أوساط قطاعات واسعة من السكان اليهود فى إسرائيل وتطال حتى القيادة السياسية والعسكرية وتؤثر على صناع القرار وتفرز تداعيات غاية فى الخطورة فى سياق النزاع الإسرائيلى العربى ومساراته المختلفة .

ويعتبر هذا الكتاب جديداً من ناحية تناوله لظاهرة التعصب التى كشفت عن وجهها الحقيقى فى خضم الأحداث الدامية التى تجرى أو فى المناطق الفسلطينية المحتلة والتى تعكس بشكل صارخ إلى أى مدى سيطرت هذه الظاهرة على صناع القرار فى إسرائيل سواء فى المؤسسة الحزبية السياسية أو العسكرية وفى قطاعات من مختلف ألوان الطيف السياسى وبخاصة دعاة الاستيطان والمستوطنين فى المناطق الفلسطينية المحتلة .

غير أن أهمية الكتاب تتعدى عرض هذه الظاهرة ومسبباتها من حيث أن المؤلف تتبع المنهج التحليلى النفسى من خلال إيراد مادة موثقة لإثبات استنتاجاته محاولاً التنبيه إلى ضرورة فهم ومعالجة هذه الظاهرة المدمرة التى تسيطر على المجتمع الإسرائيلى على حد تعبيره .

وفى مقدمته يحدد المؤلف الغرض من كتابه وهو تشخيص أعراض هذا المرض ومسبباته والأعضاء والوظائف الإدراكية والفكرية التى يصيبها " فيروس التعصب " وما الذى يمكن عمله لكبح هذا الوباء .

ويقع الكتاب فى بابين وعدة فصول ويضم بين دفتيه أكثر من ثلاثمائة صفحة من القطع المتوسط . ويتناول الباب الأول فيروس التعصب - اللاإنسانية ومرحلة اكتشاف الفيروس الذى يتسبب فى عمى إنسانى وسبل الوصول إلى ذلك والفرضيات التى يقوم عليها أساس البحث، واللاإنسانية كمنظومة قيم نشطة وتعريف الظاهرة وتحليل تعبيرات اللاإنسانية فى وسائل الإعلام وتشخيص عرض اللاإنسانية ثم نظرية اللاإنسانية فى اختبار الواقع .

ويتناول الباب الثانى كيف تفشى فيروس التعصب - اللاإنسانية فى المجتمع الإسرائيلى بعد حرب ١٩٦٧ وسيطر على إسرائيل وعلى سياستها ، ثم يعرض وثائق لتتبع تأثير هذه الظاهرة وانعكاساتها والمواقف المختلفة منها وخريطة المفاهيم والحدود القيمية والنظرة إلى ضم المناطق الفلسطينية المحتلة إلى دولة إسرائيل وحدود التفكير الأخلاقى حول النزاع، وتحليل المواقف المتذبذبة لما يسمى بـ " اليسار الصهيونى " .

ويعرض الكتاب أيضًا لتداعيات الانتفاضة الفلسطينية الأولى والتغطية الإعلامية لها وعرض تاريخى للمذابح فى إسرائيل والحدود بين القوى فى ساحة النزاع وحدود الأوهام ، ثم يتساءل لماذا حدث كل هذا ومن المسئول عنه ؟. ويختتم الكتاب بملحق نصائح تطبيقية حول نظرية اللاإنسانية وفيروس التعصب ووسائل الوقاية والعلاج ، سعيًا إلى محاولة إنقاذ المجتمع الإسرائيلى من التأثيرات المدمرة لوباء التعصب الذى تتمخض عنه النزعة العنصرية وكراهية الآخر والتى تبدت بشكل صارخ فى أعمال القمع ضد أبناء الشعب الفلسطينى العُزل .

ويحدونا الأمل فى أن تكون هذه خطوة على الطريق الصحيح لفهم كنه النفسية التعصبية التى سيطرت على المجتمع الإسرائيلى وتضر حتى بقطاعات من الإسرائيليين أنفسهم ، ناهيك الحديث عن تأثيراتها فى النظر إلى الغير .

ولا يتأتى هذا إلا من خلال دراسات جادة فى هذا السياق لا تكتفى بنقل ما يرد فى الصحف الإسرائيلية مع عمليات ربط ذات طابع صحفى والتى ذخر بها سوق النشر مؤخراً والتى تحمل عناوين براقة سرعان ما يتبين أنها ليست سوى عناوين وردت فى الصحافة الإسرائيلية وكأننا نروج حتى لما يكتبون من عناوين . فالوضع جد خطير ولم يعد يحتمل هذه النظرة السطحية .

ومن مشاكل ترجمة هذا الكتاب أن المؤلف يعتمد على الكثير من مصطلحات علم النفس والتحليل النفسى وشرح مدلولات هذه المصطلحات خاصة فى الجزء الأول من الكتاب ، الأمر الذى جعل المقابل العبرى لهذه المصطلحات يحتمل معانٍ كثيرة ، مما استوجب الرجوع إلى الأصل الإنجليزى لكثير من المصطلحات .

ثانيًا أن المؤلف استخدم الكثير من أسماء الأماكن والشخصيات التى ليست معروفة للقارىء العربى مما استوجب شرحها والتعريف بها ، ناهيك الحديث عن الكثير من المصطلحات باللغة الألمانية التى تتعلق بفترة النازية فى ألمانيا دون إيراد مرادف عبرى لها والاكتفاء بكتابتها بحروف عبرية .

ثالثًا : استخدم المؤلف فى الأعم الأغلب خاصة عند الاستشهاد بتصريحات وأقوال سياسين وقادة عسكريين إسرائيليين مسميات عبرية لأماكن فلسطينية عربية محتلة مثل يهودا وشومرون بدلاً من الضفة الغربية أو المناطق أو ييشاع ويقصد الضفة وقطاع غزة .

د. عبد الوهاب محمود وهب الله

هذا الكتاب يعتبر حدثًا فى مجال الفكر السياسى الاجتماعى ، ويقترح سبلاً جديدة لفهم ومعالجة الظاهرة المدمرة التى تسيطر على المجتمع الإسرائيلى ، وخلافًا لكل المواقف المألوفة افترض هذا الكتاب ببساطة أن السياسة سلوك إنسانى ليس إلا ، فلا شىء خارج السلوك الإنسانى ، وينظر المؤلف إلى الآراء المسبقة ، والتعصب ، والعنصرية ، وانعدام الإنسانية ، وسفك دماء ، والحماقة ، والعمى ، والشلل الفكرى والتى تنتظم فى أنماط سياسية إيديولوجية لنزعة اللاإنسانية ، على أنها اضطرابات نفسية معدية .

ويقدم الكتاب إجابات على أسئلة مثل : ماهى بالضبط أعراض هذا المرض ؟ وما هى الأعضاء والوظائف الإدراكية والفكرية التى تصاب من فيروس التعصب ؟ وكيف ينجح أشخاص مثلى فى تفادى أجهزة أحكامهم الأخلاقية ، عندما يرتكبون فظائع وشروراً أيديولوجية ضد أناس مثلهم ، ما الذى يمكن عمله لكبح هذا الوباء ؟ .

هذا مرض عالمى ولكن العلاج هنا فى دولة إسرائيل . فى بداية القصة كانت إسرائيل قريبة فى الطابع الأخلاقى مما يسمى حاليًا " اليسار الصهيونى " ، حافظت على صيغة سياسية ديمقراطية وإنسانية داخل حدودها (الخط الأخضر) ولم تكن لديها أطماع توسع، وأرادت السلام وكانت مستعدة دائمًا للتحدث عن السلام مع جيرانها على الرغم من أنهم هددوا وجودها .

وفى سنة ١٩٦٧ ، عندما اضطرت - أو اعتقدت أنها اضطرت - للدفاع عن وجودها ، سيطرت خلال بضعة أيام على مساحات كبيرة تبلغ خمسة أضعاف مساحتها وعلى ملايين البشر .

ويتناول الجزء الثانى من الكتاب قصة إسرائيل بعد حرب الأيام الستة ، عندما بدأ فيروس اللاإنسانية يتفشى فيها ، حتى سيطر عليها وعلى سياستها .

الدكتور أولك نيتسر باحث فى السلوك السياسى ويطبق نتائج أبحاثه فى أنشطة من أجل القيم الإنسانية ، ونهجه الإكلينيكى يفتح اتجاهًا جديداً فى تشخيص الداء وفى اقتراح سبل لمداواته .

حل الشفرة السياسية على خلفية إسرائيل

١٩٧٩ - ١٩٩٩

إلى القارىء :

الصوت الذي يتحدث إليك في هذا الكتاب هو صوت خبير العلوم السلوكية الذي يشرع من خلال نهج إكلينيكي في بحث الأمراض الاجتماعية ، هكذا أقدم نفسي ، وهكذا أرجو أن تنظر إليَّ وليس معاذ الله كسياسي ، مثالي وحسن النوايا وأيديولوجي في صورة مفكر ، واعظ داعية أو معلم . ولكن رداء العالم الأبيض الذي اكتسيه يغطي جسم إسرائيلي متألم . ولقد كان قرار الشروع في تناول الأوبئة الاجتماعية الفتاكة بالبحث ، مثلما يشرع باحثو الأمراض في بحث الفيروسات ، لكي يخترعوا وسائل وقائية وأدوية مضادة لها ، هو الخيار الوحيد الذي له احتمال ، في نظري ، في أن يفيد ولا يضر . هذا هو الدرس الذي تعلمته في حياتي من كل إخفاقات وإهانات الماضي والحاضر : يتعين علينا أن نشرع في التصدي للآراء المسبقة والتعصب والعنصرية وانعدام الإنسانية ، وكل سفك الدماء ، والحماقات والجهالة والشلل الفكري ، وهي الأمور التي تنتظم وتتشكل في أنماط تفكير سياسية إيديولوجية ، دينية أو غير دينية ، مثلما يشرع إنسان مثقف في عصرنا الحاضر في التفكير في أن يمنع أو يتصدى أو يعالج الإيدز أو السرطان .

ووفقًا لهذا النهج ، يمكن للقارىء أن يتوقع مني موضوعية علمية ، بمعنى الإخلاص للحقيقة التي تتكشف في سيرة بحث وتحليل الأحداث على أرض الواقع ، إخلاصي يفوق أي إخلاص آخر لفكرة أو اكتشاف وإبداع ، أو مصلحة سياسية تخصني . إن " الحقيقة العلمية " هي ما نكتشفه على أرض الواقع ، وليست ما نخترعه أو نريد تصديقه ، إنها القيمة العليا التي توجه رأي السياسي ، وليس العكس . ولدى بالطبع مصالح شخصية ، قيمي وآرائي السياسية ، ولكن منذ اللحظة التي قررت فيها أن آخذ على عاتقي العمل بمقتضى أخلاقيات وآداب السلوك المهني لباحث علمي ، فإنني ملتزم بها بالضبط مثلما أن الطبيب ملتزم بآداب مهنة الطب . وهذه الأخلاقيات هي التي توجهني هنا في سرد ووصف الواقع وفي اقتراح سبل فهمه وإصلاح ما يمكن - تلك هي وجهة نظري .

ومع هذا فإنني لست عالمًا فاتر العاطفة ، فاقداً للمشاعر والرغبة السياسية الواضحة ، ولست أنوي أيضًا أن أخفي هذا : فالواقع الإسرائيلي للجيل الأخير هو الأرض التي اكتشف

عليها ، الاكتشاف الذى قاد إلى فك الشفرة السياسية للنزعة الإنسانية المدمرة المنظمة للمرض الاجتماعى الذى يسمى هنا لا إنسانية . وباللغة العبرية تعصبًا ، وهو أفظع الأمراض والذى يحتل الحديث عن طبيعته ووصفه الجزء الأكبر من هذا الكتاب .

ولكن على الرغم من تدخلى الشخصى ، فإننى أجدنى مصممًا على قرارى ببذل كل جهد لكى لا تحول مشاعرى وآرائى دون إجراء عملية التحليل بصورة مهنية وموضوعية ، وأود أن تكون النظرة إلىّ مثل النظرة إلى طبيب جراح يجرى عملية جراحية وبكل المسئولية لمريض عزيز عليه وقريب له . وقد تحسون أحيانًا بأن اليدين ترتعشان أو أن الصوت يرتعد . وقد حاولت تجنيد مهنيين آخرين لكى يقوموا هم بعملية التحليل أو أن يكونوا على الأقل شركاء معى فى كتابة الكلام ، بيد أننى لم أنجح فى هذا حتى الآن .

وباعتبارى رجل علم ينتهى دورى فى اللحظة التى أعرض فيها نتائج بحثى والاستنتاجات التى تنبثق منه والتى تترك للقارىء لكى يضعها موضع الاختبار ويعمل التفكير ويبدى الرأى فيها . ولكن بصفتى رجل " علم السلوك التطبيقى " يتركز اهتمامه فى بحث الأوبئة التى تجتاح مدينته ووطنه ، فإننى أقوم أيضًا بدور المستشار . ومن أجل ذلك فإن الأسلوب الذى اخترت استخدامه فى الحوار مع القارىء فى إسرائيل ليس الأسلوب المألوف فى الكتابة العلمية بل الأسلوب الذى أريد أن يصل إلى القارىء ويلامسه .

وأرجو ألا تفسروا الأسلوب الشخصى كما لو أنه يجعل المضمون أقل " علمية " . ويتيح لى النهج العلمى أن أتوجه إليكم بمدى من الثقة فى أن الكلام قائم على تجربة منظمة ومنهجية. على أية حال ، لولا ذلك المدى من الخبرة والتجربة المهنية فى تحليل سلوك سياسى لما تصورت ولا خطر على بالى أن أتوجه إليكم مطلقًا ، فما يوجد هنا لن تجدوه فى أى مصدر آخر ، لأن بحث الأمراض السياسية طبقًا للنهج الإكلينيكى لا يزال غير متبع أو معمول به ، فى حين أنه قد تم التعبير فى إطار النهج التقليدى السائد فى ثقافتنا عن كل العموميات الجميلة والصحيحة قبلاً ، وقد فرشت فعلاً بكل النوايا الحسنة الطرق المؤدية إما إلى جهنم سياسى دكتاتورى استبدادى أو إلى واقعنا هذا المتنازع عليه والذى يعانى فيه الكثيرون من يَقْتلون ومن يُقتلون بسبب فيروس التعصب ، ولا يعرفون كيف يواجهونه ويقاومونه .

أوليك نيتسر

١٩٩٩/٢/٣١

الباب الأول

فيروس اللاإنسانية



الفصل الأول

الاكتشاف

منذ عشرين عامًا اكتشفت فى ساحة النزاع القاسى والطويل الذى نعيشه فى إسرائيل ، وفى واقعنا السياسى اليومى فى الجيل الأخير ، ظواهر لم يشر إليها أحد حتى الآن ولايمكن استيعابها وفهمها أو شرحها وتفسيرها فى إطار المفاهيم التقليدية عن الآراء والموقف السياسية .

فهل هناك من انتبه ، على سبيل المثال ، إلى أن أحدًا من زعماء القوى المركزية الإسرائيلية فى السياسة ذوى وسائل الإعلام أو فى الرأى العام ، لم يبد رأيه ضد أى عمل عسكرى من جانبنا ؟ فلتفكروا فى كل من لا يعتبر " يساريًا " أو "رقيق المشاعر على سبيل المثال ، بيجين ورابين وشامير وبيريس ونافون وهيرتسوج ونيتانياهو وبراك ورافول «رفائيل إيتان» وشارون . وكل زملائهم ومؤيديهم ، والمتحدثون باسمهم وكتابهم لم يعبرو أبداً أحد منهم عن رأيه بأن عملية حربية قامت بها إسرائيل لم يكن لها ضرورة وأن ضررها أكثر من فائدتها أو أن هناك مبالغة فى حجمها وفى قوتها .

وقد وقعت فى الفترة المقصودة آلاف العمليات العسكرية فى البحر ، فى الجو ، وفى لبنان بشكل شبه يومى ، آلاف العمليات من كل الأنواع ويتم ترديد عبارات ابتداء من عبارة " ردت قواتنا على مصادر إطلاق النار بالمثل " ، أو " عادت جميع طائراتنا إلى قواعدها سالمة " ،

وعمليات كوماندوز لغرض قتل زعماء العدو في تونس . وأبرز نموذج في الذاكرة هي حرب لبنان . وقد أيد الإجماع القومي الواسع الحرب التي بدأت بها إسرائيل في لبنان في يونيو ١٩٨٢ ، التي أعلنت من أجل احتلال قطاع عرضه ٤٠ كيلومترَ من أراضي لبنان ، وكذلك لإبعاد مدى مرمى صواريخ الكاتيوشا عن قرى الجليل ، وإن كان هذا قد بدا منطقيًا لأولئك الذين أيدوا العملية ، فإنهم استمروا في تأييدها أيضًا عندما لم يكن المنطق إلى جانبهم ، ووصلت العملية إلى مسافة ٥٠ كيلومتراً من الحدود ، ثم ٨٠ كيلومتراً ، ثم بعد ذلك إلى بيروت ، لقد عمل هنا " منطق " آخر مستعار " يجب استكمال العمل" .

والحقيقة هي أن الرأى العام في إسرائيل زعماؤه والمتحدثون بإسمه يؤيد تلقائيًا أي استخدام للقوة العسكرية ويكشف عن انعدام تام ومستمر للوعي تجاه احتمال أن عملية عسكرية تبدأها إسرائيل يمكن أن تكون غير ضرورية ولا لزوم لها أو أنها مضرة أكثر من كونها مفيدة ، وتنظر الشخصية السياسية التي تكمن في ذلك الإجماع القومي الواسع جداً إلى هذا الاحتمال على أنه شيء ما : "لا يخطر على البال " ، بكل ما في الكلمة من معنى ، ويعجز رأيها عن التوصل إلى مثل هذا الاحتمال في واقعنا .

وقد يبدو مفهومًا لدى شعوب وأشخاص آخرين تلقائيًا أن زعماء وجنرالات يستطيعون أن يدفعوا إلى القيام بأعمال حربية غير ضرورية ليس لها ما يبررها ، ولكن هذا لدينا " مجال عمي وانعدام رؤية " ، و " مجال العمى" هو اصطلاح معروف ومألوف في علم النفس ؛ فالعالم النفسي يرصد المشكلة الشخصية غالبًا بالذات فيما لايدركه الإنسان أو لايراه ، وموضوعنا هنا هو ظاهرة من ذلك النوع في مجال التفكير السياسي .

ليست هناك حدود لقدرة معظم الناس على " القبول " بأية عملية عسكرية تبدأ بها دولتهم، لا توجد مثل هذه الحدود . وكانت هناك حالة واحدة هي حرب الخليج والتي كان فيها تدخل الدولة العظمى التي تمد جيشنا بقوته تدخلاً مباشراً ، ومبادأة إسرائيل بعملية عسكرية درست ونوقشت في أوساط الرأى العام . ولم يكن هناك في تلك الحالة تأييد ساحق للانضمام إلى الحرب ، ولكن كان هناك تأييد كبير لذلك . ويمكن أن نفترض أنه لو قامت قوات عسكرية إسرائيلية بعملية عسكرية في غرب العراق لكان التأييد لذلك ساحقًا كما هو عليه الحال دائمًا. وقد سارع مناحيم بيجن وهو معبر صادق ومميز للإجماع القومي الأمني ، إلى مباركة وامتداح قرار خوض القتال حتى عندما لم يكن هناك مثل هذا القرار ، وهو القرار الذى لم يكن

ضروريًا إلى درجة أنه لم يخطر على بال أحد ، والمقصود هنا " ليل هابرڤازيم " عندما جرى خطأ تفسير مشروع تدريبى روتينى على حالة التأهب بأنه حالة طوارىء .

ويمكن الافتراض إذا بثقة بنسبة ٩٩٪ أنه لو كان قد تقرر الانضمام إلى حرب الخليج ضد العراق ، أو لو كان قد قرر فى آخر لحظة استغلال تعبئة " ليل هابرڤازيم " للقيام بأية عملية عسكرية ، لكان الإجماع القومى الواسع سيؤيد ذلك . ويمكن أن نتنبأ بثقة بأنه لو قامت إسرائيل غداً بقصف أفغانستان أو دمشق أو كوريا الشمالية ، فإن الإجماع القومى ، بعد فترة قصيرة جداً ، سيبرر ذلك ويؤيده .

ومن الممكن أن تؤدى هذه الحقيقة القاطعة بالرأى العام العريض إلى تأييد أعمال حربية دون قيد ودون وعى وإدراك لاحتمال أنها قد تكون غير ضرورية وضارة ، كان يجب أن يثير لدينا شكًا جديًا بالنسبة لصحة منظومة الافتراضات المألوفة عن دوافع سياسية وعن ما يتسبب فى جعل معظم الناس يؤمنون بما يؤمنون به وأن يتخذوا المواقف التى يتخذونها ، ويقول النهج المألوف أن " آراءنا " عن كل موضوع سياسى هى تشكيلة من " أيديولوجيا " أو " قيم " وتقدير الموقف فى الواقع ، وتفكير ملى عقلانى تقريبًا .

والحقيقة أن هناك أشخاصًا مستعدين لأن يتناقشوا حول عدالة موقفهم السياسى وأن يثبتوا للآخرين أنهم مخطئون ، فليسأل كل واحد نفسه ، أو فلتسألوا الأشخاص القريبين منكم ، ما الذى يوجههم شخصيًا فى اختيار مواقفهم السياسية ، وأية أسباب سيعرضونها عليكم ، ولكن بالنسبة لأعمال الحرب نرى أنه ليس هناك تفكير عميق ، لأن النتيجة هى دائمًا واحدة : تأييد عمليات عسكرية بمبادأة من إسرائيل ، وصدور رد فعل متكرر لدى نفس الأشخاص دائمًا ولايمكن تفسير هذا أيضًا بـ " قيم " ، أى بمواقف مرتبطة بمبادىء ، لأن قليلاً جداً من الأشخاص سيعترفون بأن هذه قيمة لديهم ، لا يجوز لهم أن يفكروا فى احتمال أن تكون عملية عسكرية ما بمبادرة منا لا لزوم لها أو أنها مبالغ فيها . لا توجد أية أيديولوجية أو نظرية معروفة تلزم أشخاصًا كباراً أحراراً ومسئولين ، كما يرون أنفسهم ، فى أن يقفوا دائمًا مع متخذى القرارات عندما يقررون القيام بعمليات حربية .

ويتضح أن الجمهور ، فى غالبيته الكبيرة أعمى لا يرى احتمال أن استخدام القوة ضد العدو يمكن أن يكون غير ضرورى ولا لزوم له أو ضار لمصالحنا . وتستوجب هذه الحقيقة فحص

احتمال أنه ربما تكون أغلبية الجمهور لا ترى أيضًا أو تتجاهل ، ولا يخطر على بالها ، أجزاء أخرى من واقع حياتنا السياسى . والحقيقة فإن الاكتشاف الثالث مذهل أكثر بكثير : هل لفت نظركم أن أحداً من زعماء القوى المركزية فى إسرائيل فى السياسة ، أو فى وسائل الإعلام ، أو فى الرأى العام ، لم يكشف عن رأيه أبداً ضد أية عملية عقاب من جانبنا ؟ فلم يعبر أحد من زعماء الجمهور العريض فى إسرائيل ، ولو حتى مرة واحدة فى العشرين سنة الأخيرة ، عن انتقاد عفوى لأسلحة قمع أو عقاب أيًا كانت جرى استخدامها ضد السكان الفلسطينيين فى المناطق (الفلسطينية) بدعوى أنها كانت أشد مما ينبغى أو لا لزوم لها فى جزء منها ، زد على ذلك ، لم يعرب أحد من هؤلاء عن رأيه فى أن وسيلة أقل شدة قد تكون ناجحة فعالة أو ملائمة أكثر ، والحقيقة أنه لم يوجد أى وزير فى الحكومة علمانيًا كان أو متدينًا أوطائفيًا عبّر عن معارضته لحالة محددة من هدم البيوت و الطرد وحظر التجول والإغلاق وإطلاق النار وعمليات التعذيب وأعمال قوات الأمن وغيرها . وحقيقة أن أحداً منهم لم يقترح وسائل أو سبل كان يمكن بها تقليل الأضرار من جانبنا بالسكان المدنيين .

وتحدث هذه الظاهرة منذ عشرات السنين فى المناطق التى تقع تحت سيطرتنا ، والتى يُمارس فيها عقاب وأعمال قمع لمقاومة السكان الذين يخضعون لسيطرتنا ، وطوال آلاف الأيام التى يقف فيها ومايزالون جنود إسرائيليون مسلحون فى مواجهة أطفال يقومون بأعمال شغب ، تملأهم الكراهية الشديدة ، فى قتال قُتل فيه آلاف الضحايا المدنيين غير المسلحين من الجانب الثانى ، من الشيوخ والنساء والأطفال ، وقد وقعت مئات الحوادث والتى نشرت وحدثت فيها انتهاكات لحقوق الإنسان ، وواكبتها الكثير من الانتقادات الداخلية والدولية . ومع كل هذا ، فالحقيقة هى : يوجد اتساق كامل بين الموقف السياسى للإجماع القومى بكل مكوناته الرئيسية وبين الموافقة أو على الأقل التسليم غير المتحفظ بوسائل قمع الاضطرابات ووسائل سيطرة أخرى تستخدمها إسرائيل فى المناطق (الفلسطينية).

ولربما يخطر على بالكم احتمال أن هذه الظاهرة هى ظاهرة منطقية مفهومة على ضوء المصلحة السياسية لأولئك الذين يريدون ضمان سيطرتنا على المناطق (الفلسطينية) "اليمين"، أولا يريدون كل المناطق ولكنهم يخافون من تقديم تنازلات « الوسط ، واليسار الصهيونى » هذا محال فى الواقع . ولايمكن إخفاء هذا الاتساق بين موقف اليمين الذى يؤيد سياسة مزيد من " الشدة " وموقف الوسط الذى يُسلم بدون تحفظ بأى استخدام لوسائل القمع

فى المناطق ، وهو الأمر الذى لايمكن تفسيره بأية مصلحة سياسية ، ففى الثقافة السياسية العصرية هناك إجماع عكسى ، يقول أن مصلحة الحكم فى وقوفه فى مقابل معارضة جماهيرية تستوجب عمل كل شيء لكى يزيد التأييد له وبين السكان وينخفض الباعث للمعارضة " العصا والجزرة ، الترهيب والترغيب " وليس العصا ، والعصا ثم العصى. وكان يجب أن تؤدى سياسة " اليد الذكية " بأشخاص إلى معارضة سياسة اللين أكثر مما ينبغى وأيضًا عندما يستوجب الأمر ذلك معارضة سياسة أكثر شدة من اللازم . وقد ترددت انتقادات كثيرة جداً ، موجهة إلى سياسة اللين أكثر من اللازم من جانب المتحدثين باسم الإجماع القومى الواسع ، ولكن لم توجه أبداً انتقادات إلى سياسة الشدة أكثر من اللازم .

وليست هناك أية وسيلة لتفسير هذا بأى دافع سياسى عقلانى . وإذا افترضنا أنه توجد فى السياسة دوافع غير عقلانية ، فإنه فى عدم وجود مصلحة سياسية متعارضة ، كان يجب على العقلانيين من بيننا ، أى أولئك الذين يعترفون مبدئيًا بأن وسائل القمع من شأنها أن تكون قاسية أكثر من اللازم ، أن يتوزعوا بصورة مناسبة تقريبًا بين مؤيدى ضم جميع المناطق ، وجزء من المناطق وبين مؤيدى الانسحاب من المناطق ولاتوجد علاقة منطقية " أيديولوجية" أو نفعية بين الموقف السياسى وبين الموقف الاستراتيجى والأخلاقى بالنسبة لوسائل السيطرة على السكان .

حاولوا أن تدخلوا للحظة فى عقل وتفكير حانان بن بورات أو بانى كتسوڤر ، أو أى مستوطن متدين مؤمن إيمانًا كاملاً بحقنا فى كل أرض إسرائيل . لايجوز لكم طبقًا للتوراة أن تتنازلوا عن أى شبر ، افترضوا أن هذا هو موقفكم الأيديولوجى القاطع ، فهل يجب أن تؤدى حقيقة أن هذا هو موقفكم السياسى إلى جعلكم تؤيدون بالذات وسائل سيطرة قاسية وعنيفة وبلا قيود بشكل أكبر ؟ لاتوجد مثل هذه العلاقة الأيديولوجية ، بل العكس ، سيوضح لكم هؤلاء الأشخاص أن أيديولوجيتهم (اليهودية) تأمر بتصرف إنسانى تجاه غير اليهودى وأن أيديولوجيتهم الديمقراطية المستنيرة تستوجب الحفاظ على حقوق كل إنسان . ولديهم مصلحة فى أن يهدأ الفلسطينيون فى المناطق ويسلموا بحكم إسرائيل فى هذه المناطق .

وتقول النظرية المألوفة عن وجود باعث سياسى أن أولئك الأشخاص الذين لم يوجهوا انتقاداً إلى شدة وسائل القمع والسيطرة على المدنيين قد أجروا تقدير موقف منطقى ، من ناحيتهم ، وتوصلوا إلى استنتاج مفاده أنه فى كل الحالات على امتداد كل السنوات لم

تستخدم وسائل سيطرة أقسى من اللازم بل كنا على مايرام أو أننا أكثر لينًا من اللازم . ويتناقض هذا الافتراض مع الواقع بشكل شديد إلى حد أننى لا أرى أية إمكانية معقولة لتأييده . ويكمن التناقض فى التطابق القائم ، على الرغم من الأيديولوجية والمنطق السياسى بين المواقف " الصقرية " و " الحمائمية " بالنسبة لضم المناطق وبين الموقف تجاه وسائل القمع التى نستخدمها هناك ، ويجب أن يكون السبب مختلفًا ، لا يعبر عن مصلحة أو عن اعتبار سياسى.

ويجب أن تبدو الظاهرة التالية فى نظركم مذهلة أكثر بكثير ، لم يعبر أحد من زعماء الأغلبية فى إسرائيل بشكل عفوى ، ولا حتى مرة واحدة فى العشرين سنة الأخيرة ، عن قلق فيما يتعلق بصورة إسرائيل والإسرائيليين الأخلاقية بسبب تدخلها القريب جداً ولفترة طويلة جداً إلى هذا الحد مع السكان الفلسطينيين .

وتقام هذه العلاقات على امتداد جيل ونيف بقوة الذراع على عكس رغبة السكان (الفلسطينيين) مثل العلاقات بين السيد والعبد ، الآسر والأسير ، ومن طبيعة هذه العلاقات أن السكان الفلسطينيين محرومون من حقوق شخصية وحقوق قومية ، وبالمقارنة بنا يعيشون فى حالة فقر وإهمال فظيعة . نحن جوليات فى مقابلهم وبالقياس إليهم .

وكان من الطبيعى أن يهتم زعماء الشعب بألا نفقد هيبتنا وتفوقنا الأخلاقى فى الصراع ضدهم ، ولكن فى الواقع ، فإن العبارة الشهيرة لجولدا مئير : " ربما نستطيع أن أن نغفر لكم ذات مرة عن قتلكم لأبنائنا ، ولكننا لا نستطيع أن نغفر لكم أنكم جعلتمونا نقتل أبناءكم " قيلت منذ أكثر من عشرين سنة ، وقد عبرت عن الخطر الأخلاقى الذى رأته يتمثل فى الحاجة إلى قتل أبنائهم . إلا أنه لم تتردد بعد ذلك تعبيرات من هذا القبيل منذ ذلك (عبر شمعون بيرس مرات كثيرة عن فكرة أنه ليس من الخير السيطرة على شعب آخر ، كعبارة تأتى بالمناسبة ، بشكل عام فى الخطب الموجهة إلى جماهير أجنبية مثل نشطاء الجباية اليهودية فى أوربا ، ولم يأت هذا ولا مرة كمبرر تأييد لسياسته عندما تولى منصب رئيس الحكومة مرتين).

ومع كل ما مر فى المناطق التى احتلت فى سنة ١٩٦٧م فإن الإجماع القومى لم يقلق بسبب خطر الإفساد الأخلاقى الذى جلبه هذا الوضع أو قد يجلبه علينا . وتبرز بشكل خاص حقيقة

أن هناك اتساقًا تامًا فى الواقع بين الموقف الصقرى - المتشدد وبين العمى غير العقلانى الجلى تجاه الجهد المطلوب لكى نعيش بالقوة دائمًا على سكان مُحتلين بدون أن نفسد من الناحية الإنسانية والأخلاقية . وفى هذه الحالة أيضًا من المعقول أن أولئك الزعماء والملايين الذين لايتصورون مطلقًا أن خطراً أخلاقيًا يلحق بهم فى فرض سيطرة على شعب أخر ، يفعلون هذا من خلال مصلحة سياسية مدركة ، أو من خلال معتقد أو أيديولوجية . ولايمكن للنظرية السياسية المألوفة ، التى تعتبر المصالح ، مثل المصلحة فى ضم المناطق (الفلسطينية) عناصر فى أساس المواقف التى يتخذها الإنسان أن تفسر هذه الظاهرة.

ولنفترض مجدداً أننى أنا أو أنتم من مؤيدى " أرض إسرائيل الكاملة " - وأية مصلحة أو سبب عقلانى كان سيؤدى بنا إلى لامبالاة واستهانة بالخطر ، أو حتى إلى ثقة بأنه لا يوجد خطر أخلاقى فى هذا الموقف ، الذى يستوجب قمع شعب آخر من خلال موقف سيطرة وتفوق مطلق ؟ هل يعارض أحد من زعماء إسرائيل أو من مواطنيها الطبيعيين فكرة أن الحفاظ على المكانة الإنسانية والأخلاقية هى أيضًا " مصلحة " لنا ؟ وعلى الرغم من ذلك ، كما قلنا ، فإن أحداً من ممثلى الإجماع لم يتقدم بأية مبادرة لكى يحمى قيمنا الأخلاقية من الإفساد ، أو لكى يكون معسكرنا نقيًا طاهراً ، أو لكى نمنع عن جنودنا خطراً أخلاقيًا أيًا كان ، فإن الكود الأخلاقى للجيش الإسرائيلى ، الذى بادر به يتسحاق رابين كوزير للدفاع ، لايغير صحة هذا التعميم وطبقًا لتحليل مضمونه يبدو لى أنه لم يستدع تغيير الوضع ، وإذا كان هناك من يعتقد غير ذلك ، فإنه يمكننا أن نعتبره استثناء يؤكد القاعدة .

وهناك مظهر آخر للعمى غير قابل للتفسير ، طبقًا للمفهوم المألوف للفكر السياسى ، وهو أنه باستثناء مظاهر قليلة ، ضعيفة جداً ، لم ينبس أحداً من زعماء الأمة فى السنوات العشرين الأخيرة ولو حتى بعبارة واحدة عفوية للتضامن مع معاناة السكان فى المناطق ، والمشاطرة فى الألم والأسى والتفهم الإنسانى البسيط ، إزاء كل المعاناة والضحايا ، الذين من بينهم آلاف الأبرياء ، الذين كانوا ضحايا الصراع بيننا .

ولقد قال رئيس الحكومة يتسحاق رابين ذلك مرة واحدة فقط ، طبقًا لكل المادة المتوفرة لدى. وكان هذا فى بيان سياسى ألقاه فى الكنيست ، بعد أن اهتم بأن ذكر بأننا " نحن الإسرائيليون قد عانينا أكثر ، أكثر بكثير من الهجمات الإرهابية " ... " ولكننا ندرك أيضًا معاناة الفلسطينيين ، وكل ألم إنسانى ، كل أسى يمس شغاف قلوبنا " .

ولم تكن هذه عبارة عفوية ولم تقل فى أعقاب شىء ما فعلناه ونفعله فى المناطق ، بل فى أعقاب ما فعله بهم من وصفه رابين بأنه " الشخص الميت الذى جلب العار علينا جميعًا " «باروخ جولد شتاين (صحيفة هاآرتس ، عيد البوريم ١٩٩٤م) » .

وحتى هذه الظاهرة غير قابلة للتفسير عن طريق المبرر الذى يقف وراء هذه اللامبالاة تجاه المعاناة الإنسانية ، وحتى فى الحالات التى حدثت فيها عن طريق الخطأ وخلافًا لمبادئنا السياسية . هناك إيديولوجية أو مصلحة مدركة ، فإن أولئك للأشخاص الذين لم يُظهروا حساسية تجاه معاناة " أعدائنا " ، ادعوا دائمًا ، فى الحالات التى كان يتعين عليهم فيها أن يدافعوا عن أنفسهم إزاء الاتهامات من جانب " رقيقى المشاعر " و " العالم " ، بأنهم كانوا يرغبون فى أن تحافظ إسرائيل وقواتها الأمنية على أعلى مستوى أخلاقى وإنسانى فى العالم . وكانت اللامبالاة تجاه المعاناة الإنسانية التى لا لزوم لها بصراحة ، خلافًا للمصالح المدركة ولإيديولوجيتهم المعلنة ، ولكنهم لم يبادروا أبداً بشىء ولم يفعلوا شيئًا لكى يعبروا عن حساسيتهم ، ولكى يرفعوا مستوى الحساسية تجاه المعاناة الإنسانية للسكان الذين تحت سيطرتنا ، وهذه حقيقة .

ومظهر آخر لتلك الظاهرة وهو أن أحداً من زعماء الأغلبية الحاكمة فى الدولة ولا من زعماء المعارضة الرئيسية فى فترة حكم اليمين وحتى اتفاق أوسلو (الذى لم يأت أيضًا بمبادرة من الزعامة) ، لم يتقدم بأية مبادرة لمصالحة أو بادرة حسن نية تجاه الشعب الآخر (وقد طرحت حكومة بيجن مشروع الحكم الذاتى ليس بمبادرة منها بل كرد فعل لضغط الولايات المتحدة للاشتراك فى مؤتمر دولى والموافقة على " سلام مقابل أراضٍ ") .

ولايمكن بأى شكل تفسير هذا بمصالح سياسية ، لأنه لم تكن لإسرائيل فى تلك السنوات أية مطالب من العدو ، وكل ما أرادته هو أن يُسلم الأعداء بالوضع القائم . وكانت مصلحتها أن تخفف عنهم قدر الإمكان للتسليم بالوضع القائم فى المناطق ، وعلى الرغم من ذلك لم تبادر باتخاذ أية خطوات يمكن اعتبارها محاولات لبناء ثقة ، مصالحة أو حسن نية .

مظاهر أخرى فى السنوات العشرين الأخيرة : حقيقة هى أنه فى النقاش الداخلى بيننا حول النزاع العربى اليهودى ، لم يقم أحد من زعماء الإجماع القومى الواسع والمتحدثين باسمه بالتعبير علنًا وعفويًا ، ولو حتى مرة واحدة عن فكرة أن " أعدائنا " هم بشر مثلنا ، لهم نفس

الحقوق الإنسانية ونفس الطموحات الأساسية (وحتى الفكرة التى يجب أن تمنع أيضًا ألمهم وثكلهم مثل ألمنا وثكلنا لم يقل بها أو يُعلنها زعماء الدولة ، إلا فى أطر دولية للمفاوضات السياسية) .

* حقيقة هى ، أن من يعبرون عن الإجماع القومى لم يعبروا ولا مرة عن حقيقة أن شيئًا ما قد تغير لدى أعدائنا نحو الأفضل ، وأن الوضع الجيوبوليتى العام وميزان القوى قد تغيرا للصالح ، وحتى عندما انقلب العالم كله : انهيار الاتحاد السوفيتى ، القوة العظمى الهائلة من الناحية العسكرية والذى أيد بدأب العرب والذى أظلم ظله الذرى أفقنا - لم يغير أراءهم ومخاوفهم من العرب ومن " الخطر على وجودنا ذاته ") .

* حقيقة هى ، أن المعبرين عن الإجماع القومى لم يعبروا أبداً عن احتمال أن هناك أو ربما هناك عدالة معينة فى موقف " أعدائنا " .

* لم يتحدث المعبرون عن الإجماع القومى فى الجيل الأخير أبداً عن احتمال أن من بين "رقيقى المشاعر " الذين يوجهون انتقادات إلى سياسة إسرائيل يوجد أشخاص مستقيمون وعقلاء ذوو نوايا حسنة وقلق أخلاقى حقيقى على وجودنا ، ولا تسيطر عليهم فقط خطأ ، وسذاجة وانحرافات نفسية خيانة أو نوايا خبيثة .

* لم يقل المعبرون عن الإجماع القومى ولو حتى عبارة عفوية واحدة عن احتمال أنه يمكننا أن نجنى فائدة عن طريق تأييد ومساعدة جهات مختلفة فى جهودها للتوصل إلى حل سلمى للنزاع ، خاصة بالنسبة للمجموعة الطويلة من وزراء الخارجية الأمريكيين الذين يقومون بجولات مكوكية فى منطقتنا منذ أن قام هنرى كيسنجر بجولات وساعد فى سحب القوات بعد حرب يوم الغفران ومبادرات جهات دولية كانت تبدو دائمًا للأغلبية القومية بأنها خطر ينبغى حماية أنفسنا منه ونخضع له فقط فى حالة عدم وجود خيار . قبل أوسلو وأيضًا بعد أوسلو ، هذه حقيقة ، وحقيقة ثم حقيقة ! .

وربما يوجد من يحاول تفسير هذه الحقائق ، ووجود مجالات عدم الإدراك تلك ، بأنها مصلحة سياسية مدركة ، وبما أنه طبقًا للاعتبار العقلانى ، يستوجب كل حل لتسوية بالطريقة السلمية تنازل عن مناطق فإنه يمكن الادعاء أن الشىء العقلانى الذى ينبغى عمله لكى نمنع تقديم تنازلات هو أن نتجاهل كل ما يشير فى الواقع إلى الاحتمالات التى من شأنها أن تقود

إلى تنازل وانسحاب ، أو حتى كل ما من شأنه أن يؤدى بنا إلى الاعتراف بأن " العرب " هم بشر أفراد ، أصحاب حقوق وصفات إنسانية وقومية مثلنا تمامًا .

غير أن من يدعى بأن هذا التجاهل الهائل ليس عمى بل نتيجة اعتبار سياسى سيجعل مصطلحى " عقلانية " و " مصالح " مصطلحين نسبيين بصورة غير ممكنة . وسيظهر من يعتقد ذلك إلى أن يعترف بأنه يمكن أن يكون " عقلانيًا " وملائم لمصالحنا " أن نكون عُميًا تجاه الواقع السياسى ، وفى الواقع تجاه كل ما يشذ عن نموذج نحن أخيار ومحقون دائمًا – " وهم أشرار ومذنبون دائمًا " ومن يعتقد ذلك فكأنما اعتقد أنه يمكن أن يكون عقلانيًا أن يفكر وأن يعمل بصورة غير عقلانية ، ومن خلال تجاهل أبرز الأمور فى واقع النزاع ، وهى : إنسانيتنا وإنسانيتهم والتى تشمل الميل إلى الخطأ وإلى الشر ، الزمن الذى يمر والظروف التى تتغير ، التأثيرات والواجبات الأخلاقية – تجاهل كل شيء باستثناء ما يتلائم مع وجهة النظر المتعصبة لمحاربة العدو باعتبار هذا واقع حياة ممكن وجيد بلا حدود ، بالقوة فقط وبدون كل هذا التجاهل الهائل ، لايمكن تفسير هذا بالمصطلحات المألوفة عن آراء ، وقيم ، أو مصالح بالنسبة للمناطق ولمشاكل إسرائيل والشرق الأوسط – ولكن يمكن تفسيره تفسيراً كاملاً ورائعًا بمصطلحات نظرية اللاإنسانية ، التى يعرضها ويحدد معالمها هذا الكتاب ، وحقيقة أنه توجد لدى الكثيرين جداً من الأشخاص مجالات عمى ضخمة كتلك، تعطينا المفتاح لحل الشفرة السياسية للتفكير والسلوك الإنسانى فى حالات الحرب والنزاع.

الحقائق قائمة . ويجب علينا ، حاليًا ، بعد أن نكتشفها أن نبدى الرأى أولاً وقبل كل شيء فى المغزى والمدلول بالنسبة لنا ، وبالنسبة لمفهومنا ، الذى يسمى باللغة السياسية "وجهة نظر " . وتثبيت مجالات العمى التى تصاحب وجهة النظر القومية.

إن افتراضاتنا العادية والمتأصلة عن العلاقة العقلانية تقريبًا بين الشخصية السياسية ومصالحها ، ووجهة نظرها ، ليست صحيحة فى وضع نزاع بين مجموعات متحاربة كما هو الحال بين اليهود والعرب ، الصرب والبوسنيين ، القبارصة اليونانيين والأتراك ، التوتسى والهوتو ، وغيرهم . وهذا لايعنى أننا جميعًا مصابون بنفس مجالات العمى ، ولكن هذا يعنى أولاً أن كل من يعتبر نفسه إنسانًا أخلاقيًا وعقلانيًا يجب أن يدرك المشكلة وأن يفحص نفسه أولاً وقبل كل شيء . ثانيًا : الأشخاص الذين ليسوا عميانًا تجاه الشر المحتمل من جانبهم وتجاه حقيقة أن العدو هو إنسان مثلهم ، يمكن أن يصابوا هم أيضًا بمجالات العمى ، على

سبيل المثال ، ألا يروا شر العدو والخطر النابع منه - ولكنني لست أرى أية وسيلة مقبولة للامتناع وتجنب القول أن اكتشاف مجالات العمى يستوجب تغييراً تامًا فى المفهوم ، وثورة فى المفهوم بالنسبة لـ " أنا " السياسى لدينا ولدى كل البشر .

كما أن الافتراض السائد فى ثقافتنا - والذى فى إطاره يُعتقد أنه عقلانى تقريبًا - وهو أن الفروق المهمة بيننا هى فروق فى وجهة نظر وفكرة مرتبطتين مباشرة بالواقع - هذا الافتراض فى حد ذاته غير واقعى ويجعل الحوار السياسى فى معظمه غير عقلانى وعقيمًا . فهذه " وجهة نظر " ينعدم فيها المراقب - نحن أنفسنا - ولا تتضمن إدراكًا للتشويهات والتحريفات التى نخلقها فى " النظارة " التى ننظر بها إلى صورة واقعنا .

وفى الواقع ، فإن الفرق الجوهرى والحاسم الذى يمزقنا منذ سنوات كثيرة ، لايمكن فيما يفهمه الأشخاص ويؤمنون به بل فيما لا يرونه ولا يشعرون به مطلقًا . هذا هو الفرق بين من يرون من بيننا وبين من لا يرون ، لأن لهم " مصلحة " نفسية هائلة فى ألا يرون أهم أجزاء فى الواقع الإنسانى الذى يحدد المصير والواقع السياسى .

ويُعطى اكتشاف مجالات العمى أساسًا لنهج جديد ومختلف للمواجهة مع اللاإنسانية (التى تترجم هنا باللغة العبرية " تعصب ") التى تجعل العلاقات السياسية غير عقلانية وغير أخلاقية فى آن معًا وكأن الواقع لم يكن مُشكلاً من بشر بل من أخيار وأشرار . والاستنتاج الشخصى الأول ، الذى اقترحه فى هذه المرحلة على القراء غير المصابين بمجالات العمى تلك التى عددتها فى ممثلى الإجماع القومى ، هو أن يروا مدلول هذا العنصر فى نظرتهم إليه . ويتيح هذا الاكتشاف إعطاء جوابًا أكثر تحديداً ودقة على " طبيعة الإنسان" السياسية ، وعلى طبيعة الجماهير التى تبرر الحرب وتمنع نظرة إنسانية لأولئك الذين يعتبرونهم عدواً ، إنهم بشر بالضبط مثلى وذوى " طبيعة " ثقافية وأخلاقية مثلنا ؛ بأنهم يؤمنون بقيمهم مثلما نؤمن نحن بقيمنا . وقد نخطىء فى أفكارنا ومواقفنا السياسية مثلهم .

ولكن هناك فرق ، وهو نفس الفرق الذى فرّق دائمًا بين موضوعات القيم الإنسانية للعدل وحقوق الإنسان والحرية فى التاريخ (" الأنبياء ") فى مقابل موضوع قيم الحكم والجماعة والقبيلة والشعب أو الأمة (" الكهنة ") . وتخلق مجالات العمى فرقًا هو مثل سبب مرضى لسنا جميعًا مصابين به أو يجب أن نصاب به ، المرض الاجتماعى المعدى والفتاك جداً فى

العالم . لأن العمى تجاه ما هو إنسانى خيراً أو شراً إيجابًا أو سلبًا لدينا ولديهم هو البنية الإنسانية السيكولوجية والأرضية التى تنمو منها الآراء ووجهات النظر السياسية القطيعية الفوضوية المدمرة . ومن يعتقد أن نفسه غير مصابة بنفس مجالات العمى السياسى الوجودى، يجب على ضوء ما يتكشف هنا ، أن يسلم بفكرة أن اللاإنسانية هى التى ليست على ما يرام لدى كثيرين آخرين .

الفصل الثانى

حملة لاكتشاف الـ " فيروس "

الذى يسبب عمى إنسانيا فى السياسة

وسبل الوصول (إلى الهدف)

أ - توجه عام :

١ - المفاهيم المألوفة عن الحرب وطبيعة الإنسان :

تغطى مجالات العمى لمعظم الأشخاص على أبرز الظواهر فى واقع حرب واحتجاج ، وتضيف حقيقة وجودها أساسًا مركزيًا جديداً للمفاهيم المألوفة حول الواقع السياسى ، وبحكم الخبرة التى تكونت لدىَّ فى مرض مجالات العمى على أشخاص مختلفين ، أعرف أن بعض أصحاب المفاهيم المألوفة يردون ، كما هو متوقع مثل ذلك الفلاح الأسطورى الذى رأى زرافة فى حديقة الحيوانات ، ولم تلائم الزرافة مفاهيمه المألوفة عن عالم الحيوانات ولذلك أمعن النظر فيها وأصدر حكمًا " لا يوجد حيوان مثل هذا " . ولكن الأشخاص الأكثر حكمة يقررون أنه " لا يوجد حيوان مثل هذا " . ولكن لم يكونوا يقررون أيضًا أن وجوده يستوجب منهم أن يغيروا شيئًا ما فى مفاهيمهم ويستمرون وينسون هذا ، إلا أن حقيقة وجود مجالات العمى يجب أن تغير الكثير جداً لدى كل من يعتقد بجدية فى أسباب أن الوضع كما هو فى سياسة النزاعات بين مجتمعات والدول. .

ولايدرك الرجل والمرأة المتوسطان فى شعبنا كما هو الحال لدى كل شعب آخر احتمالات استخدام قوة مفرطة أو ليس لها ما يبررها من جانبنا ، أو واجبنا الأخلاقى لتجنب خطأ وجرائم

" على خلفية قومية متعصبة " أو الواجب النابع من القيم التى يصرحون عنها بأنفسهم ، لمنع الحرب والبحث عن سبل للتصالح وللسلام . وهذه الظاهرة العامة للعمى تجاه الجانب الإنسانى لدينا ولديهم هى " لا إنسانية " .

إن التعليم والثقافة والزعامة ، كلها شركاء فى اللاإنسانية التى تصاحب بشكل عام النزعة الوطنية وتقويها ، كم منا يستطيعون أن يتذكروا أنهم تلقوا فى المدرسة أية رسالة تثقيفية تحذيرية أو تربّوا على أن يتجنبوا فى أيامنا أعمال فظائع ووحشية فى الحرب ؟وإلى أى مدى كان مربونا قلقين ومهتمين بهذا الموضوع عندما تشربنا فى طفولتنا القيم القومية من خلال تدريس تاريخ شعبنا عن طريق قصص العهد القديم عن احتلال البلاد وما صاحب هذا ، مثل الأمر بإبادة كل إنسان ، بما فى ذلك كل امرأة وطفل ، واقتلاع كل شجرة وسد وكل بئر ، وإلى أي مدى يرى جهاز التعليم أنه من واجبه الأخلاقي والقيمى تحصين الأشخاص ضد الخطيئة الأخلاقية الجاثمة على صدر كل شعب ، عندما يقوم (هذا الجهاز) بالتثقيف على حب الوطن والتجند فى الجيش ؟ .

ولقد حضرت مرات كثيرة عندما كان رجال المؤسسة الحاكمة فى جهاز التعليم يدافعون عن أنفسهم إزاء الاتهامات بأنهم يربون ويثقفون فقط على حب القيم القومية وليس على الوعى وإدراك الأخطار الكامنة فى هذا الحب . وكان أبرز شيء فى ردهم الذهول والغضب من حقيقة أن شخصًا يتصور بل ويخطر على باله مطلقًا مثل هذا الأمر . وهذا الرد المميز للإنسان عندما نذكره بمجالات العمى لديه ، فالمجتمع الذى يربى ويثقف شبابه على ما يسمى "قومية" حب الوطن والولاء للدولة ، لا يوازن بمدى كاف هذا التعليم بتعليم الأخطار المصاحبة .

ويحرص التعليم والثقافة أو ما يسمى التأهيل الاجتماعى على جعل الشخص اجتماعيًا أو تأهيله لبيئة اجتماعية . وتنجح فى تعليم وتثقيف الشعوب بحيث أنها تنفذ بحماس وباقتناع داخلى عميق ، ببركة وكلاء إلههم ، الكهنة الحاخامات أو القسس - أعمال قتل ، وحشية ومذبحة منظمة ضد أبناء شعوب أخرى . وتثبت حقيقة وجود مجالات عمى كتلك أن لها دوراً فى كل هذا الموضوع ، وأنه لولا أن هؤلاء الأشخاص كانوا عميانًا تجاه الحقائق الإنسانية فى الحروب وفى النزاعات لما كانوا يستطيعون التفكير والتصرف على هذا النحو وكأن هذا شيئًا ما « طبيعيًا » ومفهومًا ومبرراً دائمًا .

٢ - الخوف من الخروج على المسلمات (البديهيات) :

إن مجالات العمى فى إطار النهج الإكلينيكى ، هى أعراض للمرض الذى نرغب فى فهم سببه . ولكى نتقدم نحو حل لغز الجهاز الداخلى لـ " التفكير " السياسى يجب أن نفحص أعراضًا أخرى ، ولكن ، فوق كل شىء يستوجب النهج العلمى ألا نكتفى بكل تلك الإيضاحات التعميمية المألوفة ، والتى توضح أنه ليس هناك ما يمكن بحثه ، وأن كل شىء عادى وطبيعى ، وتلك هى " طبيعة الإنسان " .

ولايجوز للباحث ، وفى الحقيقة لكل إنسان يحترم تفكيره المستقل ، أن يخطىء فى التفكير الدائرى المحبب لدى البشر طبقًا للنمط القائل " هى كذلك لأنها هكذا هى " ، ويوجد في اللغة الإنجليزية لمثل هذا الإيضاح مصطلح ملائم غير موجود فى اللغة العبرية وهو to ex-plain it away أن توضح بمفهوم أن تدفن ، أن تغطى ، وأن تنسى ... ذلك أن " طبيعة الإنسان " كمبرر يوضح ويشرح الحالة الإنسانية الكئيبة ، هى دائمًا عَرَضٌ لعدم المعرفة الكسل والخمول الفكرى والخوف من الخروج على مجالات المسلمات الاجتماعية . وهناك فى أوساط المؤسسة العلمية الأكاديمية (وهذا تعميم مبنى على أسس) بالإضافة إلى تلك الصفات توجد أيضًا ضرورة الأنا الكبير الذى يقول شيئًا ما مثل : " لو أن النهج الجديد كان صحيحًا لكنت عرفته أو كنت اكتشفته بنفسى ، وإذا كنت لا أعرف ذلك ولم يخطر على بالى ، فهذا علامة على أن هذا غير صحيح أو ليست له أهمية " .

٣ - معرفة عامة :

يوصف السلوك السياسى الهدام كثيراً بمصطلحات عامة ، وليس من الصعب أن نلاحظ أن أشخاصًا فى حالات حرب ونزاع يفكرون ويتحدثون ويتصرفون ، كما لو أن وضع الأمور هو : "نحن طيبون ومحقون دائمًا - وهم أشرار ومذنبون دائمًا " .

(كلما كان شخص ما أكثر تطرفًا فإن التقسيم بين الطرفين يبدو له أوضح ، أسود وأبيض). ولقد خشيت أنا نفسى دائما من أن هذه النتيجة بسيطة وواضحة أكثر من اللازم وأن التفسير والشرح الحقيقى يجب أن يكون أكثر تعقيداً ، حتى وجدت الفكرة التى كتبها كارل روجرس[١] عالم النفس والإنسانيات العظيم ، الذى كانت لدى ثقة عميقة فيه (حظيت بمعرفته بعد سنوات ، وقد أثر هو وفكره وروحه جداً على هذا العمل) ، وقد قال مضمون هذا

الكلام فى خطاب ألقاه عندما حصل على جائزة الامتياز من اتحاد علماء النفس الأمريكى ، بحيث أن من تهمه " لافتة / شركة " المنتج أو الفكرة ، يستطيع أن يكون واثقًا من أن هذه الفكرة حصلت على مصادقة شركة محترمة جداً .

وقد كتب أحد واضعى أساس الإنثروبولوجيا الحديثة ، الأمريكى جورج سومنر ، فى بداية القرن الحالى (حتى يصدر هذا الكتاب سيصبح هذا القرن الماضى) - كتب فى كتابه "عادات شعبية " أن كل قبيلة تنمى الكبرياء والشعور بتفوقها ، وترفع إلى رأس سلم قيمها آلهتها ، وتنظر باحتقار إلى الأغراب[٢] . وقد غرس سومنر المصطلحات المعمول بها فى مجال علم نفس الصراع السياسى OUT GROUP, IN GROUP ، مجموعات هوية "نحن" و " هم " . وإذا عرضتم هذا الاقتباس على شخص ما يعتبر فى نظركم قوميًا ومتعصبًا ومتطرفًا ، فمن شبه المؤكد أن ذلك الشخص لن يخطر على باله أن يعترض على صحة الوصف الأنثروبولوجى ، ولكن كما سبق أن رأينا ، فإنه هو أو هى ، مثل زعماء " قبيلتنا " كلها أو كل شعب آخر (القبيلة العصرية هى الأمة التى تتغذى روحيًا على ثقافتها القومية) سيتصرفان وكأنهما لايدركان مطلقًا احتمال أن تنطبق وتسرى علينا أيضًا هذه الحقيقة الأنثروبولوجية القديمة والمعمول بها ، وأننا سنصبح مثل كل سائر القبائل الإنسانية التى تنمى الكبرياء والشعور الأحمق بالتفوق وننظر بسخرية إلى الأجانب .

وليست هناك علاقة فى الوعى المألوف من الأنثروبولوجيا وعلم النفس من ناحية وبين السياسة من ناحية أخرى . وهذا الانفصال هو أيضًا مجال عمى ثقافى .

وكوصف عام للظاهرة ، أود أن أورد هنا مقطعًا قصيراً ولكن رنان وله صداه من كلام الباحث الإيكولوجى ريريك أريكسون الذى أثرت نظريته جداً فى جعل أساس الهوية التى تكمن فى الشخصية يحظى بالاهتمام الذى يليق به .

" يتطور الولد من خلال أنه يطوى فى تفكيره وفى قلبه الاعتقاد الشديد بأن الله قد خلق جنسه فقط ، وأنه جاء إلى العالم كحدث كونى معروف وخصصه التاريخ للحفاظ على التفسير الوحيد الحقيقى للإنسانية ... هكذت تنشأ " أجناس " مختلفة كما يقال (pseudo species) تربط مثيلاتها بأنماط هوية شخصية واجتماعية ، ولكن وا أسفاه تقوم تلك الأنماط عن طريق خوف عميق وكراهية قاتلة للأجناس الأخرى كما يقال ... فالإنسان الذى اكتسب

لنفسه هذا الدمج المخيف والسلاح الفتاك والنفاق الأخلاقى والخوف من فقدان هويته - ليس فقط أنه يفقد كل إحساس بالانتماء إلى الجنس الإنسانى ، بل أنه يتجه للنظر إلى مجموعات إنسانية بعنف قاس غير معروف بشكل عام فى عالم الحيوانات الاجتماعية "[٣].

إن هذا الوصف العام للجنس الإنسانى يقول فى الحقيقة ما نعرفه نحن من أن التعليم يخلق الهوية التى تتحول أحيانًا إلى هوية مدمرة وغير إنسانية ، كما أن الاستنتاج الذى يعرضه عام أيضًا : ينبغى أن نتوخى الحذر فى تعليم النشء وألا نغرس فيهم خوفًا عميقًا وكراهية قاتلة للشعوب ولبنى البشر الآخرين ، لكى لا يفقد هؤلاء فى نظرهم كونهم بشراً وأنهم مخلوقات من جنس آخر ، وقد أكد أريكسون أنه تجثم على أبواب النزعة القبلية والقومية خطيئة العنف الوحشى تجاه مجموعات بشرية أخرى ، وهو العنف الذى يلغى صفة الإنسانية . وقد كتب أريكسون هذا الكلام كتحد تعليمى وتثقيفى للإنسانية . ومن يستجب لهذا التحدى عليه أن يعترف ، إنه إذا كان يربى أولاده على "صب جام غضبك على الجوييم " وتذكر ما فعله لك العماليق " فى كل احتفال عائلى فى ليلة عيد الفصح ، تصبح لديه مشكلة. وتصبح لدينا مشكلة .

٤ - قصارى القول قبل أن نثبر أغوار الداخل :

فى مقابل النهج الذى يقدم شرحًا عامًا للظواهر فإن نهجنا الأكينيكى يستوجب اهتمامًا محدداً بالعقل السياسى ، وبالروح السياسية للإنسان كفرد .

والسؤال البحثى الذى يتعين علينا أن نطرحه لكى نقترب من حل شفرة الجهاز الداخلى للتفكير السياسى ليس " كيف حدث هذا فى المجتمع " أو كيف يُنقل هذا للنشء " .. فهذا شىء معروف . يجب أن نطرح الأسئلة الصحيحة . وأن نطرح الأسئلة الصحيحة هو مثل أن نتوازن مع الشمال قبل أن نخرج فى رحلة إبحار فى منطقة جديدة ، مثل أن نتوجه إلى الاتجاه الصحيح فى الطريق إلى الهدف . وفى حالتنا هذه ، فإن الوضع مثل أن نعود إلى نقطة الصفر لكى نبدأ فى التقدم نحو الهدف ، بينما الجميع من حولنا إما يجثمون فى المكان عاجزين ويائسين أو يتسكعون بكبرياء وغطرسة على طول الطريق الممهدة التى لا تقود إلى أى مكان.

والأسئلة التى تهمهم هى ، كيف يحدث هذا للأشخاص الذين لم يعدوا أطفالاً بل هم أحرار فى أن يفكروا بأنفسهم ؟ كيف يحدث لنا هذا ، لأولئك الأشخاص الطبيعيين الأسوياء من

بيننا ، والذين لديهم بشكل عام حاسة نقدية ، وفطنة وقيم إنسانية مثل الحقيقة ، والعدل والاستقامة ، ولديهم ضمير ونوايا حسنة للعيش فى سلام مثل كل واحد منا ؟ وكيف ينجحون بالضبط فى التمشى مع قيمهم عندما يتجهون ، حسب كلام أريكسون إلى التعامل مع مجموعات بشر أخرين بعنف وحشي ؟ .

يتعين علينا لكى نرد على هذه الأسئلة ، أن ننزل أولاً وقبل كل شيء من المستوى العام لوصف شكل الأمور فى الواقع وفى التاريخ وأن ننفذ إلى الداخل ، إلى ما يحدث فى داخل العالم الداخلى للإنسان السياسى . ومجالات العمى التى اكتشفناها توجهنا إلى ما يجرى فى الداخل وتوفر جزءاً من الإجابة على السؤال : " كيف يستطيع بشر مثلنا ذوو فطنة وذوو قيم أن ينظروا إلى غيرهم بعدم إنسانية وبقسوة " كيف ؟ .

ويقوم جهاز استيعابهم بعملية الغربلة ويبعد إلى مجالات العمى تلك الأشياء فى الواقع الإنسانى التى لو جرى استيعابها لأدت إلى زعزعة نظام عالمهم الداخلى الذى نخرج فيه "نحن " تلقائيًا ، على أية حال على ما يرام ويخرجون " هم " الأشرار والمذنبين .

إن الأعراض الظاهرة لذلك التفكير المتعصب والأعمى للواقع الإنسانى هى بحر هائل نبحر فيه يوميًا ، منذ بداية التاريخ ، كل صحيفة يومية وكل برنامج إذاعى يتناول الأحداث الجارية فى كل يوم هما مصدر غنى للتعبيرات والأفكار والادعاءات التى تتلائم مع النمط العام " نحن الطيبون والأبرياء - وهم الأشرار والمذنبون " ، مثل هذا الكلام هو المعزوفة الصاخبة الدائمة فى حياتنا . وبما أن الأمر كذلك ، فإن مشكلة الباحث " لدينا " نحن ليست اكتشاف ذلك . فهذا شيء ظاهر وعرضه كما هو فى حد ذاته لن يأتى بجديد . ولكن طبقًا للنهج الأكلينيكى يمكننا أن نتقدم إلى ما وراء التعميمات المعروفة .

٥ - الهدف الأول : تعريف الأعراض :

يوجد الهدف الأول بالذات فى الواقع الملموس وليس فى العالم الداخلى للإنسان السياسى. ويستلزم النهج العلمى أن نعزل أولاً وقبل كل شيء ، وقبل أن نشرع فى وضع تخمينات عن ما يجرى هناك فى الداخل ، أعراض " الفيروس " الذى نبحث عنه ، ونقوم بتعريفها تعريفًا عن طريق الملاحظة والمراقبة بحيث نعرف بالضبط عن أى شيء نتحدث فى الواقع. وعن أية مظاهر تفكيرية وسلوكية . هذا هو الهدف الأول وهذا هو الهدف الذى لم تصل إليه بعد

ثقافتنا السياسية . وطبقًا للمفهوم المألوف فإن ما يعتبر عنصرية أو تحريضًا بالنسبة لطرف ، يعتبر إعرابًا عن رأى وليس عنصرية ولا تحريضًا بالنسبة للطرف الذى يؤيد نفس الرأى ... وفقط بالنسبة للتحريض والعنصرية ، التى هى " معاداة للسامية " هناك اتفاق عملى مطلق بيننا . ولست أذكر حالة فى النقاش الجماهيرى يعترض فيها يهودى على يهودى آخر يدعى أنه قد حدث فى مكان مظهر من مظاهر " معاداة السامية " (وهذا هو أيضًا عرض لنفس لأمر ذاته) .

بيد أنه فى حالة خلاف سياسى بيننا لا يتأتى هذا : فمنذ أكثر من عشرات السنوات يوجد فى إسرائيل قانون ضد التحريض العنصرى ولم يستخدم ولا مرة بفعالية ونجاح بسبب صعوبة تعريف ما هو التحريض وما هى العنصرية والموافقة على هذا التعريف . ولكى نتغلب على هذه الصعوبة نجد لزامًا علينا أن نعرف ونوضح بالضبط عن أى شىء نتحدث فى الواقع ، وإلا فلن تكون لدينا ثقة فى قيمة النتائج التى نتوصل إليها وسينظر الآخرون إلى مظاهر اللاإنسانية على أنها آراء شخصية لا يمكن الاقتراب منها مطلقًا بوسائل تحليل موضوعى . وباختصار ، إذا لم نقم بعزل : الفيروس " ولم نقم بوصف أعراض نشاطه بالضبط ، لن نستطيع عمل أكثر مما عمله من سبقونا ، والذين وصفوا الوباء بصورة مقنعة ومخيفة جداً وحذروا من هذا الظلام ، وربما كانوا يأملون فى قرارة أنفسهم أن شخصًا ما سيكتشف ذات مرة عود الثقاب الذى سيكون من الممكن أن يشعل به الشمعة .

٦ - الهدف الثانى : تحديد منطقة تواجد فيها " الفيروس " :

إننى أنطلق هنا من خلال افتراض أن أهمية نظرية اللاإنسانية فى نظركم وقيمة الوسائل التطبيقية ترتبطان باقتناعنا بأن النتائج التى تم تجميعها فى المتاهات السياسية جرى تعريفها واختيارها والحصول عليها وفحصها كما ينبغى . ثانيًا ، من الواضح لى أن قيمة الأشياء مرتبطة بأن تكون مبنية جيداً على الخبرة الموجودة فى المجالات وثيقة الصلة . وهذه الخبرة هى إجمال تخمينات وافتراضات ، تم فحص معظمها فى أبحاث مختلفة، حول المنطقة الغريبة التى يصعب سبر أغوارها، منطقة عالمنا الداخلى .

أما الأسئلة التى لا تطرحها الثقافة ولن يطرحها هذا البحث حتى الآن حول النفس السياسية فهى بالضبط الأسئلة التى سنضطر إلى طرحها والإجابة عليها فى إطار النهج

الإكلينيكى ، فعلى سبيل المثال ، إذا ما قررت النظر إلى العنصرية أو إلى أى تعصب منظم كما لو كان اضطرابًا فى الجهاز الداخلى للشخصية - فأى جهاز هذا وأى عضو هذا (من أعضاء الجسم). (وظيفة الفهم والاستيعاب والتفكير) الذى أصيب ؟ ومتى ؟ وكيف بالضبط ؟ وهل هذا متعذر بشكل عام ؟ ، ما هو دور الإنسان الفرد وآراؤه فى هذا الموضوع فى مقابل كل العوامل البيئية والطبيعة مثل مناطق المعيشة والاقتصاد والتعارضات والتناقضات التاريخية وطبيعة الإنسان والعوامل الجينية وغيرها وغيرها ؟.

لقد بدأنا بعرض نتائج دراماتيكية ، مجالات العمى . والآن ، وقبل أن نشرع فى عرض بقية أعراض اللا إنسانية والتعريفات والاستنتاجات ، أريد أن استعرض بإيجاز الطريق الذى مررت فيه بنفسى والمعطيات الأساسية لغرض الاهتداء إلى هذا المجال والتضلع فيه . وهذه المعطيات هى فرضيات أساسية قادت إلى اختيار الاتجاه والأهداف وطرق البحث على أرض الواقع ، فإذا وافقتم على أن هذه فرضيات معقولة وأن هذا سبيل الوصول الملائم . فإنكم ستبتعدون جداً عن المكان الذى يوجد فيه الوعى السياسى المألوف .

ب - فرضيات أساس البحث :

١ - السياسة سلوك إنسانى ، سلوك إنسانى فقط ، ولا شىء خارج السلوك الإنسانى.

إلا ماذا ؟ إلا أن ثقافتنا تعرف هذا وتتجاهل ذلك . فلدينا السياسة هى مصالح ، وصراعات وتناقضات وعدو وزعامة وأحزاب ، و " فن الممكن " ، و" وإعراب عن آراء " مثلما يمكن أن نسمع وأن نرى فى برامج سياسية فى وسائل الإعلام . فمن طفولتنا يجرون لنا عملية غسل دماغ بأن الحروب تنشب " لأسباب تاريخية " ، مثل الرغبة فى السيطرة على طرق تجارة أو مناطق معيشة ومصدر رزق . وفى الواقع ، فإن كل ما يمكن أن نكتشفه هم أشخاص يستخدمون أشخاصًا آخرين بسبب ما يبدو لهم ، فى تفكيرهم وفى عقلهم ، مصالح ، وأعداء، وأخطار ، وتناقضات ، ومناطق مصدر رزق وغيرها .

ولقد تلقيت أنا شخصيًا تثقيفًا ماركسيًا فى صباى ، أى اعتقدت ، مثل ملايين الأشخاص فى العالم ، أنه فى أساس كل الحروب تناقضات طبقية واقتصادية وأنه فى أساس كل القرارات الأخلاقية للقتال والقتل يجب أن يكون هدفًا وغاية تبرر الوسائل ، وقال لنا معلمونا الحكماء فى هذا السياق " الغاية تبرر الوسيلة " وأيضًا " الغاية ليست دائمًا تبرر الوسيلة .

و"لا الهدف يبرر الوسيلة " ... كل هذا الكلام هو محض هراء ، أى bullshit باللغة الأجنبية. ليس هناك مثل هذا الشىء " هدف / غاية " فى الواقع وليس هناك مثل هذا الشىء " وسائل" تلك هى مصطلحات وكلمات مجردة لدينا فى عقولنا .

الـ " الغاية " لايمكن أن تبرر أى شىء ، لأنها موجودة فقط فى عالم المصطلحات الداخلى لأناس أحياء . وهم أنفسهم فقط أناس أحياء مثلى يمكن أن يبرروا أفعالهم . غير أن عشرات الملايين من أبناء الأجيال الأخيرة قتلوا أو قُتلوا كذلك ضحوا بأنفسهم ببطولة فائقة فى حروب وثورات . بسبب هذا الاعتقاد التافه . وسيبقى ذكر الثوريين البسطاء محفوظًا فى قلوبنا ولكن حذار أن يكون مصيرنا مثلهم .

هل كل هذا فى الحقيقة بسيط وأساسى إلى هذه الدرجة ؟ نعم ! إلا إذا التقيتم ذات مرة التقاء مصالح تتحقق من خلال وسائل تبررها غاية برقاة تقول : ها أنا ذا أعطى لكم تبريراً لأيديولوجتكم ..

كل ما يمكن اكتشافه على أرض الواقع هم بشر " يبررون " من أجل غاياتهم أعمال قتل جماعية أو مجرد أعمال قتل . وحذار أن تخطئوا وتعتقدوا فى هذا السياق أننى سلامى (من دعاة السلام) فى المبدأ . إننى خريج الكارثة النازية وأقر أن هناك أوضاعًا من المبرر فيها أن نخوض القتال ، ولكننى أتحمل المسئولية الأخلاقية عن أن ذلك له ما يبرره ولا يخطر على بالى أننى لست أنا بل " الغاية " هى التى تبرر لى الوسائل .

إن الفكر السياسى ، خاصة فى حالات الصراع ، هو تفكير بدائى ، (حيوى)(*) سحرى . وهناك أشخاص يبتكرون مفاهيم مثل مصالح وتناقضات وعوامل تاريخية و" كراهية إسرائيل". غايات ووسائل "خط الحزب" و" أيديولوجية " ، وبعد ذلك يعتقدون أن هذه تسبب لهم أو تبرر لهم سلوكهم . وعندما تصطدم مفاهيمهم بعضها بالبعض ويقودهم تفكيرهم إلى

---

* – مذهب حيوية المادة الاعتقاد بأن لكل ما فى الكون ، وحتى الكون ذاته ، روحًا أو نفسًا . الاعتقاد بأن الروح أو النفس هى المبدأ الحيوى (المترجم.)

إحساس بطريق مسدود يقولون أن " العالم ملىء بالتناقضات " ... وليس فى عقولهم قائمة تلك التناقضات بل فى العالم ... ليس هناك أى فرق بين العالم الملىء بالتناقضات ، وبين العالم الملىء بأقزام طيبين وأفواه شريرة "... وفى كلا الحالين يعتقد أشخاص بأن علامات خريطة المصطلحات الموجودة فى عقولهم ، موجودة كأشياء حقيقية على الأرض. ويتطلع هذا الكتاب إلى أن يكون خلواً ونظيفا على الأقل من " الخطايا الثقافية " التى يتحدث عنها الدوس هاكسلى(٤) فيما يأتى .

> **وذلك لأن ثلثى مشاكلنا على الأقل تأتى من حماقة إنسانية ، وشر إنسانى، ومن تلك القوى الكبيرة التى هى الدوافع للحماقة والشر والتى تبررها : مثالية، عقائدية وبث دعاية تعصبية من أجل أوثان دينية وسياسية . ولكن التعصب والعقائدية والمثالية ، موجودة فقط بسبب أننا غارقون فى خطايا ثقافية . ونحن مخطئون فى أننا ننسب مدلولاً حقيقيًا لمعرفة أشياء لا مدلول لها .. ونتمرغ فى سطحية زائدة عن الكلام ، وتعميم زائد عن اللزوم وتبسيط زائد عن اللزوم .**

وأريد أن أتجنب هنا أن أعزو مدلولاً ومغزى حقيقيًا لمعرفة مجردة ولذلك فإن الافتراض الأساسى هنا هو أن السياسة الحقيقية هى سلوك إنسانى وليست أى شىء آخر . ويفعل أناس مثلى هذا لغيرهم ، وهم يؤمنون بما يفعلون . لذلك فإن كل من يريدو أن يغير شيئًا ما للصالح فى الواقع السياسى ولا يريد فقط أن ينتصر فى اللعبة السياسية الشرسة طبقًا لقواعد اللعبة القائمة ، يجب عليه أن يتعلم سلوكًا إنسانيًا . ولذلك أيضًا ، فإن القاعدة الحديدية التى أتمسك بها فى المدركات ، فى حوارنا هنا ، هى أنه لزامًا علينا أن نعرف عماذا نتحدث وإذا ما كنا نتحدث عن مفاهيم من تفكيرنا، ونظريات وتعميمات ، أو عن أحداث وقعت فى الواقع .

وبمقدور أى طفل أن يرى أنه لا توجد غاية ولا وسيلة ، وأن هذا الملك عارى . إن المشكلة هى أن الجمهور مشكل من أناس بارعين ، تقديرهم الذاتى وعادات حياتهم وولائهم لـ"ملك" أيديولوجيتهم ولكهنته يُلزمهم بأن يؤمنوا بملابس الملك المغزولة من نسيج الكلمات . فى مثل هذا الجمهور من الصعب جداً أن يكون المرء هو الولد الذى يصيح "الملك عارى" وليس هناك احتمال فى أن يقتنع " الكبار " بسهولة ويؤمنوا بما يرون (فى الواقع الملموس) بدلاً مما يعرفون (ما هو فى رؤوسهم) ...

٢ - السبب فى الحرب فى الشرق الأوسط (سبب كل حرب) هو وجود أشخاص يريدون/ أو مستعدون للتحارب

لماذا توجد حروب ؟ كان لدى سبب وجيه للتعمق فى هذا السؤال وفى أعقاب هذا التعمق تداعى عالم أسبابى السابق ، ونما بدلاً منه مفهوم مختلف تمامًا . لقد كنت رجل استطلاع فى الجيش أقوم بالتوجيه على الأرض طبقًا للخرائط ، وكنت آنذاك جيداً فى الاهتداء إلى الهدف، فى التوجه . وفى يوليو ١٩٧٠ ، فى نهاية أحد الأيام الصعبة فى " حرب الاستنزاف" قدت طاقمًا طبيًا بمركبة مدرعة إلى موقع الأمم المتحدة من أجل إجلاء مصابين بإصابات طفيفة . وقد كان هذا بعد أن تم التوصل إلى اتفاق لوقف إطلاق النار ، فى الجبهة السورية . وجلسوا جميعًا ورائى ووقفت أنا ونظرت من فوق المركبة المدرعة ، وانتظرنا الحصول على تصريح بالدخول إلى الموقع وكان الوضع هادئًا . ثم حدث بعد ذلك انفجار مكتوم وتمزق الأشخاص الخمسة الذين كانوا ورائى أشلاء ، وتغلغل الواقع الملموس عن طريق كل الحواس : الرؤية ، والصوت ، والرائحة ، واللمس . وكانت الشظايا الصغيرة التى أخرجتها من جسمى وأزلتها عن نفسى وبعد ذلك عن أجزاء زملائى ، كانت هذه حالة صدمة ، رجة، حالة يملأ فيها الانطباع الحسى من الماضى ومن العالم الملموس بإخلاص الحاضر والعالم الداخلى وتظل قائمة وباقية كواقع محتمل. ولم استطع أن أمحو المشاهد التى رأيتها والأحاسيس التى أحسستها من إدراكى وكأنها عرضت على شاشة الوعى مرة تلو أخرى .

وواصلت أداء مهمتى ونجحت فى السيطرة على نفسى ، ولكن استحوذت علىَّ فكرة أننى لن أستطيع أن أتخلص من هذا وأن استمر فى الحياة بدون أن أفهم لماذا حدث هذا ؟ . وكانت الفكرة الأولى واضحة جداً ، صبيانية تمامًا : " لماذا حدث لنا هذا ؟ " ... لم نقاتل ، وتم الاتفاق على وقف إطلاق النار ، وكان الوضع هادئًا وغروب شمس ذهبى (بدون كليشهات ، ووقفنا ووجوهنا ناحية الشرق ولون الغروب من حولنا كان جزءاً من المشاهد) ، جئنا للمساعدة والإنقاذ ، عملنا من أجل رجال الأمم المتحدة ... وإننى افترض أنه من خلال ذلك راودنى السؤال " لماذا " ؟ بكل الانفتاح الصبيانى الذى لم يكن متأثراً إلى هذه الدرجة مما تعلمت وعرفت كبالغ ، عن أسباب هذه الحرب . وإننى افترض أيضًا أن السبب لحاجتى الملحة لأن أفهم فى الحقيقة ، وأن اكتشف أية قيمة مهمة فى هذا الانطباع ، كان الحاجة لإعطاء أى مدلول أو مغزى لحقيقة أن من بينهم جميعًا أنا فقط الذى بقيت على قيد الحياة مرة ثانية ، وكانت المرة الأولى أننى خرجت من الكارثة النازية حيًا) .

وبدت لى الأسباب العادية فوراً بعيدة جداً عن الواقع : " أسباب تاريخية " ، و" أسباب عامة " ، و" أسباب مركبة " و" شعبان يحاربان من أجل بلاد واحدة " و " العداء العربى "، احتلال هضبة الجولان فى ١٩٦٧م . كل ما خطر على بالى أو يخطر على بالكم لن يكون مسئولاً مباشرة عن الانطباع الحقيقى والشعور العميق الذى مررت به فى ذلك المساء بالإضافة إلى ذلك كل هذه الأسباب وأسباب أخرى لا نهاية لها بدت تعسفية ، كل سبب هو نتيجة لأسباب سابقة لا نهاية لها . وهكذا اتضح لى أن القذيفة وصلت إلينا فى نهاية سلسلة من الأسباب التى بدأت مع استيطان بنى إسرائيل فى بلاد كنعان ، وفى الحقيقة قبل ذلك بكثير ، واستمرت مروراً بأسباب لا نهاية لها والتى هى نتائج لأسباب أقدم ، على امتداد آلاف السنين، حتى أسباب التفاعل ورد الفعل الكيميائى الذى تسبب فى انفجار المادة الناسفة فى القذيفة .

لقد خرجت من هذه الصدمة عندما اكتشفت السبب الحقيقى ... كان السبب الحقيقى أن المدفعجى السورى فى الناحية المقابلة أراد أن يوقع إصابات ، وصوب وضغط على الزناد . ولو لم يرد ذلك لما أوقع الإصابات ، السبب الحقيقى لكل الحروب هو أن أشخاصًا يريدون أو يوافقون على أن يحاربوا ويقتلوا ، لماذا أسمى هذا السبب " السبب الحقيقى " ؟ لأنه إذا كانت هناك حلقة ملموسة فى سلسلة الأسباب التى لا نهاية لها ، حلقة يمكن المساس بها من أجل قطع هذه السلسلة ، فإن هذه هى الحلقة الإنسانية . كل ما كان فى الماضى لم يعد ملموسًا ، بقى فقط إنعكاس مكتوب خطى أو مُسجل وذكرى فى العقل والنفس ، ويمكن فى الواقع الملموس من لحم ودم وعظام ، على الأرض يمكن أن نكتشف على الأكثر الأشخاص الذين يرسلون لكى يحاربوا طبقًا لأوامر أشخاص آخرين ، لديهم ، بين المفاهيم الأخرى ، " واجب قومى " أو " مصالح سياسية " فى رأيهم .

لقد كان المفهوم الجديد الذى تبلور لدى بعد الشعور العميق بالصدمة التى حدثت لى ، هو الذى صنعته من قبل : السياسة ، هى سلوك إنسانى ، سلوك إنسانى فقط ، ولا شىء سوى سلوك إنسانى ، أسباب الحرب هى أن الناس يتحاربون . هذا ما هو قائم فى الحقيقة ، على أرض الواقع ، وكل الباقى هو ماضى ، ذكرى ، أفكار مجردة ، تعميمات ، كلمات ، وفى أفضل الأحوال أسباب غير مباشرة التفافية . كل هذه مفاهيم فى رؤوس أناس أحياء والذين طالما أنهم لا يفهمون هذه الحقيقة المجردة الجلية ، الواضحة للعين ، فإنهم محكوم عليهم بأن

يحلقوا فى سحب أفكارهم المجردة فوق واقع الكثير جداً من المعاناة والدم . ومن ناحية الوصول إلى الأسباب ولماذا يجب العمل على ضوء هذه الأسباب فإن النظرية وضعت على عجل ، وكل الباقى ، مثلما قال حكيم يهودى قديم " أخرج وتعلم " ؟! .

ومنذ ذلك الوقت وأنا أعرف أنه إذا أراد شخص ما المساهمة بشىء ما جوهرى لكى لاتقع حروب فإن عليه أن يخرج ويتعلم أن يخرجوا ويتعلما (وإذا كنت قد أوردت اقتباسًا من المصادر فمن المسموح به أن أفسر : ما هو معنى " أن أخرج " ؟ أن يخرج من عالم مفاهيمنا القديم والمتأصل فيها ٢٠٠٠ . ويجب عليه أن يخرج ويتعلم ويفهم السلوك الإنسانى ودوافعه. يجب أن نفهم كيف يتعلم الأشخاص أن يؤمنوا ويعتادوا على التفكير فى الواقع السياسى ، بما فى ذلك الأفكار بأن أكثر وسيلة ملائمة لحل المشاكل بينهم هى الضغط علي نفس الزناد . يجب أن نتعلم وأن نفهم كيف حدث ومن أثر عليهم؟ وهل يمكن التأثير عليهم بأن يفكروا بشكل آخر مختلف .

إننى اقترح فى هذه المرحلة أن نفكر بشكل آخر مختلف فى أسباب وضعنا . وليس هذا مرتبطًا بالظروف التاريخية أو بالعدو . إن هذا هو الإنسان ، نحن والآخرون .

٣ - يجب أن نكتشف أسباب الحرب بنفس الطريقة التى اكتشفوا بها مسببات الأمراض والأوبئة المعدية :

فكروا فى أسباب الحروب التى ندرس عنها فى المدارس وفى كتب التاريخ : ذنب العدو ، تعارض مصالح ، مجالات مصدر رزق ، قدر ، عقاب من السماء ، طبيعة الإنسان الشريرة ، طبيعة حكام وسلطات . قارنوا ما تعرفونه عن أسباب التيفود أو الإيدز (ميكروبات وفيروسات) بما اعتقده الناس فى الماضى ، عندما استشرت الأوبئة المعدية التى فتكت بتجمعات سكانية كاملة . فلقد اعتقدوا أن الأوبئة سببتها نفس الأسباب ، مثلما نعتقد اليوم أنها التى تتسبب فى الحروب : ذنب شخص ما (فى فترة الطاعون فى أوربا وجدوا أن السبب هو السحر ، عبدة الشيطان ويهود ، الذين جرى تعذيب كثيرين منهم وأحرقوا بسبب ذلك) القدر ، عقاب من السماء ، طبيعة الإنسان الشريرة . وكان هناك آنذاك خبراء فى الأسباب ، ومفسرون ومعلقون وعرافون قاموا بتوزيع أدوية " مُجربة " مثل تعاويذ وأحجبة وأدعية ، وعرفوا بشكل خاص من الذين يتهمونه ، وضد من يخوضون الحرب ، ومن الذى يضحون به ويقدمونه كقربان من أجل تطهير معسكرنا .

إن الفرق بين الحقيقة المعروفة عن الأمراض المعدية آنذاك واليوم هى فى الوصول إلى الأسباب وانظروا الفرق فى النتائج فرق ١٠٠٪ فأكثر فى متوسط العمر - اليوم يتحدثون عن الأسباب الملموسة ، يعرفون بالضبط عن ماذا فى الواقع الملموس يتحدثون عندما يبحثون عن مسببات - أمراض التيفود ،و الكوليرا ، والسرطان أو الإيدز ، وآنذاك اكتفوا بالاعتقادات وبالأسباب المجردة . هذا هو ما يصنع الفرق بين العلم والسحر وبين القدرة والأمل فى فهم وعلاج تلك الأمراض المعدية فى أيامنا ، وبين عدم القدرة فى فهم وعلاج تلك الأمراض فى حقبة ما قبل العلم ، أو بين الاعتقاد اليوم فى الطب الذى يعالجها ويداويها فى مقابل فقدان الاعتقاد وفقدان الأمل فى السياسة التى تعالج الأمراض الاجتماعية التى ما تزال تفتك بتجمعات كافية كاملة على أبواب القرن الحادى والعشرين كما كان الحال فى العصور الوسطى.

وبكل الموضوعية التى أنا قادر عليها ، إننى اعتقد أنه من الصحيح القول بأنه فى الوصول إلى الأمراض الاجتماعية الفتاكة مانزال نعيش فى حقبة ما قبل العلم ، فى العصور الوسطى . ونعتقد فى الأسباب العامة غير المباشرة . وكنت أود جداً أن تحسوا مثلى على أساس النجاح فى الطب ، الذى جاء بعد أن تغير واكتشفت الأسباب الملموسة والمباشرة بالأمل فى أنه يمكن أن ننجح فى العثور على أدوية للأمراض الاجتماعية إذا اتخذنا نفس النهج . فالنهج " الإكلينيكى " لمكافحة الأوبئة الاجتماعية التى تهاجم أشخاصاً أسوياء هو المساهمة التى كنت أريد أن أقدمها لبحوث السلوك السياسى المدمر فى الألفية الجديدة .

٤ - فيروس اللاإنسانية موجود فى جهاز التوجه لدى البشر :

إنه لمن الفطنة أن نلاحظ أن " فيروسات " الأمراض السياسية لايمكن أن نراها بالمكيروسكوب ." فيروس " هو مفهومنا الذى يوسم ويشير إلى سبب مباشر وملموس ، أما مسببات السلوك السياسى فى عالمنا الداخلى فهى رمزية ، أفكار ، واعتقادات ، ومفاهيم وعبارات إدراكية . ولايمكن لأسفنا أن نلمسها أو نراها بميكروسكوب مثلما يمكن أن نرى خلايا المخ ، لكنها ليست غير حقيقية ، أنها أكثر المسببات الملموسة الموجودة. وبالاستعارة من عالم الكمبيوتر ، فإذا كان المخ هو الهارد وير ومنظومة مفاهيمنا التى تستخدم لتوجهنا فى العالم هى البرمجة السوفت وير ، وهى قائمة ومستمرة مثل البرمجة. ولنفترض أن شخصاً ما تمت برمجته أو برمج نفسه ليؤمن إيماناً كبيراً بأفكار مثل " أنا إنسان صغير ، فما الذى أستطيع

عمله " أو " العالم كله ضدنا " . إن الفيروس الذى نبحث عنه موجود فى تعابير مثل تلك حول " نحن " و " هم " فى الجزء المدرك للشخصية أو النفس.

ويسمى النهج العلمى لبحث منظومة التوجه الإنسانى سيمانتيكا عامة . وهو ليس مقبولاً حتى الآن لدى المؤسسة الأكاديمية وليست لها علاقة خاصة بموضوعى ومفهومى سيمانتيكا[١]، وسيميوتيكا [٢]. ومنطلق السمانتيكا العامة هو أننا بني الإنسان نعيش فى عالمين أولهما هو عالم الطبيعة الملموس ، الذى نتقاسم فيه مع سائر المخلوقات ، هذه حقيقة. وثانيهما هو العالم الداخلى الذى لا ينتقل بالوراثة بل بالتراث . ويكتسب فى عملية اكتساب اللغة ، وهو مكون من مفاهيم ، وكلمات ، وتشبيهات ورموز من اللغة . هذه حقيقة . وليس بإمكاننا أن نكون على دراية وأن نبقى فى عالمنا مثل الحيوانات الأخرى بمساعدة غرائزنا الفطرية . فلكى نبقى كبشر نحن نحتاج إلى منظومة رموز مجردة ، كلمات مفاهيم ، ترمز فى عالمنا الداخلى إلى العالم الذي من حولنا . ونحن نوجه طريقنا فى العالم ليس فقط بمساعدة الحواس بل على ضوء خريطة مفاهيمنا .

وتفصل السيمانتيكا العامة الاستنتاجات العملية المنبثقة عن وضعنا الإنسانى فى العالمين وتقترح كيف تقيم علاقة مناسبة ومعقولة بينهما [٥].

علاقة مناسبة ومعقولة " بين إنسان وعالمه " مدلولها ومغزاها هنا عضوى وليس فلسفياً . والمقصود العلاقة بين منظومة توجهنا العضوى المشكلة من مفاهيم / رموز نقوم بمساعدتها بتوجيه طريقنا فى الحياة ، وبين الواقع على الأرض .

إن التشابه الرئيسى يكمن فى العلاقة بين الخريطة والأرض[٦] . ماذا يوجد فى عقولنا ، الرموز، مفاهيم ، أفكار فى منظومة توجهنا ، هى مثل علاقات وإشارات متفق عليها تشكل الخريطة التى بواسطتها نوجه طريقنا فى المساحة (فى الميدان) الخريطة مشكلة من رموز مجردة والواقع من أشياء ملموسة . فالخريطة ليست أبداً الأرض ولايمكن أن تعطى صورة كاملة للمساحة . وقد رأينا من قبل أن معظم الإسرائيليين وزعمائهم مُوجهون طبقًا لخرائط مفاهيم ، ولا يشار ولا ترسم مطلقًا فى خرائطهم بعض أبرز الأشياء فى ساحة النزاع ، مثل خطر ألا نصبح على ما يرام ، أو نتخذ خطوات عدوانية لا لزوم لها ، أو نضيع فرص مصالحة وسلام . وإذا كانوا مُوجهون بمساعدة خرائط يتعدم فيها جداً إلى هذه الدرجة التشابه مع الواقع فمن السهل جداً الوصول إلى طريق مسدود أو نسقط فى هاوية ، بالطبع .

وأهم قاعدة فى التوجه وفى الاستخدام المتزن لأدوات تفكيرنا وتوجهنا أن الخريطة ليست أرضًا ، الكلمة ليست مادة ، جوهر ، والمفاهيم التى فى عقولنا ليست أشياء فى الواقع الملموس . ديروا بالكم (خذوا بالكم) .

الخريطة ليست أرض

الكلمة ليست جوهر

المفاهيم الموجودة لدينا ليست أشياء فى الواقع الملموس (مفاهيم " عربى " أو "يهودى" ليست أى إنسان حقيقى:

إن كل " أخطاء التوجيه " فى العالم الفكرى وفى السياسة المرتبطة بها هى مخالفات وخروج عن تلك القواعد البسيطة ، وفى مقابل هذا ، فإن الالتزام الأساسى الذى أشرت إليه قليلاً ، " أن نعرف عماذا نتحدث مثلما لم نعرف أبداً " ، وهو التزام يأتى وينبثق مباشرة من تلك القواعد التى تعكس مباشرة الوضع الإنسانى (الحالة الإنسانية) وضرورة الاهتداء والتوجه فى العالم بمساعدة خريطة مفاهيم والأخطاء فى التوجه وفى التوجيه نتيجة لأن الخرائط ليست هى الأرض ، وأنها غير موجودة وخاطئة فى حالات كثيرة ، وأنه يبدو للأشخاص أنها الواقع ذاته ، ولكى نتجنب قدر الإمكان هذه الأخطاء ، فإننا نتطلع إلى أن نعرف بالضبط مَنْ ومتى وأين فى الواقع الملموس نحن نتحدث ، وبذلك نضمن ألا ننفصل عن أرض الواقع وألا نحلق فى سحب كلمات ومفاهيم مجردة (انظر العنف الأحمق وأكثر الأشياء إثارة للتقزز ، فيما بعد) .

٥ – جهاز تشغيل / استخدام اللاإنسانية هو تفكير مجرد يمكن من التعرف على أشخاص أحياء مع مفاهيم شاملة موجودة فى عقولنا :

تعتبر هذه المقدمة المنطقية بمثابة اختيار تقصير ضرورى : فنحن لا نتوجه فى العالم بمساعدة حواسنا بل بمساعدة تفكير ، أى بمساعدة خريطة مفاهيمنا التى تمثل فى نظرنا الواقع . فلو كنا نتوجه بدون قدرة تجريد وتعميم ، مثل الحيوانات التى تستوعب الواقع بحواسها ، ويأتى رد فعلها بالغريزة ، لما كنا نستطيع اكتساب آراء مسبقة وأن ننظر إلى بنى الإنسان (البشر) بكراهية أو ثقة طبقًا لتعريف الأصل أو الدين أو الجنس أو وجهة النظر أو القومية .

وعلى ذلك فإن السبب الملموس لوباء اللا إنسانية يجب أن يكون موجوداً في جهاز إرشاد وتوجه الإنسان فى عالمه ، المقصور عليه فى الطبيعة ، وأقوى وأثبت دليل على ذلك هو فى المجال الظاهر والمنظور واليومى . حيث يستطيع كل واحد وهو مدعو لأن يدرس ويفحص صحته طبقًا للتجربة والخبرة الشخصية ، لو أنه لدينا منظومة وتوجه رمزية لما كانت لنا هوية جماعية ، بل وجود ملموس فقط . وكان بمقدورنا أن ننظر إلى غيرنا فقط طبقًا لتجربتنا الحسية ، مثلما تنظر الحيوانات إلى أبناء جنسها . كيف كان يمكن أن نكره " عرب " أو "يهود " لو كانت لاتوجد فى العالم الملموس مخلوقات مجردة كتلك وكل ما كانت مشاعرنا وردود أفعالنا تَخْبره هم الأشخاص الأحياء ، النساء والأطفال الذين كنا سندركهم ونفهمهم بمساعدة حواسنا ؟ .

ولتجسيد الفرق بين أشكال الإدراك ورد الفعل الحيوانى الغريزى وبين التوجه الإنسانى الموجه بتفكير مجرد ، أنتم مدعوون إلى أن تتعلموا شيئًا من كلبكم :

الكلب الأبيض لايمكن أبداً أن يكون غير كلبى (علي وزن غير إنسانى) تجاه كلب أسود ، لأنه يتوجه بمساعدة حواسه وليست لديه خريطة مفاهيم . وليس فى رأسه وجود لمفهوم صفة مجردة (أسود) أو تعميم (السود) ، إنه يتوجه بمساعدة حواسه . وليس بمساعدة مفاهيم مكتسبة ، ومُبرمج عن طريق الطبيعة على النظر لأى كلب طبقًا للغريزة الكامنة فيه بالإضافة إلى غطاء من تجارب حياته الحسية ، أى الترويض فى الماضى . فإذا كان منظر وسلوك أو رائحة الكلب الآخر تثير ذاكرته أو تؤثر على حواسه بحيث يرد غريزيًا بعدوانية ، فإنه سيكون عدوانيًا وعنيفًا تجاهه ، ولكن ليس أبداً " غير إنسانى " أو عدوانى من خلال معرفة ، مبدأ أو أى إدراك .

كما أن الأشخاص الذين يعانون من عيب مخى يضر بقدرتهم على التفكير المجرد ليسوا قادرين مطلقًا أن يكتسبوا منظومة المفاهيم غير الإنسانية التى يعانى منها كثيرون من المتطورين والأسوياء من بيننا ، ويأتى رد فعلهم من خلال ما يلتقطونه بحواسهم ولذلك فإنهم لديهم مناعة من آراء مسبقة كتلك الموجودة فى العقل السياسى (فوريست جامب بطل فيلم بهذا الاسم ، هو شخصية رائعة مثل تلك الشخصية التى أضيفت مؤخراً إلى الذاكرة الثقافية المشتركة) .

وعليه فإن الجذر العضوى للا إنسانية ولهذه الظواهر المخيفة . هو نفس القدرة التى تميز وتُفَرِد الإنسانية عن أية صورة وجود أخرى من التفكير تفكيراً مجرداً والتوجه بمساعدة مفاهيم مجردة . والناس يفكرون ويأتى رد فعلهم فى أحوال كثيرة وكأن الإنسان حى ومتفرد مثل كل واحد منا ، ومماثل للرمز اللفظى أو البصرى الموجود على خريطة مفاهيمهم ، " يهودى " ، "عربى " ، " أسود " ، " أبيض " ، مفهوم مشتق مدلوله من مفهوم أكثر شمولاً وتجريداً : "يهود " ،" عرب " وغير ذلك هذا هو جهاز تشغيل اللا إنسانية . وبدونه ما كانت ممكنة .

٦ - " فيروس " اللا إنسانية لم يأت من الأمر البيولوجى وغير موجود فى اللاوعى .

بقولنا أن الـ " فيروس " الرمزى للا إنسانية تكاثر فى منظومة المفاهيم التى تستخدم فى التوجيه ، أى ينتقل بالتراث وليس بالوراثة ، فإننا نرفض بضعة تفسيرات شائعة أخرى . ونحن نستند فى ذلك أيضًا على مبررات قريبة مفتوحة للتأكيد من صحتها فى التجربة الشخصية.

فعلى سبيل المثال نحن نرفض التفسير الجينى الذى يرسخ العدوان السياسى على أساس نظرية " الأمر الإقليمى " الشائع فى عالم الأحياء ، أما فى حياة الناس ، فى مقابل هذا ، فإن الشائع هو العرف القائل بأن الذكر لايهاجم ذكراً آخر يغزو مجاله ، لنفترض أن ينتقل للسكن فى الشقة المجاورة . وعدوانيته ، فى حالات كثيرة ، تثور تجاهه فقط إذا ما عَلِم أن نفس الشخص هو واحد من " هم " " أعداؤنا " ... الغضب ، الشعور الذى يحرك العدوان مألوف فى النظرية السيكولوجية بأنه " حالة شعورية موضوعة فى إطار إدراكى " [٧].

ويقوم علماء البيولوجيا السيكولوجية المعاصر من أنفسهم بتنقية عالم البيولوجيا وعالم الجينات من تهمة اللا إنسانية ويوجهون أصبح الاتهام إلى العملية التى تملأ عقولنا بأفكار رمزية . وقد كتب أحدهم وهو ى.ڤاين أن " العدوانية والحرب بين مجموعات ليست نتيجة ومحصلة ضرورية للطبيعة الإنسانية ذاتها ، وذلك لأن منظومة الهوية الشخصية تتبلور بصورة تحرر الجنس البشرى من تبعية غير مرنة «شديدة» بـ " أوامر بيولوجية "[٨] . منظومة الهوية الذاتية " هى ما أسميناه هنا " خريطة مفاهيم " . وقد توصل حتى الباحث المعروف فى موضوع العدوانية لدى أجناس حيوانات مختلفة ، كونذر لورانس ، توصل إلى استنتاج مفاده أن " كل الأخطار الكبيرة التى تهدد البشرية بدمار تام هى نتائج مباشرة لتفكير مفاهيمى "[٩].

وإننى اقترح أيضًا أن نرفض احتمال أن جزء اللاوعى فى الشخصية هو نفس الجزء فى الكائن الحى الذى تلتصق به العقد الشخصية وأمراض نفسية مختلفة ، هو العضو المصاب باللاإنسانية . وليس هناك سبب لأن نعارض النظرية النفسية التحليلية التى تقول بأن مشاكل الشخصية تُنحى جانبًا واحتياجات غير مدركة تتسبب فى ظاهرة مثل الحاجة إلى إيجاد كبش فداء ومظاهر مختلفة من الإسقاط ، نفس الجهاز النفسى لإسقاط البشر ، الذى لا تكون الشخصية مستعدة لقبوله فى مدركاتها كجزء من ذاتها ، على الآخرين . ولكن هناك سبب لرفض التفسير الشمولى الذى مفاده أن عقد شخصية مختلفة هى المسببات المباشرة لظواهر سياسية جماهيرية . ولنفترض أن المحلل النفسى كان يفسر الفقرة التالية التى قالتها امرأة فى اجتماع نساء حركة " حباد " فى الفترة التى هاجمت فيها قوات إسرائيل مقاتلى م . ف . ف . فى بيروت : لوكانت م ، ف . ت قد انتصرت لذبحتنا ، أجهزت علينا واغتصبت كل النساء". لنفترض أنه كان يفسر أنها قد عبرت بذلك عن أية رغبة فى اللاوعى . لايمكن أن نثبت له أنه مخطىء لأن نظريته مغلقة ، والإثبات موجود داخل النفس . ولكن يمكن أن نشير إلى حقيقة ، أنه لو كان هناك أى دافع غير مدرك لكان غير مباشر ، ولولا أنه وجد تعبيراً سياسيًا مباشراً لظل غير مدرك ولا يلعب دوراً فيما كان من شأنه أن يحدث فى بيروت .

وفى هذه الأيام ، فى الوقت الذى اكتب فيه هذا الكلام . تكفينى الأحداث كنموذج لتدعيم هذا الادعاء : جندى شاب اسمه نوعام فريدمان ، له تاريخ اضطرابات نفسية ، بدأ بإطلاق للنار فى قلب مدينة الخليل لكى " يقتل أكثر ما يمكن من العرب " . ولاشك فى أن حالته النفسية الخاصة كانت أحد أسباب فعلته ، ولكن الحقيقة الجوهرية هى أنه لم يطلق النار لكى يقتل أكثر ما يمكن من القرود ، خبازين أو أطباء ، أو حتى عرب فى مكان آخر ، بل سافر " لقتل عرب " وهو دافع يعتبر طبيعيًا سويًا لأسفى ، وليس فى مكان آخر بل فى الخليل ، فى بؤرة النزاع السياسى العنيف الذى يشد الأشخاص الطبيعيين الأسوياء فى هذه الأيام .

ويتعين علينا إذا أن نستنتج أيضًا أنه إذا كانت المشاكل والاحباطات الشخصية هى من العوامل الى تدفع إلى الجنون السياسى ، فإن تلك هى عوامل تساهم فى ذلك بشكل غير مباشر . ومايزال العامل والسبب المباشر هو نفس تشكيلة مفاهيم مكتسبة معيارية لنفس المجتمع ، والتى تدفع أيضًا المجانين غير الأسوياء إلى البحث عن أهداف لدوافعهم " على خلفية قومية متعصبة " بالذات . وهم يعملون فى مثل هذه الحالات لا طبقًا لخريطة المفاهيم

المشوشة بدوافع اللاوعى المريضة لديهم ، بل بالمدركات ، طبقًا لخريطة مفاهيم لا إنسانية طبيعية .

والخلاصة ، فإن السبب الملموس للا إنسانية وللعدوانية السياسية على اختلاف أشكالها ليس في الغريزة ، وليس فى إدراك حسى ، وليس فى طبيعة الإنسان التى تنتقل بالتراث باكساب وإيراث قيم الأمة والشعب أو القبيلة .

٧ - اللاإنسانية ليست حيوانية بل العكس : هى إنسانية لكونها تستند إلى أيديولوجية وأخلاق :

يكشف إمعان النظر فى العدوانية الإنسانية المنظمة ظاهرة أخرى بارزة لا مثيل لها فى عالم الأحياء . فالعدوانية الإنسانية تنطوى على إحساس أخلاقى بأن الإنسان محق وهو يقوم بعمل صحيح .

وقد كتب الباحث الهولندى يوهان ڤان دردنان (الذى قام بجمع وتوثيق لأكثر من مائة ألف من أحداث العنف على خلفية سياسية) ، كتب يقول :

" يُبرر العنف الأكثر انفلاتًا ولا رادع له والأكثر حماقة وإثارة للتقزز والغثيان عن طريق الاعتماد على إيديولوجية اقتراب من جنة عدن فى الأرض ، طوبائية السلام والحب ، نظرية تفوق مسيحانية وخلق ملكية إلهية لألف سنة ، نهاية التاريخ أو قيم أخرى ، مجردة جداً ، ميتافيزيقية ، أو شبه ميتافيزيقية ، وأمساخ إيديولوجية مجردة غامضة أخرى : أمن قومى ، أسباب رسمية ، حرية ، ديمقراطية ، سلام ، تقدم ، إمبراطورية ، أمر تاريخى ، نظام مقدس ، ضرورة طبيعية ، إرادة إلهية Gott, Volk und Heimat Blut and Boden وغيرها[١٠].

وهناك شيء ما آخر ، أردت أن يحدث صدى فى قلوبكم . حقيقة :

لا القتلة ولا المجرمون ولا الجانحون ولا من يضربون بوحشية عرض الحائط بالمسلمات ويدوسون عليها هم أولئك الذين يخرجون إلى الحملات الكبيرة فى الحقيقة للقتال وأعمال التعذيب والدمار وغيرها . بل إن هؤلاء هم المواطنون المستقيمون ، الملتزمون ، الذين يعملون باسم قيم سامية ، أهداف عادلة ومعتقدات متأججة ، الذين تسببوا فى حمامات الدماء فى الحروب ، والاضطهادات الدينية ، لسلب ونهب المدن والقرى ، وأعمال الاغتصاب الجماعية

للنساء ، والمذابح الجماعية للشيوخ والأطفال الذين انتزعت أعضاؤهم من أجسامهم وسائر الفظائع التى لايمكن مطلقًا وصفها بكلمات . إن جرائم العنف التى ارتكبت من خلال دوافع شخصية هى ، من ناحية تاريخية ، عديمة الأهمية ، فى مقابل الجرائم التى ارتكبت من أجل تعظيم وتمجيد وتسبيح الله ، من خلال تضحية ذاتية وولاء للعَلَم ، للزعيم ، لمعتقد دينى ، أو لمعتقد سياسى (١١).

يكشف إمعان النظر المباشر فى الأشخاص الذين يهاجمون ويقتلون أشخاصًا ، أو حتى يقتلون حيوانات ، أن هذا العنف له ما يبرره ، ويجب أن يكون مبرراً فى نظر من يقوم بتنفيذه. فعلى خلاف كل عدوانية حيوانية فى الحقيقة ، طالما أن الإنسان يعتبر عاقلاً ومسئولاً عن أفعاله ، لايمكنه ، على أية حال ، أن يقتل شخصًا ما فقط لأن لديه رغبة وفرصة لفعل هذا ولا يخشى أن يصاب ويضار هو نفسه . يجب أن يعتقد أن هذا الأمر له ما يبرره . وهذه الصفة الإنسانية بارزة ومعروفة ، ولكن بحث الظاهرة والاستنتاجات التابعة منها يتعديان مجال التفكير المألوف والتيار المركزى للبحث فى السيكولوجية السياسية .

شاهدت مؤخراً فيلمًا عن الطبيعة : فى بركة أفريقية تكاثرت تماسيح وظباء جاءت لكى تشرب ، التماسيح تتربص وتكمن للظباء ، وتخطفهن بأسنانها وتجرهن إلى ما تحت سطح الماء، ثم تفترسهن . وقد فكرت فى أنه لو كانت تلك التماسيح بشر ما كانت تقدر على التصرف على هذا النحو بدون أن يكون لديهم أيديولوجية تبرر هذا التصرف . ولنفترض أنها كانت تعتقد أن الظباء جاءت لكى تتآمر عليها وتسرق منها الماء فى البركة ، وكانوا يؤمنون بالتأكيد أن لهم حقوقًا تاريخية على أرض هذه البركة ، لأنهم من ذرية الديناصورات الأسطورية ، وكانوا يتواجدون هناك منذ تريليونات السنين قبل الظباء ، وغير وغيره ... مثلنا.. ، كانوا سيكرهون الظباء ، فقط بسبب مفهوم " ظبية " الذى أكسبه لهم كبارهم فى طفولتهم ، مع كل الخوف والاحتقار والكراهية التى كانوا يربطونها بهذا المفهوم . وكان يحكى لبعضهم البعض ما كان يعطى لهم إحساسًا بالتفوق والأحقية وتسويغ موقفهم ، مثل أن الظباء هى جنس أدنى ولا حياء عندها ، فهى تفعل فى وضح النهار ، ما تفعله التماسيح أبناء الحضارة الأعلى ، فقط تحت ستار الأعشاب من تحت سطح الماء . باختصار كانوا سيخرجون فى حملات حربية ضد الظباء وكذلك يدمرون التوازن المطلوب لبقاء كل الأنواع فى الطبيعة .

وأود أن أجمل فى هذه النقطة وأقول : تستند فرضيات البحث على المنطق البسيط والتجربة الإنسانية المباشرة ، المفتوحة للتأمل والتفكير الملى ولتحليل كل قارىء . وكل ما

يجب لكى نقترب منها هو التحرر من قبضة الافتراضات المسبقة والآراء المؤسسية والمألوفة فى هذا المجال .

وحقيقة أن الهوس السياسى الطبيعى لا يتحرك بدون منظومة تبريرات أيديولوجية توجهنا إلى الاتجاه الذى يوجد فيه مغزى لتطوير وسائل وقاية وعلاج ضد " فيروس " اللاإنسانية ، على الرغم من البحث فى سيكلوجية العقلية الأخلاقية ضئيل نسبيًا ، فإن ما يبرز أمام ناظرينا فى التفكير السياسى متبع أيضًا فى السيكولوجية السياسية : " تشكل مفاهيم عن الحقيقة والعدل جزء لايمكن فصله عن سياق تفكير سياسى " (١٢).

ويتوقف عند هذا الاعتراف أيضًا معظم البحث وكذلك الثقافة السياسية العامة . ولكن ، إذا كان الناس يحتاجون إلى مبررات ومسوغات لكى يحاربوا ، فهذا معناه أنهم غير مبرمجين أوتوماتيكيًا ، بل إن لديهم ضميراً وحسًا واقعيًا ودافعًا أخلاقيًا . وينجح الـ " فيروس " فى تحييد تفكيرهم المتزن والأخلاقى العادى بالنسبة لمجموعة العدو ، ولكن لا ينجح فى إلغائه . وربما نستطيع بهذا أن نجد مرتكزات لاستراتيجية حماية بنى الإنسان أنفسهم من فيروس اللاإنسانية .

جـ - اللاإنسانية كمنظومة قيم نشطة :

١ - تعريف ووصف عام :

اللاإنسانية هى تفكير وسلوك مصدره فى خريطة مفاهيم مشوشة أو التى يشار فيها إلى العالم السياسى وكأنه غير مكون من أناس أحياء بل من كتلتين متعارضتين قيميًا ، " نحن " و " أعداؤنا " . فالإنسان الذى يجرى توجيهه والذى يهتدى إلى طريقه طبقًا لخريطة المفاهيم هذه لا ينظر إلى بنى الإنسان فى سياق النزاع السياسى مثلما ينظر إلى أشخاص فى ظل سياق آخر ، بل وكأننا " نحن " فوق " بشريين " و " أعداؤنا " تحت " بشريين " ،"أى يهودى لا يريد السلام " فى مقابل عدم الثقة فى العرب . نحن - فى الماضى التاريخى ، فى الماضى القريب وفى الحاضر - طيبون ومحقون دائمًا وهم أشرار ومذنبون دائمًا .

وعلى ذلك فإن اللا إنسانية هى إخفاق توجه مكتسب ، وهو مكتسب فى عملية التكييف للبيئة الاجتماعية ، فى السن الذى يدرس فيه الولد أو البنت لغة رموز مجتمعهم ويطورون

هويته ويصبحون مدركين لأنفسهم بالنسبة لمحيطهم وبيئتهم ، ويتعلمون مَنْ هم . وتتبلور فى هذه المرحلة خريطة مفاهيمنا ، التى هى منظومات مفاهيم مشتركة والتى نستخدمها فى التوجه والاهتداء فى عالمنا الاجتماعى وتوجهنا نفس خريطة المفاهيم فى مسائل الهوية الوجودية : مَنْ أنا ، ما هو مكانى فى العالم ؟ ماذا ينتظرون منى ؟ ما هو الخير وما هو الشر؟ من الطيب ومن الشرير ؟ لماذا ، وكيف بدأ هذا ، ماذا ومتى ولمن مسموح عمل ماذا ولمن هو محظور ، وغير ذلك .

٢ - تحليل تعبيرات اللاإنسانية فى لغة وسائل الإعلام :

بما أن التوجيه والتفكير هما بشكل عام تشغيل واستخدام لمفاهيم لغوية ، فإن أعراض اللاإنسانية توجد فى اللغة التى يستخدمها الناس للتعبير عن أفكارهم وتعليلها وتبريرها بالنسبة للنزاع السياسى . وتلك هى التعبيرات التى لاتصف واقع النزاع السياسى بمصطلحات إنسانية عادية ، مثلما يصف نفس الأشخاص أنفسهم كل واقع أو نزاع آخر . وتشمل مجموعتى التى سأعرضها مقتبسات من الماضى ولكن بشكل خاص من الحاضر ، من كل الثقافات ولكن بشكل خاص من واقع النزاع المخيف الذى نعيش فيه ومن أجهزة الإعلام المحلية التى أتغذى عليها . وتستند نظرية اللاإنسانية على التجميع والفرز والفحص ، التحليل ، والمظاهر التى اكتشفتها فى هذا الطريق .

وطريقة تحليل وفرز وتصنيف التعبيرات اللغوية هى طريقة مألوفة ومتبعة فى تحليل النصوص ، وتم تطويرها بشكل خاص لغرض تحليل نصوص سياسية وتسمى " تحليل مضمون" وأساسها ملائمة التعبيرات المختلفة مع أنماط محددة يُعنى الباحث بها . وفى حالتنا هذه ، فإن النمط الذى نتناوله بالبحث هو " اللاإنسانية " ذاتها ، اللغة التى لاتصف بشراً فيما يتعلق بالنزاع كبشر طبيعيين أسوياء بل كحالات " نحن " و " أعداؤنا " طيبون وأشرار . وكباحث ، بدأت بتنظيم كم هائل من كلمات هذه التعبيرات وترتيبها طبقًا لما تعلمته من خلال الاشتغال بالأمور ذاتها . وقد اتضح ، كما هو متوقع أن الإحداثيات الرئيسية لخريطة المفاهيم هى حقًا "نحن طيبون وهم أشرار " ، ولكن يصطدم من يوجهون طريقهم على ضوء هذه الخريطة ، على أرض الواقع بأمور مختلفة يتعين عليهم أن يتطرقوا إليها ويشرحونها بمفاهيمهم. ومن هذه

الأمور القائمة فى الواقع ، وضعت " نموذجًا - مخططًا " بنية مفاهيمية يمكن فيها تنظيم المادة اللغوية المتدفقة من واقع نزاعات وحروب. ويشمل هذا النموذج / المخطط ، عشرات المكونات التى يعبر كل واحد منها عن جانب أو وجه للأمور القائمة فى الواقع . ويصطدم كل الأشخاص فى ساحة النزاع بذات " المواقع " على أرض الواقع ، بما فى ذلك أولئك الذين كما رأينا أعمياء تجاه جوانب معينة منهم .

فعلى سبيل المثال ، ساحة النزاع السياسى محاطة ببيئة من الناس والدول التى لاتشارك فى النزاع ولكن لهم تداخل مع أطراف النزاع . ويجب على الإنسان الذى ينظر إليهم أن يوضح لنفسه تداخلهم ونظرتهم بمصطلحات خريطة مفاهيمه والأشخاص المصابون باللاإنسانية مثل كل شخص آخر ، يصطدمون بحقيقة أن النزاع السياسى يجرى فى وقت يمر وفى واقع يتغير ، أو بحقيقة أن من بين " أعداؤنا " أطفال ونساء ورجال ليسوا مقاتلين ، أو أشخاص فى معسكرنا يعارضون نهجهم السياسى بالنسبة للعدو بل ويستنكرونه.

وعلى ذلك فإن نظرية اللاإنسانية تفرز وتنظم تعبيرات الإدراك والتفكير طبقًا للقوانين التى تعكس واقع النزاع : ١ - نحن ، ٢ - أعداؤنا ، ٣ - رقيقو المشاعر ، ٤- أسرى / مهزومين ، ٥ - زعيم ، ٦ - شواذ ، ٧ - استراتيجية ، ٨ - أمم العالم ، ٩ - أخلاقية ، ١٠ - زمن ، هذا التقسيم هو خريطة مفاهيم ، نموذجًا (Paradigm) ويمكن بالطبع أن نغيرها أونضيف إليها . على سبيل المثال ، "١١ - حرب " - أنماط التفكير والتعبير التى تتحدث عن " نحن " وعن " أعداؤنا " فى الوقت الذى تدور فيه حرب " ساخنة ؛ . وفى التشكيل القائم هنا تنقسم أنماط التفكير لـ " حرب " بين الموضوعات الأخرى . ويستخدم النموذج المكون من عشرات المقومات والعناصر إلى تحليل وتشخيص ما يسمى " بعَرَض اللاإنسانية".

٣ - عرض عينات ك كيف نحلل نصًا سياسيًا لغرض تشخيص " عرض اللاإنسانية " .

نورد هنا عرض عينات للمرحلة الأولى لتحليل نص سياسى طبقًا لنموذج عرض اللاإنسانية. فالمرحلة الأولى فى تحليل مضمون هذا إخراج كل التعبيرات التى تحمل المدلولات المتعلقة بالنزاع ، سواء أكانت ملائمة للإنسانية أم لا .

ووحدات الفرز والتصنيف ليست كلمات معينة بل تعبيرات تحمل مدلولاً بالنسبة لواقع النزاع ، أفكار ، أقوال تصريحات وآراء ، بالنسبة للنزاع ، وسوف ترون على الفور أمثلة ونماذج .

فى هذه المرحلة نُخرج ونفرز ونصنف كل التعبيرات طبقًا لما تتناوله على الأرض ، أى نفرزها ونصنفها بين عشرات موضوعات النموذج/الموديل التى تشكل الواقع كله . وفى المرحلة التالية بعد أن يتم ترتيب تعبيرات المدلول الوثيقة الصلة بالموضوع ومكونات النص طبقًا للنموذج ، نشرع فى تعريفها سواء للا إنسانية من عدمه . ويمكن لكل معنى بهذا أن يقوم بمثل هذا التحليل بنفسه طبقًا للنموذج التالى :

قبل أن نشرع فى تحليل النموذج ، نورد ملاحظة أخرى فيما يتعلق بأولئك الذين لايبدون استعداداً للاشتغال بمثل هذه " القذارة "، ولايستطيعون حسبما جاء فى المثل ، تحمل حرارة المطبخ السياسى الحقيقى : ليست الحرارة التى ترتفع من أساليب السياسيين البليغة والمنمقة ، بل الحرارة التى تنبعث وتطلق أبخرة سامة فى عقول أناس قريبين ، رجال من جانبنا ، ويرتدع رقيقو المشاعر ذوو الميول الإنسانية بشكل عام عن إبداء اهتمام جدى بالكلام الذى ينطوى على توجهات لا إنسانية ، مثلما يرتدعون من أشخاص عدوانيين وأفظاظ ، ويحاولون عدم التعاطى والتعامل معهم وفى مقابل هذا فإن النهج " الإكلينيكى" يساعدنا فى التغلب على هذا النكوص والخوف وفى المهن التى تساعد الناس يجب أن نتغلب على النفور والاشمئزاز من منظر مصاب أو من سلوك منفر إذا كنا نريد مساعدتهم ومساعدة أنفسنا . يجب علينا أن نفحص بمهنية وبصراحة وبتعمق وأن نتعرف جيداً على الأعراض الملموسة للمرض .

إننى أمد يدى للسيل الجارف اليومى من الكلمات واستقى منه " موليدت" «وطن» العدد ١٠ يناير ١٩٩٧م . وكلمة وطن هنا هى كلمة منفردة وهى " تعبير ذو دلالة بالنسبة للنزاع " وتعود إلى الموضوع رقم ١٠ " نحن " ، لأنه يقول أن منطقة النزاع هى وطننا ، أى نحن المحقون (على حق) . " الترحيل فقط يجلب السلام !" هذا التعبير يعود إلى الموضوع رقم ١٠ " استراتيجية " ، ما يجب أن نفعله فى النزاع مع " أعداؤنا " كذلك طلبات " المصادقة على البناء فى الضفة الغربية وقطاع غزة بحجم ٥٠,٠٠٠ وحدة سكنية فى خلال ستة أشهر " ، " إخراج إدارة الأوقاف الإسلامية من اسطبلات سليمان "– "المسجد المروانى" ، " لن يفرج عن سجناء فلسطينيين " ، " لن يكون هناك انسحاب للجيش الإسرائيلى من الخليل " تعود إلى

موضوع " استراتيجية " ، ماذا نفعل لهم أو معهم ، مثل أيضًا الاقتباس من كلام الحاخام ملوففيتس : "سبب كل المشاكل والمتاعب فى الخليل هو انعدام الشجاعة اليهودية ..... كفوا عن الخوف من الجوييم !".

هذا هو اقتراح بالنسبة للاستراتيجية ، وكذلك أيضًا " اقتراح لحل النزاع مع السوريين : كل هجوم يقوم به حزب الله فى لبنان سيجر وراءه قصفًل مكثفًل من جانبنا لدمشق - كل هذه اقتراحات فى مجال استراتيجية إدارة النزاع .

" إلغاء كل الاعتقالات والأوامر الإدارية ضد اليهود" ، ينتمي إلى موضوع رقم ٦ " شواذ" ويعود إلي هذا الموضوع أيضًا المقطع الآتى : " كشف التلفزيون الرسمى فضيحة فظيعة : شرطيان من حرس الحدود دفعا عدداً من متسللين عرب خرقوا حظر التجول الذى فرض لكى يمنعا تفجيرات فتاكة ، بل - ويالا الهول - أكالا لهم ضربات . ليس معاذ الله ضربات قاتلة، على الرغم من أن الشرطيين يدعيان أن العرب أغاظوهما وسخروا منهما . " والبقية : " على خلفية القانون المتسامح ورقيقى المشاعر اللطفاء الذين يهتمون بتكبيل أيدى حراس أمننا " ينتمى إلى موضوع رقم ٣ " رقيقو المشاعر " .

وتعود إلى موضوع " رقيقو المشاعر " تعبيرات كثيرة جداً فى نفس الصحيفة ، مثل "**الصحف اليسارية الماسوشية** " ، ومثل العنوان : " **يمكن أحيانًا تبرير قتل سياسى** " ، مع النص " **لأسفنا الشديد ، كان ومايزال يوجد رؤساء حكومات تنازلوا بسهولة عن نصف أرض إسرائيل ، ومن تنازل ويتنازل عن نصف البلاد من شأنه بالتأكيد أن يتنازل عن أجزاء أخرى من البلاد ، ومثل هذا الاحتمال ليس فرضيًا . فإذا كنا بسبب إقامة معسكرات اعتقال من أجل أمننا نبرر قتل رئيس حكومة ، فأية عقوبة يستحقها رئيس حكومة وحكومته التى تتنازل بسهولة عن نصف الدولة وبذلك تُعرض حقًا حياتنا وأمننا للخطر ؟!** " كان هذا الكلام ، فى رأيى - تحريضًا على قتل رئيس الحكومة (نتنياهو) - ولكن هذا ليس من نوع الموضوع هنا ، ولغرض التصنيف فى نموذج فإن رئيس الحكومة نتنياهو فى مفهوم المصدر الإعلامى - هو " رقيق المشاعر " .

وتوجد فى المادة المطروحة أمامى إشارات كثيرة إلى " رقيقى المشاعر " الذين اعتبرت مواقفهم دائمًا قومية صقرية ، " **ليس هناك فرق أيديولوجى بين حكومة نتنياهو وحكومة بيريس** " ، **تساجى هانجبى هو " حرباء سياسية خطرة " ... يكثر من الإدلاء بآراء حمائمية".**

أنا أسأل ، ما هو الفرق بين المعراخ والليكود ؟ ... " ، " من يقبل اتفاق أوسلو ، مثل الليكود والمفدال لايمكن أن يطلق عليه بعد الآن صهيونى " . " لقاء رئيس الدولة فايتسمان مع الرئيس عرفات ، والمصافحة والمعانقات بينهما ، تصيبنى بالجنون . هذا تقزز ومقت للعدو. كراهية قاتل بغيض " ودار الجزء الأخير حول موضوع رقم ٢ " أعداؤنا " كما أن تعبير " أدولف عرفات " الموجود هناك يعود إلى أعداؤنا ، وتعبيرات كثيرة أخرى ، مثل اقتباسات لتعبيرات لا إنسانية التى قالت " أعداؤنا " ضدنا ، والتى تأتى لتثبت ما هو ملائم للنمط العام " هم أشرار مذنبون " ، **" شكراً لعضو الكنيست رحبعام زئيفى على كل ما يفعله من أجل أرض إسرائيل " ... " إننى أقدر جداً صنيعه وموقفه الحاسم والقاطع والشجاع " ، " كلامه الصريح والمستقيم ، الصحيح والحكيم .. " . " إنك تقوينا وتعزز موقفنا جميعًا . كلى تقدير وإعجاب على روح الحقيقة النقية الخالصة التى ترصعها أحجار كريمة تضيئها بعبرة جيدة "** كل هذا الكلام يعود إلي الموضوع رقم ٥ " الزعيم " .

" الرئيس شيراك الذى بصق فى وجهنا" هو تعبير يعود إلى الموضوع رقم ٨ " أمم العالم"، أى كل أولئك الذين ليسوا " نحن " وليسوا " أعداؤنا " وفى نفس الموضوع مقطع كامل :

" سيادة الرئيس جاك شيراك المحترم لنفترض أن النزاع بين إسرائيل والعرب كان عكسيًا ، أى كان لليهود ٢٢ دولة ومساحة ٢٢ مليون كيلو متر مربع وللعرب دولة صغيرة جداً واحدة فلسطين (أرض إسرائيل) فهل كنت فى هذه الحالة أيضًا ستعظ وتدعوهم إلي إعادة أراضى لليهود ؟! وهل كانت إسرائيل ستقوم بانتفاضة وتُعد لحرب إبادة ضد العرب ، الموجودين فى دولتهم الصغيرة جداً ، فلسطين ؟ هيلل الحكيم يقول : " لا تحكم على رفيقك قبل أن تصبح فى مكانه ... " .

يشير هذا المقطع كله إلى شيراك ، أى يعود إلى موضوع " أمم العالم " . ويشير إلى "نحن " وإلى "أعداؤنا " بصورة ملائمة لخريطة مدركات المصابين باللاإنسانية : عن دولة صغيرة جداً واحدة تتعرض لخطر دمار ، ولديهم ٢٢ دولة ومساحة ضخمة ، أى نحن على حق وهم لا . ويتعلق بشكل خاص بالموضوع رقم ٩ " **أخلاقية** " ويدعم موقف " نحن على حق " بمبررات أخلاقية لمقارنة بيننا وبين أعدائنا : نحن ما كنا سنبدأ انتفاضة ونعد لحرب دمار لو كنا فى مكانهم. ويطالب بنظرة أخلاقية من " **أمم العالم**" لا تحكم على رفيقك قبل أن تصبح فى مكانه ..".

ويعود إلى موضوع " **أخلاقية** " أيضًا تعبير " خطأنا الأساسى هو أننا نحارب برقة مشاعر، لا مكان فى الحرب لـ " طهارة السلاح " ، (النموذج الأخير هو عرض بارز للاإنسانية، تبرير لصالح التحرر من قيود أخلاقية) .

وتتعلق بعض الأفكار أيضًا بالعنصر رقم ١٠ ، **الزمن** ، الذى يمر والتغيرات التى تحدث فى خلال النزاع : " **هذا السلام .. ليس سوى خطة محكمة لزعماء الدول العربية (أعداؤنا) للقضاء على دولة إسرائيل ... لم تتغير الخطط ، لكن تغيرت الاستراتيجية فقط** ، وينعكس عنصر الزمن بالطبع . أيضًا فى كل ما هو اقتباس من المصادر القديمة لغرض التعبير عن موقف بالنسبة لـ " **نحن** " ، و " **أعداؤنا** " فى الحاضر ، **استراتيجية** ، وبالطبع أخلاقية : "**فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم وتمحون جميع تصاويرهم وتبيدون كل أصنامهم ...** " « العهد القديم ، سفر العدد ٢٣ : ٥٢ » .

وعلى ذلك فإن عنصر **الأخلاقية** هو مسألة أن تلك هى الكتب المقدسة ، والتبرير جاء من إله أعلى وتتعلق الفقرة الافتتاحية الواردة فى العهد القديم ذاتها **بالاستراتيجية** .

تلك هى إذاً طريقة تنظيم المادة الخام عن السلوك السياسى . ترتيب الكلام وتصنيفه طبقًا لموضوعات . والأمر الأكثر مركزية وموضوعية هو المرحلة الثانية للتحليل . تحديد هل يدل تعبير معين أو لا يدل على لا إنسانية . وفى السياق سنجيب بالضبط على الأسئلة المرتبطة بالعلاقة بين تعابير تفكير سياسى وبين لا إنسانية الشخصية السياسية ، أى بين الأعراض والمرض . وسنتناول هنا تشخيص الأعراض .

٤ – مرحلة التشخيص :

هناك ثلاثة أنواع من تعبيرات سلوك سياسى بالنسبة للاإنسانية :

١ – التعبير الذى هو عَرَض بارز للاإنسانية .

٢ – التعبير الملائم للاإنسانية ولكن ليس بالضرورة كذلك ، ويحتمل أن يكون كذلك ويحتمل لا .

٣ – تعبير ليس ملائمًا للإنسانية .

النوع الأول هو التعبيرات البارزة المتعلقة بالأعراض ويثبت تعبير واحد من هذا النوع باحتمالية عالية جداً أن الإنسان توجهه خريطة مفاهيم اللاإنسانية وليس الواقع أو وجهات نظر واقعية كما هو مألوف الاعتقاد . فعلى سبيل المثال ، تعبيرات عنصرية طبقًا لنمط " هم أشرار، وضعاء متدنيون بطبيعتهم " . ومن بين الأمثلة التى أوردتها فإن " الترانسفير- «الترحيل» فقط هو الذى سيجلب السلام " ، و" فى الحرب لا مكان لطهارة السلاح " . يكفيان لكى نحدد تشخيصًا : لا إنسانية ، نفس وجهة النظر التى تمكن الإنسان المتزن بمصطلحات معيارية ، الأخلاقى ، من ارتكاب أفظع الجرائم .

والنوع الثانى هو التعبيرات الملائمة لخريطة المفاهيم " نحن طيبون ، على حق - هم أشرار ، مذنبون " ، ولكن لاتدل بالضرورة على تعصب قطيعى . فعلى المثال ، ذلك الاقتراح الذى يدعو إلى قصف دمشق كرد على عمليات حزب الله ، يبدو فى الواقع الحالى غير مقبول جداً ومتطرفًا ، ولكن لايمكن أن نقرر بموضوعية أنه فى حد ذاته تعبير عن اللاإنسانية . ربما نعم وربما لا ، فالشخص غير المتطرف يستطيع هو أيضًا أن يقدم مثل هذا الاقتراح كاستراتيجية . على سبيل المثال ، الفكرة الاستراتيجية التى أؤمن بها أنا شخصيًا هى "يتعين علينا أن نكون أقوياء لكى نردع أعداءنا ونحطم قوتهم العسكرية إذا ما أقدموا على شن حرب" . وهى ملائمة بالتأكيد لخريطة مفاهيم اللاإنسانية ، ولكن آمل ألا أكون مصابًا أنا شخصيًا بها . وهذا مثل على تعبير من النوع الثانى .

والتحليل الذى نجريه هو تناول النفسية السياسية ، وليس السياسة أو الاستراتيجية ، ولكى يكون له مفعول يجب أن يكون علميًا ، حذراً وموضوعيًا قدر الإمكان . وبهذه المناسبة تؤكد عبارات أخرى لنفس الشخص الذى اقترح قصف دمشق صحة الافتراض بأن هذا الشخص يعانى من اللاإنسانية ، مثل الاستناد إلى قدوة الجنرال ماك آرثر فى حرب كوريا ، الذى اقترح على الرئيس " **مهاجمة الشيوعيين فى الكرملين وليس فى كوريا ... لأنه عندما نريد الإمساك بثعبان نمسكه من رأسه وليس من الذنب** " . أو وصف النتيجة المتوقعة لقصف دمشق : " **حتى نحول دمشق إلي كومة أحجار مثلما فعلنا من قبل فى القنيطرة أو حتى يتلقن السوريون درسًا** " . فعبارات " أن نمسك ثعبانًا ، " أن نحول إلى كومة أحجار " و " يتلقنون درسًا " ، هى عبارات لا إنسانية بارزة من النوع الأول .

وكل التعبيرات التى وجدتها فى " موليدت " «وطن» إما أنها من النوع الأول وتدل على لاإنسانية، وإما أنها من النوع الثانى . ولم أجد تعبيراً واحداً من النوع الثالث الذى هو تعبير

يتناقض مع خريطة المفاهيم المتعصبة القطيعية ، الذى يدل على المصدر غير المصاب باللاإنسانية. فعلى سبيل المثال ، يوجد هناك مقطع يقول : " **الديمقراطية هى شرط ضرورى للسلام . ويبين التاريخ أنه لم تقع أبداً حرب بين نظامين ديمقراطيين ولكن فى مقابل هذا ، فإن اتفاقيات سلام مع نظم ديكتاتورية لا قيمة لها** " .

وهذا الاقتباس ملائم لأنماط " نحن طيبون (ديمقراطيون) ، هم أشرار (ديكتاتوريون). ولو قيل عن " نحن " ، أى على أن السيطرة على عرب المناطق (الفلسطينية) تجعل منا ديكتاتوريين ، وطالما أننا لا نتنازل عنها فإن السلام معنا مستحيل ، لكانت تدل على المصدر (سواء أكان موقفه يبدو لنا صحيحًا أم لا) بأنه غير متعصب قطيعى فى ساحة النزاع السياسى ، نحن - أعداؤنا . ويثبت هذا بأن مجال عمى واحداً ، خطر إفساد معاييرنا الأخلاقية (القدرة على العيش فى سلام) ، عن طريق موقفنا فى النزاع غير قائم أو موجود لديه .

تتكشف فى المادة الخام للتفكير فى نزاع سياسى أنماط تعبير ثابتة موازية لمجالات العمى الثابتة .

وتتكرر فى كل أمة ولغة وزمان ، وهى كما أشرت من قبل ، ليست كثيرة جداً . ولنأخذ على سبيل المثال تعبير الاستراتيجية الذى رأينا : تأييد الترانسفير ، تأييد بناء مكثف فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، تأييد إخراج الأوقاف الإسلامية من " اسطبلات سليمان- المصلى المروانى" ، وضد الإفراج عن السجناء الفلسطينيين ، وضد الانسحاب من الخليل ، ومع إزالة الخوف من الجوييم ، تأييد تدمير المنصات ، وتأييد قصف دمشق . كل هذه الاقتراحات ملائمة لنمط واحد : وسيلة مواجهة النزاع هى بالقوة . والاقتراح الأخير ملائم أيضًا لنمط آخر للتفكير الاستراتيجى المتعصب القطيعى : عندما لاتفيد القوة (فى لبنان) الوسيلة هى استخدام مزيد من القوة . ونهاية هذه العملية هى ملائمة التعبيرات المختلفة للنمط العام " نحن طيبون وعلى حق - هم أشرار ومذنبون " وتنظيمها طبقًا للموضوعات العشرة لنموذج العرض يعطينا المظاهر المميزة (الأعراض) للاإنسانية والتى تمكننا من أن نحدد بصورة موضوعية ودقيقة هل تعبير معين ، فكرة ، أو رأى ، هو عرض للاإنسانية ، هذا محتمل ، ولكن ليس بالضرورة عرضًا ، أو أنه يتعارض مع خريطة المفاهيم المتعصبة القطيعية . وسنعرض قائمة منظمة مرتبة لأنماط التعبير المميزة ولمجالات العمى التى رأيناها من قبل ، فى الفصل التالى وبذلك حققنا الهدف الأول : سيصبح لدينا تعريف شهودى (عن طريق الملاحظة) يُمكن من التشخيص .

المصادر :

1 - Carl Rogres (1977): Carl Rogres on Personal Power, New York : Dell Publishing Co.

2 - Sumner, W.G. (1906), Folkways, New York : Ginn.

3 - Erik Erikson (1965), " Psychoanalysis and ongoing History: Problems of Identity Hatred and Nonviolance, " American Journal of Psychiatry 122, pp. 241 - 250.

4 - Aldous Huxley (1956), " Knowledge and understanding", in Tomorrow and Tomorrow and Tomorrow, New York: Harper & Brothers.

5 - Wendell Johnson (1972), Living with Change : The Semantics of Coping, New York: Harper & Row.

6 - Samuel I. Hayakawa (1972), Language in Thought and Action, New York : Harcourt Barce Jovanovich.

7 - Raymond Novaco (1979), "The Cognitive Regulation of Anger and Stress," in Cognitive Behavioral Interventions: Theory, Research and Procedures, ed. P.C.K. Kendall and S.D.Hollon, New York: Academic Press.

8 - Ian Vine (1987), "The Roles of Human Nature and Sociocultural Processes in Inner-group Discrimination," in The Sociobiology of Ethnocentrism, eds. V. Reynolds, V. Falger and I. Vine, London and Sydney: Croom Helm.

9 - Konrad Lorenz (1966) On Aggression, New York: Harcourt, Brace & World.

10 - Johan van der Dennen (1987), "In-group Out-group differentiation", in The Sociobiology of Ethnocentrism, eds. V. Reynolds, V. Falger and I. Vine, London and Sydney: Croom Helm.

11 - Arthur Koestler (1976), The Ghost in the Machine, New York: Random House.

12 - Simpson, E. (7891), " The development of political reasoning", Human Development, 30, pp. 268-281

الفصل الثالث

عَرَضْ اللاإنسانية

قال الباحث :

يجرى تنظيم مجالات العمى وأنماط التعبير طبقًا للموضوعات العشرة البارزة فى مجال النزاع السياسى ، وتشكيل قائمة أعراض اللاإنسانية . وأمامكم العَرَضْ كله ، القائمة الكاملة للأعراض مرفق بها نماذج وأمثلة . وقد درست إلى أى مدى أقدم تفصيلات وأكثر من الأمثلة وقررت أنه من الأفضل أن أفصل أكثر مما ينبغى عنه من أقل مما ينبغى . لكى تضمن أننا نطبق كما ينبغى وحسب أصول المبدأ الأساسى للنهج العلمى ، وعدم التحدث بتعميمات عن "ظواهر" ، بل أن نعرف ، مثلما لم نعرف أبداً من قبل ، عما نتحدث بالضبط فى الواقع الإنسانى .

ولدينا حاجة أيضًا إلى مصطلح متفق عليه : سنسمى الظاهرة " لا إنسانية " ، والنظرية "نظرية اللاإنسانية " وسنطلق على قائمة الأعراض التى هى مجالات العمى وأنماط التعبير تسمية " عرض اللاإنسانية " .

ونسمى الشخص المصاب باللاإنسانية ، باللغة العبرية التى لها جذور عميقة ، متعصب . وسيكون اللقب الذى سنستخدمه لتمييز المفهوم ، التفكير التعبير ، وعقلية المتعصب – هو متعصب / متعصبة / تعصب . وسيتم إيراد التعريف العملى الذى يُمكن من تشخيص شخص بأنه متعصب ، فى نهاية هذا الفصل بعد أن تعرفوا النماذج الأعراض .

وتوجد الإجابة الكاملة لسؤال البحث ، " كيف ينجح عتاة المتعصبين أيضًا فى أن يكونوا صديقين كاملين وحكماء كبار فى نظرهم " ، توجد فى ملحقات مجالات العمى ، وأنماط التعبير التى أمامكم. والعَرَضْ هو ما يفعله " الفيروس " للأشخاص بحيث لايرون وبحيث يرون كل الموضوعات الموجودة فى ساحة النزاع والحرب .

ويقول الشخص الذى يحمل شهادة فى النضال من أجل روح شعبه :

الاقتباسات الذى أوردها ، كباحث لكى أجسد وأصف عرض اللاإنسانية العالمية ، هى أيضًا شهادة تاريخية عن الجيل الأخير فى البلاد (إسرائيل) ومرآة تنعكس فيها أيضًا وجوهنا ومن شأنها أن تبدو قبيحة جداً عندما نفحصها فى ضوء هذا . ولكى أذكركم بأن المقصود ظاهرية إنسانية عامة وأدمجت بين الحين والآخر اقتباسات من أماكن أخرى فى العالم.

وكظاهرة ، تلك هى فى نظرى أكثر المظاهر دلالة فى التاريخ ، شهادة على ما يجرى لدى الأشخاص فى داخلهم : تيارات الأعماق . وتوجد هذه التيارات الأمواج والريح التى تتناولها عناوين الأخبار (المنشيتات) ويركب عليها السياسيون ، ولكن ما جرى فهمه فى السياسة وتم تسجيله كتاريخ هو فقط محصلة ونتيجة لمستوى الوعى السياسى فى المجتمع . والأمور المهمة فى تشكيل المصير السياسى ، بما فى ذلك مصير الزعماء ، هى ما يفهمه بنو الإنسان وما لايفهمونه ، يرونه ولا يرونه ، يفعلونه ولايفعلونه ، يعانون وليسوا مستعدين لأن يعانوا ، وتعكس الأمثلة والنماذج المعروضة أمامكم العقلية السياسية المسيطرة فى العالم ولدينا أيضًا.

وفيما يلى التزامن (تزامن الأعراض) كله مع ملاحظات وإيضاحات :

نحن - مجالات العمى :

١ - حقيقة أن " نحن " (الشعب ، الأمة ، الدولة) هو مفهوم مجرد ، وأنه يوجد فى الواقع ، بشر ، أفراد فقط . (" ماذا فعلت من أجل الدولة ؟" - عضو الكنيست السابق فلاتو شارون؛ " لا تسألوا ماذا تستطيع الأمة أن تفعل من أجلكم ، اسألوا ماذا تستطيعون أنتم أن تفعلوه من أجل الأمة " - رئيس الولايات المتحدة جون كيندى) .

٢ - خطر القطيعية ، وتغذية الهوية الجماعية بشكل زائد عن الحد على حساب الفردية.

٣ - احتمال أن نبالغ فى التقدير الذاتى لأنفسنا ونشعر ، بدون وجه حق ، بأننا متفوقون على آخرين « أى يهودى لا يريد السلام » .

٤ - احتمال أننا قد لانكون على حق ، أو ليس على حق محقين نهائيًا فى النزاع مع " أعداؤنا " (" لايجوز زعزعة الإيمان بعدالة طريقنا ") .

٥ - الحذر من الخطأ بالنسبة لـ " أعداؤنا " احتمال أننا كنا أشرارًا مثلهم أو (" أمم العالم") واحتمال أن نخطىء تجاههم الآن أو فى المستقبل (" كيف يمكن أن نشوه سمعة جنود الجيش الإسرائيلى ؟؟!") مقاطعة من عضو الكنيست عوفيديا عيلى ، فى النقاش حول قتل أطفال فى الانتفاضة) .

٦ - احتمال أن نخسر كنتيجة من عمليات الحرب التى سنبادر بها (تعبيرات مثل "فلنلقنهم درسًا " أو " من أجل أن يروا ويخافوا " هى فى مجال العمى بالنسبة لـ "نحن" . ولا يوجد " من أجل أن نرى ونخاف ") .

وتعطى مجالات العمى رقم ٣ ، ٤ قوة ومفعولاً لاختيار مفهوم " لاإنسانية" ، إلغاء الإنسانية بكل معنى الكلمة ، لوصف عَرَضْ التعصب . ولا تسرى اللاإنسانية على العدو فقط بل على أنفسنا أيضًا . فإذا كان أعداؤنا غير إنسانيين بالمفهوم السلبى ، فنحن غير إنسانيين بالمفهوم الإيجابى : نحن فوق إنسانيين ، لا يتوقع بالنسبة لنا أن نصبح غير محقين أو أشرارًا مثل أعداؤنا أو مثل كل " أمم العالم " . فالمتعصبون متحررون من الحذر من الخطأ، "على خلفية قومية متعصبة" ، كملائكة .

وفى مقابل المبدأ الجميل " أى شىء إنسانى ليس غريبًا بالنسبة لى " ، واحتمال ألا يجب أن نكون نحن دائمًا محقين تمامًا والحاجة إلى أن نحذر لكيلا نصبح أشرارًا مثل كل المجموعات الإنسانية العادية فى العالم ، هما أمران غريبان تمامًا بالنسبة لأصحاب المفهوم المتعصب ففى المصطلحات المتعصبة لايوجد مطلقًا تعبير استنكار ("نحن" فيما يتعلق بالنزاع ، وهناك نموذج مميز للنتيجة المتراكمة في خريطة المفاهيم وهو العنوان الذى رأيته اليوم فى صحيفة هآرتس " لماذا يهددون " . ولقد عرفت على الفور ، وقبل أن أرى من الذى كتب هذا (المعلق العسكرى لصحيفة " هآرتس " زئيفى شيف) وعن مَنْ (عن مصر) - عرفت أن " هم " لأن "هم" المهددون ليسوا " نحن " ، وعلى ذلك يمكن التدخل وأن نفوز فى كل شىء ، هذه هى النتيجة

المتراكمة لعالم مفاهيم لا نهدد فيه " نحن " أعداؤنا ، ليس هناك مثل هذا الأمر ، ولكن هناك مثل هذا الأمر لتزعزع كل الإساس السيكولوجى والأخلاقى لمقولة " نحن طيبون وعلى حق دائمًا " ، ومن المهم أيضًا أن نشير إلى أن كل استخدام لمثل هذا المصطلح ، غير المدرك بشكل عام ، يقوى العادة بالتوجيه طبقًا لخريطة مفاهيم محرفة. وتستوجب خلع الصفة الإنسانية على علاقات نزاع سياسى تغيير خريطة المفاهيم ، وعندما يحدث هذا يتمثل حقًا فوراً فى أنماط تعبير ملائمة لعلاقات إنسانية طبيعية وليس لعلاقات صديقين وأشرار .

قاموس مختصر لمصطلحات لاإنسانية
مألوفة وتتردد كثيراً

أعداؤنا	نحن
سنلقنهم درسًا	نحن سنستخلص دروسًا
هجمات إجرامية	إصابات فى الهدف ، عملية
قوميون متعصبون	ذوى قيم قومية
أصوليون	وطنيون
مخربون ، عصابات	مقاتلون
قتلة ، قتلة بدم بارد	نعطى أوامر بالقتل ، نصفى ، نطهر
من أجل أن يروا ويخافوا	لايمكن إخافتنا
بصلافة ، بوقاحة	فى خطوة جريئة
يهددون	نُحذر
شهيتهم تزداد	نستغل النجاح ، نفعل قدر استطاعتنا
يشوهون سمعتنا	نوضح ونشرح
غوغاء	جمهور غاضب

فلنضربهم حتى يخضعوا	لن نخضع للإملاءات
فلنضربهم حتى يتوسلوا من أجل السلام	ولكن حسبما أذلوهم هكذا نموا وامتدوا (الخروج١/١٢)
لكى لا يرفعوا رأسهم	نسير برأس مرفوعة ، شموخ
متعطشون للدماء	دماؤنا لن تكون مباحة
متعطشون لدمائنا	حتى آخر قطرة من دمنا
عقليتهم	طابعنا
يلقون حتفهم	يقتلوننا

نحن : أنماط تفكير وتعبير :

١ - *نحن طيبون / على حق فى مقابل الآخرين (" أكثر شعب مثقف فى العالم شق عمالقة مفكريه سبلاً جديدة فى كل مجالات العلم ... حصل علماؤه على جوائز نوبل أكثر من كل سائر الأمم » س شنيتسر - معاريف ١٩٨٤/٩/٢٦م)*

٢ - *نحن مقاتلون شجعان ، نحن وطنيون (" يهودى واحد يساوى أكثر من ١٠٠٠ عربى؛ " عضو الكنيست رحبعام زئيفى فى مقاطعة لكلمة فى الكنيست) .*

٣ - *مصلحة المجموع هى القيمة الأعلى ، مصلحة الفرد أقل أهمية ، الدم، الموت ، والتضحيات وليست فقط وسائل لحماية قيم إنسانية ، بل قيم فى حد ذاتها (" الدولة، وجود الدولة ، هو القيمة الأعلى من أجل هذه القيمة لاخيار ، يجب على الأفراد أن يضحوا بحياتهم ... لكن الدولة ، الدولة فوق كل شىء -أورشيم- أور ، صحيفة يديعون أحرونوت ١٩٨٣/٤/٢م) .*

٤ - *نحن على حق دائمًا ، فى الانتصار وفى الهزيمة . نحن لسنا عدوانيين بل نعمل للدفاع عن النفس . الدفاع عن ضحية عدوان ، عمليات وقائية ، أوامر عليا ، ثأر وما شابه ذلك .*

٥ - *نحن سننتصر ، إذا كنا مخلصين لقيمنا ، موحدون / عازمون وأقوياء.*

ولكى نعيش فى معرفة ماذا تعنى " نحن " فى المفهوم المتعصب ، فلتتذكروا المشاعر التى إحاطت بكم فيما يتعلق بـ " مكابيون نحن "(*) ابتداء من سن الحضانة . فلتتذكروا مشاعر التسامى والحماس الكامل التى أحطتم بها المجموعة الرياضية أو الفرقة المدرسية أو حركة الشباب أو أى مجموعة أخرى انحزتم إليها فى الطفولة وفى مرحلة البلوغ . ويمنح فيروس اللاإنسانية الإحساس بهذا التسامى للوطنيين المصابين به ، وهذا شعور ذو قوة هائلة، لايجوز الاستهانة به .

وفيما يتعلق بتلك المسلمة ، البديهية المألوفة . والتى مفادها أن كل شعب يعتبر نفسه متفرداً سامى المكانة ومختاراً ... هناك فجوة بين المعرفة العامة وبين المعرفة القريبة من خلال تجربة . فالمعرفة القريبة عن أخطاء تفوق شعوب أخرى ربما يمكن أن تساعد شخصًا ما فى رؤية هذا الخطأ الغريب لدى أنفسنا .

وأذكر أنه على الرغم من أننى سمعت أن لكل شعب أيديولوجية قومية لتفوق على آخرين، فوجئت لسبب ما عندما علمت أن المجر فى نشيدها القومى هى الريشة فى قبعة الله ، أو كما قالوا لى ، أن الرومانيين يعتبرون أنفسهم استمراراً للإمبراطورية الرومانية ، وحتى يسمون أولادهم بأسماء مثل تراينوس ، أو ريانوس والشخص الإنسانى ، طبقًا لمفاهيمى ، يبدو ويظهر فى قدرته على النظر إلى الكبرياء القومية لشعبه مثل كبرياء أى شعب آخر .

وليس لنمط الكبرياء القومية ، على الرغم من نفى المعنيين بالأمر لذلك ، مغزى أو مدلول بدون نظرة متعالية على قوميات أخرى . فعلى سبيل المثال تلك الفقرة من كلام شموئيل سنتير التى أوردها كمثال ، " أكثر الشعوب ثقافة فى العالم الذى شق عمالقة مفكريه سبلاً جديدة فى كل مجالات العمل ... " لها بقية : " إن تدهورنا مضطرد وأسرع من كل الدول البدائية ، كل ممالك الجهلاء وجمهوريات الأميين وكل مجتمعات الهمجيين فى العالم " ... هكذا الأمر . من المؤكد أن الاقتباس السالف الذكر ينضم إلى بقية مميزات ومناقب سنيتسر عندما تم

---

* – نسبة إلى حركة مكابى " الاتحاد العالمى لتنمية الثقافة الدينية بين اليهود " الذى تأسس فى المؤتمر الصهيونى الثانى عشر فى سنة ١٩٢١ . والاسم مشتق من اسم نتنياهو هاكوهين وأبنائه ، وينظم الاتحاد دورة عالمية للرياضيين اليهود فى إسرائيل .

اختياره كفائز بجائزة إسرائيل وما أحبط اختياره فى النهاية كان هذا فقط أنه كتب ذات مرة بشكل غير لطيف عمن نجحوا فى أن يدخلوا إلى مقولة "نحن"، مهاجروا أثيوبيا .

والنمط رقم ٣ هو نمط الحماس من الحرب . واتذكر من فترة طفولتى فى بولندا أناشيد بطولة كتلك التى ألهبت حماسى جداً : " كم هى جميلة الحرب " ، وكلمة " حرب " فى الأصل هى بصيغة التصغير " حريبة " مثل اسم ملاطفة لفتاة جميلة ... ويشكل ذلك النشيد الساذج والبعيد نموذجًا ومثالاً آخر على الدقة فى اختيار مصطلح " لا إنسانية " لوصف العَرَضْ ، لأن بقيته هى : " عندما يسقط الفارس من على جواده ، لا يأسف رفاقه عليه ، بل يدوسونه بحوافر جيادهم " . والبشر بينما كانوا لا يعتبرون القتال شيئًا جميلاً ، بل العكس ، أنهم يأسفون على موت رفاقهم ، وعلى ذلك فإن هذا النشيد وبدون أية علاقة لمن ضد من ومن الذى هو على حق : هو نموذج ومثال لشىء ما غير إنسانى ، لا إنسانية وضع الحرب . وأفلام الغرب الأمريكى هى صنف كامل من هذا القبيل ، وأفلام الإثارة العصرية تتفوق عليها فقط فى تحويل الموت والقتل إلى شىء ما جذاب ويلهب الحماس .

وعندما سمعت باللغة العبرية أنه " جميل أن نموت من أجل بلادنا " كنت كبيراً بما فيه الكفاية لكى أفسر هذا على أن طرومبيلدور(*) كان يقصد أنه من الأفضل أن نموت من أجل بلادنا عن أن نموت مثلما مات يهود فى مذابح فى المنفى . ولم يكن يقصد أنه من الأفضل أن نموت " ... فى بلاد لا تستوعب أنماطًا مثل تلك الشائعة فى ثقافة الشهداء لدى الفلسطينيين . وكان نمطنا المركزى هو الحزن والثكل ، باب الواد ، صينية من الفضة ، ها هى ملقاة جثثنا .... جثعات هاتحموشيت ، أنشودة السلام ، الأسطورة القومية للانتحار الجماعى فى متسادا ليست تبجيلاً للموت ، لأنه يفهم على أنه حالة لم يكن فيها لدى المقاتلين اختيار بين الحياة والموت بل بين موت مثلما اختاروا أن يموتوا وبين مصير أفظع منه .

وقد ظهر نمط التعبير ، الذى يرفع من مكانة الحرب ذاتها ويجعلها قيمة ، من بداية حرب لبنان فى الصحافة ، خاصة صور مواطنين متحمسين إسرائيليين ولبنانيين ، يهتفون لدباباتنا ،

---

* - طرومبيلدور : يوسف طرومبيلدور (١٨٨٠-١٩٢٠) من مواليد شمال القوقاز ، هاجر إلى فلسطين سنة١٩١٢ ، وشكل مع زئيف جابوتنسكى فى بريطانيا كتيبة عبرية من اليهود المهاجرين من روسيا وعاد إلى فلسطين عام١٩١٩ ، وقتل فى معركة تل حاى على يد رجال المقاومة الفلسطينية ، وأطلق اسمه على حركة الشباب الصهيونى بيتار وهى الأحرف الأولى من كلمة «حلف يوسف طرومبيلدور» .

فى حين يرش اللبنانيون الأرز والكرز ، غير أن الحرب فى المناطق (الفلسطينية) بما أنها كانت فى الحقيقة عملية محافظة على النظام ضد مهزومين . لم تتمخض عنها قصص حماسية فى الصحافة فى القنوات الرسمية . ولم تكن هناك أوسمة على بطولة فى منع حدوث " تجاوزات " . وبحسب رأيى ، فإن نظرية اللاإنسانية هى فقط القادرة على توضيح وشرح هذه الظاهرة : إذا كان أعداؤنا مذنبين دائمًا ونحن طيبون وعلى حق مسبقًا ودائمًا ، فإن تلك البطولة الأخلاقية المطلوبة لمنع حدوث ظلم من من جانبنا ، أى أن نعارض مظاهر نظرة غير إنسانية من جانبنا تجاه أعدائنا المهزومين ، ليست جزءاً من خريطة المفاهيم ، وهى فى مجال العمى ، ويأتى أبرز مثال فى مجموعتى للتحمس من تلك الحرب ، من جنود بسطاء وليس من متحدثين رسميين أو مراسلين . وينعكس فى تحقيق صحفى فى صحيفة يديعوت أحرونوت (١١/١١/١٩٩٤م) عن جنود سرية المناطق الأولى " أشحر " الذين اشتهروا عندما قام جنود مجموعة أكبر منهم بالهروب إلى بيوتهم لأنه لم تكن لديهم هناك أحداث مثيرة "أكشن" وذكروا فى غزة كان هناك "أكشن" . كنا نمزقهم بالضربات . كل شىء تدهور عندما "خرجنا من هناك : وجدنا أنفسنا نقوم بحراسة دار حضانة" .

وأكثر تعبير متطرف عن نمط التبرير الذاتى والتماس العذر (٤) هو فكرة حرب مقدسة ، حملة صليبية ، جهاد ، " حرب جهاد " . حقًا أن الحاخامية الرئيسية فحصت ووجدت فى حينه أن حرب لبنان كانت حرب جهاد ، ولكن أنماط التبرير الذاتى المميزة فى إسرائيل ليست دينية بل علمانية ، طبقًا لمبدأ الدفاع عن النفس . وكان أبرز صورة من " حرب التحرير " (حرب ١٩٤٨م) هى الجدى بين الذئاب السبعين ، والذى يده ممدودة للسلام .

تَذكِرة : حقيقة وجود أنماط التبرير الذاتى والتماس العذر لأنفسنا هى دليل على أن العدوانية الإنسانية الطبيعية ليست خلواً من اعتبارات أخلاقية ، بل العكس ، أنها غير ممكنة بدونها ، وتنجح أنماط العمى والتفكير فى أن تسخر الاعتبار الأخلاقى لأغراض خريطة المفاهيم، التى تضمن دائمًا أن نكون على حق وليس إلغاؤه .

نماذج على تعبيرات ملائمة لأنماط اللاإنسانية فى النظرة إلى " نحن " :

١ - " لأن الخراب ليس بالضرورة انتقال من الموجود إلى غير الموجود . خضوع ، من خلال رضا وسكينة وسلام الآن ، يشكل مثل هذا الانتقال بالضرورة .... لولا أن جرى أنذاك تخريب القدس ومتسادا مثلما خُربت – بدم ونار التمرد الكبير ، لكانت القدس قد ماتت فى تفسخها"

(إيلياهو عميقام ، « صحيفة يديعوت أحرونوت ١٩٨٤م») . وهذا تعبير على وجود مجال العمى رقم ١ : موت ، خراب ، وجود تنسب إلى المفاهيم المجردة (" القدس " ماتت) . حياة الإنسان الحقيقى (رضا ، سكينة ، سلام) . ليست القيمة العليا . وتبرز فى هذا المقطع أيضًا العلاقة بين اللاإنسانية وبين مفهوم الزمن التاريخى الذى لا توجد فيه أهمية للحقب الزمنية الجوهرية فى حياة الإنسان) .

٢ - **" توسيع الأسرة - هدف قومى "** - (الدكتور يسرائيل بيليد ، يديعوت أحرونوت ١٩٨١/١١/٥م) - تعبير عن وجود مجال العمى رقم ١ : يدعو المؤلف إلى إخضاع اعتبارات الرغبة الشخصية الأسرية للهدف القومى للحرب ، حرب ضد " أعدائنا " بواسطة الزيادة الطبيعية .

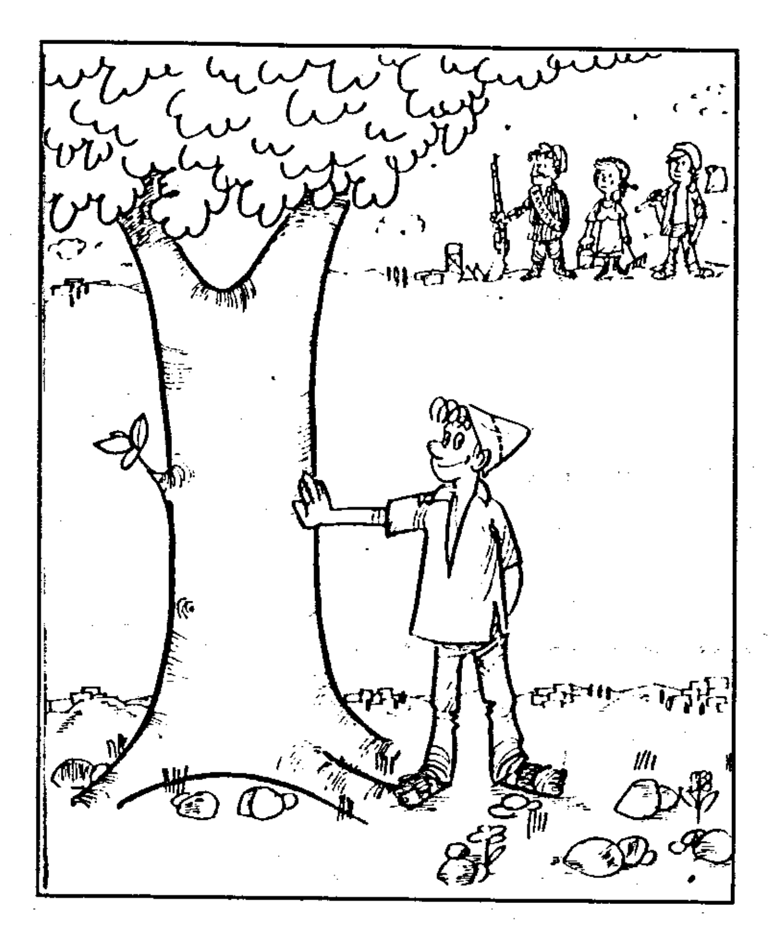
٣ - **" لدى ثقة كاملة فى أجهزة الأمن . كلهم يهود ، يهود متحمسون "** (عضو الكنيست، أ. شابيرا فى خطاب الكنيست حول قضية الأتوبيس ٣٠٠ ، ١٩٨٦م) . تعبير عن وجود مجال العمى رقم ٤ : الحذر من ارتكاب الخطأ والحفاظ على الأوامر . فيما يتعلق - بالنضال نحن - أعداؤنا .

٤ - **... " هو الجنرال راتكو مالاديتش) حذر الغرب أن يبتعد عن البلقان أو أن يستعد لعمليات قصف محتملة لمواجهة من جانب الصرب "** (حداشوت ١٩٩٣/٥/١٨م) عَرَضْ لمجال العمى رقم ٦ : احتمال ألا ننتصر بل نخسر .

٥ - **" هذه بلادنا وليست بلادهم "** - بنيامين نتنياهو فى مركز حزب الليكود **" إننى أرى قدسية فى حقنا التاريخى على كل أرض إسرائيل "** إريئيل شارون ، نفس المصدر (هارتس ١٩٩٣/١٠/٢٠م) نمط رقم ١ : نحن على حق .

٦ - **" نعم ، لبنان أيضًا تابعة لنا ، فالملك سليمان ما كان سيأخذ خشب أرز لبنان من مكان لا يملكه "** إحدى النسوة تقول بمواكبة جوتة موافقة ، فى اجتماع حركة " حباد " للمراسلة الصحفية نيلى ميندلر (هارتس ١٩٨٩/٨/١٠م) نمط رقم ٦ كما ذكرنا سلفًا .

٧ - **" من الجدير أن يعرف الشباب المشكلة اليهودية ووجهة النظر اليهودية .. لم يكن للشعب اليهودى دور فى التاريخ المسيحى ، التى وصلت إلى ذروته فى أوشفيتس - من نظرية للحب إلى إبادة شعب"** - أهرون يادلين ، وزير التعليم سابقًا ، (كيبوتس ، المجلة الناطقة باسم الحركة الكيبوتسية الموحدة ١٩٨٩/٣/٥م) نمط رقم ٤ كما ذكرنا سلفًا .



* نحن طيبون وعلى حق فى الماضى وفى الحاضر - رسم كاريكاتورى للرسام دوش على خلاف ملحق إعلانات خاص بصحيفة معاريف " للاستيطان ، للاستثمارات وللصناعة والتعليم فى الضفة الغربية وقطاع غزة ١٩٨٧/٨/٧م.

٢ - أعداؤنا : مجالات العمى :

١ - إنسانيتهم ، حقيقة أن كل واحد منهم هو إنسان بشر مثل كل واحد منا . (" عربى طيب هو عربى ميت " ليست سوى رواية عبرية لمقولة " هندى أحمر طيب هو هندى أحمر ميت" ، وبالتأكيد لروايات محلية مماثلة بلغات كثيرة فى كل العالم).

٢ - فرديتهم ، الفروق بين كل واحد منهم وكل واحد آخر (" كنا فقط جيرانًا مع اليونانيين ، ولم نكن أبدًا أصدقاء ، وهل يمكن أن تكون صديقًا لليونانيين ؟ " - امرأة تركية لصحفى إسرائيلى فى قبرص ، يناير ١٩٩٧م) .

٣ - المعطيات عن أنهم متغيرون ، إذا حدث تغيير إيجابى تجاهنا بين " أعدائنا " فإنه يفهم على أنه خدعة حرب تضليل ، وفقط عندما يتغير أعداؤنا طبقًا لما هو ملائم للنمط القائم فى خريطة المفاهيم " هم أشرار بطبعهم " ، يُقبل التغيير بكل صعوبة ، على سبيل المثال ، أنهم يتسلحون بسلاح فتاك حديث .

٤ - انجازاتهم وصفاتهم الإيجابية كمجموعة (" رفعناهم من البؤس والروث وهم ناكرون للجميل " - الحاخام الأكبر مردخاى إيلياهو) .

٥ - إمكانية أن توجد أو يحتمل أن تكون هناك ، عدالة فى موقفهم فى النزاع معنا .

أعداؤنا : أنماط تفكير وتعبير :

١ - هم أشرار بطبعهم : همجيون ، حيوانات ، عبدة أوثان ، شبه بشر جنس متدنى ، ثقافة متدنية ، (" أكلة أفاعى ، ضفادع ، خنازير " ومشابه ذلك) ... إلخ .

٢ - هم حمقى أغبياء ، قذرون ، لصوص ، محتالون ، مختطفو أطفال ، قوادون ، مصاصو دماء وماشابه ذلك (آراء مسبقة سلبية) .

٣ - هم متطرفون فى عدائهم لنا ، متعصبون ، قوميون متطرفون ، أصوليون .

٤ - هم أشرار : يهددوننا ، يرتكبون أعمالاً وحشية وفظائع ، يريدون أن يحتلونا ويسيطرون علينا وإبادتنا ، الاستيلاء على أراضى ، أماكن عمل ، نساء ، ارتكاب جرائم ، وتلويث وما شابه ذلك (" انسحاب من الجولان يُقرب السكين من رقبة سكان الجليل " عضو الكنيست عوزى لنداو ، ١٩٩٥م) .

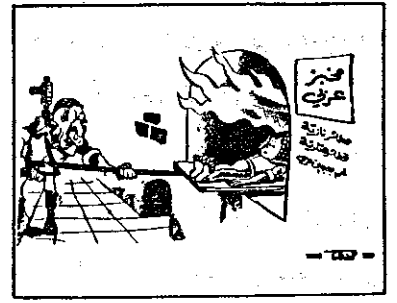
٥ - إنهم لايفهمون سوى القوة ، ويسيئون استغلال بوادر حسن النية للمصالحة والتنازلات من جانبنا ، ويفسرونها على أنها ضعف . (الظاهرة المعروفة فى النظريتباعتباره "الخطأ المستغرق فى العرقية فى عزو النوايا ") .

النمطان ١ و ٢ هما أنماط اللاإنسانية الكلاسيكية ، الآراء المسبقة بشأن كون " أعداؤنا" ليسوا بشراً مثلنا . وبما أن هذه الأنماط هى أنماط عنصرية ، فإنها أصبحت أقل شعبية فى العالم المعاصر الذى تغطى وسائل الإعلام كل شىء فيه ، والذى يرى فيه الجميع نماذج لنجاح ، لقدرة ولقوة أبناء كل الأجناس والألوان ، ولكن منذ فترة ليست طويلة ، فى الحرب العالمية الثانية . شعرت القوات البريطانية فى سنغافورة بأنها آمنة من غارات طائرات يابانية، لأنها اعتقدت أن اليابانيين غير قادرين على إصابة الهدف بسبب أعينهم المائلة .

لقد كان الاستعمار الاستيطانى مصدر فخر بالنسبة للدول الاستعمارية (الموشافوت الأولى فى البلاد سُميت " مستعمرات " ، ولم تكن كلمة فظة كما هى اليوم . وفى ثقافة رجل الشارع لدينا ، وإلى فترة غير بعيدة ، كان العمل العربى عمل شىء وكانت دولاً عربية بدائية والعرب كانوا جبناء وكانوا يهربون فوراً فى القتال . ويجب أن نرى ونقدر التغيير الذى طرأ فى مثل هذه المفاهيم لدى أناس كثيرين جداً فى دول كثيرة فى العالم . وتلك هى التغييرات الجوهرية فى التاريخ ،بحسب رأىّ ، تغييرات فى " تيارات الأعماق " . ومن المهم جداً ألا ننسى أنه يحتمل تغيير جوهرى فى النفسية السياسية ! .

تتلائم معظم تعبيرات لا إنسانية العدو لدينا مع النمط رقم ٦ ، النمط الذى العدو طبقًا له هو مسخ وحش . وفى الواقع الإسرائيلى فى الجيل الأخير تشكل تعبيرات طبقًا لهذا النمط سيلاً يوميًا جارفًا هائلاً فى الثقافة وفى وسائل الإعلام . وسنورد بضعة نماذج فقط لكى نوضح جوانب معينة لهذا النمط ، السبب الرئيسى للاإنسانية ولنتائجها الوحشية والفتاكة جداً . أولاً ، أوصاف وحشية وبربرية أعمال العدو ، أو استنكار متطرف مثل هذه الأعمال ، ملائمة حقًا للنمط ولكنها ليست بالضرورة مظهراً للاإنسانية . ويمكن أن تكون حقيقة مؤكدة.

تبدو اللاإنسانية فى أوضح صورة عندما يوصف العمل ذاته بأنماط لغوية مختلفة ويثير ردود فعل أخرى إذا قام به " أعداؤنا " (على خلفية قومية متعصبة) أو قام به أناس مثلنا . على سبيل المثال " أيديهم ملطخة بدم يهودى " أو " قتل دنئ وشنيع " هى تعبيرات لأعمال تتم فقط " على خلفية قومية متعصبة " .





١ - اليهود يخبزون فطائر عيد الفصح « المساء المصرية - نشرت فى مجلة نقودا »

٢ - حاول أن تكون إنسانيًا (معاريف ١٩٨٧/١٠/١٢)

يوجد أحيانًا بين بنى الإنسان ، بيننا وفى كل مجتمع قتلة فظعاء " مسخ بشرية " تكسبهم أفعالهم هذه الأوصاف . هذا جزء من وضعنا الإنسانى وله تعبير ملائم فى خريطة مفاهيمنا عن المجتمع الإنسانى . ولكن هذه اللاإنسانية هى شىء ما آخر . وهناك مشاعر أخرى وردود فعل أخلاقية مختلفة ولها تعبير مختلف تمامًا عندما تكون الفظائع هى فظائع نحن - نحن ، فى مقابل فظائع أعداؤنا - نحن . وعندما نسمع تعبير مثل " كنت سأقتلع عيون وأمزق أمعاء القتلة من بينهم " (عضو الكنيست مئير كوهين أفيدوف ، ١٩٨٦م) ، أو أرى عنوانًا ضخمًا على عرض الصحيفة " الأنذال " نفهم أن القتلة هم " أعداؤنا " . لأننا لا نتحدث عن معنيين آخرين بهذا النحو . فعلى سبيل المثال ، قبل نحو سنتين تم القبض على اثنين من القتلة الذين قتلوا الجندى إيلان بسطيكر من بئر سبع ، من أجل أن يسرقوا بندقيته. وكان يهوديان قتلاه على خلفية جنائية . وتحدثت الصحافة عن هذا فى مساحة متواضعة وبعد مرور نحو بضعة أيام ، قام القتلة بإعادة تمثيل الجريمة فى نفس الحى فى بئر سبع ، ولم يحدث أحد اضطرابات ولم يكن هناك " جمهور غاضب " حاول الانتقال منهما ، مثلما حدث هذا فى كل المرات الأخيرة لهجمات " على خلفية قومية متعصبة " . ولم تُتهم الحكومة فى هذه الحالة بالتخلى عن الأمن وكل رد فعل على عملية القتل المريعة وعلى التراجيديا كان إنسانيًا وموضوعيًا ، مثلما ينظر الأشخاص للأمور عندما لايكونون تحت تأثير اللاإنسانية .

وتعتبر التعبيرات البارزة لوجود مجال العمى رقم ١ ، الذى يغطى على حقيقة أن حياة كل واحد من " أعدائنا " هى حياة إنسان مثلنا تعتبر ردود أفعال " نحن " على الحالات التى قتل فيها مدنيون أبرياء ولكنهم ينتمون إلى " أعدائنا " ليس بسبب القتال الذى له ما يبرره بل كنتيجة لخطأنا البشرى .

فعلى سبيل المثال ، نفس الخطأ البشرى لرجال مدفعية فى عملية " عناقيد الغضب " (١٩٩٦م) والذى قتل بسببه ١٢٠ مدنيًا . بما فى ذلك شيوخ ونساء وأطفال ، فى معسكر قوات الأمم المتحدة فى الناقورة (الباحث ذكر الحقائق بأمانة . وعالم النفس السياسى والإنسان فى داخلى يهتم بألا تقفزوا على مدلول هذا المعطى المجرد ، تخيلوا ماذا كان سيحدث لو أن قذيفة هاون واحدة قتلت عن طريق الخطأ ١٢٠ مدنيًا ، شيوخ ونساء وأطفال منا نحن) . ولم تنشر أى ردود فعل تعبير عن ندم ، صدمة وأسف من جانب المعنيين بالأمر. وقد أوضح رئيس الحكومة بيريس بهدوء وسكينة أمام الشعب الذى يشاهده عبر التليفزيون

بأنه لم يكن هناك أى خطأ فى الاعتبار . ولكن كان هناك خطأ بشرى فنى ، ولم يعرب عن أية كلمة ، صدمة أو ندم . وعندما قتل ثلاثة جنود خطأ بنيران جنودنا نشر كلام مميز ، إنسانى ، مثل " سيضطرون إلى أن يعيشوا بشعور بهذا الذنب المريع طوال حياتهم".

أمثلة على التعبيرات الملائمة لأنماط اللاإنسانية بالنسبة لـ " أعدائنا " :

١ - لايوجد حيوان أسوأ من العرب ، العرب هم بمثابة حيوانات ، كل العرب يكرهون إسرائيل" - الزعيم الروحى لحركة شاس ، الحاخام عوفيديا يوسف فى اجتماع لاتباعه : (صحيفة هاآرتس ١٩٩٣/٣/٢٣م) ، مجال عمى رقم ١ و ٢ .

٢ - فى نظر مرشدنا ، آلاف الأشخاص البائسين ، القذرين الخائفين هؤلاء كانوا طليعة قطعان المسلمين الذين نجحوا تقريبًا فى اجتياح كل أراضى الأمة الصربية المسلمون يرتكبون فظائع لا حصر لها ، يعددها ويصفها مرشدنا ، بينما تتكرر فيها طوال الوقت خناجر ، حراب" (وصف صحفى لجولة فى البوسنة فى الجزء الذى يقع تحت سيطرة الصرب ، تيويوركر ، ١٩٩٣م) نمط رقم ١ ونمط رقم ٣ - أعداؤنا متعصبون .

٣ - فى الملعب الذى عليه يتبارون من الذى يكذب أسرع ، أبعد وأعلى وأقوى ليس لـ(م.ب.ف) منافسون ، ولو أقيمت ألعاب أوليمبية للكذابين لأخذت كل الميداليات الذهبية (أورى بورات ، يديعوت أحرونوت ١٩٨٩/٩/٢٢م) نمط رقم ٢ هم مخادعون وغير ذلك .

٤ - إن السماح لفيصل الحسينى بالاستمرار فى التجول حراً طليقًا فى القدس . هو مثل أن نسمح لعرفات بأن يتجول طليقًا فى القدس ، ومثل أن نسمح بأن تسيل دماؤنا طليقة فى شوارع إسرائيل " جيئولا كوهين (يديعوت أحرونوت ١٩٩١/١٠/٤) نمط رقم ٤ " يريدون إبادتنا " .

٥ - يتسحاق لا تضحى بنفسك - ليس كما هو الحال فى حالة يتسحاق إبن إبراهيم - لاينتظر يتسحاق شامير كبش يمسك بشدة بقرنيه ، يصعد ليكون ذبيحًا بدلاً منه . النار هنا ، الأشجار والسكين - ولكننا نحن هنا مكبلون على المذبح ، " الحمل للقربان الذى سيحرق كلية" (جيئولا كوهين فيما يتعلق بمؤتمر مدريد (يديعوت أحرونوت ١٨ / ١٠ / ١٩٩١) نمط رقم ٤.

٦ - معسكرات الإبادة الألمانية " فكروا فى دور نقاهة كوبات حوليم[1] فى مقابل ما سيفعله العرب بنا هنا إذا ضعفنا " رفائيل ايتان (هاآرتس ١٩٨٣/٨/٢٣م) نمط رقم ٤ .

٧ - أعطونا السلام ، يصرخ الشعب بدون أن يلاحظ الأخطار المخيفة التى تتهدد وجود إسرائيل فى حد ذاته " . إرئيل شارون (صحيفة يديعوت أحرونوت ، عيد الفصح ١٩٩٦م) .

٨ - أنتم الحاجز الذى يفصل بيننا وبين خطر الفناء " رئيس الحكومة يتسحاق رابين فى تهنئة رجال جهاز الدفاع بعيد رأس السنة العبرية ، فى نهاية السنة التى وقع فيها على الاتفاق مع م . ت . ف سبتمبر ١٩٩٤م ، نمط رقم ٤ .

ملخص الكلام عن صورة العدو فى المفهوم المتعصب :

إن الاعتقادات والأحاسيس بالنسبة لـ " أعداؤنا " ، مجالات العمى وأنماط التفكير والتعبير ، هى مركز منظومة التوجه المتعصب ، وهى المحور المركزى الذى تنتظم حوله خريطة المفاهيم ، وهى لب اللاإنسانية . فصورة العدو هى مركزية فى مصطلحات المنطق الداخلى للمفهوم ، لأنه بدون " أعداؤنا " لا يوجد أيضاً " نحن " ، وينقسم " نحن " ، كما هو الحال فى العلاقات الاقتصادية ، الاجتماعية والمشاكل الداخلية إلى أجزاء أجزائه الإنسانية . والعدو الشرير الذى يعرض وجودنا للخطر ويُلزمنا طوال الزمن بأن نكون مستعدين للحرب هو مقوم ضرورى فى وجود الشخصية المتعصبة ، بدونه يتفكك ويتفتت التعصب هوية وأخلاقية.

كما أن الشخصية التى توجه طريقها فى العالم فى مواجهة العدو الذى مر لديها مسار اللاإنسانية تحركها طاقة وجدانية لعداء ، وذنب ، خوف وذنب مكبوت، ويصبح هذا المفهوم وأداوه ممكنين بمساعدة عقلنات نرجسية ، وفى كل هذه الأمور تدعمها المنظومة الاجتماعية ومشاعر قوية ، وشحنة وجدانية هائلة . فالشخص الذى يقول " إننى أعرف العرب ، لايجوز أبداً أن نصدقهم ونثق فيهم ، فإن جزءاً كبيراً جداً من هويته ومن قيمته الذاتية يؤيد هذا الاعتقاد وما ينبثق عنه ، ومشتقاته فى معظم الحالات ، ولو تنازل عنه فإنه سيفقد ويتخلى عن كل ذخائره الروحية . وهذا هو السبب فى أن الأشخاص الذين يميلون إلى التعصب يردون

---

١ - صندوق التأمين الصحى التابع للاتحاد العام للعمال فى إسرائيل ، الهستدروت .

بعدوانية ، فى الغالب بعدوانية فورية وشديدة ، التى هى أكثر وسيلة دفاع مضمونة لحماية البنية الاجتماعية من أن تهتز وتتزعزع ، فى مواجهة كل معارضة لمنظومة مفاهيمهم . ومن هنا واضح ، مثلما أحس كل واحد بالتأكيدأ ن تجربته الشخصية ، أن أسلوب النظر بحكمة وفطنة إلى مَنْ يقول أن معسكرات الاعتقال النازية ستكون مثل دور نقاهة ، تابعة لكوبات حوليم(*) إذا ما ضعفنا ، ليس أن نتناقش معه أو أن نوضح ونشرح له الفرق بين المؤسستين، دار نقاهة كوبات حوليم ومعسكر اعتقال نازى . حيث سنحتاج فى علاج هذا المرض إلى أدوات ووسائل جديدة ، وإلا فستكون هذه مهمة مستحيلة .

٣ - رقيقى المشاعر - مرهفى الحس : مجالات العمى :

١ - ***احتمال أن مواقف رقيقى المشاعر ومرهفى الحس ، هى مواقف مشروعة من ناحية مصالحنا وهم أنفسهم متزنون عقلاء يعملون من خلال رغبة فى أن يحسنوا الصنع معنا . "إننى انتظر بنفاذ صبر وتبرم أن يكتب مفكرونا الذين هم فى نظرهم " صديقو الجيل ، مثل يزهار سيملانسكى ، حاجور ، أ.ب.يهوشواع ، ناثان نراخ - أن يكتبوا أشعار مديح عن الأطفال العرب المساكين الذين يبيعون التين بداخله شظايا زجاج لعابرى سبيل يهود . ماذا فى هنا ؟ إنهم أرادوا فقط قتل يهود ... " رسالة قارىء لهيئة تحرير صحيفة دافار ٢٣/١٠/١٩٨٨م .***

٢ - ***احتمال أن سياسة تصالحية وتسعى إلى تفاهم مع العرب تفيدنا أكثر فى حين أن السياسة الأكثر شدة ضدهم تضرنا أو تفيد بشكل أقل .***

٣ - ***احتمال أن رقيقى المشاعر يعملون من خلال دافع أخلاقى حقيقى (سبق أن اشتبه فى النبى عاموس بأنه عميل أجنبى) .***

٤ - ***احتمال أن الإنسان نفسه مخطىء فى أنه لا يؤدى واجبه الأخلاقى لحماية " نحن " من أعمال إجرامية ضد أعدائنا ، وخطر لا إنسانية " نحن " والإنسان نفسه (المتباكين ورقيقى المشاعر هم الذين يشغلهم الجانب الإنسانى من المشكلة الفلسطينية ... مظالم الاحتلال لا تشغلنى) وزير الإسكان بنيامين بن اليعيزر) .***

---

* - كوبات حوليم " صندوق المرض " صندق العلاج الطبى التابع للاتحاد العام للعمال فى إسرائيل ، الهستدروت (المترجم) .

٥ - حقيقة أن نحن - الأمة ، الوطن ، الشعب ، والزعامة أو الحكومة أو حزبنا ، ليسوا نفس الشيء ، وعلى ذلك فإن المعارضة للحكم ليست بالضرورة خيانة للوطن ، فى حين أن تأييده يمكن أن يكون كهذا (" لأسفنا الشديد ، يوجد بين الأدباء والفنانين مثل هؤلاء الذين بدلاً من مساعدة الشعب فى مواجهة المشاكل الصعبة التى نتصارع معها يتخصصون فى الإساءة إلى صورة الدولة والتشهير بشعبنا الذى يناضل ببطولة ... " ليونيد بريجنيف ، فى المؤتمر الثالث والعشرين للحزب الشيوعى السوفيتى .

رقيقي المشاعر : نمط تفكير / تعبير :

١ - يؤيد رقيقوا المشاعر أعداءنا (خونة ، طابور خامس ، يطعنون فى الظهر ، محبون للعرب ، محبون للزنوج Niggerlovers) وغير ذلك .

٢ - رقيقو المشاعر هم أشرار (معايير مزدوجة ، منافقون ، مداهنون ، ذئاب فى جلد حمل، فارون من الجندية ، متعالون ، وغير ذلك) .

٣ - رقيقو المشاعر هم أناس مرضى من الناحية الروحية (قلوب تنزف دمًا ، سذج ، حمقى انهزاميون ، جبناء كارهون لأنفسهم ، ينعدم لديهم احترام النفس ، يقودون إلى انتحار قومى ، وغير ذلك) .



نمط رقم (١) : " رقيقو المشاعر " التليفزيون الإسرائيلى يؤيد " أعداءنا "
- خونة ، طابور خامس وغير ذلك - كاريكاتير مجلة " نقودا " ص ٩٦ بتاريخ ١٩٨٦/٢/٢١

" رقيقو المشاعر " ليسوا سوى أولئك الأشخاص الذين يعبرون عن مدركات الواقع السياسى الذى هو مجال عمى فى اللاإنسانية . أولئك أشخاص نظهر نحن وأعداؤنا على خريطة مفاهيمهم كبشر ، مثل الجميع . وفى إسرائيل تشكل أنماط اللاإنسانية بالنسبة لرقيقى المشاعر جزءاً كبيراً جداً من النقاش الجماهيرى العام ومن الحديث السياسى بين كل شخص ورفيقه . والبروز الهائل لهذا الموضوع مميز لإسرائيل الجيل الأخير فى مقابل أى دولة أخرى . وأحد الأسباب المؤكدة هى أن إسرائيل هى الدولة الوحيدة التى يوجد فيها دائمًا حرب وأيضًا حرية تعبير وحرية صحافة . وقد اقتربت أمريكا فى فترة حرب فيتنام من هذا الوضع - المستمر هنا منذ أكثر من ثلاثين سنة على التوالى .

فقبل ١٩٦٧م كانت هناك تعبيرات أقل بكثير طبقًا لتلك الأنماط ، ويدل هذا الأمر على أن السبب الثانى فى أن رقيقى المشاعر يتعرضون لهجوم فى أيامنا ، هو أن إسرائيل ، منذ سنة ١٩٦٧م هى الدولة الوحيدة فى العالم التى لا يتفق سكانها على مساحتها ، ويختلف سكانها فى موضوع هويتهم الحقيقية على الأرض ، فى مسائل مثل أين نوجد نحن، وأين لانوجد نحن. وهذا يخلق عدم اتفاق حول ذات عدالة موقف الدفاع عما نملكه ، عما يخصنا (موقف الإجماع) فى مقابل الدفاع عن المناطق المحتلة (موقف رقيقى المشاعر).

إن مجالات العمى وأنماط التعبير المميزة للمفهوم المتعصب بالنسبة لرقيقى المشاعر مطلوبة للمتعصبين من أجل الحفاظ علي اعتبار العدو ككيان شرير ، مذنب ويمثل تهديداً دائمًا ، وعلى الإنسان نفسه من ضرورة أن يواجه ويخوض مواجهة مع المشاكل الأخلاقية للحرب . لذلك فإن رقيقى المشاعر هم عبء سيكولوجى ثقيل جداً على كاهل الذين يميلون إلى اللاإنسانية ، الأصوات التى تزعزع طوال الوقت ثقة المتعصبين فى كل بنيتهم الروحية ، وفى كل شعور توجههم فى واقع النزاع السياسى . فهذه الأصوات تستنكر موقفهم فى حين أنهم يعتبرون أنفسهم الطيبين والذين على حق دائمًا ويؤيدون تمسكهم فى خريطة مفاهيمهم بقيم مقدسة عليا ، ولذلك فإن الذى يستوجبه الأمر تجاه " رقيقى المشاعر " من جانب المتعصبين ، هو عدوانى ، من إلغاء واحتقار وحتى حقد عميق ، وهو ينعكس فى أنماط التفكير والتعبير كما هو الحال فى الواقع السياسى كله .

نماذج على التعبيرات الملائمة لأنماط اللاإنسانية بالنسبة لـ " رقيقو المشاعر " :

١ - ... " **بما أنهم خونة فإنهم لم يخلقوا فى صورة الله** - الحاخام جورين ، الحاخام الأكبر وكبير حاخامى الجيش الإسرائيلى سابقًا ، عن رجال منظمة الحفاظ على حقوق الإنسان فى المناطق " بتسيليم " (ملحق صحيفة هارتس ١٠/٥/١٩٩١) ، نمط رقم ١ .

٢ - **لم أقرأ تقرير منظمة " بتسيليم " ، وأشعر بأننى لو قرأت ما يكتبونه هناك سأصبح شريكه فى الفحش الأخلاقى لهذه المنظمة ، ويصعب علىّ أن أستوعب كيف أن يهوداً يشكلون طابوراً خامسًا فى داخل دولتهم . يصعب علىّ أن أفهم كيف أن يهوداً يوشون بيهود آخرين :** (عضو الكنيست ليمور ليفنات - ملحق صحيفة هارتس ١٠/٥/١٩٩٩) نمط رقم ١ .
يحتوى هذا التصريح وما سبقه على تعبير على وجود مجال العمى رقم ٤ ، لأن المتحدثين لم يتصوروا أو يخطر على بالهم أن هناك حاجة لإقامة منظمة خاصة بهم لحماية حقوق الإنسان فى المناطق (الفلسطينية) لكى لا يكون هناك " خونة " ، " فحش أخلاقى "، " طابور خامس " .
ويجدر أيضًا أن ننتبه إلى تعبير " يهود يوشون بيهود آخرين " ، على لسان واحدة من **الصابرا** والتى ولدت فى دولة إسرائيل المستقلة ، فيما يتعلق بعنصر الزمن فى المفهوم المتعصب . أى واقع يمكن أن يعكسه هذا التعبير ؟ فى البلدة اليهودية الشتاتية التى يعتبر فيها قانون الدولة عنصراً أجنبيًا ومعاديًا .

٣ - **" لم أصدق أن يأتى يوم تعمل فيه حكومة يهودية (يهودية؟) فى القدس فى " انتقاء " بين يهود وتحدد من يتم تأمينه ومن يُباح دمه "** . أرئيل شارون (يديعوت أحرونوت ١٥/٤/١٩٩٤م، رداً على قول يتسحاق رابين بأن مستوطنة ألون مورية لا تدافع عن عفولا (إحدى المدن الإسرائيلية فى شمال إسرائيل) ، وبعد الهجوم الذى وقع فى حديرا - نمط رقم ٢ : رقيقو المشاعر هم أشرار عديمو الأخلاق .

٤ - الانتحار القومى الذى تقودنا إليه جميعًا هذه الحكومة الفاشلة والخطرة - أرئيل شارون (يديعوت أحرونوت ، عيد الفصح ١٩٩٥م) نمط رقم ٣ ، رقيقو المشاعر مرضى إنهزاميون .

٥ - " إننى أرى هنا ممثلى حزب من الجيش السوفيتى - كيف ستتصرفون لو اكتشفوا خونة فى إحدى وحداتهم ؟ " ميخائيل شولوحوف ، رئيس المنظمة السوفيتية للأدباء ، فى خطاب فى المؤتمر الثالث والعشرين عن المنشقين سينيافيسكى ودانييل : نمط رقم ١ .

٦ - ... " رجال اليسار فى إسرائيل فى نضالهم الشجاع من أجل الشعب الفلسطينى ومن أجل الحق المشروع " م . ت . ف لقتل يهود " - أورى بورات (يديعوت أحرونوت ١٩٧٩/٧/١٢م) **" فى معسكر اليسار فرحة وسرور ... بعد أن فشلت أحداث سنة ١٩٢٩م يبدو أن هناك احتمالات نجاح لأحداث ١٩٧٩م ، ملائكة تشارلى قد احتلوا مستوطنة يهودية فى جوش عتسيون ونفذوا فيها مذبحة ... "** (يبدو أنه يشير إلى مظاهرة عضو الكنيست تشارلي بيطون مع عدد من المؤيدين بالقرب من إحدى المستوطنات) - أورى بورات (نفس المصدر ١٩٧٩/١/٦م) - إشارة تاريخية إلى الصورة التى تنعكس هنا : المؤلف اختاره فى ذلك الوقت رئيس الحكومة مناحيم بيجين ليصبح مستشاره الإعلامى ثم عين بعد ذلك مديراً لهيئة الإذاعة الرسمية ، ثم جرى اختياره مرة أخرى مديراً لهيئة الإذاعة ، المفترض أن تُدار بصورة موضوعية وواقعية ، فى فترة نتنياهو وهو مستمر فى تولى هذا المنصب حتى كتابة هذا الكلام ، بداية سنة ٢٠٠٠ - نمط رقم ١ : خونة ، أنذال مؤيديون للعدو .

٧ - رابين أهدر دمنا . باستثناء إيلاج رصاصة فى الرأس . هذه الحكومة تفعل كل شيء لكى يُقتل اليهود " بنحاس فالرشتاين ، رئيس المجلس المحلى بنيامين للصحفيين أثناء مظاهرة- نمط رقم ١ - ٢ ، خونة ، أشرار " .

٨ - فى تقديرى مليونين أو مليونين ونصف مليون يهودى فقط سيقتلون أو يعذبون حتى الموت . ولكن الكارثة القادمة ستكون رهيبة أكثر بمفهوم أساسى واحد : يهود ساعدوا واجتهدوا واتخذوا شتى الوسائل لكى يجلبوها " - مئير غزرئيل (معاريف ، هارتس ١٩٨٩م) : النمطين ١ و٢ . تبرر فى هذه العبارة العلاقة النابعة من المنطق الداخلى للاإنسانية: المفاهيم عن رفيقى المشاعر هى محصلة أو انعكاس للمفاهيم عن " أعداؤنا " وفى المجال السيكولوجى ، لا إنسانية رفيقى المشاعر ضرورية لكى نبرر شيطانية العدو .

٩ - "قرأت أنه كان من الصعب أن نسمع الكلام الذى ذكرته لك زوجة أنور نسيبه ، كيف طرد جنود الجيش الإسرائيلى فى سنة ١٩٤٨م ، أسرة والديها من الرملة ، وا أسفاه لأنك لم تكن فى الخليل ، فى موتسا ، فى صفد فى سنة ١٩٢٩م . وا أسفاه لأنك ماتزال حيًا حتى الآن " مواطن فى خطاب للصحفى - يشعياهو بن بورات . (يديعوت أحرونوت ١٩٨٣/٢/٤م) نمط رقم ١ ، مثال على كراهية المتعصبين تجاه " رفيقى المشاعر " .

١٠ - **" تملق ، تذلل وخنوع "** - (عن سياسة حكومة الوحدة الوطنية شامير - بيرس) - رفائيل إيتان ، عنوان مقال فى صحيفة معاريف ، نمط رقم ٣ .

٤ - شاذون : (رجال " نحن " الذين يخالفون القانون أو الأخلاق فى الحرب ضد أعدائنا) :

مجالات العمى :

١ - المخالفات ذاتها (هى لا تعتبر مخالفات . مثال : يُعرض على شاشة التلفزيون فى هذه الأيام المسلسل " خط الأتوبيس ٣٠٠ " الذى يصف أنماط التفكير والتعبير التى طبقًا لها لا يعتبر قتل اثنين من الأسرى جرم فى نظر المؤسسة الأمنية العسكرية).

٢ - خطر إفساد معايير عن طريق مخالفات الـ " شاذين " .

٣ - الواجب الأخلاقى للإنسان نفسه هو أن يقف على أهبة الاستعداد ضد مخالفات وجرائم حرب من جانب " نحن " وأن يكافحها عندما تحدث .

شاذون : أنماط تفكير / تعبير :

١ - هم شاذون ، أى ليسوا مميزين لنا ، ليسوا قسمًا من " نحن " نحن لسنا مذنبين أو مسئولين عن أفعالهم " .

٢ - هم شبان طيبون ، جديرين بالفهم والاعتبار والصفح .

٣ - رقيقوا المشاعر أسوأ من الشاذين .

٤ - نثبت نحن بتقديم الشاذين إلى المحاكمة إلى أى مدى نحن طيبون ، طيبون جداً أكثر من اللازم .

فى المفهوم المتعصب تتمثل النظرة الإنسانية - واعتبار الفرد مسئولاً عن نفسه أخلاقيًا ، وأن أعماله لا تبرر الاتهام الجماعى - فى النمطين الأولين تجاه الشاذين ، واللذين يختلفان تمامًا عن النمطين المقابلين فى النظرة إلى " أعدائنا " .

أمثلة ونماذج على التعبيرات الملائمة لأنماط اللاإنسانية فى النظرة إلى " الشاذين " :

١ - إنهم إناس عمليون يعبرون عن أحاسيسهم بصوت مرتفع مثل الباعة المتجولين فى السوق ، بصخب وضجيج . وينتخبون بطريقتهم لكى يحتجوا على التحريض المهنى لأساتذة

جامعيين ومفكرين حقيقيين ووهميين " (خطاب لباب رسائل القراء فى صحيفة يديعوت أحرونوت ١٤/ ١٩٨٢/١٠م) ، فيما يتعلق بأن غوغائيين فى سوقف محنيه يهودا فى القدس قاموا بقلب سيارة إذاعة " صوت إسرائيل " وخربوا سيارة وأصابوا عاملين - نمط رقم ٣ (رقيقو المشاعر أسوأ من الشواذ) .

٢ - " **كهانا أفضل من عرفات** " عنوان مقال بقلم أهرون بابو (" حداشوت") نمط رقم ٣، كما سبق ذكره عاليًا .

٣ - " رئيس لجنة الداخلية فى الكنيست يهوشع متسا ، دعا رئيس الحكومة ووزير الشرطة تهنئة وامتداح المواطن الذى قتل مخربًا فى سوسيا " (صحيفة دافار ١٩٩٣/٣/٢٥م) هذا المواطن سكولنيك ، حكم عليه بالسجن لمدة طويلة لأنه قتل بدفعة طلقات ومن قرب أسيراً ، الذى تمدد مقيداً على الأرض مُحاطًا برجال أمن . وقال عضو الكنيست موشيه بيليد (ترقى وأصبح نائبًا لوزير التعليم) ، قال فى نفس السياق فى الكنيست أنه " **فى الفوضى السائدة فى الدولة حيث الحكومة غير مسيطرة على الوضع وقوات الأمن تعمل بينما أيديها مكبلة ، يعتبرو عمل شكولنيك عملاً صحيحًا** " : تعبيرات على وجود مجال العمى الذى لا يميز الجرم كجرم ، تعبيرات تحريض ، امتداح للجريمة ، مجال العمى رقم ١ .

٤ - **"قام يهودى مهم وقال إنه لن يستغرب إذا ما دخل مستوطن بمفرده إلى أية قرية عربية وحصد (قتل) ٣٠ - ٤٠ شخصًا . ولن يستغرب إذا ما وقع هجوم إجرامى يقوم به أحد الرفاق الذى نفذ صبره وضاق صدره ولم يعد يستطيع كبح جماح نفسه** " تسفى كوتسفر ، رئيس مجلس كريات أربع للصحفيين ، بعد لقاء مع قائد المنطقة الوسطى نحميا تمارى ، قبل فترة قصيرة من المذبحة التى ارتكبها باروخ جولدشتاين فى الحرم الإبراهيمى فى الخليل (هارتس ١٩٩٣/١١/٨م) - النظرة إلى الشاذين على أنهم " شبان طيبون " ، تتمثل فى حقيقة أن السلطات لم تأخذ التهديد بجدية " وبحسب الكلام رئيس الأركان (آنذاك) أهود براك . هبطت عليهم المذبحة فجأة " كالرعد فى نهار صحو " - نمط رقم ١ . هذا النمط يكرر نفسه بالضبط حتى اليوم ، الأيام التى يتوقع أن تتم فيها مرحلة أخرى من الانسحاب من المناطق . ويقول رئيس المجلس الإقليمى جوش عتسيون ، شاؤول جولد شاين : "الجمهور فى جوش أعتسيون قريب من الانفجار والهيجان وهناك خوف من أنه إذا لم تنفذ السلطات

المسئولة ما هو موكل إليها فإن الناس قد يأخذون القانون بأيديهم " (هارتس ١٨/١١/١٩٨٤) نمط رقم ٢ ، شبان طيبون .

٥ - " إجمالاً أصدروا حكمًا ... ولو فعلوا هذا فى إطار قوات الأمن لحصلوا على وسام " - الحاخام موشيه ليفنجر عن مجموعة الإرهاب اليهودى ، مجال العمى رقم ١ ، الجرم ليس جرمًا . " ... إذا كانوا قد فعلوا ما فعلوه لوجه الله وتكريمًا للشعب اليهودى لايمكن أن ننعتهم بالوحشية ... فلقد كانت نواياهم خالصة ولا يجب احتقارهم " (حداشوت ، ٥/٨/١٩٨٤م) نمط رقم ٢ ، شبان طيبون .

٦ - " كان يهودى يتجول مع زوجته فى المدينة القديمة فى القدس ، وفجأة انقض عليه قاطع طريق عربى محاولاً المساس بزوجته . فأخرج زوجها مسدسًا من جيبه وقتل قاطع الطريق على الفور . ولقنه درسًا . إليس من المستحسن أن نمنح هذا الشخص الجرىء لقب بطل قومى ؟ (الدكتور هـ . روزنبلوم فى مقال افتتاحى) " يديعوت أحرونوت ٢١/٩/١٩٨٥م) الشخص الذى أطلق النار على مريض نفسى وقتله ، لم يحصل على لقب بطل قومى وقُدم إلى المحاكمة.

ملاحظة تاريخية : الكاتب الذى كتب هذا الكلام قبل أن تنتهى الشرطة من إجراء التحقيق مع الشخص ، حصل بعد مرور بضع سنوات على " جائزة إسرائيل ") . مجال العمى رقم ١ ونمط رقم ٢ " شبان طيبون " .

٧ - " ليس بكراهية بل بتفهم مشاعر الألم الحقيقية ... " وزير الدفاع أريئيل شارون فى أمر عملية للجنود . والآن خمنوا أية عملية ؟ لم تخمنوا ؟ لقد قيل هذا الكلام على الأشخاص الذين تحصنوا فى مستوطنة ياميت ، فى فى الأمر الذى صدر لقوات الإخلاء ١٩٨٢م(*). نمط رقم ٢ ، كالمذكور أعلاه . انتبهوا لأمر مميز للمفهوم الأخلاقى المتعصب : بالنسبة "شاذون "و " نحن" عمومًا الأخلاقيات ـ أخلاقيات نوايا . (التعامل مع النوايا " لوجه الله وتكريمًا للشعب اليهودى " ، ولمشاعر ، مثل مشاعر الألم الحقيقية ") لا يظهر مثل هذا التعامل أبدًا فى النظرة إلى " أعداؤنا " الذين تعتبر الأخلاقيات بالنسبة إليهم هى أخلاقيات نتائج ، طبقًا لنتائج أعمالهم . وطبقًا للمفهوم المتعصب فإن التعامل تجاه مشاعر ونوايا أعدائنا هو ثابت : لديهم مشاعر كراهية ونوايا شريرة ، ونواياهم الحسنة أو مشاعرهم الحقيقية ، مثل أى شىء إنسانى لديهم ، هى فى مجال العمى .

* - المقصود إخلاء مستوطنة ياميت فى شمال شرق سيناء من المستوطنين .

٨ - " لست استوعب وأفهم ماذا كان الإحساس وما هو المنطق فى مطاردة طفلة فى نابلس وقتلها ، ببساطة لست أفهم هذا ... " الدكتور يسرائيل الداد (يديعوت أحرونوت ١٩٨٤/١/٢٠م) ، تعبير صريح لوجود مجالى العمى رقم ٢ ورقم ٣ ، خطر الإفساد الأخلاقى وواجب منعه . " لست استوعب لست أفهم .. " يدل هذا على أنه لايوجد فى خريطة مفاهيم المؤلف مثل هذا الأمر مثل قساوة ووحشية بالنسبة لأعدائنا والتى يفهمها ويستوعبها كأى مفهوم تلقائيًا لديهم ولدى كل شعب آخر فى العالم . وبالنسبة لـ " شاذون " فإن النمط هو "هم شبان طيبون " . الكاتب يتوجه إليهم ويتناقش معهم حول أفعالهم تحت عنوان "ادعاء ضد إرهاب " بالصوت المميز للحالات البارزة للإنسانية لا يوجد فى المقال ولو تبرير أخلاقى واحد ضد الإرهاب اليهودى .

٩ - " يجب اتهام الحكومة المسئولة عن الأمن فكلما كان هناك تراخ ووهن فإن من المتوقع أكثر حدوث أعمال عفوية نتيجة ضائقة " البروفيسور هيلل ڤايس من جامعة بار إيلان عن مقتل ثلاثة فلسطينيين من قرية تركميا بأيدى مستوطنين (هارتس ١٩٩٣/٢/١٢) . نمط رقم ١ ونمط رقم ٣ .

٥ - مهزومين (" أعدائنا " الذين يعيشون تحت حكمنا ، أقليات ، عبيد ، مدنيين فى أرض عدو ، أسرى وما شابه ذلك) :

مجالات العمى :

١ - حقيقة أن المهزومين مقموعين ومستضعيفين ولا توجد لديهم قوة فى مقابل " نحن".

٢ - ارتباط المهزومين الخاص بنا ومسئوليتنا الخاصة كمنتصرين وكمسيطرين وحاكمين لهم بالقوة .

٣ - معاناة المهزومين ، الإنهاء عن معاناتهم يجرى إبعادها إلى مجال العمى ونسيانها فوراً ، خاصة عندما تكون أسماؤهم غريبة وغير معروفة .

٤ - المعاناة الوجودية للمهزومين كشعب يعيش تحت حكم أجنبى من ناحيتهم .

٥ - خطر الإفساد الأخلاقى الذى يتربص بنا بسبب وضع السيطرة على أعدائنا المهزومين .

" مهزومون " - أنماط تفكير وتعبير :

١ - المهزومون ليسوا بائسين ، وضعهم أفضل تحت حكمنا عنه مما كان عليه سابقًا ، أو بالمقارنة بأماكن أخرى .

٢ - إذا كان المهزومون يعانون ، فهذا هو ذنبهم أو ذنب شخص آخر ، وليس ذنبنا .

٣ - نحن الاثنان نعانى . وضعهم أفضل من وضعنا (نمط " القوزاقى المنهوب " ، على سبيل المثال : التعبير المعروف بأن المستعمرات هى عبء على كاهل الإمبراطورية البريطانية، " للعرب هنا حقوق فقط ، وليست عليهم أية واجبات ، فهم يأكلون من خيرات البلاد ما لذ وطاب ... " كلام مريام لابيد من الخليل (المقصود المستوطنون فى الخليل) فى برنامج تليفزيونى ، ١٩٩٥م ، " نحن حملان - هم ذئاب " عنوان مقال ، الدكتور يسرائيل الداد ، ١٩٩٤م) .

نماذج على التعبيرات الملائمة لأنماط اللاإنسانية بالنسبة للـ " مهزومين " :

١ - " إبنى عاد من الخدمة الاحتياطية فى الحدود الشمالية يحمل سؤالاً مقلقًا : لماذا عندما أتوجه للدفاع عن أطفال الكيبوتسيم فى الخليل يفرض علىَّ الجيش معياراً أخلاقيًا يقول : من جاء لكى يقتلك بادر إلى قتله ، ولماذا عندما أدافع عن أطفالى فى يهودا يفرض علىَّ الجيش معياراً أخلاقيًا يقول " يُقتل وحذار أن يَقتل ؟؟؟ خطاب لباب رسائل القراء فى صحيفة المستوطنين " نكودا " ١/٢/١٩٨٩م) .

٢ - قانون ونظام فى يهودا والسامرة (الضفة الغربية) نعم ! ولكن بالتساوى " لليهود والعرب ، شعار رُفع فى مهرجان تضامن مع معتقلى مجموعة الإرهاب اليهودى - نمط رقم ٣ (" القوقازى المنهوب ") .

٣ - " متى استخدمت الشرطة الجياد (الأحصنة) لتفريق عرب ؟ " ، إنهم يذبحوننا ، نحن لسنا حملان ! " مشاركون فى مظاهرة ضد اتفاقات أوسلو ١٩٩٤م ، نمط رقم ٣ ، كما ذكر عاليه .

٤ - يستطيع فقط الأشخاص الذين رأيهم محدد مسلقًا أن يصفوا ما يجرى فى يهودا والسامرة (الضفة الغربية) بأنه حكم قمع ولا ألطف لم يسبق له مثيل : حكم ، لايستطيع فيه أحد أبناء الشعب الـ " قاهر" أن يزور بائع مجوهرات فى طولكرم ! حكم قمع لا يستطيع فيه أبناء الشعب الـ " قاهر" السفر بأمن إلى مدرستهم ! " . (ناتان بارون ، يديعوت أحرونوت ١٩٨٥/٨/٣٠م) غط رقم ٣ كما ذكر عاليه .

٥ - " مسئولية إراقة دماء أخرى فى الخليل تقع كلها على عاتق متظاهرى " سلام الآن " وزير العلوم يوفال نئمان - نمط رقم ٢ : هناك شخص ما آخر مسئول عن معاناة المهزومين ، وليس نحن .

٦ - " فلتقرروا ماذا تفضلون - مصدر رزق كريم وطعام لأولادكم ، أو إرهاب عربى " - رسالة من مجلس محلى مستوطنة كرنى شومرون لعمالها الفلسطينيين الذين قرروا فصلهم بسبب أعمال الإرهاب (هارتس ١٩٩٣/٣/١٥م) نمط رقم ١ : وضعهم جيد ، نمط رقم ٢ : هناك شخص ما آخر مسئول عن معاناتهم ، مجال عنى رقم ٤ : حياة استعباد المهزومين .

٦ - زعيم - مجالات - عمى :

١ - أوجه القصور الإنسانى للزعيم (" ليس صحيحًا أنك لم تعد مارشال فيلسوديسكى المحبوب . زعيمنا المحبوب الخالد " : أنشودة مديح أذكرها من طفولتى) .

٢ - خطر عبادة الشخصية (" إلى القتال من أجل الوطن إلى القتال من أجل ستالين أبينا !) : نشيد جنود سوفيتى ، نص معدل أنذاك من الصيغة التاريخية " إلى القتال من أجل سيدنا القيصر ") .

٣ - خطر أن يتحول الزعيم إلى أنا مهووس جامح مطلق العنان أكثر فأكثر كلما كانت قوته مطلقة أكثر وحكمة أطول (" تقدمت لإلقاء محاضرتى هذه من خلال قرار ينطوى على عزم وتصميم على وقت كتابتها فى نفس اللحظة التى أشعر فيها أننى ارتدع عن قول الحقيقة ولست قادراً على التوصل فى تحليل الأمور إلى صدق ثقافى وأخلاقى تام .. " يعقوب حزان ، الذى لم يرتدع فى الحقيقة وأنهى تلك المحاضرة عن الاشتراكية السوفيتية حتى النهاية ، بدون كلمة نقد ذاتى : بكلمات " لسنا نحن بل ، هم - هناك - خيبوا الظن ") .

٤ - خطر الاستغلال المادى والسيكولوجى للأنصار الذين يبجلون الزعيم .

زعيم - أنماط تفكير وتعبير :

١ - كبير ، عظيم ، واحد ووحيد ، أب ، أم ، معلم ، يعرف كل شيء (مظاهر تأثير الكاريزما) .

٢ - مبجل ، محبوب ، " نحن مدينون له " .

٣ - الزعيم هو تجسد قيمنا العليا (" مطلوب ملك ... الملك هو القوة التى تخلق مملكته ... نحن نتوق لمثل هذا الملك ." - (د. يسرائيل الداد ، يعديعوت أحرونوت ١٩٩٦/١/١٩") .

٤ - معارضة الزعيم هى أبشع جريمة ، تدنيس القدسية .

٥ - الزعيم لا يخطئ أبداً (الآخرون دائمًا متهمون بالأخطاء ، وليس هو) .

٦ - منْ ينتقد أو يُضعف الزعيم يمس ويضر بنا بالشعب كله .

إن الخضوع المطلق حاجة سيكلوجية لكثيرين جداً من الأشخاص دون علاقة بنظام الحكم الذين يعيشون فيه . كما أن الظواهر التى تغطى عليها مجالات العمى الأربعة تحدث فى مجتمع ديمقراطى مثل مجتمعنا ، استعباد سيكولوجى طوعى . ويبرز فى مجالى العمى ٣ ، ٤ ، العمى تجاه التناقض القائم فى مجتمع حر - ديمقراطى بين المساواة وواقع المساواة الأساسية بين إنسان وآخر وبين الخضوع المطلق للزعيم . وفيما يتعلق بهذا التناقض حصلت على مقطع أذهلنى فى حينه . وقد نشر فى صحيفة دافار فى سنة ١٩٨٦م بمناسبة مرور مائة سنة على ميلاد بن جوريون .

" بحكم وظائفى فى الماضى ، كمراسل لصحيفة " دافار " فى الجليل وفى الأغوار ، سمحت لى الظروف أن أرافق بن جوريون فى جولاته وزياراته الخاطفة والمفاجئة ، وهكذا استمعت إلى خطبه الكثيرة فى البلدات والقرى التى زارها وهذا لكى أبعث بتقارير صحفية لـ " دفارا " وحددت لنفسى قاعدة : أن أسأل بن جوريون فى ختام كل جولة وخطاب هل هو معنى بقراءة نص التحقيق الصحفى الذى سأرسله للصحيفة - ولكنه رفض دائمًا وأجاب بجملة واحدة " لا حاجة لذلك ، إننى أثق فيك " .

" وفى عشية إحدى أيام السبت ألقى بن جوريون خطابًا مهمًا " كنت هناك ، وسجلت ، وتلقيت رفضه العادى لقراءة الرسالة الصحفية ، وفى اليوم التالى يوم السبت ، كتبت وحررت

التحقيق ولكن ولدهشتى الكبيرة اتصلوا تليفونيًا بمنزلى ظهراً وقال أحد ياويرى بن جوريون : " العجوز (أى بن جوريون) يريد أن يقرأ التحقيق الصحفى ... " .

" وطوال تلك الساعات حتى أعاد لى التحقيق الصحفى انتابنى مغص شديد وتقلصت أمعائى من الانفعال ومن الخوف ، ماذا سيفعل العجور بالتحقيق الصحفى ، من المؤكد أنه سيشطب كل شىء ولن يبقى منه شيئًا ، ولكن أعاد لى مبعوث بن جوريون التحقيق الصحفى، فوجئت أن العجوز لم يشطب ولا حتى كلمة واحدة ، بل شطب فقط كلمات الربط " إيت " ، علامة المفعول به ... " .

" وآنذاك فكرت فى نفسى ، ألا يدل هذا على عظمة نفسية بن جوريون النبيلة والإنسانية... ؟ " ، ذلك لأنه ليس لدى شك فى أن المقال لم يف بكل رغبته وتوقعاته - دافيد شاليف ، حيفا " .

إن أنماط التبجيل المطلق للزعيم ليست مألوفة فى المجتمع الغربى العصرى والمفتوح (لا أستطيع أن أتصور أو اتخيل أن شخصية قومية فى العالم الغربى كان يمكن أن تكتب شيئًا ما مثل ، مطلوب ملك " ...) ، خاصة وأن ذكرى الفاشية والشيوعية ، وتهديد الأصولية ، تعيش فيها . وفيما يلى عدد من نماذج وأمثلة محلية أخرى إضافية .

نماذج على التعبيرات الملائمة لأنماط اللاإنسانية بالنسبة لـ " زعيم " :

١ - " الشعب يحب رافول(*) . الشعب اعتمد على رافول . الشعب وثق فى رافول . لقد كان رافول الأب والابن والأخ . من هذا النوع الخاص الذى لا تنعم به سوى أسر فريدة عندما يكون للأسرة مثل هذا الأب ، مثل هذا الابن ، مثل هذا الأخ - يكون الجميع مطمئنين. فليحدث ما يحدث ، فهو سيحل المشاكل " - أوراشيم - أور (يديعوت أحرونوت ١٩٨٣/٤/٢م) النمطان رقم ١ ، رقم ٢ .

٢ - " أبناء الشعب اليهودى يحبونك ، مثلما أحبوا قادة عسكريين قلائل فى تاريخهم ، إنهم يحسون فيك أرض إسرائيل ، أرض الحياة ، التى وصلوا إليها من دول الموت من وهاد القتل . أرض إسرائيل هى أملهم فى ألا يعودوا مجدداً إلى هناك . وأنت تعبر عن الأمل . أنت

---

* - المقصود رفائل إيتان رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيل فى أثناء حرب لبنان ١٩٨٢م ، وزعيم حزب تسوميت بعد ذلك وعضو كنيست ووزير فى الحكومات التى شكلها الليكود .

الضمان فى ألا يصبح أملهم سرابًا . أنت ضمان حقيقى لحياتهم ولسلامتهم ، ضمان حديدى لا يفل " إيلياهو عميقام عن رفائيل إيتان رئيس الأركان (صحيفة يديعوت أحرونوت ١٩٨٣/٤/٢٠م) يبرز نمط رقم ٣ ، الزعيم كتجسيد للقيم العليا للأمة .

٣ - والشعب بفطرته السليمة ... يبحث ، ربما فى اللاوعى ، عن زعيم لبلاده المنهارة . زعيم يقيم لنا ما ينقصنا أول وقبل كل شيء ، وهو حكم حقيقى لبلادنا ، الدكتور هـ . روزينبلوم (يديعوت أحرونوت ١٩٨٤/٦/٥م) مجال العمى رقم ٤ ، الخطر الذى يكمن فى زعيم قوى .

٤ - إذا استدعوا الحاخام عوفديا يوسف للتحقيق فى الشرطة . فهذه هى النهاية . سيحدث انفجار رهيب ... " إحدى التعبيرات الكثيرة فى وسائل الإعلام ، فبراير ١٩٩٧م ، نمط رقم ٤ : الزعيم فوق القانون ، معارضة الزعيم هى جريمة ، وانتهاك للقدسية .

٥ - يعيش سيدنا الملك المسيح المنتظر " شعار حركة " حباد " ، مجالات العمى ١ ، ٢ و٤ وأيضًا نمط رقم ٥ : الزعيم لايمكن أن يخطىء أبداً ، حتى وإن كان يجب عليه أن يكون المسيح ولكنه مات .

٧ - استراتيجية - مجالات عمى :

١ - احتمال أن أفضل تكتيك فى أوضاع معينة هو امتناع عن استخدام القوة أو بديل لاستخدام القوة ، مثل تنازل أو مبادرة حسن نية (" إنهم لا يفهمون سوى القوة ") .

٢ - النتائج المتوقعة لاستخدام القوة : العدوان يجر إلى عدوان ويزيد من رغبة العدو فى الرد رداً عدوانيًا ؛ الضحايا ، الأخطار ، المعاناة والثمن الرهيب للحرب .

استراتيجية - أنماط تفكير وتعبير :

١ - القوة فقط : " فقط بقوة القوة " (عنوان مقال بقلم يوسف روم ، يديعوت أحرونوت ١٩٨٥/١٢/١٩م) " حتى يتلقنوا درسًا " ، " من أجل أن يروا ويخافوا " ، وما شابه ذلك .

٢ - التخلى عن استخدام القوة هو ضعف (" أعداؤنا " يفسرون هذا على أنه ضعف) غباء وحماقة وجُبن .

٣ - إذا كانت القوة لا تنفع يجب استخدام المزيد من القوة (المقولة الشهيرة لرفائيل إيتان عن العرب والحشرات جرى تحريفها فى الوعى الجماهيرى . فلم تكن هذه مقولة عنصرية عن

"أعداؤنا " بل اقتراح استراتيجى له كرئيس أركان متصرف ، طبقًا للنمط الذى يقول إذا لم تنفع القوة فإن قوة أكثر بكثير يمكن أن تنفع " فوق كل حجر سيرشقوننا به نقيم عشر مستوطنات ، وعندها يمكن للعرب أن يتدافعوا بالمناكب مثل حشرات سامة داخل زجاجة " .

٤ - إذا كانت القوة لم تنفع ، فإن شخصًا ما آخر مسئولاً عن ذلك ولسنا " نحن " الذين استخدمنا القوة . وهاهى واقعة حدثت ، والتى تبث وجود مجال العمى الثانى عن طريق تجربة واختبار محسوب . حدثت هذه الواقعة فى يونيو ١٩٨٢م ، عندما حاصر جيش وأسطول إسرائيل منطقة غربى بيروت التى كانت تحت سيطرة م . ت . ف ، وكان يلوح فى الأفق فى إسرائيل قرار هل نحتلها . وقد نشر الكلام الآتى فى صحيفة هارتس فى ٢٤يونيو ١٩٨٢م ، وفى صحيفة يديعوت أحرونوت فى اليوم التالى :

سؤال : هل أنتَ / أنتِ تؤيد أو تعارض عملية عسكرية لتصفية المخربين فى بيروت ؟ ٦٠٪ ممن أجابوا على هذا السؤال ردوا بأنهم يؤيديون ذلك .

سؤال : هل أنتَ / أنتِ تؤيد أو تعارض عملية عسكرية لتصفية المخربين فى بيروت ، بافتراض أنه يتوقع أن نتكبد فى مثل هذه العملية نحو مائة من الضحايا ؟ ٦٥٪ ممن أجابوا على هذا السؤال ردوا بأنهم يعارضون ذلك .

هذا أساس ملخص استطلاع للرأى العام والذى أجرى يوم الاثنين من هذا الأسبوع فى شوارع تل أبيب . وتثبت النتائج ، أن معظم الأشخاص الذين يقررون بأنهم يؤيدون عملية حربية لايدرسون بصورة عقلانية أهم الحقائق بمثل هذه الاعتبارات : خسائر فى الأرواح . عندما نضغط عليهم لكى يقرروا كم من الضحايا سنكون مستعدين للتضحية بهم من أجل تحقيق الهدف ، يتهربون من الإجابة ، وليسوا مستعدين لتحمل مسئولية عما يستوجبه موقفهم ..

" ربما يحتمل أن متخذى القرارات عقلانيين أكثر من الإنسان المتوسط فى الشارع ولكن لديهم أيضًا صعوبة مفهومة لكى يتناولوا فى اعتباراتهم ثمن الدماء المتوقع كنتيجة لقراراتهم. وبما أن المقصود إنقاذ النفس الذى تسرى عليه قاعدة "كل من ينقذ روح واحدة ..." ينبغى عمل كل شىء لكى يكون متخذى القرارات عقلانيين . وتُلقى معظم المسئولية على رجال وسائل الإعلام ، الذين يجب عليهم أن يطرحوا الأسئلة المهمة نيابة عنا وأن يفعلوا كل

شيء للحصول على إجابات . ولا يجوز أن يقول أحد ما " يجب احتلال بيروت " . ثم يذهب . يجب أن نسأله كم من الضحايا ، بحسب رأيك ، من المناسب أن نكون مستعدين للتضحية بهم من أجل هذا الهدف : ١٠ ، ٥٠ ، ١٠٠ ، ٢٠٠ ، أكثر ؟ كم من المدنيين ؟ كم عدد الضحايا المتوقع طبقًا لتقديرات الخبراء ؟ ... دكتور أوليك نيتسر ، تل أبيب " .

فى مجال الاستراتيجية نتوقع ، لدى الزعماء الذين يميلون إلى التعصب ، ظاهرة تحتاج إلى تفسير مصطلحات نظرية اللاإنسانية . وقد أشار باحثون فى هذا المجال إلى أن الأشخاص الذين تتناسب أراؤهم فى شئون الاستراتيجية مع أنماط التعصب (القوة فقط ، مزيد من القوة) لايعملون طبقًا لها بل يخففون من غلوائها عندما يصلون إلى مواقع مسئولية وحكم . وفى هذه الأيام فإن النموذج المطروح للنقاش الجماهيرى هو نموذج رئيس الحكومة بنيامين نيتنياهو ، الذى إلتقى بما يتعارض بشكل بارز مع وجهات نظره السابقة - التقى مع زعيم أعدائنا عرفات وأخلى معظم مساحة الخليل . وكان قبله رؤساء حكومات مناحيم بيجن، يتسحاق شامير ويتسحاق رابين الذين اتخذوا فى خلال توليهم لمنصبهم خطوات استراتيجية كانت تنطوى على تخلى عن مواقفهم السابقة ، الأكثر تشدداً ، والأكثر نزوعًا إلى القوة ، وكانت تواكب ذلك الاحتجاجات الشديدة من جانب زملائهم المخلصين فى الرأى وفى الحزب ... ألا تؤدى هذه الظاهرة " أشخاص متغيرون " - إلى زعزعة نظرية اللاإنسانية ؟ .

وطبقًا لهذه النظرية فإن اللاإنسانية هى خريطة مفاهيم ثابتة لا تسمح بالتغيير ، فهى مثل مُحدد عقلى ، ولو سمحت بتغيير - فإن التغيير كان يزعزع منظومة التوجه كلها ، ولو تكشفت مظاهر إنسانية لدى الأشخاص الذين أبدوا من قبل أنماط سلوك لا إنسانية لكان هذا الأمر ، بحسب رأى ، سيزعزع ويهز هذه النظرية .

غير أن هذه التغييرات لم تتوقع ولم تُكتشف وقد تابعت هذا الموضوع بالتدقيق الممكن ولم نكتشف تعبيرات مفهومية فى أعقاب تغير مكان موقع الشخص على الطبيعة من موقع المراقب والمعلق (لنفترض فى الكنيست) ، إلى موقع قيادة . وبالمدى الذى كانت فيه تغييرات فى المفهوم ، وإذا كانت هناك حقًا تغييرات نادرة جداً فإنها كانت مرتبطة فقط بالاستراتيجية وأكدت بالذات النظرية ، من حيث أنها أثبتت لى الافتراض بأن مظهراً عفويًا لإدراك ووعى بمجال عمى واحد يدل على تزعزع واهتزاز البنية " الأيديولوجية " كلها .

ما هي الأعراض التي تعتبر مظاهر إنسانية ؟ مثل هذه المظاهر هي كل مظاهر الوعي بكل واحد في مجالات العمى التي تكون العَرَض . أي لنفترض ، لو كان يتسحاق رابين أو بنيامين نتنياهو في فترة ولايتهما ، كانا سيبديان فجأة شيئًا غير أخلاقي إلى هذه الدرجة في مواقفنا وسياستنا في النزاع ضد " أعداؤنا " ، أو يبديان قلقًا واهتمامًا عفويًا بالحالة الإنسانية لـ " أعداؤنا " ، والذين هم في حالتنا الـ " مهزومين " تحت حكمنا ، أو يبديان اهتمامًا بالحفاظ على صورتنا الأخلاقية في الوضع القائم ، أو يبادران من جانبهما بطرح اقتراح سخي وتصالحي لدفع المسيرة السياسية إلى الأمام ، لكن تغييرات كهذه في الموقف لم تحدث لديهما .

ويُقترح التغيير في المواقف الاستراتيجية للشرح كملائمة للتغييرات في رؤية الواقع الاستراتيجي ، عندما تغيرت زاوية رؤية من تولى موقع قيادة . كيف يحدث هذا ؟ أولاً ، هذا يحدث ليس فقط لزعماء وأيديولوجيين معروفين ، فقبل الانسحاب من قطاع غزة عبر كثيرون جداً عن رأيهم القائل بأن الانسحاب سيجلب خطراً رهيبًا على إسرائيل حيث ستتطاير صواريخ الكاتيوشا على التجمعات السكانية في جوش دان وما شابه ذلك . ولكن منذ أكثر من خمس سنوات لايوجد أي مظهر لموقف علني يؤيد إعادة احتلال قطاع غزة ، والسبب هو ، أنه مع تغير الواقع تغيرت أيضًا خريطة ميدان القوى ، وخريطة ميدان القوى هي مصطلح كورت ليفين(١) ، رائد " علم السلوك التطبيقي " . والمواقع على هذه الخريطة ، الموجودة في داخلنا وتوجهنا في سلوكنا الاجتماعي ، هم البشر الأساسيون على أرض الواقع . ولا تشمل فقط شخصيات قومية وتاريخية ، بل أيضًا أشخاصًا يصادفهم الإنسان في الحياة اليومية ويتأثر بهم في تشكيل مواقفه والتعبير عنها ، فالشخص الذي كان في الماضي يؤيد وجهة النظر القائلة " غزة مذ ذاك وإلى الأبد " سيمتنع الآن عن أن يتبنى أو أن يعبر عن فكرة احتلالها ، خاصة بسبب إحساسه ، والصحيح بالتأكيد فيما يتعلق برد فعل محيطه الاجتماعي الذي يجب أن يناضل من أجل آرائه . ولنفس السبب ذاته فإن مؤيدي " أرض إسرائيل الكاملة " لم يقترحوا ولا يقترحون الاستيطان في جلعاد وفي باشان ، على الرغم من أن احتلال هذه المناطق تستوجبه ايديولوجية " أرض أجدادنا " . ولكن طبقًا للنظرية ، ما كان المتعصبون يعارضون الاستيطان في الضفة الشرقية لنهر الأردن لو أن الوضع في ميدان القوى كان يسمح بهذا من الناحية العلمية الاستراتيجية . المتعصبون لا يتغيرون . وفي وضعنا فإنهم كما كان الحال من قبل ، يؤيديون استمرار الوضع القائم في المناطق قدر الإمكان ، كلما كان ذلك ممكنًا .

إن الأشخاص المصابون باللاإنسانية ليسوا أغبياء أو عميان معاذ الله . إنهم لا يقلون ذكاء وعقلانية عن أي شخص آخر ، فى إطار القيود التى تفرضها عليهم مجالات العمى الموجودة على خريطة مفاهيمهم . ويدل النمط الدائم فى مجال الاستراتيجية " القوة فقط " يدل، بالطبع ، على أنهم أنفسهم لا يفهمون سوى القوة ولا يفهمون حسن النية أو التفاهم الإنسانى ، أو العدالة ، أو الأخلاقيات ، فى العلاقات مع " أعدائنا " .

وعندما يتولى شخص متعصب معركة الانتخابات فى حزبه وفى الدولة فإن القوة التى يجب أن " تلعب ضده " هم أشخاص مصابون باللاإنسانية مثله بل وأكثر بكثير منه ، هم الآخرون المهمون "Singnificant Others " بالنسبة له ، ومن الواضح أن الموقف الذى يعبر عنه ويمثله متأثر بهم، بالأشخاص فى " ميدان القوى " لديه . وانتصاره مرتبط بأن يعرض عليهم حلول قوة للمشاكل الاستراتيجية للحرب ضد " أعدائنا " ، مثل ، لنفترض ذلك ، " لن نتحدث أبداً مع (م ، ت ، ف) ، أو " يمكن أن ننتصر على الإرهاب " . ولكن عندما يصبح هذا الشخص ، رئيس حكومة ، فإن القوة التى يجب أن يضعها فى الاعتبار هم أولاً وقبل كل شىء "أعدائنا" وبالطبع القوة المتفوقة والتي تسمى فى نظرية اللاإنسانية " أمم العالم " ، وفى الواقع ، فى حالتنا ، هى الولايات المتحدة . فلدى ذوى الشخصية المتعصبة غرائز طبيعية وحادة جداً فى كل ما يتعلق باستخدام القوة وقيودها ... وهذا معنى " أن نفهم القوة فقط " ، لن يختار أى متعصب استراتيجية قوة فى مواجهة قوة متفوقة إذا كان ثمنها طبقًا لتحليله فى ميدان القوى، من شأنه أن يكون خسارة .

إن باعث ودافع استخدام القوة قائم وموجود ، لكن قيوده تتمثل فى تغييرات استراتيجية. هكذا الأمر لأنه حتى فى العلاقات اليومية بين الأشخاص : لا يهاجم الأشخاص بعدوانية من يبدو أقوى ، خارج على القوة ، شرطى أو قاضى . إننا لا نخلق، عن وعى وإدراك، أزمة فى العلاقات مع مَنْ نشعر أننا مرتبطين به . ونفس الشىء فى السياسة أيضًا ، والتفسير الذى اقترحه للاعتدال والتروى المميز للموقف السياسى ، عندما ينتقل المرء إلى مواقع مسئولية وحكم ، هو أن هذه فقط استراتيجية . والعامل والسبب الحقيقى فى هذا التغيير هو الإحساس بقيود القوة التى تبدو للاستراتيجيين المتعصبين مختلفة عندما يكونون مسئولين عن استخدامها .

ويجب أن نفحص الآن إلى أى مدى تصمد نظرية اللاإنسانية فى اختبار الواقع ، طبقًا لنظريتنا يتعين علينا أن نفترض أن بيجن الذى شُخص بأنه متعصب لم يكن ليتحرك مليمتر

واحد من سيناء لولا الضغط الأمريكى . وبالفعل فإنه لايمكن أن نجد فى كل وسائل الإعلام التى وثقت لهذه الفترة دليلاً أو شهادة على أن أنماط تعبيره وسلوكه المتعصب قد تغيرت فى خلال المفاوضات أو فى نهايتها . على سبيل المثال " أنه عكس تفاؤلاً عرض ، اقتراحات أو تقدم بمبادرات أو استقبل بإيجابية مبادرات آخرين دفعت المسيرة إلى الأمام . (يمكن أن نجد شهادات كثيرة على ذلك عن عيزر فايتسمان الذى كان آنذاك وزيراً للدفاع واشترك فى تلك المفاوضات فى كامب ديفيد) . وعلى ذلك ، فإذا كانت نظرية اللاإنسانية صحيحة ، فمن المستحيل أن نعتقد ، مثلما يعتقد الجمهور فى إسرائيل أن " بيجن صنع سلامًا " .

ولو كانت هناك أدلة على تعبير المفهوم السياسى لدى بيجن ، لكانت النظرية مثار شك أو حتى مدحوضة . وبما أن هذه نقطة اختبار ، فإنه من المهم جداً بالنسبة لى أن أجد اعتراف الشخص نفسه . وبالفعل تم العثور عليه بعد مرور نحو ١٦ سنة ، ليس على لسان مناحيم بيجن بل على لسان مساعده المقرب والمختار الذى كانت معارضته للتنازل عن سيناء فى كامب ديفيد صريحة وجلية ، وهو إيلياهو بن اليسار ، وها هو الاقتباس : " كل ما فعله مناحيم بيجن منذ سنة ١٩٧٧م كان يهدف فى الحقيقة لتحقيق هدف واحد ووحيد : إنقاذ أرض إسرائيل الغربية ، ومن الخطأ الاعتقاد أن التنازل فى نظر بيجن كان ثمن السلام فقط . كان المقابل سلام وسيطرة على أرض إسرائيل الغربية " (صحيفة هارتس ١٩٩٥/٩/٢٤) .

لقد اقتنع بيجن أوضغط عليه إزاء ضغط الرئيس كارتر لاتخاذ خطوة استراتيجية بالتنازل عن سيناء لكى لا يخسر الحرب على أرض إسرائيل الكاملة . وتستوجب نظريتنا أن يتسحاق شامير أيضًا ، الذى شُخص كذلك بأنه مصاب باللاإنسانية ، ما كان يبادر بسياسة الذهاب إلي المؤتمر الدولى فى مدريد من أجل أن يعرض هناك مفاوضات وحكم ذاتى على "مهزومين"، لولا ضغط الأمريكيين .

وقد أكد هو أيضًا النظرية ، عندما صرح علنًا فى فترة رابين ، بأنه لو كان قد بقى فى الحكم لكان قد عمل على إطالة المفاوضات إلى درجة أنه لم يعد من الممكن التنازل عن أى جزء من أرض إسرائيل . وتكسر نظرية اللاإنسانية الشفرة السياسية لسلوك المتعصبين وتمنع أخطاء مثيرة للسخرية فى تقدير نواياهم وسياستهم ، ويمكن أن نفترض بثقة ، بأنه لو كان عضو الكنيست عوزى لنداو رئيس الحكومة بدلاً من يتسحاق شامير لكان سيذهب إلى مؤتمر مدريد ويفعل بالضبط ما فعله شامير ، فى حين أن شامير كان يقول ماكتبه عوزى لنداو فى

نفس الموضوع . انتبهوا " يقودون إسرائيل إلى مدريد لكى يجعلوها فريسة سهلة للسلام المتعصبون . فى الحقيقة . يفهمون القوة فقط ويعرفون قراءة خريطة ميدان القوى جيداً !

نماذج على التعبيرات الملائمة لأنماط اللاإنسانية فى مجال الاستراتيجية :

١ - **" الآن بعد أن أصبحت إمكانية الحفاظ على أرض إسرائيل الكاملة غير مطروحة على بساط البحث ، يجب على الليكود والمعراخ أن يتجندا معًا لكى يحصلوا على الحد الأقصى فى المفاوضات "** (عضو الكنيست ميخائيل إيتان فى الإذاعة ، ٢ فبراير ١٩٩٧م) نمط رقم١: المتحدث يعتبر المفاوضات استراتيجية تستوجب الحصول على الحد الأقصى ، أى استخدام أقصى قوة ضد الطرف الثانى فى إطار قيود الاستراتيجية (تعبير " محايد " لا يدل على لا إنسانية ، كان شيئًا ما مثل " أن نتجند معًا من أجل أن نحقق سلامًا وأمنًا حقيقيًا لإسرائيل ; والتعبير الذى يستبعد لا إنسانية كان " أن نتجند معًا من أجل أن نحقق سلامًا عادلاً لكل سكان هذه البلاد) .

٢ - فى تهنئة لرجال قوات الدفاع (الجيش الإسرائيلى) بمناسبة رأس السنة العبرية الجديدة (١٩٩٥) استعرض رئيس الأركان إهود براك نشاط الجيش الإسرائيلى فى تلك السنة ولم يذكر مطلقًا إخلاء غزة وأريحا ، الذى كان أحد العمليات الكبيرة - مجال عمى رقم ١ : إمكانية أن تنازلاً بدلاً من استخدام القوة يمكن أن تكون استراتيجية أفضل .

٣ - فكرة الترانسفير (الترحيل) : نمط رقم ١ ونمط عمى رقم ٢ : النتائج المتوقعة للعملية .

٤ - **" كان يجب علينا أن ندخل بيروت فوراً . وأن ننتهى من العملية وأن نجلب الخلاص. وحتى الآن لم يعد ذلك متأخراً ولا يجوز لنا أن نعطل بأيدينا المسيح المخلص الذى سيأتى بسرعة عندما ينتهى العمل "** (إحدى السيدات تصاحبها جوقة موافقة على هذا الكلام ، فى اجتماع نساء حركة " حباد ") صحيفة هارتس ١٩٨٢/٨/١٠ . تعبير متطرف لوجود مجال عمى رقم ٢ : التضحيات المتوقعة للحرب . وهذا نموذج ومثال بارز على ضعف أى غريزة إنسانية أساسية ، مثل خوف الأم على أبنائها ، فى المجال الذى تسيطر عليه خريطة المفاهيم- لـ أيديولوجية " لاإنسانية

٥ - **" ومن الذى يضمن لنا أن السلام الذى سيتم التوصل إليه سيكون حقًا سلامًا ؟ فلربما ليس هذا سوى خدعة ، جزء من خطة تصفية إسرائيل على مراحل ، وذلك هو الدرس المستفاد من التاريخ ، درس مناطق مقابل سلام ، على غرار هتلر تشيكيًا ...** " كيبوتس ، عيد الاستقلال ، ١٩٩٦م) . نمط رقم ٢ : الامتناع عن استخدام القوة (تنازل من أجل السلام) ، هو خطأ ينطوى على الغباء . هذا شكل مختلف ، من أشكال كثيرة حول موضوع " من الذى يضمن لنا ؟ " الذى يلائم أيضًا مجال العمى رقم ٣ بالنسبة لـ " أعداؤنا " احتمال أنهم يريدون التوقف عن محاربتنا .

٦ - كل التعبيرات التى ظهرت فى وسائل الإعلام ، والتى مفادها أنه يجب أن نطلق النار لكى نصيب من يقومون برشق الحجارة من بين " أعدائنا " ، أولاد أم كبار ، نمط رقم ٣ .

٧ - كل التعبيرات التى ظهرت فى وسائل الإعلام فى حرب لبنان عن " سكين فى الظهر؛ الذى طعنت به المعارضة الحرب - نمط رقم ٤ : إذا كانت القوة لم تفد فإن هناك شخصًا ما آخر مسئول عن ذلك .

٨ - أمم العالم (قوى فى الواقع ليست طرفا حرب نحن - أعداؤنا)

مجالات عمى :

١ - أهمية القوى والأحداث التى ليست لها علاقة بساحة النزاع " غير الجوهرى " هو فقط من له علاقة بنزاع نحن - أعداؤنا (هذا جيد لليهود أو سيئ لليهود) .

٢ - حقيقة أننا ننظر إلى حروب وإلى نزاعات " أمم العالم " بنفس الخليط من الحيادية ، الاهتمام ، اللامبالاة والجهل ، مثلما تنظر " أمم العالم " إلى نزاعنا مع أعدائنا (العالم كله ضدنا) .

٣ - احتمال تدخل أو موقف محايد فى نزاع نحن - أعداؤنا .

٤ - القيمة السياسية والشخصية لوجود علاقات طبيعية مع أمم العالم التى لا تؤيدنا فى النزاع مع أعدائنا .

٥ - ثمن - فى قيم حرية التعبير ، حق الجمهور فى أن يعرف ، ونظام ديمقراطى عمومًا - ثمن إخفاء الحقيقة حول تصرف غير أخلاقى من جانبنا فى حرب ضد أعدائنا لكى " لا نشوه سمعة إسرائيل فى العالم " .

أمم العالم : أنماط تفكير وتعبير :

١ - العالم ، فى الأساس ليس أخلاقيًا وليس نزيهًا .

٢ - عندما تنتقدنا أمة فى العالم أو تعبر عن تفهم لموقف أعدائنا ، هم ضدنا ، ليسوا نزيهين .

٣ - عندما يعبر أحد ما من أمم العالم تعاطف وفهم تجاهنا فيما يتعلق بالنزاع ، هو "صديق حقيقى" ، يفهم الحقيقة ، أخلاقى ، عادل (وكانت هناك فى الماضى من هؤلاء ، فى حالتنا الخاصة ، شخصيات مثل الجنرال الفرنسى سالان ، الذى عمل ضد ديجول فى الجزائر ، عيدى أمين من أوغندا ، دانييل نوريجا من بنما وغيرهم) .

٤ - عندما يصبح صديق حقيقى أو إحدى " أمم العالم " " غير ودين " : مرحلة أ - إعلامنا فشل ، مرحلة ب - إذا استمرت النظرة غير الودية ، عودة إلى نمط رقم ٢ .

ولست أعرف لدى مَنْ من " أمم العالم " قائم النمط الشائع فى الثقافة السياسية الإسرائيلية " العالم كله ضدنا " ويوجد بين الأمريكيين النمط القائل " العالم كله لا يهمنا " والذي يتناسب ويليق بهوية دولة عظمى كبيرة . وشاع لدى الألمان فى الحرب العالمية الأولى نمط " لماذا يكرهنا كل العالم ؟ " على أية حال ، من المعقول الافتراض أن هذا النمط قوى ومهم بشكل خاص .، أيضًا بسبب العادة التاريخية بالشعور بأننا مرتبطين بحكام الدول التى عاش فيها اليهود " مغلوبين على أمرهم " عاجزين سياسيًا .

وسأستخدم فى الفصل التالى ، الذى سيتناول الشخصية المصابة باللاإنسانية ، مقطعًا واحداً - شيئًا ما " كلاسيكى " يجدر أن يدرج فى كل مجموعة مقاطع لا إنسانية . إذا ما درسوا ذات يوم هذا الموضوع - عن " العالم كله ضدنا " ، لكى نوضح العلاقة بين اللاإنسانية وسلامة العقل .

نماذج على التعبيرات الملائمة لأنماط لا إنسانية بالنسبة لـ " أمم العالم " : -

١ - " **أصبحنا المسيحيين الوحيدين فى العالم** " - دوش (معاريف ١٩٨٩/٢/١٠م) " فيما يتعلق بالانتفاضة - نمط رقم ١ : العالم غير أخلاقى .

٢ - **مشروع كارتر السلام الآن طبقًا لطريقة الخطوة خطوة ، شيئًا فشيئًا Saloni ... ، من هنا يتحرك السلام الآن إلى بقية أجزاء فلسطين المحتلة حتى الحل النهائى** . إيلياهو عميقام

(يديعوت أحرونوت ، فى فترة إجراء المفاوضات مع مصر) . نمط رقم ٢ : أمم العالم غير نزيهة تجاهنا ، إنها ضدنا .

٣ - " **بوش ، اتركنى . دعنا نعيش ... ماذا يهمك أن يعيش بعض اليهود حياتهم ؟ ... لست اعتقد أنك تكره اليهود . ربما فقط أكثر قليلاً مما يجب ...** " مئير عوزيئيل (معاريف ١٩٩١) - نمط رقم مثل عاليه .

٤ - عندما بدأت المسيرة كان يبدو أن بوش هو فى الحقيقة وسيط نزيه " وأنه سيحافظ أيضًا على المصالح الإسرائيلية . ولكن كل شيء تغير فى الأسابيع الأخيرة . بيد أن الأمر أصبح معروفًا فعلاً " ناتان بارون (يديعوت أحرونوت ٤/ ١٠/١٩٩١) نمط رقم ٢ . ومجال عمى رقم ٣ : احتمال تدخل محايد .

٥ - الهدف الحقيقى للإدارة الأمريكية فى المواجهة على الضمانات(*) هو كسر قوة حدودنا كدولة استعداداً للمحادثات فى المؤتمر الإقليمى ، تشويه سمعة إسرائيل ولوى ذراعها لمدى لا تستطيع أن ننتعش منه ، وسائل كان الهدف منها جعلها فريسة سهلة "لمسيرة السلام " - عضو الكنيست عوزى لنداو (يديعوت أحرونوت ، اكتوبر ١٩٩١) نمط رقم ٢ ، ومجال عمى رقم ٣ .

٩ - الأخلاقية - مجالات - عمى :

١ - **الواجب الأخلاقى ذاته : واجب قياس أخلاقية ما نفعله بأعدائنا وما يفعله أعداؤنا بنا بنفس المقياس ذاته** " نحن لا نؤمن بمبادىء عليا للأخلاقية وسوف نكشف دائمًا القناع عن هذه الفكرة الخادعة - و - إى . لينين) .

٢ - **خطر أن نخطىء بالنسبة إليهم : أن ما نفعله بأعدائنا سيكون غير أخلاقى مثلما يفعلونه هم بنا (وماذا فعلوا أكانوا سيفعلونه بنا ؟)** .

٣ - **الواجب الشخصى فى التفكير فى اعتبارات أخلاقية أيضًا بالنسبة لأعدائنا وحقيقة أنه لايوجد اعتبار أخلاقى سوى لأفراد مثلنا - " لقد نفذت الأمر فقط ... "** .

---

* - الضمانات المصرفية التى كانت إسرائيل قد طلبتها من الولايات المتحدة ولكن الرئيس بوش أوقف منحها لها كوسيلة للضغط عليها لكى توافق على المشاركة فى مسيرة السلام .

٤ - حقيقة أن " وسائل وغاية " موجودة فقط كمفاهيم مجردة فى أفكارنا أما فى الواقع فإن الشخص نفسه أو أشخاص مثلا ، قادرون على أن يبرروا أو لا يبرروا أى فعل (الغاية تبرر الوسائل ، ربما أكثر مجالات العمى فتكًا فى أجيالنا " .

٥ - احتمال أن الأخلاقية قوة ، وأن السلوك الأخلاقى يعطى قوة فى حين أن السلوك غير الأخلاقى يضعفنا (يبرز مجال العمى هذا بشكل خاص فى تعبيرات معارضة كشف الحقيقة عن مخالفات من جانب " شاذين " .

أخلاقية : أنماط تفكير / تعبير :

١ - كل ما فعل من أجل " نحن " هو أخلاقى وكل ما فُعل ضدنا هو غير أخلاقى (كل ما هو لازم وضرورى لمحو وتصفية نظام الاستغلال الاجتماعى القديم ، ولتوحيد البروليتاريا هو أخلاقى " - لينين ") .

٢ - العين بالعين : نفس الفعل السيئ الذى يفعلونه بنا يتحول ليصبح أخلاقيًا كثأر وعمل انتقامى .

٣ - الأخلاقية فى شئون وجود الدولة ليست شأن الفرد بل شأن الدولة .

٤ - لا أخلاقيات فى السياسة بين " نحن " وبين " أعداؤنا " فقط مصالح قوة وبقاء الأقوى .

٥ - القوى هو المحق .

٦ - الغاية تبرر الوسائل .

إن القول بعبء الأمر الأخلاقى (أن تقنع نفسك بأنك / أو أنك على حق فى الحقيقة ، صوت الله الذى يتحدث فى نفس الإنسان المتدين) هو القيمة العليا فى سلم القيم المشترك لكل إنسان مسئول عن أفعاله فى العالم بما فى ذلك وبشكل أشد المتعصبين .

وتتفادى خريطة مفاهيم اللاإنسانية الأثر الأخلاقى وتُحيِّد عمل الضمير بعدد من الوسائل. إحداها هى إلغاء الذاتى الأخلاقى بواسطة نمط التعبير رقم ٣ ، " لقد نفذت الأوامر فقط" ، أو "هكذا يفعل الجميع" .

إن نمط الانصياع المدمر هو التعبير الموازى لمجال العمى الذى يغطى الواجب الشخصى للعمل طبقًا لما يمليه عليك ضميرك . وذاكرتى الجوهرية فى هذا السياق تعود إلى ورشة عمل مع مسرحيين من الجيش ، قال فيها أحد الشبان بكلمات صريحة : " ماذا سيكون فى هذه الدولة إذا تصرف كل واحد طبقًا لما يمليه عليه ضميره ... ؟ يمكن أن نسمع أزيز موافقة رفاقه فى الجو . هل تفهمون المغزى ؟ فى نظر ذلك الممثل الأصيل والمميز للجيل - الدولة تحتاج لأشخاص يتصرفون بما يتعارض مع ضميرهم ، أو على الأقل لا يتصرفون طبقًا لما يمليه عليهم ضميرهم طوال الزمن ...

المتعصب هو إنسان أخلاقى ، ومرات كثيرة شجاع وبطل ، كرامته وقيمه غالية عليه كلما كان التفسير العلمى الذى يعطيه لهذه القيم غير إنسانى ومُحرف فى نظرنا . وأكثر الحالات تطرفًا وفظاعة هى تلك التى تتمثل فى النمطين ٤ و ٥ ، والتى وفقًا لها لا توجد أخلاقية ولكن قوة فقط . ولذلك نقترح هنا أن نعتبر كل التعبيرات طبقًا لهذين النمطين جزءاً من التعريف العملى أو أعراض مفهوم وتفكير فاشيستى . ولايوجد حتى الآن مثل هذا التعريف و " فاشيست " هو تعبير استنكار نلقى به أو نسقطه على الخصوم . فعلى سبيل المثال ، تعبير " فى الحرب لا مجال لطهارة السلاح " والذى ظهر فى نفس مجلة " موليدت " فى النص السابق، هو تعبير طبقًا للنمط رقم ٤ ، فاشيستى .

ونمط تعبير فاشيستى هو أيضًا النمط رقم ١ ، عندما يعبر الإنسان بصراحة عن أخلاقيات همجية (وهذا مفهوم على خريطة مفاهيمنا ، وإذا كان يوجد فى الواقع همجيون ، فإننى استميحهم عذراً ، فلم أقصد أى جمهور أشخاص حقيقى ...) وينجح النمط العادى ، بواسطة مجموعة كلمات مثل " إصابة الأهداف " فى مقابل " تنفيذ هجمات " ينجح فى طمس حقيقة أن ما فعلناه بهم وما فعلوه هم بنا هو نفس العمل ذاته .

ولا تحتاج الأخلاقيات الهمجية والأخلاقيات الفاشيستية لطمس ، بل نقول بصراحة أنه هذا هو نفس الفعل ذاته ، الذى هو جيد جداً عندما نفعله نحن بهم وسيئ عندما يفعلوه هم بنا. وعلى سبيل المثال ، رثى يسرائيل إلداد فى إحدى مقالاته (يديعوت أحرونوت ١٩٨٠/٢/٢٢) زميله السابق فى تنظيم " ليحى " ناتان يلين مور ، الذى أطلق ادعاء غير أخلاقى ضد م . ت . ف من خلال القول بأن هذه المنظمة على خلاف منظمة " ليحى " فى

حربها ضد البريطانيين ، تهاجم النساء والأطفال . وعن ذلك كتب يسرائيل إلداد : " وهذا صحيح ولكنه ليس المهم ، ذلك لأن المهم هو ... هو أنهم يحاربون من أجل حرية إسماعيل(*) وخطتهم المعلنة هى القضاء على إسرائيل ونحن نحارب من أجل حرية إسرائيل . هذا هو الفرق وبه كفاية " .

نماذج على التعبيرات الملائمة لأنماط اللاإنسانية بالنسبة للأخلاقية :

١ - هؤلاء اعتقدوا أن المقولة القديمة " لا تفعل لرفيقك ما تكرهه لنفسك " يجب توسيعها من خلال سمو نفس لتشمل الأعداء أيضًا - إلياكيم هاعيتسنى ، فى مقال عنوانه : " فئران وجرذان وبقية الآفات : كرامة لله ، ضعوا حداً لجمعيات الرفق والشفقة والأسف " (صحيفة حداشوت ١٩٨٤/٥/٢٥) - مجال عمى رقم ١ : أنه ينبغى قياس تصرفنا وتصرف أعدائنا " بنفس المقياس الأخلاقى ذاته . وهذا نموذج بارز ينطوى على تعبير صريح لإدراك وجود القاعدة الذهبية الأخلاقية وكشف صريح عن مسألة كيف يتغلب الشخص بواسطة اللاإنسانية ، تحويل البشر إلى " أعداء " أو " جرذان " بنجاح على الأمر الأخلاقى الأعلى .

٢ - " بدلاً من أن يقتلون عربًا هم يقتلون هنا يهوداً " - امرأة فى حى كفار شاليم ، بعد أن قتلت الشرطة أحد السكان (هارتس ١٩٨٢/٢/٢٤) ، مجال العمى رقم ١ ، مثلما ورد عاليه .

٣ - التعليمات قاطعة ولا لبس فيها : لا استخدام لوسائل الانتفاضة بالنسبة للسكان اليهود . وفى رأيى هذا قرار جيد. "الويل لنا إذا وصلنا إلي ذلك " العقيد م.، قائد الخليل ، فى شهادته فى لجنة التحقيق بعد المذبحة التى ارتكبها باروخ جولد شتاين فى الحرم الإبراهيمى فى الخليل (يديعوت أحرونوت ١٩٩٤/٣/٤)، مجال عمى رقم ١، واجب استخدام بنفس المعيار الأخلاقى لكل إنسان . والتعبير جوهرى جداً ، لأن الشخص الذى هو ممثل الحكم يُقر ويبرر استخدام وسائل ضد السكان المدنيين من "أعدائنا"، بينما يرى هو نفسه أن استخدام هذه الوسائل، ضد المشاغبين من بين السكان المدنيين من "نحن" (أى اليهود) فى نفس الأوضاع ، وسائل استخدامها على حد تعبيره هو " الويل لنا إذا وصلنا إلى ذلك ".

---

* - يقصد العرب .

٤ - الفارق بين الثأر والقتل ... هاين د. يفهم الفرق بين قتل دنيء وبين عملية انتقامية؟ عملية بن يوسف كانت عملية انتقامية من قتل حقيقي ومسبب ... أي ستة أشخاص أبرياء كانوا يستقلون سيارة أجرة . من المفيد لك أن تستوضح الحقائق ... ، خطاب لهيئة تحرير صحيفة هارتس ١٩٩٣/١/٢٩) ، الحقائق هي أن عملية بن يوسف كانت قتل مدنيين عرب أبرياء كانوا يستغلون أتوبيسًا ، مجال عمى رقم ١ مثلما ورد عاليه ، ونمط رقم ١ : (كل ما نفعله نحن بهم هو أخلاقي والعكس) .

٥ - كيف يمكن تشويه سمعة جنود الجيش الإسرائيلي ؟ مقاطعة من جانب عضو الكنيست عوفيديا عيلي ، رداً على نتائج تقرير منظمة الحفاظ على حقوق الإنسان في المناطق (الفلسطينية) عن مئات الأولاد الذين قتلوا في محاولات فرض النظام ، على الرغم من أن الأنظمة ذاتها أكدت أن هذه ليست سياسة الحكومة والجنود ليسوا مذنبين " (حداشوت ١٩٩٣/٢/٢٧) تعبير على وجود مجال عمى رقم ٢ ، الخطر أن نخطيء في النظرة إلى " أعدائنا " .

٦ - هناك نوعان من المثالية : إحداهما هي المثالية التي هدفها تعزيز الشر في العالم . مثالية عماليق(*) والمثالية الثانية هي المثالية التي كل هدفها هو تعزيز الخير في العالم ... هذه مثالية الشعب اليهودي ، شاؤول نير ، قاتل محكوم عليه من " مجموعة الإرهاب اليهودي " (صحيفة هاعير ١٩٨٣/٧/٢٢) نمط رقم ١ ، أخلاقيات همجية .

٧ - لنقتلهم في كل مكان ، بذلك فقط ننتقم ، شعار تردد في مظاهرة في القدس من أجل الإفراج عن سجناء مجموعة الإرهاب اليهودي . نمط رقم ٢ ، العين بالعين .

٨ - عندما تقع في أوضاع خطيرة ، تضطر فيها لاستخدام قوة . تذكر أنك لن تحصل على تغطية كجندي بسيط من جهات تجلس في مكان ما عالٍ في القيادة السياسية والعسكرية ، باريف بار يوسيف ، طالب عمره ٢٢ سنة انتحر بعد أن تورط في التحقيق في موت فلسطيني توفي من جراء ضربات بعد أن كان معتقلاً بأيدي الجنود ، في خطاب إلى شقيقه . ويقول شقيقه الصغير جال : " إذا كان واضحًا ذات مرة أنهم لن يتخلوا عن جندي ، يقوى حاليًا

---

* - حسب المصادر اليهودية اسم شعب قديم أول من حارب بني إسرائيل في تيههم في الصحراء ، خرج منه ، طبقًا للتقاليد ، هامان . لقب يطلق على من يكره اليهود .

الشعور بأن الدولة لا تؤيدنا " .. " إذا اضطررت لأن أرفع يدى ، سأفكر كثيراً قبل ذلك . سأدافع عن نفسى ولكننى سأرفض الأمر الذى سيُجرمنى ... من المفيد أن أتوصل إلى تفاهم وأؤدى ما يفرض علىَّ دون تفكير " (معاريف وحداشوت ١٩٨٩/٨/٢٥م) ، مجال عمى رقم ١ : واجب استخدام اعتبار أخلاقى نمط رقم ٣ : الأخلاقيات فى الحرب هى شأن الدولة وليس شأن ضميره الشخصى . هؤلاء الشبان يطلبون من الدولة أن تعطى دعمًا وأن تتحمل مسئولية شاملة عن أعمالهم ويتذمرون لأنها تتركهم لاعتباراتهم الشخصية ، ويقول الشاب بصورة مميزة لهذا النمط من التفكير ، أنه سيرفض الأمر الذى يُجرمه . لا أن يرفض الأمر الذى يتعارض مع ضميره ، وفى كل التغطية الإعلامية لهذه القضية المروعة لم تذكر كلمتى " ضمير " أو "اعتبار أخلاقى " ولو مرة واحدة ! هذا نموذج نادر على أن انعدام الضمير أيضًا يمكن أن يتملك أحيانًا .

٩ - لسنا نعرف ما هو مسموح وما هو ممنوع " و سيدى رئيس الحكومة ... فكر فيهم كأنهم أبناؤك ، من لحمك ودمك ، من ذريتك ، وأنهم يقادون للتضحية بهم كل صباح " (يوسى كرايم ، محرر صحفى ، فى خطاب مفتوح إلى يتسحاق شامير فى نفس القضية (حداشوت ١٩٨٩/٨/٢٥م) نمط رقم ٣ كالوارد عاليه : " لست أعرف ما هو مسموح وما هو ممنوع ... " ، يتوجه بالطبع إلى زعيم الدولة مثلما يتوجهون إلى محامى ، وليس كما يتوجهون إلى حاخام أو إلى زعيم روحى . لا وجود لمخافة الخطيئة فى خريطة المفاهيم ، ولكن فقط مخافة " الفشل " الإخفاق بالنسبة للمعيار المتبع ، والذى من شأنه أن يتسبب فى تورطه، لابد من أن نشير فى هذا السياق أيضًا إلى نمط " القوقازى المسلوب " : " الذين يقادون كل صباح للتضحية بهم " ليسوا هم الضحايا الذين يطلقون النار عليهم بل أولئك الذين من شأنهم أن يحاكموا على سوء المعاملة والقتل (ملاحظة تاريخية : يوجد هنا ارتقاء فى التطور التدريجى " يطلقون النار ويبكون " (يسيئون المعاملة ويولولون) .

١٠ - سأقص عليك قصة : ذات مرة جلس معًا الأسد والنمر والضبع والثعلب ، وبحلول الظهر أصبحوا جوعى وذهب الأسد وجاء ببقرة ، لكى يأكلوها . وتوجه الأسد إلى النمر وقال له .. قسم هذه البقرة بيننا ، ولكن لتكن هناك عدالة فى التوزيع . فبدأ النمر وقال: أنت الأسد ملك الحيوانات ، ولذلك تستحق الرأس . وأنا نائبك وسآخذ الجسم . أما الأحشاء

والأمعاء فسأعطيها للضبع ، وسنعطي الثعلب الصغير الذيل . فسأل الأسد : أهذا توزيع عادل ؟ فأجاب النمر : بالتأكيد . فوجه الأسد ضربة للنمر فقتله ، ثم توجه الأسد إلى الضبع وطلب منه تقسيم البقرة تقسيمًا عادلاً . فقال الضبع : " بما أنك ملك الحيوانات ، تأخذ الرأس. ولأنه يجب أن تكون قويًا ، فنعطيك البطن أيضًا ، وسأبقي لنفسي الرجلين الخلفيتين والأحشاء وسنعطي الثعلب الذيل . فغضب الأسد ووجه ضربة للضبع فقتله . ثم طلب الأسد إلى الثعلب أن يوزع البقرة توزيعًا عادلاً . فقال الثعلب : بما أنك ملك الحيوانات، يحق لك أن تأخذ الرأس والرجلين والبطن ، فسأل الأسد وماذا عن الذيل ؟ فقال الثعلب : والذيل أيضًا من حقك . فسأل الأسد والله ! ؟ وكيف جاءت حاسة العدالة هذه ؟ فأجاب الثعلب من خوفي . هل فهمت ؟ إذا كنا أردنا هدوء في المناطق (الفلسطينية) ، فتلك هي الوسيلة ! " . أحد المشتركين في برنامج " البرلمان الأول " (يديعوت أحرونوت ٢٠/٦/١٩٨٠م) ، نمط رقم ٥ : القوى هو الذى على حق ، قصة فاشيستية مع درس أخلاقي فاشيستي .

١١ - أي قانون يخدم مصالح الشعب اليهودي هو قانون جيد . والقانون الذى يتعارض مع مصالح الشعب اليهودي لا وجود له بالنسبة لي " الحاخام شلومو جورين ، (هارتس ١٠/٥/١٩٩١) ، نمط رقم ١ ، أخلاقيات همجية .

١٢ - " سأقول لكم قاعدة بسيطة كيف تعرفون ماذا تنشرون وماذا لا تنشرون : كل ما يسعد أعداؤنا لا تنشروه ! " رفائيل إيتان كرئيس أركان منصرف أمام محرري الصحف ، ١٩٨٢م ، مجال عمى رقم ٥ (لايرى أن المساس بقيمة نشر الحقيقة سيضعفنا) .

الزمن : مجالات عمى :

١ - حقيقة أن كل شيء يتغير في الواقع : نحن ، أعداؤنا ، كل سائر مكونات الوضع "البحر هو نفس البحر والعرب هم نفس العرب " ...) .

٢ - حقيقة أنه ليس للماضي وللمستقبل مدلول ومغزى مختلف عن ذلك الموجود في خريطة مفاهيم أفراد يعيشون في الحاضر .

٣ - حقيقة أن التاريخ لايمكن أن يعيد نفسه ، بل نحن فقط القادرون على أن نكتشف خطوط تشابه معينة ، وثيقة الصلة بالموضوع أم لا ، في ظروف واقع متغير .

الزمن أنماط وتفكير وتعبير :

١ - الزمن تاريخي ، أهميته تدرك فى مصطلحات تاريخ الأمة ، وليس حياة الإنسان (لنضمن سلامًا للأجيال القادمة) .

٢ - أحداث في الحاضر أقل أهمية فى حد ذاتها ، أكثر أهمية كلحظات فى امتداد تاريخي .

٣ - حالة " نحن طيبون و على حق ، هم أشرار ، مذنبون" هو ثابت : ماضى بعيد ، ماضى قريب ، حاضر ، مستقبل (" تنتظرنا مائة سنة أخرى من الإرهاب ") .

٤ - لا تغيير تحت الشمس ، ما هو صحيح ، جيد ، ملائم فى الحاضر هو ماكان ، صحيح/ جيد . ملائم فى الماضى .

نماذج على التعبيرات الملائمة لأنماط اللاإنسانية بالنسبة للزمن :

١ - أنتم قتلتم يسوع .. " مجال عمى رقم ١ ، إن طرأت تغييرات ، ونمط رقم ٣ : "أعداؤنا " أشرار دائمًا .

٢ - ما كان يريده جدا يزهار وشولاميت هو إخضاع العهد القديم للرقابة على النشر (يسرائيل الداد) ، " س . يزهار فلتذهب إلى دير ، يديعوت أحرونوت ١٩٩٢/١/١١ " رداً على فكرة أن أخلاقيات فترة يهوشوع ليست ملائمة لأيامنا ، مجال عمى رقم ١ ، كما ورد عاليه ونمط رقم ٤ : لم يحدث تغيير وما كان جيداً فى الماضى جيد فى الحاضر .

٣ - الخليل منذ الأزل وإلى الأبد (سمة ملازمة) ، نمط رقم ١ : الزمن الجوهري هو تاريخي .

٤ - الشعب اليهودى يعيش منذ ٣٧٠٠ سنة بدون مذكرة تفاهم مع أمريكا وسيعيش بدونها ٣٧٠٠ سنة أخرى ، (تصريح رئيس الحكومة مناحيم بيجن فى أعقاب ضم الجولان ، يديعوت أحرونوت ١٩٨١/٢/٢١م) ، يبرز مجال عمى رقم ٢ : " أن هناك مغزى للماضى فقط إذا كان الأشخاص الذين يعيشون فى الحاضر يرونه ، ونمط رقم ٢ والذى مفاده الحاضر أقل أهمية .

٥ - الكويت هى جزء من العراق ولن يخرجنا أحد من هناك ، حتى إذا اضطررنا إلى أن نقاتل ألف سنة من أجل ذلك . (صدام حسين فى خطاب تلفزيونى إلى الأمة الأمريكية سبتمبر ١٩٩٠) ، نمط رقم ٢ ومجال عمى رقم ٢ ، سالف الذكر .

عرض اللاإنسانية : خلاصة :

إن عرض مجالات العمى وأنماط التعبير هو الأداة لتشخيص اللاإنسانية . فالشخصية المتعصبة ، ذلك الشخص المصاب باللاإنسانية وغير " إنسانى " فى فهمه لـ " نحن " ولـ"أعداؤنا " بنفس معنى أنه ببساطة إنسانى – سلبًا أو إيجابيًا – فى نظرته إلي البشر فى أوضاع حياة عادية وليس " على خلفية قومية متعصبة " يمكن تمييزه بأعراض العَرَض .

" متعصب " : التعريف العملى : هو الشخص الذى تحدث طوال الوقت فقط بأنماط تعبير عرض اللاإنسانية ولم يعبر بشكل عفوى عن مدركاته بالنسبة لأى مجال من مجالات العمى :

بواسطة أداة التشخيص هذه ، يمكننا أن نُشخص وأن نعرف بالضبط عن ماذا وعن مَنْ نتحدث . ويمكننا أن نميز اللاإنسانية كسلوك ، وأن نميز الأنماط الشخصية المميزة لمصادر ولأشخاص مختلفين ، وأن نقيس تكرار حدوث تعبيرات التعصب طبقًا لأنماطها المختلفة ، وأن نحسب النسبة بين اللاإنسانية فى وسائل إعلام مصادر مختلفة ، ثقافات وأزمنة مختلفة. لدينا هنا – لديكم هنا ، رجال العلوم السياسة والمؤرخين – أو أن نستطيع بمساعدتها أن نحول صفات الاستنكار السياسية – مثل تعصب ، عنصرية ، بربرية ، كراهية الأجانب ، فاشيستية، أصولية ، نزعة قومية متعصبة ، إلي سمات مميزة للشخصية جرى تشخيصها على أساس معطيات موضوعية واضحة وعالمية .

والآن أنتم تعرفون إلى حد ما كل ما أعرفه أنا عن فيروس اللاإنسانية وعن عمله ، وكيف بالضبط يشوش منظومة التوجه السياسى ، وما هى الوظائف التى يدمرها وكيف ينجح فى فعل هذا . من هنا يجب أن ننطلق من أجل أن نقترح وأن نستخدم وسائل علاج ومنع العدوى. لقد انتهي الباحث من وصف اكتشافه وهو ينظر إليكم ويستعد لقول ما يعتبره ، من ناحيتكم، الأساس والمهم :

إن من يقول لنفسه ، مسبقًا أنه من المستحيل ، وأنه ليس هناك احتمال للتأثير للصالح على متعصبين / أصوليين / مهووسين وغيرهم ، مصاب هو نفسه باللاإنسانية بالنسبة إليهم، ومع كل فهمى لمن هو متأثر بالآراء المألوفة فى الثقافة السياسية ، فإننا مضطرون لأن نذكر أن هذه الثقافة ليست إنسانية وليست علمية ، بل العكس . ومع الاحترام الخاص الذى أكنه لكل من حاول المنافسة على من صعقهم الخوف وملأتهم الكراهية والآراء المسبقة، التى رضعوها مع

لبن أمهاتهم ، أسرى مشاعر عدوانية - لايجوز أن يرتسم " المتعصبون " المهووسون " فى خريطة مفاهيمنا مثلما يبدو " أعداؤنا " أو " رقيقى المشاعر " فى خريطة مفاهيمهم ، كل واحد منهم مثلنا له قلب ، ضمير ، نفس ، فطنة وقيم - كلما أخطأوا بالنسبة للواقع ويصبحون غير إنسانيين ومدمرين طبقًا لمفهومنا .

وبالفعل لايمكن التأثير عليهم بالوسائل المألوفة فى النقاشات السياسية ، وأصبح يمكننا أن نعرف لماذا : المهم فى مفهومهم ليس ما يعتقدون بل مجالات العمى ، هذا ما لايرونه ولايفكرون فيه . ويساعد فهم مجالات العمى ، أنماط التفكير والباعث السيكولوجى ديناميكى للشخصية المتعصبة ، يساعد فى أن نُقدر على أساس خبرة منهجية هل يمكن التأثير على مثل هؤلاء الأشخاص وإذا كانت الإجابة بنعم فكيف .

وسنقوم فى الفصل التالى ، قبل أن نشرع فى تناول التطبيقات وفى وصف اللاإنسانية فى حياتنا (الباب ثانى) ، سنقوم بربط بعض أطراف بقيت مفتوحة بالنسبة للشخصية المتعصبة وما يمكن أن نفعله إذا كنا نفهمها فى الحقيقة .

---

1 - Kurt lewin (1948) : Resolving Social conflicts, New York , Harper and Brothers .

الفصل الرابع

نظرية اللاإنسانية فى اختبار الواقع

١ - استنتاجات أولى : كيف ننظر إلى الشخصية المتعصبة :

إن فك شفرة الشخصية المتعصبة متضمن فى مجالات العمى وفى أنماط تعبير اللاإنسانية . المتعصبون السياسيون (وعلى خلاف " المتعصبين " فى المصطلح المألوف الذى معناه " شاذون" هم الأغلبية الطبيعية فى كل جمهور يعيش فى حالة صراع مع جمهور آخر . فهم مبرمجون عن طريق الـ " فيروس " على أن يفكروا وأن يعبروا فقط طبقًا لنفس الأنماط المفصلة فى العَرَضْ . وأنماط التفكير تلك هى أنماط ثابتة ، عالمية ، مثل خطوط أساسية فى الطابع ، فى الشخصية وفى وجهة النظر .

ما الذى يتسبب فى جعل الأشخاص لهم آراء كتلك وليس آراء أخرى فى شئون سياسية ٢- الوعى والإدراك السياسى المألوف يرى هو أيضًا الوحدة والتجانس القطيعى فى التماس العذر للذات واستنكار " أعدائنا " ، وعدم القدرة على تغيير مواقف مبدئية لأنه فى إطار التفكير المألوف لايوجد لدينا تفسير للتناقض بين هذا الموقف الموحد وبين الافتراض أن وجهات نظر أشخاص طبيعيين هى نتيجة لتفكير وترو واختيار عقلانى وحر ، كل شخص طبقًا لضميره.. ذلك أن كل شخص عندما يفكر فى نفسه يعتقد أن تفكيره حر ومستقل وموقفه عقلانى . وتتضح الصورة كلها فقط عندما نرى العرض كله ونفهم بأن ما تعتقده الأغلبية فى أى مجتمع معطى موجود ، بمدى كبير ، فى صورة واقع جزئى ومحرف عن طريق مجالات عمى. وأنماط التعبير هى البارزة وتجتذب الاهتمام - ولكن مجالات العمى هى المكون الرئيسى ، الأولى والأساسى ، فى عمل المفهوم والتفكير عمومًا واللاإنسانية بشكل خاص .

إنها تحدد إطار التصرف الذى فى حدوده فقط الإنسان المتعصب قادر على فهم واستيعاب أمور التأكيد والرد .

سياسة : فلتكشف لى عما لا تراه وسأقول لك مَنْ أنت :

توجد علاقات سبب ونتيجة بين مجالات العمى وبين أنماط التعبير .

فأنماط التعبير ليست فى الغالب تسويغية ، حجج " سيكولوجية " ، وهى نتيجة للحاجة لعدم رؤية الواقع الإنسانى لنفسك وللغير " العدو " وإلا فإن البنية الفكرية كلها ستنهار . ولمجالات العمى مغزى ومدلول فى السياسة مثلما إن لعقد اللامدرك مغزي ومدلول فى علم النفس . ولها مدلول فى مصيرنا السياسى مثلما أن للعدو الذى يتربص فى الخفاء دون أن نعرف بوجوده مدلولاً فى نتائج المعارك ضده .

ونظرية اللاإنسانية هى خريطة الجهاز الداخلى الذى يعمل فى الشخصية المتعصبة . ويبدو على ضوء هذه الخريطة أنه لكى نواجه ونقاوم الأمراض الاجتماعية الفتاكة مثل العنصرية والآراء السقيمة والنزعة القومية المتشددة الفاشية والبدائية السياسية وكراهية الأجنبى ، وأشكال ضيقة أخرى من تعصب قطيعى منظم - أهم شىء ليس الأعراض - مايقوله الناس أو يعتقدونه - بل ما لا يعتقدونه ، لايرونه ولايشعرون به مطلقًا ، فلولا أنهم كانوا أعمياء من الناحية العقلية بالنسبة للأجزاء المهمة من الواقع الإنسانى ما كانوا يستطيعون الاهتداء طبقًا لخريطة مفاهيمهم وكانوا سيفقدون الاتجاه تمامًا .

ويقود فهم بنية وعمل جهاز رد الفعل والتفكير المتعصب نحو إدراك له مدلول عملى فى العلاقات العادية مع البشر الذين يميلون إلى نزعة قطيعية سياسية . والتناقش مع شخص ما يميل إلى اللاإنسانية " bigot متعصب " مثل النقاش مع حاسب آلى مبرمج جيداً : نحن نستدعى رد فعل فى أحد أنماط التعبير الثابتة للعرض . فمن أجل ماذا نقدم على هذا ؟ ...يمكن أن نخمن مسبقًا رد الفعل هذا .. ويمكن أن نفترض مسبقًا أيضًا أن رد الفعل سيكون قويًا عاطفيًا وجدانيًا ودفاعيًا سيكولوجيًا . ففى العلاقات بين الأشخاص الدفاع هو هجوم علينا . هذا يستوجبه ويحتمه الواقع الداخلى : رأينا أن البنية الإدراكية كلها مبنية لكى تدافع عن منظومة المفاهيم فى مواجهة الواقع الإنسانى ، وليس لكى تمثله بصورة " أمينة قدر الإمكان للحقيقة على أرض الواقع ، أى " عقلانية " .

وعلى الرغم من النتيجة التى تعتبر طبيعية ، فإن مسيرة التفكير السياسى المتعصب ليست سوية بالنسبة للتفكير العادى لنفس الإنسان ،بل عكس ذلك عكس التفكير السوى ، حيث يعمل بشكل " ارتدادى " : إنه يبدأ من النهاية ، من الاستنتاج الذى يتلائم مع البنية الأساسية لخريطة المفاهيم ويربطها بالبداية ، التى هى الحدث ، الإثارة ، الاستفزاز ، أو المعطى من أرض الواقع ، ومن المؤكد أنكم فهمتم من هذا أن كثيراً من رجال ونساء محبوبين يتحولون وكأنهم أشخاص آخرون : النغمة التعبير ، اللهجة ، الشخصية كلها ، وكأنه يتغير عندما نمس موضوعًا سياسيًا . وقال عالم النفس البريطانى بونى كيرل[١] الذى حقق فى هذا السياق مع أسرى الحرب النازيين الكبار فى محاولة لفك شفرة أجهزة إدراكهم وتفكيرهم ، قال : إن الأيديولوجية السياسية يمكن أن تكون " بمثابة برشامة مغلقة لجنون فى داخل شخصية طبيعية سوية ".

إن روح المتعصب أسيرة فى يد منظومة مفاهيمه ، مادامت تنقص فى وعيه ومدركاته تلك المعطيات الإنسانية التى تغطى عليها مجالات العمى فإنه غير قادر على الخروج منها وأن يصبح حراً ، إنه مغلق بشكل محكم فى وجه وسائل الاختراق العادية ، مثل مبررات أو معلومات جديدة فى النقاش . وما يستطيع القيام بالاختراق عن طريق الدرع الدفاعى للشخصية هو فقط ما يؤدى إلى انهياره كلية ، وهو ما يسمى " صدمة " ، هزيمة جسدية ونفسية تامة ، مثل صدمة القتال أو الوقوع فى الأسر . ولكن يوجد فى مجال العمى المفتاح لتغيير منظومة توجه الشخصية المتعصبة أيضًا بدون صدمة . ويقود فهم البنية الإدراكية لخريطة المفاهيم إلى استنتاج مفاده أن أنماط التفكير غير قابلة للتغيير حقًا ولكن بدلاً من التناقش معها ، من الأفضل أن نحاول أن ندخل إلى نفس " الحاسب الآلى " معطيات غير موجودة فيه ، أى أن نرفع إلى وعيه مجالات العمى .

٢ - لا إنسانية ، موقف سياسى ، وانتماء سياسى : تنظيم مصطلحى يمين ويسار:

اللاإنسانية هى ظاهرة منظومة التوجه العضوية لشخصية الفرد . ونظرية اللاإنسانية هى نظرية سيكولوجية تتعلق بمفهوم وسلوك سياسى ، ويمكن ، إن شئنا أن نعمم منها ، على جهات وحركات وأحزاب وثقافات الشعوب التى توجه طريقها وتوجهها طبقًا لخرائط مفاهيم مشتركة (" برنامج " - " أيديولوجيا ") ، وذلك الانتقال من السيكولوجية إلى السياسة .

ولكن لا يجوز أن نخلط ونربك مستويات التبسيط ذلك أن نهجنا يستوجب أن نعرف عن ماذا وعن مَنْ بالضبط نتحدث ، ومن أجل هذا يجب علينا أن نفصل فصلاً واضحًا بين حقائق - الأشخاص الذين يكون التصرف تجاههم شخصيًا - سيكولوجيًا على أساس تشخيص العرض - وبين التعميم على أشخاص مثل " يمينى " أو " يسارى " ، أو على هيئات وأحزاب منظمة ... فنحن نشتغل بالتشخيص وليس بإلصاق علامات .

. ويبرز فى النماذج والأمثلة التى أوردتها لكى نجسد العرض المتحدثون والمصادر الذين يتضامنون مع مواقف اليمين ليس لأننى اخترتهم عن قصد سياسى بل لأن المواقف المبدئية والاستراتيجية لليمين تتلائم مع أنماط اللاإنسانية أكثر عنه من مواقف " اليسار " .

ففى واقع إسرائيل فى الجيل الأخير يجد الشخص المصاب باللاإنسانية بسهولة المواقف السياسية الملائمة لمجموعة مفاهيمه فى اليمين الصقرى (المتشدد) وليس فى اليسار الحمائمى . وهذا لا يعنى بالطبع أن كل من هو سياسى فى اليمين هو سيكولوجيًا مصاب باللاإنسانية أو كل من ينتمى إلى اليسار خالٍ ونظيف منها .

وسأستخدم تناظراً وظيفيًا معروفًا للغاية : فى فترة ماركس كان مفهوما " يسار " و "يمين" ما أسماه الأساس المادى أيديولوجى على الأساس الاقتصادى : الرأسماليون الأغنياء لليمين والعمال الفقراء لليسار . وفى عالم نهاية القرن العشرين (إسرائيل ، يوغوسلافيا ، رواندا ، الشيشان ، أيرلندا الشمالية ، قبرص وغيرها) الأساس غير اقتصادى ، عى الرغم من أنه لايزال هناك سياسيون يوصون بـ " يسار اجتماعى " كعلاج ودواء لتسكين الغريزة النزعة العنصرية الطائفية أو بإمكانية تهدئة الحنين المتعصب للاستقلال والحرية بملء البطن بالطعام والبيت بالحاجيات . ومن السهل أن نرى أن الشئون الاقتصادية التى ليست مرتبطة بهوية " نحن " و " أعداؤنا " لا تثير نزعات سياسية بأعداد جوهرية .

والأساس لكلا الأساسين الماديين ، لليسار واليمين القائمين لدينا هو النزاع الدامى ، ليس فى الاقتصاد بل فى السيكولوجية الاجتماعية ، وهو عميق فى الهوية وفى النفس . فاليمين هو أساس مادى ينمو بشكل طبيعى على أساس خريطة مفاهيم اللاإنسانية الى محورها - الراية المركزية لها فى الوعى - وهو العدو الشرير ، الذى يعرضنا طوال الوقت لخطر على "وجودنا ذاته " . أما ما كان يسمى ذات يوم " يسار " والآن " يسارية " هو أيديولوجية

"رقيقى المشاعر " ، التى رؤيتها المركزية هى أن يُوجد لدينا شعب فلسطينى مُحتل تحت سيطرتنا ، وإدراكنا للحقوق الإنسانية لـ " أعدائنا " وبعدم عدالة محتملة فى موقف " نحن " كمُحتلين لهم هى الأنماط العالمية لـ " رقيقى المشاعر " ، أى الأشخاص غير المتعصبين ، هذا هو ، فى الجيل الأخير ، خط الفصل الجوهرى ، الوحيد فى الواقع ، بين اليمين واليسار ، السيكولوجى والسياسى فى آن معًا .

ويوجد التساوق بين موقف سياسى يمينى ، انتماء سياسى يمينى ، ولا إنسانية ، فى الأعداد الكبيرة ، ولكنه ليس كاملاً . هناك أشخاص غير مصابين باللاإنسانية وجهة نظرهم يمينية فى شئون المناطق (الفلسطينية) والاستراتيجية وهناك متعصبون قطيعيون ينتمون إلى تنظيم يسارى ، وتوجد فى داخل الأحزاب ، خاصة الكبيرة أطياف ودرجات من التطرف . ولكى لا نقع فى خطأ ونخفق فى تعميم غير مسئول ولا ننسى عماذا وعن مَنْ بالضبط نتحدث، اقترح أن ننسب لا إنسانية فقط لذات الشخص ، أو لذاك التعبير السياسى الذى يمثل السمات المميزة فى مجالات العمى وفى أنماط تعبير العَرَضْ . ، وإننى اقترح بأن ننسب فى الحوار السياسى مفاهيم " يمين " و " يسار " فقط لمواقف فى النزاع اليهودى - العربى، خاصة المواقف التقليدية تجاه سكان العدو وحقوق إنسان الأقلية . وأى تحديد هوية أخرى ، بما فى ذلك هوية حزبية - تنظيمية شكلية سيكون مضللاً أيضًا من ناحية النتيجة السياسية محاولة تحويل التشكيلات المتعصبة " شاس " و " إجوادات يسرائيل " إلى إئتلاف أكثر اعتدالاً . انتهت بـ " مناورة كريهة " وكانت يجب أن تنتهى على ذلك النحو ، وطالما استمر واقع النزاع الذى نعيش فيه ، نقتل ونُقتل ، فإن الأمر الذى سيحسم فى الشئون الحاسمة للحكم والسياسة هو الفرق بين " يمين " و " يسار " فى قيم الحرب والنزاع مع العرب ، وليس أى عامل آخر .

ويمكن أن نجد متعصبين وذوى مفهوم سياسى غير إنسانى حول كل أيديولوجية ، حتى وإن كانت يسارية وتتيح لنا قدرتنا على التبسيط أن نقطع السكان إلى شرائح ، وأن نقسمهم إلى قطاعات وأن نوسم شريحة بـ " نحن " الطيبون / الطيبات - المحقون / المحقات - مظلومين/ مظلومات ، نتعرض للتفرقة / نتعرضن للتفرقة - مخلصون / مخلصات - أخلاقيون / أخلاقيات .. إلخ ، إلخ ، أما الباقون بأنهم " أعداؤنا " المذنبون فى حالتنا والذين نخوض ضدهم نضالاً بكثير من التزمت والكراهية مدرعون سيكولوجيًا بغطاء مجالات العمى

ومسلحون بأنماط تعبيرنا . ونحن نستطيع أن نخلق بروليتاريا وبورجوازية ، يهود وجوييم ، أريين خُلص ويهود بيض وسود ، اشكنازيم وشرقيين ، إنسانيين مستنيرين واليمين القومى الفاشيستى - تجاميع من كل الأنواع الممكنة - بما فى ذلك حتى نساء ورجال . تحتمل أيضًا على هامش " نحن " ظاهرة " كراهية ذاتية " مثلما يرى المتعصبون " رفيقى المشاعر " ، تعصب منظم طبقًا لـ " نحن أشرار ومذنبون دائمًا - هم طيبون محقون دائمًا " . (وللمصابين بالبارنويا أيضًا يمكن أن يكون هناك أعداء ...) ، ويستطيع من لا يعتبرون أنفسهم مشبوهين باللاإنسانية بفضل كونهم مدركين لمجالات عمى العَرَضْ ، يستطيعون بين الحين والآخر فحص أنفسهم ما إذا كانوا متعصبين بالمقلوب ومع مجالات عمى عكسية . فعلى سبيل المثال ، العمى بالنسبة للخطر القائم فى الحقيقة من جانب العدو ولما يفهم ويدرك منه : ضرورة أن نكون أقوياء ، عمى للجوانب القبيحة لدى " أعدائنا " ، أو عمى تجاه الجوانب الإيجابية والتغييرات الإيجابية فى أوساط " نحن " .

٣ - مكافأة للسياسيين والمعلقين : تنبؤ سياسى طبقًا لنظرية اللاإنسانية :

بفضل هذه النظرية سبق أن حدث لى أكثر من مرة إننى شعرت بين المعلقين السياسيين المحترفين مثل طبيب عصرى بين دجالين فى الطب . ونبهنى شخص ما أن هذه العبارة تنطوى على تعالٍ شخصى . ولا تتعلق المقارنة مطلقًا بشخصيتى وبشخصية آخرين ، بل باستخدام نهج وأدوات مهنية ، فليست لدى أية قدرات خاصة أو مميزات أخرى . وكل الفرق هو مثل الفرق بين شخص مثلى وبين طبيب فى حالة يصاب فيها شخص ما بتشنج مفاجىء ويتوقف عن التنفس . فالطبيب تعلم ويعرف شيئًا ما ولديه أدوات يستخدمها ، وأنا لم أتعلم وليست لدى فكرة ماذا يفعلون وكيف . والفرق فى تلك الحالات من التعليق السياسى ، بين من يعرف تشخيص اللاإنسانية ومن لا يعرف هو فى النظرية وفى أدوات التحليل التى عرضتها عليكم. والآن إذا شئتم تستطيعون أن تجربوا أدوات التحليل تلك وأن تتنبؤ والأمور مثلى بالضبط ، وفيما يلى عدد من النماذج :

أبرز نموذج هو أنه فى سنوات حكم اليمين فى البلاد (فى إسرائيل) ، خاصة السنوات العشر من ١٩٨٢ حتى ١٩٩٣ ، قبل وبعد مؤتمر مدريد ، اعتقد كل العالم أنه تجرى مسيرة سلام بين إسرائيل والفلسطينيين حول مصير هذه البلاد (اليسار الصهيونى اعتقد بحرارة ، وبإصرار وبتمسك) . وتنفس الجمهور فى البلاد ، الصحافة ، وبالطبع ، اليسار " المسيرة

"السياسية " كل يوم فى المانشيتات الكبيرة ، والوساطة الأمريكية لم توقف رحلاتها الجوية، وتدفقت الأخبار دائمًا كما هو عليه الحال اليوم . إلا أن هذا الاعتقاد كان اعتقاداً فى شىء ما مستحيل ، إذا كانت نظرية اللاإنسانية صحيحة . وطبقًا لكل القياسات والتحليلات الممكنة بمساعدة أنماط العَرَضْ ، كان الحكم فى الدولة فى يد أشخاص كان مفهومهم للنزاع بشكل بارز وواضح جداً متعصبًا قطيعيًا . وأنماط تفكيرهم حول " أعدائنا " ككيان شر ويهدد وجودنا لم تُمكنهم ببساطة من أن يرغبوا فى إقامة سلام معهم .

فمسيرة السلام ، طبقًا لتعريفها ، تستلزم إرادة وتستلزم إنسانية ، لأنها تنطوى« على عنصر تنازل عن شىء ما طواعية ، لا يجب فى الحرب التنازل عنه إذا كانت لدينا قوة كافية. وإذا كنا لا نريد التنازل عن أى شىء فليست هذه مسيرة سلام بل محاولة لفرض الوضع القائم على الطرف الثانى " سلام مقابل سلام " .

لذلك كان يتحتم علىَّ أن اعتقد بأنه إما أن نظرية اللاإنسانية خاطئة أو مخطئون كل أولئك الذين اعتقدوا أن إسرائيل تحت حكم اليمين موجودة فى مسيرة سلام . من ناحية المتعصب ، التنازل عن شىء ما طواعية لأعدائنا هى فكرة " رقيقى المشاعر " ، إما خيانة ، وإما حماقة وغباء ، أو علم نفسى مرضى .

فالسلام بالنسبة للمتعصبين يُتصور ويكون مقبولاً فقط فى حالة عدم وجود خيار ، وكضرورة تحتمها حالة حرب لايمكن الانتصار فيها ، لأن ثمنها باهظ . وبما أنه من ناحية اليمين الإسرائيلى كانت لدينا قوة وكنا الأقوى ولم تكن هناك مشكلة فى أن نستمر ، لم يكن من الممكن أن يكون هناك شك فى أن استمرار الوضع القائم أفضل فى نظره من سلام ينطوى على تنازل عن مناطق .

والشعور بأنك أو إنكِ تعرفان شيئًا ما لا يعرفه الجميع هو شعور جيد إذا كنا نصغى لكم، وسيئ جداً إذا كنا لا نصغى لكم . وإننى ، على أية حال ، اعتقدت جداً فى هذه النظرية وأردت جداً أن يصغوا لى لأننى كتبت شيئًا ما لم يفعله أبداً ، على حد علمى ، أى معلق . وفيما يلى المقطع الوثيق الصلة بالموضوع :

« مسيرة بيكر »

من الذى يريد أن يتدخل / أوليك نيتسر

يتفق الخائفون من بيكر وكذلك السعداء بقدومه على أنه سينجح فى إحداث تغيير فى مستقبل السلام والمناطق . وهكذا وجدت نفسى مجدداً وحيداً فى رأيى بأن شيئًا لن يحدث ، ولن يطرأ أى تغيير فى حدود دولة أرض إسرائيل الكاملة . وإننى ملتزم بهذا . أقسم بشرفى بأن أعيد ٥٠٠ شيكل مرتبطة بجدول الغلاء لكل من يرسل لى ١٠٠ شيكل ، فى اليوم الذى يطرأ فيه تغيير فى سياسة ضم مناطق الضفة الغربية وغزة . إذا حل هذا اليوم فى فترة حكم اليمين وحكم الرئيس بوش (صحيفة دافار ، ١٩ أغسطس ١٩٩١) .

(والكلام الآتى كتبته فى سنة ١٩٩٨م) :

مجهزاً بنظرية اللاإنسانية ، لست مستعداً لأن أراهن اليوم على أنه فى فترة حكم بنيامين نتنياهو لن تكون هناك تنازلات إقليمية أخرى ، لأن اليمين الحاكم حاليًا قد قبل ، رغم معارضته ، حقيقة اتفاق أوسلو وواقع التنازلات التى قدمتها الحكومة السابقة . لكن لم يحدث حتى الآن إضفاء للصبغة الإنسانية على المفهوم والسياسة . فكل طرف ينظر إلى الطرف الثانى كما لو أن وجوده غير شرعى وأهدافه غير شرعية ، على ذلك يمكن أن نتنبأ بأنه لن تكون هناك مبادرة أو إبداء حسن نية من جانب إسرائيل ، بصورة تجعلهما يحظيان بتقدير لدى الفلسطينيين ، والعكس . وستظل المسيرة تجرى كما هى فى الحقيقة ، أى كما تبدو فى خريطة مفاهيم الطرفين : لا مسيرة سلام من خلال رغبة ، بل كحرب استنزاف على كل متر مربع .

انحراف قصير : " مسيرة السلام " كسلوك إنسانى :

اليوم (١٩٩٨) الخطأ العام هو فى النظرة إلى ما يحدث فى الحاضر بدون علاقة بالاعتقاد بأن هذه المسيرة ستؤدى فى المستقبل إلى سلام . ومع كل الأسف على من قد يضر ذلك بمشاعره ، يجب أن نعترف بالحقيقة ، والحقيقة هى أنه فى الماضى القريب لم تكن هناك ولا توجد فى واقع الحاضر مسيرة سلام . وليس للخطأ العام علاقة بحكم اليمين ، أيضًا فى فترة حكم رابين وبيرس لم تكن هناك مسيرة سلام ... ويخرج هذا الموضوع عن النقاش هنا لأنه ليس مرتبطًا بالذات باللاإنسانية وبنظرية اللاإنسانية التى قدرة تنبؤها السياسى هى

موضوعنا . لذلك سنقوم بانحراف قصير جداً عن الموضوع إلى الموضوع المهم لـ " تحليق فى السحاب " والذى هو المشكلة السياسية لليسار . وسنقوم بالتفاف قليل فى الموضوع الرئيسى لكى نوضح لماذا اليوم وفى الحاضر ، لا توجد مسيرة سلام ، وما هو مصدر هذا الخطأ العام .

إن مصدر الخطأ هو عدم النظر إلى مسيرة السلام كسلوك إنسانى . لذلك نسقط فى داخل فجوة تحليق بين كلمات وواقع وبين نوايا وتصريحات وبين سلوك . ففى السياسة - سبق أن اصطدمنا بذلك عدة مرات - هناك أشخاص لا يعرفون فى الواقع فعلاً عماذا يتحدثون وما كان مثل هذا الخطأ يمكن أن يحدث لأولئك الذين يتقدمون بنهج علمى لحل نزاعات .

والقول بأنه لا توجد مسيرة سلام والتبرير الذى سيأتى على الفور ، ليس سوى تطبيق مباشر لما هو معروف ومتبع فى علم السلوك التطبيقى عن حل نزاعات . ونفس الشىء نفسه متبع أيضًا خارج النهج العلمى فى تفكيرنا عن نزاعات وحل نزاعات بين بشر - باستثناء ما فى السياسة ، التى ما يزال يسيطر بالنسبة إليها فى الفكر الجماهيرى العام النهج السحرى البدائى ! .

وكل من يعتبر نفسه طرفًا فى حرب شخصية أو عائلية أو تجارية أو غيرها ، لن يجد صعوبة فى أن يفهم ما يبدو لى مفهومًا تلقائيًا وظاهراً للعين : مسيرة سلام ، هذا ما تقصدونه إذا كنتم تقصدون بجدية شيئًا ما وتعتقدون بأنه قائم على الأرض ، مرتبطة بشرط داخلى وبشرطين خارجيين على الأقل ، والشرط الداخلى هو استعداد كلا الطرفين للتسليم أى عمليًا أيضًا لتقديم تنازلات للطرف الثانى وليس أن يفرض عليه الحل بالقوة . " الاستعداد للتسليم" ، كما قلنا هى ظاهرة أنسنة -إضفاء الطابع الإنسانى- ولذلك فإنه من الطبيعى أن الأشخاص المصابين باللاإنسانية غير قادرين أن يصدقوا بأن الطرف الثانى يريد السلام حقيقة. ومن ناحية أخرى ، رجال الـ " يسار " الذين لا يرون ولا يلاحظون اللاإنسانية غير قادرين على ملاحظة أعراضها وتمييزها فيما يعرض عليهم على أنه " مسيرة سلام " ولكن علاوة على الاستعداد الداخلى ، يوجد شرطان خارجيان ، وظاهرين للعين ، لايمكن أن تقوم بدونهما طبقًا لتعريفها ذاته ، مسيرة نشطة لمصالحة أو تسليم بين البشر . وأول شرط ظاهر هو أن الطرفين "يصنعان سلامًا " ماديًا ، يجريان مفاوضات فيما بينهما كل منهما مع الآخر. والأمر المذهل فى فترة حكم يتسحاق شامير ويتسحاق رابين الذى كان قبل أوسلو ، أنه على الرغم من أنهما

لم يكونا مستعدين مطلقًا للتحدث مع الطرف الثانى الجميع اعتقدوا أنه توجد مسيرة سلام إلى درجة أنه لا توجد علاقة فى الوعى السياسى المألوف بين سياسة وبين واقع إنسانى ! .

وقد حقق اتفاق أوسلو الشرط الأول ، فالآن مستعدون للتحدث مع م . ت . ف ، إلا أن هناك شرط آخر : شرط أول أنهم يتحدثون والشرط الثانى أنهم يتحدثون عن السلام . كل طرف يطرح ما هو وضع السلام تقريبًا - وأنه يسعى إليه بواسطة المسيرة السياسية ، والطرف الثانى موافق على الاشتراك فيها ، وتوجد فى الوضع الحالى اليوم اتفاقية مرحلية ولكن لا يوجد حتى الآن جدول أعمال للمفاوضات حول السلام . وأقصى ما يمكن أن نأمله هو أن يكون الوضع اليوم مسيرة تؤدى ذات يوم إلى مفاوضات حول السلام . وإذا أصبحت هنا ذات مرة "مسيرة سلام " فإنها ستبدأ فقط بعد أن تعرض دولة إسرائيل على الفلسطينيين مشروعًا لتسوية سلمية - (أنهم يقولون منذ فترة ما هو مشروع سلامهم ، والفلسطينيون سيوافقون على الجلوس وإجراء مفاوضات على هذا الأساس . أما ما سيحدث حتى ذلك الوقت فلايمكن أن يعتبر ، ماديًا ، طبقًا لنفس التعريف وهو " يجلسون مع بعضهم البعض ويتحدثون عن حل النزاع) ، لايمكن أنه يعتبر مسيرة سلام .

اليوم ، فى نهاية هذا القرن الدامى وفى نهاية الألفية ، ديسمبر ١٩٩٩م :

لست أعرف كم من أسس تنبؤى اليوم تثبت صحتها أو تدحض حتى ينشر هذا الكلام ، ولكن هذا الموضوع وهو " مسيرة سلام " بدون سلام واقعى ومُلِح ، اليوم كما هو الحال فى السنوات العشرين الأخيرة ، وربما أكثر ، لأنه تجرى مسيرة دبلوماسية أيضًا مع سوريا ، وعلى ذلك فإننى أشعر أنه من واجبى أن أحدِّث إجابتى على السؤال هل توجد أو لا توجد مسيرة سلام ، حتى آخر لحظة .

إن ما تغير منذ سنة ١٩٩٥ هو أن رئيس الحكومة إهود براك مستعد للتحدث عما يسمى "تسوية دائمة " (كما أن ميرون بنبنيشتى انتبه لتغيير المصطلحات) وهناك حتى تاريخ نهائى محدد لبلورة شروطه العامة . والفلسطينيون مستعدون للاشتراك ، بحيث أنهم إذا توصلوا فى غضون شهرين إلي اتفاق حول التسوية الدائمة -(لم يتم احترام تنفيذ أى تاريخ نهائى فى الاتفاقات التى جاءت فى أعقاب أوسلو : موعد المفاوضات حول شروط دائمة للسلام كان يجب أن يكون قبل أربع سنوات ، فى خريف ١٩٩٥ طبقًا لاتفاق أوسلو) -

سيكون من الممكن القول أنه شكليًا توجد مسيرة سلام وفى هذه الأثناء لاتوجد ولايوجد وقف للمستوطنات

نهاية الانحراف عن الموضوع الرئيسى :

نموذج آخر : فى يونيو ١٩٨٢ ، عندما بدأت إسرائيل ما سمى " عملية سلامة الجليل " ضد م ت ف كل من عبر عن رأيه عبر عن ثقته فى رواية الحكومة بأن العملية تهدف إلى إبعاد قرى وبلدات الجليل (التجمعات السكانيه فى الجليل) عن مدى صواريخ الكاتيوشا وعلى ذلك فإنها ستتوقف عند مسافة ٤ كيلو متراً من الحدود . وفى نفس الوقت كانت نظرية اللاإنسانية فى مراحل تطوير فقط ومع كل هذا عرفت بثقه على أساس تحليل أنماط التعبير ومجالات عماهم أن قادة العملية - رئيس الحكومه مناحيم بيجن ووزير الدفاع إريئيل شارون ورئيس الأركان رفائيل إيتان - يعانون من لا إنسانيه شديدة

أما مشكلة إلى أى عمق نتوغل فى داخل أرض العدو فهى ، كما قلنا مشكلة الاستراتيجية فى إطار أنماط تفكير ومجالات عمى العَرَضْ وأحد مجالات العمى فى استراتيجية المتعصبين هو إمكانية أن استخدام قوة أقل يمكن أن تكون مفضلة عن استخدام مزيد من القوة ورأينا أن نمط التفكير المقابل هو نمطهم الأساسى وأن وسيلة حل مشاكل مع الطرف الثانى هى القوة وإن لم تفد القوة . فمزيد من القوة ولا يتوقف الاستراتيجيون المصابون باللاإنسانية عن استخدام القوة حتى يحققون كل ما يريدون أو حتى يتم إيقافهم بالقوة وذلك لأن نظريتى قالت لى أن هذا مستحيل . ماديًا لأن يتوقفوا هم طواعية بمحض إرادتهم بعد ٤٠ كيلو متراً (*) صحيح أن تعبير " مستحيل ماديًا " يبدو كمبالغة وذلك لأن خريطة المفاهيم التى يعملون طبقًا لها ليست مساحة مادية . حقًا إنها رمزية . إلا أن منظومة التوجه والاهتداء إلى الهدف وكأنها مادية جزء عضوى من الكائن الإنسانى

وفى تلك الحالة استغرق هذا يومين أو ثلاثة حتى رأى الجميع أنهم لم يتوقفوا بل استمروا بالضبط مثلما توقعت وادعى كل المعلقين والسياسيين أنهم لم يعرفوا مسبقًا أن العمليه

---

* - المقصود هنا ٤ كيلو متر فى لبنان أثناء غزو إسرائيل للأراضى اللبنانيه ، حرب لبنان ١٩٨٢م.(المترجم)

كانت مخططة لما يتجاوز ٤٠ كيلو متراً . وادعى الحمائم أنهم خُدعوا . وما كان سوء فهم الواقع السياسى على هذا النحو يمكن أن يحدث لمن يعرفون نظرية اللاإنسانية . ولا مزيد .

وهناك درس وعبرة جيدة من نجاح هذه التنبؤات ، وهى أن الإنسانية يمكن أن تكون أكثر فعالية ونجاح فى السياسة عن اللاإنسانية هو موضوع لم يُثبته الماضى والحاضر حتى الآن . وعلى ذلك فإننى راض عن أن باستطاعتى أن أشير إلى نقطة واحدة على الأقل أثبتت فيها قوة نظرية اللاإنسانية نفسها وعادت بالنفع على أصحابها وقدرة التنبؤ هى أيضًا قوة في نظر أصحاب المفهوم السياسى المألوف ، ولذلك فإن هذا هو أحد الموضوعات القليلة التى يمكن أن تجلب لهم نظريتنا فائدة فيها ، وأيضًا بالنسبة لأولئك من بينهم البعيدين عن الإنسانية والقريبين من تعصب قطيعى .

هناك الكثير جداً من الأناس الطيبين يربطون الإنسانية والتطلع إلى إضفاء الطابع الإنسانى بالسذاجة ، وعليه فسيكون من اللطيف بالنسبة لكم أن تعرفوا أن السذاجة والبلاهة، بين الجماهير وأيضًا بين النُخب - مجموعات الصفوة - والمحترفين السياسيين هما مثل الخبز والماء والهواء لتنفس المؤسسة السياسية الحاكمة القائمة . وفى مقابل هذا ، فإنه فى المكان الذى يُوجدون فيه احتمالاً وفرصة للنهج وللتفكير العلمى حول سلوك سياسى ، ليس للنهج التقليدى مطلقًا فرصة واحتمالاً لمواجهته ومنافسته .

ويجب أن نذكر أن النجاح فى التنبؤ لا يثبت نهائيًا النظرية . فليس هناك مثل هذا الأمر ، ولكن يشجعها فقط . وقد شعرت فى الحالتين اللتين أوردتهما بثقة كبيرة جداً - أكثر من ٩٥٪ طبقًا لإحساس - لأن الحالتين مستا أسس النظرية وخلقت وضعًا قطبيًا ؛ إذا كانت النظرية صحيحة لايمكن أن أخطىء وإذا أخطأت فهذه إشارة على أن النظرية ليست صحيحة. وطبقًا للنظرية أى طبقًا لكل ما كان معروفًا لى عن أشخاص مجالات العمى لديهم بارزة إلى هذه الدرجة وأنماط تعبيرهم متعصبة إلى هذه الدرجة مثل أولئك ، لم أشعر أن هناك احتمالاً معقولاً فى أن أخطىء .

(وبالمناسبة لم أخف أن أخطىء ، بل العكس ، فإن النهج والأخلاقيات العلمية يستوجبان أن نخاف من خداع النفس وألا نخشى من أن نضع نظريتنا فى الاختبار ويسعدنا إذا ما اتضح أننا أخطأنا لأننا نكون بذلك قد تحررنا من العيش فى خطر أو فى كذب - مرة أخرى وكالعادة - أخلاقيات رجل العلم عكس أخلاقيات السياسى الحاكم) .

ومن الحالات الأخرى التى حققت فيها نجاحًا فرديًا فى تنبؤ من هذا النوع سأذكر نموذجين- مثالين على الأمور التى من شأنها أن تحدث أيضًا فى المستقبل وتلك كانت حالات كان مدى ثقتى فى التنبؤ أقل ، لأنه كانت تعوزنى معطيات

فى الحالة الأولى كانت لدى الكثير جداً وأكثر مما يكفى من معطيات شخصية ولكن كانت تنقصنى معطيات نظرية ببساطة لأن هذا يعود إلى فترة طويلة وكانت اللاإنسانية فى بدايه تبلورها فقط ، بعد أول فوز لليكود وفى انتخابات ١٩٧٧م تنبأت بأن موشيه دايان سيفر من المعراخ وينتقل إلى الليكود .

وبدأ موشيه دايان كحالة بارزة للإنسانية ومثل هذه الحالات فى أوضاع احتبار حاسم . تؤيد الاستراتيجية الأكثر نزوعًا إلى استخدام القوة ضد " أعدائنا فالشخصية المتعصبه . على خلاف.ما اعتاد كثيرون على الاعتقاد والقول مخلصة وموالية أولاً وقبل كل شىء لقيمها النشطة (أنماط تفكيرها المثبتة فى مجالات العمى !) وبعد ذلك فقط لمنصبها " كرسيها " أو لمنفعة شخصية

ولنفس السبب بالضبط تنبأت ، فى فترة ما سمى بعد ذلك " المناورة العفنة " لشمعون بيرس (١٩٩٠) ، بأن الحزبين الحريديين شاس وإجودات يسرائيل سينضمان فى نهاية يوم السوق الائتلافى إلى اليمين ، وكانت تنقصنى فى هذه الحالة معطيات شخصية عن المشتركين فى هذا الأمر ، ولكن ما كان يمكن أن يكون هناك شك فى أن هذين الحزبين كأطر مفاهيم وأطر قيم هما حزبان متعصبان .

والنوع الثانى من الحالات التى تتيح تنبؤ عندما يعتدل الشخص الذى تم تشخيصه كمتعصب - أى شخص ما تحدث على امتداد سنة على الأقل بالأنماط التى تتلاءم مع خريطة المفاهيم المتعصبة - القطبعية ولم يعط أى تعبير عما هو مجال عمى - عندما يعتدل ويخفف من حدة أنماط تفكيره السياسى الاستراتيجى عندما يصل إلى موقع مسئولية وحكم. ولقد سبق أن تناولنا هذه الظاهرة فى النقاش حول الاستراتيجيه فى المفهوم المتعصب . ومثل هذا التعبير هو تعبير تكتيكى فقط ذلك أن التعبير الجوهرى فى المفهوم من ناحيه سياسيه حقيقى من ناحية شخصيه ينطوى على إضفا طابع إنسانى أو أنسنه مفهوم النزاع

والنوع الثالث الخاص والنادر ، هو عندما يقوم شخص ما تم تشخيصه على أنه متعصب ، بالتعبير فجأة عن إدراك لما يُعرف بأنه مجال عمى . وطبقًا لنظريتنا ، فإنه حتى التعبير العفوى المنفرد لمثل هذا الإدراك من جانب شخصية متعصبة يدل على تغيير جوهرى .

فإذا افترضنا ، أن إريئيل شارون (أو إهود براك) تفوه عفويًا بشىء ما (غير سياسى مطلقًا !) عن معاناة الفلسطينيين الذين يعيشون تحت حكمنا العسكرى فى المناطق ، أو عن الخطر على اخلاقياتنا وقيمنا وطهارة سلاحنا هناك ، أو حاجتنا إلى أن نأخذهم فى الحسبان من أجل أن نتوصل إلى حل عادل لكلا الشعبين - فإن النظرية تلزمنى بأن اعتقد أن شيئًا ما قد حدث له ، وأن أتنبأ بأنه فى المستقبل سيكون مختلفًا عما كان .

وها هى الواقعة التى حدثت : فى فترة المفاوضات بين إسرائيل ومصر لفت نظرى عنوان ليس بكبير فى أحدى الصحف : " ڤايتسمان : يجب على الإسرائيليين والمصريين إقامة علاقات شخصية وأن يعرف بعضهم البعض " (هارتس ٧٩/٩/٢٨) ، ألا ترون أن هذا تعبير صريح عن إدراك لمجالات عمى ، ومن أجل الدقة رقم ١ ورقم ٢ فى موضوع " أعداؤنا " إنسانيتهم وفرديتهم .

وكان عيزر فايتسمان ، آنذاك وزيراً للدفاع فى حكومة بيجن ، بعد أن اعتبر مهندس الانتصار فى الانتخابات التى أوصلت الليكود إلى الحكم . وكان معروفًا بأنه " صقر " متطرف ، أعرب عن تأييده المطلق لسياسة " أرض إسرائيل الكاملة " . قرأت بسرعة الخبر القصير واتضح أن الخبر الذى كان عفويًا فى عنوانه ، أى أن أحداً لم يهاجم فايتسمان حسب ادعاءات عن أن الإسرائيليين لا يقيمون علاقات إنسانية مع المصريين وهو لم يقل هذا الكلام كدفاع عن النفس (النظرية تعرف أن هناك فرقًا جوهريًا بين تصرف أخلاقى عفوى وبين تصرف للدفاع عن النفس فى نقاش) . ولم يترك الانطباع والتحليل مجالاً للشك : طبقًا للنظرية فايتسمان لم يكن مصابًا ، أو لم يعد مصابًا باللاإنسانية بالنسبة للعدو الذى كان آنذاك العدو الرئيسى الذى يهدد وجودنا .

ولم ينتبه أى معلق ، بالطبع ، لعنوان هذا الخبر . ولكننى استطعت أن أتنبأ على الفور بأنه إذا لم يتضح أن النبأ خطأ فإن كل مسار فايتسمان السياسى فى الليكود سيصل سريعًا جداً إلى أزمة ، وذلك لأن الليكود ومن يرأسه كانوا منظومة مفاهيم بارزة للاإنسانية . وقد حدث

هذا بالضبط مثلما تنبأت ، وبشكل سريع ، فقد نبذ بيجن فايتسمان فى خطاب عدوانى، بعد أن اتهمه فايتسمان بوضع عراقيل على طريق التوصل إلى الاتفاقية مع مصر . وفى السنوات التالية أصبح فايتسمان الحمامة رقم ١ فى المؤسسة السياسية . ثم هبط فى النهاية فى حزب العمل وكان العضو الوحيد فى " حكومة الوحدة الوطنية " (١٩٨٨ - ١٩٩٠) - خلافًا لرأى رابين وبيرس والباقين - الذى قال أنه يجب التحدث مع م . ت . ف . وإننى اعتقد أنه من الصعب فى التنبؤ السياسى أن نحلم بنجاح أبرز من هذا . وإذا كان يمكن أيضًا الخطأ فى التنبؤ عندما يكون المقصود بشر - فإن تجاهل ما يدفعهم ويحركهم فى الحقيقة هو خلاصة البدائية والشعوذة فى المفهوم المألوف .

٤ - صورة مقربة : العالم فى نظر المتعصب ذى الآراء المسبقة :

سبق أن رأينا نماذج قصيرة كثيرة على تعبيرات لمجالات عمى وأنماط التعبير المختلفة لعَرَضْ اللاإنسانية . وسنرى الآن مقطعًا أطول قليلاً ، ليس كنموذج لنمط معين ، بل كنموذج لعمل منظومة التوجه كله فى الشخصية . هذه الشخصية هى شخصيتنا ، بمدلول سيُوضح على الفور .

إذا جرى ذات يوم تدريس اللاإنسانية فى المدارس ، فإن المقطع التالى يمكن ، بحسب رأى، أن يعتبر أحد النماذج الكلاسيكية ، بسبب حجمه العالمى العام واليهودى العام ، والسهولة التى يمكن أن نرى بها عدم وضوحه ، وبسبب كونه ، مميزاً وممثلاً جداً للثقافة السياسية الإسرائيلية الطبيعية السوية . كان ذلك قبل نحو أكثر من عشرين سنة ، فى أيام ذروة قوة ومكانة وهيبة رئيس الحكومة ، مناحيم بيجن ، عندما أصبحت معاهدة السلام مع العدو الكبير الذى يمثل تهديداً ، مصر ، فى جيبنا وكانت ماتزال سيناء كلها تحت أيدينا ، قبل حرب لبنان . جلس وزراء السوق الأوروبية كعادتهم فى الثلاثين سنة الأخيرة وأخذوا يدورون الرقمين الذين يحدثان رنينًا ، لكن لا يجيبان طوال كل تلك السنوات ، قرارى الأمم المتحدة ٢٤٢، ٣٣٨ ، واتخذوا أحد قراراتهم الذى يؤيد مؤتمر سلام للشرق الأوسط . وقد فعلوا هذا دون أن يعطوا أية إشارة على أنهم ينوون بأنه فى هذه المرة بالذات سيتمخض شىء ما عن هذا . وسمع بذلك شخص من الأشخاص ورد بعاصفة من الغضب .

" النفط العربى ليس مطلوب للترويج ، ولا لانجلترا ولا لكندا - فما الذى يدفعهم إذاً إلى الابتعاد عنا ، وحتى الصين لديها نفط خاص بها ، فلماذا اتجهت ضدنا ؟ حقًا إنه هذا ليس نفطًا فقط . هذا نفط وشىء آخر . هنا أيضًا كراهية إسرائيل القديمة ، التاريخية . كنا نقول إن أمامنا هاجس عاصف معادى لليهود عاد ونهض من قلب العالم ضدنا ، مثلما حدث منذ ٤٠ عامًا ، ولكنه أقوى وأشد عنه من آنذاك . أو بكلمات أبسط : ليل دامس عاد وخيم على جيلنا ... "

" لقد اعتقدنا أنه مع النازية ماتت أيضًا معاداة السامية وأخطأنا . إنها لم تمت ، العالم مايزال يذكر قتل الأرمن فى تركيا الذى حدث قبل ستين سنة . ولكن قتل الشعب اليهودى الذى حدث بعد ذلك والذى كان قتل الأرمن بالنسبة له مثل لعبة أطفال ، فقد نسيه ، ويرغب فى تكرار هذه « التجربة » .

وإذا كان قداشتغل بذلك للمرة الأولى أبناء شعب واحد . فقد قام لهم الآن تلاميذ بين جميع الشعوب كلها . لا مجال إذا للسخرية التى تتردد على ألسنة عدد من يهودنا على حساب "العالم الذى كله ضدنا " لأن هذا هو الوضع فعلاً وليس غيره ، العالم كله ضدنا .

الأمر الأول الذى يثيره هذا المقطع متعلق بهويتنا ، ويفهمنا لأنفسنا ولغيرنا عى خلفية الثقافة المشتركة التى نعيش فيها كأناس أسوياء وعقلاء ، هل الشخص الذى يتضامن ويوافق على هذا الكلام يجب أن يعتبر عاقلاً ومتزنًا فى نظرنا ؟ فى سياق سيكولوجى شخصى ، بدون أى حساب سياسى - أين هو حد سلامة العقل /التفكير ؟ - لنفترض إننى سأكشف لكم أن هذا الكلام كتبه شخص تم تشخيصه تشخيصًا إكلينكيًا على أنه غير سليم التفكير ، أو شخص حاول عن قصد فحص مدى انعدام سلامة التفكير التى يمكن إدخالها إلى إحدى الصحف بدون أن يفهموه على هذا النحو .

وهل هذا كلام يمكن تصنيفه بأنه متزن ؟ بأن الصين توجهت ضدنا بسبب الكراهية القديمة التاريخية لإسرائيل ؟ وأن الاشتراكيين توجهوا ضدنا بسبب معاداتهم للسامية ؟ وأنه قد ثار هاجس وفكرة مسيطرة عاصفة معادية لليهود " من أعماق القلب العالمى " ؟ وهل هناك عمومًا شىء كهذا ، " القلب العالمى " (فى فترة ميزان الرعب النووى بين الدولتين العظميين) ؟ وأن العالم يريد أن يكرر الكارثة النازية ولكن بشكل أقوى وأشد مما كانت عليه آنذاك ؟ وأنه ظهر

للنازيين تلاميذ شرهين للكارثة النازية " من بين الشعوب . الشعوب كلها " ؟ وأن العالم كله ضدنا يريد أن يصنع بنا كارثة أكبر و " أشد " ، على الرغم من أنه قد نسي فعلاً الكارثة وعلى الرغم من أن مذبحة الأرمن (" لعبة أطفال !" في مقابل كارثتنا) ألا زال يذكر؟ . . . .

لست أريد أن أخفف على أحد مواجهته الشخصية لمدلول ومغزى مثل هذه الظواهر في مجتمعنا ولذلك أقول بصراحة لولا أن هذا كان موضوعًا جماهيريًا بين نحن وبين "أعداؤنا و " أمم العالم " (التي تصبح أعداؤنا إذا كان العالم كله ضدنا) لكان من الضروري أن أقول ، وكان الجميع سيوافقون، أن هذا الكلام جنون وخبل خالص حالة هوس بارانويا جنون الاضطهاد من الناحية الشكلية فإن الأفكار والتعميمات في هذا المقطع هي أشياء غير سليمة بشكل جلي ، فليست هناك أية علاقة بين ما قيل وبين الواقع وليست هناك أيضًا أية علاقة ، ولو ضئيلة جداً بين الكارثة النازية الرهيبة التي تقترب والتي يراها المصدر وبين ما يقترح الشخص عمله على ضوء ظلام الليل الحالك الذي هبط علينا (لا يقترح شيئًا وينتقل إلى جدول أعمال عادي) ولكن من ناحية معيارية لم يكن هناك أبداً أي شك الشخص طبيعي سوى ، يمثل جماهير . فقد كان رئيس تحرير أوسع الصحف انتشاراً في الدولة طوال عشرات السنين ، وحاصل على جائزة إسرائيل

لقد أوردنا هذا النموذج هنا لكي يتوقف عنده بالذات أولئك الذين يوافقون على أن هذا الكلام غير سليم ويتعمقوا فيه . وذلك لأن رد فعلهم المبير كان هز أكتافهم هذا لا يتعلق بنا . وعلاوة على هذا ما الذي يمكن عمله ؟ . يجب عليهم أن يعترفوا أولاً وقبل كل شيء أن الموضوع ليس طريفة ، حادثًا نادراً إنه يقطر هذا الرذاذ يومًا بعد يوم طوال عشرات السنين إلى داخل الـ " أنا " الجماعي الخاص بنا وامتصت فيه . بالضرورة لدى شخص أقل ولدى شخص آخر أكثر ، وذابت في الدورة الدموية القومية ومثل هذا الكلام وحتى أسوأ منه ، يتردد طوال الزمن . آنذاك ، كما هو الحال اليوم وها أنذا أقفز على السنوات العشرين التي مرت منذ ذلك الوقت طبقًا للبحث الأخير (" هارتس " ١٩٩٧/٢/٢٥) كل العالم ضدنا ما يزال هو الرأي المألوف أيضًا بين أوساط أغلبية تلاميذ معاهد المعلمين ثلث المعلمين الشبان من كلا التيارين يخشون من أن تتعاظم وتشتد معاداة السامية ,من شأنها أن تتسبب في كارثة نازية أخرى - إذا فلتمحوا من فضلكم الابتسامة من الشفتين خلال

القـادمـان من أمناء نهج باحـثنا الدكـتـور هـ . روز بـلوم (" يديعـوت أحـرونوت " ١٩٧٩/٩/١٤) مضمونين له فعلاً " بشكل أقوى وأشد هديراً "

لقد نظر أشخاص قريبين منى فكريًا وسياسيًا إلى الدكتور روزنبلوم باستخفاف وسخرية وأحبوا الاهتزاء به . وعندما أحاول العثور على سبب ذلك ، أدرك أنه مرتبط بأسلوبه الخاص ، غير العدوانى . فلقد كان يقدم أفكاره - الكارثة الأقوى والأشد فى هذه الحالة ، بهدوء ولطف مثل كوب شاى ، لـ " يهودنا " . ولم يكن ساخطًا ولم يحرض بهمجية ضد معارضيه . وهذا هو السبب فى رأيى ، فى فطرة الاستهزاء تجاهه : والحقيقة هى أنه فى نفس الصحيفة وفى كل وسائل الإعلام الجماهيرية الأخرى ظهر كلام بنفس الروح بالضبط ، إلا أنه كان ذاخراً بالعدوانية والبغض والكراهية تجاه " أعدائنا " و " رفيقى المشاعر " والحقيقة أيضًا أنهم لم يسخروا ممن ألفوا وكتبوا هذا الكلام ولم يميلوا إلى الاستهزاء بهم والاستخفاف ، على أية حال، فى مثل هذه الحالة الجماهيرية هو رد فعل متملص . ورد الفعل الأكثر جدارة ولياقة هو أن نحاول أن نفهمه عن قرب ، من أجل أن نفهم أشخاصًا مثله ، وعن طريق ذلك نفهم بشكل أفضل المجتمع وأنفسنا .

فى نموذج " العالم كله ضدنا " يمكن أن نلاحظ بعض الخطوط المميزة للإنسانية . أولاً، نرى أن الأمور مرتبطة فيما بينها بعَرَضْ واحد مُشكل من الموضوعات التى سبق أن عرفناها . والمُحفز فى هذه الحالة هو " أمم العالم " وهى توصف طبقًا لنفس النمط ، بأنها إذا لم تكن لصالحنا فهى ضدنا . كل ما هو معنا إيجابى وطبيعى فى علاقاتنا الشخصية والسياسية مع العالم ، يغوص إلى مجال العمى . ويجدر أن ننتبه إلى أن الإدراك المتعصب لايميز مطلقًا بين فروق واقعية وإنسانية وأن التعميم هو شامل ومتطابق بدون عوائق ولاقيود. " نحن " هو كتلة واحدة بدون فرق بين دولة إسرائيل وبين " إسرائيل " ، كما هو الحال فى كراهية إسرائيل التاريخية " تعبير " تاريخى " الذى يُلغى أيضًا عنصر الزمن الذى يمر فى الواقع . فالعالم يحظى بإحياء فى صورة مسخ واحد ذى قلب واحد فى أعماقه هاجس وفكرة متسلطة ضدنا ، ذاكرة واحدة نسيت كارثتنا ورغبة واحدة فى تكرار الكارثة .

ويبرز مجال العمى لحقيقة أن " نحن " ليس سوى تعميم لأفراد يبرز بشكل خاص فى إلغاء متحدث وحيد : " كنا سنقول " ، " اعتقدنا " ، " أخطأنا " ويسمى هذا باللغة الإنجليزية "editorial we" ، وقال أحد مهرجيهم أن هناك نوعين فقط من الأشخاص المسموح لهم

باستخدامه وهم محررو الصحف وأولئك الذين لديهم ديدان (مجازاً جديرين بالازدراء) ، ويبرز أيضًا العمى الشامل تجاه احتمال أن شيئًا ما فى سياسة الحكومة يمكن أن يكون سببًا لتوجه العالم " ضدنا " . والأسباب التى بمقدور المصدر أن يتصورها هى فقط نفط عربى وفكرة متسلطة شديدة معادية لليهود . وفقط عندما يصل إلى موقع " رقيقى المشاعر " على الأرض فإنه يخلق الفرق بيننا وبين " بعض من يهودنا " .

وتنقص هذا المقطع إشارة صريحة إلى " أعداؤنا " ولكن بما أن الحدث المقصود هو المؤتمر الدولى للسلام فى الشرق الأوسط ، من الواضح أن العالم كله ضدنا فى الكارثة مرتبطان بوقوف العالم إلى جانب " أعداؤنا " ، وأن " كراهية إسرائيل " وتدمير إسرائيل ، هى جوهرهما الثابت طبقًا لخريطة المفاهيم .

ويستوجب تعبير بارز إلى هذه الدرجة عن اللاإنسانية ، يستوجب طبقًا للنظرية ، أن نفترض أن الشخصية " تفكر " بالأنماط الثابتة أيضًا بالنسبة لموضوعات العَرَضْ التى لم يتم التعبير عنها فى نفس النموذج . وهذا استقراء بسيط . وبالفعل فإن كلام الدكتور روزنبلوم كان محرراً طبقًا لأنماط لاإنسانية فى كل الموضوعات التى عالجها وتناولها ، فقد دافع دائمًا عن " يهودنا " الشاذين ، وكان دائمًا مؤيداً بشدة أكثر لحكم أقوى ، وكان عنصريًا تجاه " أعداؤنا " والـ " جوييم " وهذه نقطة مهمة لفهم آلية الإسقاط المفهوم إلى داخل منظومة مفاهيم اللاإنسانية . والإسقاط هو الآلية السيكولوجية لإسقاط كل الشر الموجود فى الإنسان على أبناء مجموعة العدو . وعبارة كلهم " جميعهم يكرهوننا " هى إسقاط لشعور الكراهية لدى المتعصب تجاههم .

فعلى سبيل المثال ، ذات مرة انهارت شرفات فى ملعب لكرة القدم فى بروكسيل ولقى بضع عشرات الأشخاص حتفهم ، وخرج علينا روزنبلوم آنذاك بعنوان : " تلك هى شاكلتهم " وكتب " على المذبحة فى بروكسيل يمكن أن نقول فقط ما يأتى : أنها أثبتت مجدداً لنا (!) من هم الجوييم " (صحيفة يديعوت أحرونوت ١٩٨٥/٦/٢م) ، وكان يقصد أنه على الرغم من أن الكارثة لم تُوقف المباراة بل استمرت حتى نهايتها . وقد أذيعت تلك المباراة أيضًا حتى نهايتها فى التليفزيون الإسرائيلى ، وإننى أذكر أنه عندما قرأت تعبير " تلك هى شاكلتهم " فكرت كيف كان روزنبلوم سيرد لو أن أحداً قال له أنه على ذلك " يمكن أن نقول هذا فقط " : " أثبت لنا بث المباراة مجدداً من هم اليهود " .... لايجوز أن نستجيب لإغراء مثل هذا

النقاش حتى فى التفكير ، لأن الشخصية المتعصبة لم تكن تفهم كيف يمكن أن نقارن ، ولماذا محظور على اليهود أن يتمتعوا عندما يُقتل جوييم - يجب أن نذكر أن إسقاط الشر الداخلى على آخرين ، للتعميم وللاإنسانية هو بكل معنى الكلمة : إلغاء الهوية الإنسانية فى النظر إلى البشر - لا حدود لسلامة التفكير ورجاحة العقل ، كما رأينا أو حدود أخلاقية . كل شىء ممكن وكل شىء يخرج من الإنسان بسهولة ، ولا حاجة للتفكير ، أنماط التعبير واضحة ومعدة مسبقًا ، غائرة فى الذاكرة العميقة ، ممهورة بخاتم اليقين المطلق ، دارجة شفويًا ، تُطلق غريزيًا مثل إطلاق صلية طلقات جزافيًا ، ونستوعب ونلتقط بسهولة وبرغبة ترد الجميل لأصحابه فى شكل مساندات من المحيط الاجتماعى .

ويمكن أن نرى فى هذا النموذج أيضًا الانفصال بين فهم الواقع طبقًا لخريطة المفاهيم السياسية وبين فهم الواقع الحقيقى للحياة لدى نفس الشخص نفسه . وليس هناك أى شىء يغير حالته النفسية بسبب الكارثة الرهيبة التى يوشك العالم كله أن ينزلها بنا . بل العكس ، يمكن أن نرى أنه يتمتع أن يدرك أن الأمر كذلك وليس غير ذلك . فهو يشعر أن الواقع " أثبت لنا مجدداً " أن مفهومه صحيح تمامًا . وطبقًا للنظرية ، فإنه ينام جيداً فى الليل بعد أن كتب الكلام : العالم كله ضدنا ، الكارثة حية وقائمة وتشكل تهديداً - كل شىء على مايرام، لديه رضا وقناعة بأنه كان على حق دائمًا ، وأن كل شىء يجرى فى العالم كما يجب طبقًا لخريطة مفاهيمه ، بالضبط مثلما كانت " ذات مرة " فى ماضى واقع آخر ، فى عالم آخر تبلورت فيه خريطة مفاهيمه (البلدة اليهودية فى المنفى الكئيب فى هذه الحالة).

عالم المتعصب هو عالم بدون تغييرات ، طبقًا لمفهوم الزمن الـ " تاريخى " التهديد الوجودى لل" كارثة " لا يؤثر على نمط حياته ، لأنه عنصر ثابت فيها . وكما يبدو فإن الحاجة إلى الاهتداء والدراية بما يجرى والإحساس بأننا نسير فى الطريق الصحيح فى العالم الذى " نفهمه " هى حاجة أساسية غريزية وعميقة أكثر بكثير مما اعتاد معظمنا أن يفترض . وتوفير هذه الحاجة بواسطة المساندات التى يتلقاها المتعصبون من آخرين ، شركاء فى نفس خريطة المفاهيم ، هى المكسب السيكولوجى للإنسانية ، وتخلق هذه الحاجة تكتلاً اجتماعيًا وإغراءً كبيراً للانضمام إليه . حاولوا أن تشعروا بالرضا الذى يتأتى من المساندات التى يعطيها ويتلقاها الأشخاص الذين يتبادلون الآراء فيما بينهم فى أنماط ثابتة لنحن وأعدائنا ، حسنًا ، ماذا يمكن أن نتوقع منهم ... أية ذخيرة روحية تلك تمثلها خريطة مفاهيم لايمكن أبداً من يجرى

توجيهه طبقًا لها أن يخطىء وبدون أن يضطر للتفكير حتى وإن كان يتلقى دائمًا تأكيداً على أنه محق ، بأن هذا فعلاً هو الوضع وليس غيره : العالم كله ضدنا " .

٥ - إكساب تراث اللاإنسانية للجيل القادم :

" ماما ، بماذا يُدعى (يسمى) هؤلاء الأشخاص الذين يجب علينا أن نكرههم ؟ - طفلة عمرها سبع سنوات ، النموذج من كتاب جوردون الفورط " طبيعة الآراء المسبقة "(٢) .

كيف تنشأ اللاإنسانية فى نفسية الطفل ؟ - بما أن المشكلة هى الهوية ، فقد نشأت فى وقت واحد مع الإنسانية ، مسيرة تطور الولادة الإنسانية للإنسان فى سنوات نشوء خريطة المفاهيم التى تشمل الـ " أنا " الخاصة به .

وننحرف بهذه المناسبة عن الموضوع ونورد قصة من الحياة : استطيع فقط أن أخمن كيف نشأت اللاإنسانية فى نفسية الطفل هيرتسل روزنبلوم . ولكن تقريبًا قبل عشر سنوات وصلت إلى إسرائيل السيدة مركوزا (اعتذر لأننى نسيت اسمها الأول) أرملة هيربرت مركوزا ، الفيلسوف المعروف الذى كان ممن يتمتعون بشعبية فى العالم فى الستينيات التى شهدت التمردات ذات المرح الصاخب . وقد جاءت لكى تدير هنا عدد من ورش العمل حول العنصرية. وجلسنا حول طاولة جلسات كبيرة وطلبت هى من كل مشترك فى دوره أن يحكى كيف لأول مرة فى حياته عرف أو عرفت بوجود " أولئك " وكيف صادفوا لأول مرة فى حياتنا بمظاهر آراء مسبقة ضد أشخاص من مجموعات أخرى . وحكى كل واحد من الحضور قصته كل حسب دوره حتى جاء دور شخص عرفت شخصيته الجماهيرية . فقد كان عضو كنيست لسنوات كثيرة ، سكرتير نقابة المعلمين لسنوات كثيرة جداً ، شخصية هامة فى حقل التعليم فى إسرائيل . وعندما عملت على نظرية اللاإنسانية فى الآداب ، وقد أتيح لى سماع كلامه الاستهلالى المقنع ، فى المؤتمر الدولى لرجال علوم التعليم الذى عقد فى إسرائيل ، حول التعليم للديمقراطية والتعليم ضد الآراء المسبقة .

فقد بدأ نفس الشخص كلامه قائلاً : " عندما كنت طفلاً حذرنى أبى دائمًا بأن أحترس من الجوييم ، لأنهم سكارى وسفاكى دماء . لقد كنت طفلاً وكبرت ، وأنتم تعرفون ماذا يجرى ؟ لقد كان محقًا فى كلامه ! " .

نهاية القصة . وبما أن رأس كل طفل عبرى فى المدرسة متضخم من " أسباب معاداة السامية " فإن العبرة والدرس المستفاد من القصة هو أنه من المستحسن إضافة وإدخال درس واحد على الأقل يتعمق فيه الأولاد فى أسباب معاداة الجوييم " الجويتية " ...

إن الطفل يتعلم لغة إشارات عالمه الاجتماعى ويخلق بذلك مفهوم هويته وإحساس وجوده فى العالم . ولايمكن فى هذه المسيرة تحصينه مسبقًا ضد اللاإنسانية ، لأنه فى تلك السنوات الرائعة لم تكن لديه حتى الآن قدرة على التمييز بين الرمز وبين ما يرمز إليه ، بين الكلمة والشىء والمادة ، أو بين خريطة المفاهيم التى تنشأ فى رأسه الصغير وبين المساحة .

وعندما يتعلم الأطفال اسم شىء فإنهم يتعلمون معرفة " ما هذا " جوهر الشىء بالنسبة لهم تسميته اللفظية وبذلك ترتبط قدرتهم على الاتصال منع البيئة ، جان فياجيه[٣] . انتبه لأنه فى سن معينة الكلمة هى الشىء لدى أطفال (هل يمكن أن نسمى القمر شمسًا والشمس قمراً ؟"، " لا ، لأن الشمس تضىء بالنهار والقمر ينير بالليل ") . بالنسبة لأولادنا عربى = عربى . ومن اللحظة التى يعرفون فيها أن هناك كثيرين مثل هؤلاء كل عربى = عربى - لا فروق .

ومع استمرار تطورهم يتعلم البشر الطبيعيين أن الكلمة ليست الشىء ، أى ليست الكلمة شمس تضىء بالنهار ولكن احتمال أن يتعلموا أو لا يتعلموا أن كلمة " عربى " (أو أية تسمية أخرى لـ " أعدائنا ") ليست سوى رمز شامل لبشر كثيرين ومختلفين مثلى ، هو مرتبط باستمرار تعليمهم .

وعندما كان ابنى فى سن الخامسة جاءنى ذات يوم من الروضة ، وأبلغنى أنهم قتلوا بوبى كندى . واستقصى كيف يقتلون وأندهش قائلاً " ماذا بالندقية يقتلون ؟ " بالبندقية يحرسون ... " وبعد ذلك سأل " ، ماذا إذا يجب الآن أن نقتل جميع الأردنيين ؟ " - إنه سمع على أية حال أن بوبى كندى قتله " أردنى " ، فمصطلح فلسطين لم يكن قائمًا حتى الآن فى لغة الحديث العبرية . ولكن السؤال الذى سأله لايمكن أن يكون تكرار لكلام التقطه من إنسان كبير (هذا كان فى كيبوتس رقيقى المشاعر ، ونفى أنه سمع هذا من شخص ما ، وليس لدى شك فى أن سؤاله كان أصلاً نتيجة مميزة وطبيعة لتطور منظومة التوجه والاهتداء إلى الهدف لدى الطفل فى العالم ، فى مرحلة تطور يوجد فيها تطابق بين الكلمة والجوهر وليس هناك تمييز بين

مقومات تعميم وتبسيط : إذا كان الشخص السيء هو " أردني " فإن جميع " الأردنيين " يستحقون العقاب " ، ... إبني لم يترب مع آراء مسبقة ، ولم يُصب باللاإنسانية لأن الأشخاص الجوهريين في حياته ، ساعدوه على فهم أن الـ " أردنيين " هم أناس ، مثلنا أطفال وكبار ، طيبون وغير طيبين ، مثله ومثلنا جميعًا . لو تلقى أجوبة بأنماط لاإنسانية كان يستطيع أن يتطور لإنسان آخر .

وبالمناسبة لم تكن لدى طفل في سن الخامسة أية صعوبة في أن يفهم أن " أردنيين " هم بشر مثلنا . وطبقًا لحد ما تسعفني به ذاكرتي ، فإن التفسير استُوعب أيضًا لديه آنذاك ولم يعد بعدها إلى أنماط التفكير السابقة . هذا هو الشيء العجيب إلي هذه الدرجة لدى أطفال ولدى أولئك الأشخاص الذين لديهم ميل لأن يكون منفتحين بالنسبة للواقع الإنساني ولديهم شجاعة لتغيير خريطة مفاهيمهم . والمشكلة الخطيرة هي كيف نواجه اللاإنسانية التي سيطرت على خريطة مفاهيم يكبرون وكبار - " اليسار الصهيوني " في إسرائيل ، فشل في ذلك . ويتحدث الجزء الثاني من الكتاب عن قصة فشله ويحلل الأحداث بأدوات نظرية اللاإنسانية .

---

1 - R.E.Money-Kyrle (1951), Psychoanalysis and Politiccs, London : Gerald Duckworth.
2 - Gordon Allport (1954), The Nature of Prejudice, Reading, Mass. : Addison Wesley Co .

٣ - جان فياجيه : مفهوم عالم الطفل ، طبعة عبرية ، سفريات بوعاليم ، ١٩٦٩م.

الباب الثانى

انتصار التعصب فى إسرائيل

١٩٧٩ - ١٩٩٩

استهلال : قصتنا :

يعكس هذا الجزء تاريخ إسرائيل فى الجيل الأخير . وإننى اختار " سرداً " مختلفًا عما هو مألوف وبذلك فإن أفعال السياسيين والأحداث السياسية هى الخلفية . أما أبطال القصة فهم إسرائيليون مثلى ومثلك " محبو إسرائيل والمدافعون عنها ومن شكلوا صورتها قبل فترة الضم. فى بداية القصة إسرائيلنا هى شخصية قريبة فى طابعها الأخلاقى لما يُسمى هنا " اليسار الصهيونى " . وهى تحافظ على ظهور سياسى ديمقراطى وإنسانى ، تريد السلام وتمد يدها لأعدائها لإجراء محادثات سلام على الرغم من أنهم لا يعترفون بها مطلقًا ويشكلون تهديداً حقيقيًا على وجودها ذاته ، خاصة من جانب مصر . وهى تعرف حدودها (الخط الأخضر) وليست لديها مطامع توسع . ولقد اضطرت إسرائيل تلك أو اعتقدت أنها اضطرت إلي أن تحارب من أجل وجودها فى سنة ١٩٦٧م وفى خلال بضعة أيام سيطرت على مساحات كبيرة تبلغ خمسة أضعاف مساحتها وعلى ملايين البشر هذه هى قصتها . وسوف تحكى كيف واجهت إسرائيلنا ذلك ، عندما بدأ ، بعد ١٩٦٧م ، فيروس اللاإنسانية يتفشى فيها حتى سيطر على سياستها وعليها .

وتلك هى أيضًا القصة الشخصية للمؤلف الذى يخلع الآن رداء مختبره كباحث فى ڤيروس التعصب ، ولكنه لا يتخلى عن التزامه بالنهج العلمى فى بحث الواقع الاجتماعى السياسى وفى اختيار الوسائل التى تنطوى على احتمال لعلاج أمراض هذا الواقع . وسأقوم فى هذا الجزء بتحليل واقعنا ليس فقط كباحث وكمؤمن بالفلسفة الإنسانية ، بل أيضًا كإسرائيلى يعارض ضم المناطق ويتحدث إلى أشخاص مثله .

-وكما أن الهدف فى الباب الأول كان الكشف عن الـ " ڤيروس " ونشاطه ، فإن الهدف الرئيسى فى هذا الباب هو تحليل وكشف ماذا يحدث لغير المصابين بذلك الفيروس عندما يتصلون ويتعاملون مع أشخاص وجماهير إنسانية مصابة باللاإنسانية . وسأشرع فى شرح هذا بنفس المفاهيم وبمساعدة نفس الأدوات التى استخدمتها لوصف خريطة المدركات ، منظومة التوجه وعمى المتعصبين .

الفصل الأول

تاريخ الخط الأحمر فى الطريق إلى الضم

" لقد جلبت علينا هذه السنوات الأخيرة عقابًا وجزاءً شديداً ، أكبر مما استطاع أن يتخيله حتى المتشاءمون من الناس . والأسوأ من كل شيء هو أن حاسة العدل والاستقامة لدينا قد تضررت بشكل لايمكن إصلاحه ، إلى درجة أنه ليس هناك أي تأثير تثقيفى تربوى للمعرفة التى اكتسبناها بعمل مضن على جذور الشر " .

التكيف والتأقلم مع الحرب أفسد الطبيعة القلبية للإنسان . ومن خلال ذلك تضاءل تأثير كل عمل إنسانى وعاقل ومتزن ، وعمل من هذا القبيل يثير أيضًا شبهات ويثير غضب الناس لاعتبارهم إياه مظهر خيانة للوطن " « ألبرت أينشتاين - ١٩١٦ ».

وثيقة فريد ليندر : " النقطة الحرجة التى لا رجوع عنها " :

فى عيد الاستقلال الخامس والثلاثين لدولة إسرائيل ، فى أبريل ١٩٨٣م ، اشترك البروفيسور شاؤل فريد ليندر فى مظاهرة ضد إقامة المستوطنه اليهودية فى هاريراخا بالقرب من نابلس وكانت هذه أول مستوطنة فيما يسمى آنذاك ، قلب التجمع السكانى العربى المزدحم " . وفى نفس المساء كان يجب على فريد ليندر أن يسارع بالعودة إلى القدس لحضور احتفال تسليمه جائزة إسرائيل[١] " لمساهمته الحاسمة فى بحث فترة الكارثة والنازية الألمانية" . وقد سأله الصحفى والأديب عاموس إيلون (هارتس ١٩٨٣/٤/٢٢م)، لماذا

يحاطر . لأنه يحتمل الا سمكن من العوده الى الاحتمال الرسمى فاحات فريد ليندر انتبهوا يامؤرخى وعلماء نفس المستقبل - لم يكن من الممكن أن يكون هناك حلاف دلك وأوضح قائلاً: " يقترب ضم الضفة الغربية الآن من النقطة الحرجة التى لاتعود هناك رجعه عنها ، ولا حتى فى مقابل سلام، وهذا أمر خطير جداً . مخيف جداً . مدمر جداً من الناحية الأخلاقية والاجتماعية. وأحمق جداً من الناحية السياسية . لأن من يسكت الآن ولا يحتج ولا يعبر عن مر الشكوى ، حتى وإن كانت احتمالات سماع احتجاجه وصرخته ضئيلة يصبح شريكًا فى الجريمة التى ستدمر ، على الأقل الديمقراطية فى إسرائيل "

إن البروفسيور شاؤل فريد ليندر هو نموذج للزعامة الروحية لإسرائيل تلك التى يسرد هذا الفصل التاريخى قصتها فى سنوات توسع دولة إسرائيل فى المناطق وسأورد فى السياق اقتباسات من كلامه وفيها الدروس والعبر التاريخية التى يقترحها هو كمؤرخ باحث فى الكارثة النازية

وإحداها ليس درسًا أو عبرة بالضبط بل تحديد يستوجب استخلاص دروس : " الضعف المتكرر لمعارضة ليبرالية أو اجتماعية ديمقراطية إزاء مسيرة الشرور والتوحش والبهيمية التى نراها رؤى العين ولكن لا نعرف كيف نوقفها "

وفى حديثه عما كان يجب على المعارضة الليبرالية فى جمهورية فايمر أن تفعله ولم تفعله . يستخدم كلمات صريحة " أن نمد خطًا أحمراً وأن ننتفض ونثور

" بما أن كل مرحلة فى حد ذاتها تبدو محتملة " كما يبدو ، " لها ما يبررها " كما يبدو ، قانونية كما يبدو ولا يلاحظون فوراً النتيجة - فإن الطيبين أيضًا يجدون صعوبة فى أن يقرروا أن يمد الخط الأحمر الذى لايجوز اجتيازه ، ولكن هناك خط أحمر قائم . وينبغى تعريفه وتحديده قبل أن يصبح هذا متأخراً أكثر مما ينبغى - متى . إذاً . ينتفضون ؟ .

ومن الواجب ، من أجل الدقة التاريخية ، أن نشير إلى أن كلام فريد ليندر لم يكن توجها ونداء مباشراً إلى المعارضة الليبرالية فى إسرائيل ، بل العكس فهو يتوخى الحذر فى أن يقول لا يوجد تشابه (وفى تناقض مع مقولته قال على الفور " توجد دروس وعبر ") على أية حال . فإن كلامه هو النموذج الوحيد فى مجموعه مصادرى التاريخيه (باستثناء تعبيرات فى الأدب وفى الفن ، التى تقول فيها شخصيه مهمه فى اليسار الصهيونى ماله

يفعله " الطيبون " هناك ، لكى تلمح ما يجب على " الطيبون " أن يقرروه هنا ، والآن تصل قصتنا إلى ذروتها الدرامية : يقول البروفيسور فريد ليندر أن ضم الضفة الغربية " يقترب الآن من النقطة الحرجة الحاسمة التى لارجعة عنها " .

ويحبس القارىء أنفاسه لكى يرى متى تحدث هذه النقطة وتسقط عليه وعلينا كحقيقة قائمة تستوجب " انتفاضة ، وعلى ذلك حتى اليوم ، مئات المستوطنات ومئات آلاف المستوطنين فى وقت لاحق ، فإن نفس الشيء " خطير مخيف أحمق مدمر من الناحية الأخلاقية - سيُدمر على الأقل الديمقراطية فى إسرائيل - لم يتحدث حتى الآن ... لم يتم فهم هذا . هذه هى النقطة المهمة فى القصة " قصة إسرائيل التاريخية المفزعة فى الربع الأخير من القرن العشرين ، هى قصة شخص ما كان يجب أن تحدث فى نفسية معارضى الضم ولم تحدث .

ونهاية القصة العرضية عن البروفيسور فريد ليندر هى على النحو التالى : طبقًا لكلامه وطبقًا للمنطق الداخلى لهذا الكلام ، فإن بطل قصتنا أى نحن - " اليسار الصهيونى " يعيش فى راحة كشريك فى الجريمة التى قد هدمت منذ فترة الديمقراطية فى إسرائيل . فدولتنا الديمقراطية ابتُلعت فى داخل دولة الضم بعد أن لم نمد أى خط أحمر وليس فقط أننا لم نثر ولم ننتفض ، بل تعاونا بشكل رائع . وبهذه المناسبة فإن فريد ليندر كف عن الاحتجاج وأن يشكو مر الشكوى واستمر فى تولى إدارة عمل علمى متألق فى مؤسسات أكاديمية فى الخارج وفى إسرائيل ، على الرغم من الدرس الأولى الذى عدده هو نفسه : " كم هو سهل ، ولكن خطير جداً ، الميل فى أوساط مثقفين للسكوت والانكفاء على مهنتهم المعرفية " .

وثيقة طالمون : " ينتظرنا إفساد سيجعل أجمل أحلامنا عن الإحياء القومى مثار سخرية وازدراء ... " :

تعود القصة ثلاث سنوات إلى الوراء ، إلى يوم ٣١ مارس ١٩٨٠ ، قبل سنتين من حرب لبنان ، قبل ثلاث سنوات من تلك " النقطة الحرجة التى لا رجعة عنها " ، والتى اقتحمت فيها حكومة إسرائيل مع المستوطنات " قلب التجمع السكانى العربى المزدحم " ، وقد نشر واحد من كبار مؤرخى إسرائيل ، وربما أكبرهم وصاحب أكبر مكانة علمية عالمية من بينهم - نشر مقالاً مطولاً على صفحتين كاملتين فى صحيفة هارتس بحروف صغيرة ، دعُم فيه بعدد كبير جداً من الأمثلة والنماذج التاريخية رأيه ، حيث قال : " ... إن التحول الذى حدث ، عندما تخلت

حكومة إسرائيل فى صيف أو فى خريف ١٩٦٧ عن السياسة المعلنة (فوراً بعد حرب الأيام الستة) بأنه ليست لها مطالب إقليمية ، كان خطأ مصيريًا .... وليس لدى أدنى شك فى أنه ينتظرنا من محاولة السيطرة على مليون وربع مليون عربى خلافًا لإرادتهم ، قسراً، إفساد سيجعل أجمل أحلامنا عن إحياء قومى وروحى مثار سخرية وازدراء ، وأن السعى إلى ضم المناطق ليس فقط أنه لن يوفر لنا الأمن بل سيستنزف قوتنا فى الدفاع عن أنفسنا " من عداء جيراننا ومعارضة المجتمع الدولى " .

ونحيطكم علمًا بأن يعقوب طالمون قد مثل دولة إسرائيل والصهيونية فى النقاش الجماهيرى العام فى بريطانيا ضد المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى ، الذى ادعى أن الصهيونية هى حركة عنصرية ، وقد أدرجت مقاله الكبير فى موقع مشرف ، كحدث تاريخى فى قصة تاريخ معارضى الضم ، أولاً وقبل كل شىء بسبب أن مضمونه مهم وبسبب أنه كانت هناك أحداث قليلة جداً جديرة بأن توضع فى موقع مشرف . ثانيًا ، من الناحية التاريخية هناك سابقة جوهرية جداً لإدراج مقال فى صحيفة من الأحداث التاريخية المهمة . والمقارنة التى يتطلبها الأمر هنا هى بالحدث الذى احتفلت الأمة الفرنسية والعالم بمرور مائة سنة على وقوعه، الحدث الذى كان له مدلول ومغزى خاص فى تاريخ الصهيونية : J' Accuse " إننى أتهم " العبارة المشهورة لإميل زولا فى قصة درايفوس . وكان زولا أيضًا شخصية بارزة فى مجاله وليس صحفيًا . فقد كتب هو وطالمون أيضًا (الذى لم يكن يتهم أحداً) رسالة مفتوحة إلى رئيس الدولة . وكتب زولا إلى رئيس الجمهورية وكتب طالمون إلى رئيس الحكومة مناحم بيجن.

وأصبح خطاب إميل زولا حدثًا تاريخيًا ، أما خطاب طالمون ، وكما يتناسب مع قصتنا ، والذى يسرد الأمور المهمة والحاسمة التى كان يجب أن تحدث ولم تحدث ، فلم يفعل شيئًا ، وغرق مثل حجر فى مستنقع . والسبب الثانى لإعادة نشره هنا هو أن هذا المقال يستحق أن يلقى " عدالة تاريخية " . وبما أن ذلك ليس بمقدروى قررت على الأقل أن أقوم ببادرة حسن نية ولفتة إنسانية من الاحترام والتكريم لمن يعتبر فى نظرى أحد الأبطال القلائل للنضال من أجل روح إسرائيل ضد اللاإنسانية . ويبدو أن طالمون قد عرف عندما كتب المقال أن أيامه معدودة وأن هناك فى نظرى شخصًا ما هو بطل حقيقى لأنه كرس حياته لمحاولة بسط مواقفه على حالة الأمة (كان العنوان " الوطن فى خطر ") والتأثير على بيجن وعلى الجمهور .

وهذا فى نظرى يجدر أن يصبح قدوة . وعمله ملائم لأخلاقيات رجل علم حقيقى مثلما كان طالمون : فهو لم يخدع نفسه بأن بيجن سيغير كثيراً من نهجه . ولكنه تصرف مثل طبيب جيد يعرف بأنه إذا كان المريض فى خطر موت حتى وإن كان احتمال شفاؤه هو ٥٪ فقط ، يتعين عليه أن ينفذ العلاج بإخلاص بنسبة ١٠٠٪ لاستنفاد هذا الاحتمال .

وهناك سبب آخر لقرارى بتصنيف مقال طالمون باعتباره حدثًا تاريخيًا وهو أنه متفرد ، ونموذج وحيد لأهم شىء كان يجب أن يحدث طوال كل الفترة ولم يحدث . إن المقال هو كائن غريب فى الطبيعة الإعلامية ، وليس جدليًا بل إيديولجيًا فى الحقيقة ، مثلما كان مارتين بوبر يتحدث إلى خصومه وإلى كل إنسان ، فقد توجه فى الحقيقة وتحدث إلي بيجن مثلما نتحدث عندما نريد التأثير على شخص حتى وإن كان متعصبًا : باحترام ، بصبر ، بصدق ، وبخبرة غزيرة فى التصرف تجاه إطار سلوكه وقيمه بدون تحريف أو تزييف مواقفه ، وتبرز أهميته على خلفية الحقيقة التاريخية المقررة والمحسومة وهى أنه على امتداد كل الفترة التراجيدية لموضوع البحث لم تجر أية محاولة جدية من جانب معارضى الضم للنضال من أجل تغيير تفكير مؤيدى الضم أو عمومًا من أجل تفكير هذا الشعب ، ولم تحدث أية محاولة جدية للعمل فى الحقيقة على خلق وسائل اتصال (Media وليس Communcation) (بالطبع لمواجهة فكرية . ومر الحوار حول التليفزيون - مر باللاإنسانية هو أيضًا وحوله إلى خليط سام من العدوانية والتزييف والترفيه ، رمزه البارز هو ثقافة " البولتيكا " .

وقد تناول طالمون بالبحث جذور النزاع اليهودى العربى وجذور النزاع بين المتعصبين وغير المتعصبين فى الشعب . وسأورد فى خلال السياق لاحقًا أقوال أخرى له لكى أصف بصورة موثوقة وتمثيلية المواقف الاستهلالية لمعارضى الضم ، أبطال قصتنا ، وتدعيمها الفكرى والتاريخى .

وبما أننى لست " مؤرخًا متخصصًا " أسعدنى أن أجد لدى هذا الشخص المتخصص ذو المنزلة الرفيعة للنهج التاريخى الذى يؤيد النهج السيكلوجى السلوكى المتبع هنا والذى يتلائم بالضبط مع نظرية اللاإنسانية ونهج مواجهتها .

" فالمؤرخ العام يستمع إلى الاعترافات وعن طريق ذلك يثقف بنفس الشكل الذى يعمل به المحلل السيكولوجى ، وتؤدى به الرغبة فى التمييز بين السوى وغير السوى إلى أن يفتش

وينبش عن البواعث والدوافع العلنية والخفية . حسابات عقلانيه ودوافع عريريه . ارا . بجرى التعبير عنها وقوى قسرية يسعى لهدف واضح وانسياق وراء انطباعات ومشاعر صداميه واعتبار كل هذه الأشياء مفتاحًا لسر الفجوة المذهلة والتراجيدية بين النوايا والنتائج . وتفسير الأخطاء والأغلاط والزلات التعيسة فى التاريخ . ومن الضرورى أن يكون هذا النهج مؤلمًا . محرجًا وماسوشيى ، مثل تقطيع فى لحم حى ، عندما يتعلق الموضوع بجذور الواقع القومى لشعب محنك فى المعاناة ".

وقال طالمون أيضًا فى هذا السياق كلامًا لم أكن استطيع التفكير فى كلام أكثر دقة منه لكى أصف مدلول وأهمية اكتشاف مجالات العمى " فى اللاإنسانية " " كشف الآلية الخفية من شأنه أن يُكسب تناسبات أكثر دقة للضائقات والعقد وتخفيف شىء ما من مظاهر العصاب والهستيريات التى تعذبنا "

وثيقة حيفر :" للديمقراطية أيضًا خط أحمر"، للديمقراطية أيضًا ولا شبر واحد " :

لقد قال الكلام الذى أوردته سابقًا اساتذة جامعيون ونشر فى صحيفة "هارتس " التى تعتبر صحيفة النخبة وتوريعها قليل نسبيًا . وبعد سنتين من الخطاب المفتوح الذى بعث به طالمون إلى بيجن . وقبل سنة من " الخط الأحمر " من اقتحام المستوطنات قلب البلاد المأهولة بالسكان العرب . ولكن مايزال ذلك قبل حرب لبنان . نشرت فى صحيفة يديعوت أحرونوت ، أوسع الصحف انتشاراً ، مقامة حاييم حيفر . الشاعر الذائع جداً ، الذى ينتمى إلى حركة البالماخ . ومن مُشكلى الهوية الثقافية لأبطال قصتنا ، والحقيقة التاريخية هى إذا أن كلامًا يروج لتفكير الأساتذة الجامعيين ، الذى يعتبر سياسة الضم كارثة على إسرائيل ونهاية للديمقراطية والذى يشيرون إلى ضرورة مد " خط أحمر " ، لايمكن إلا أن يكون جزءاً أيضًا من مدركات الجمهور العريض وبخاصة جمهور معارضى الضم . وكان العنوان " من الحرية إلى العبودية " بمثابة موعظة من جانب الشاعر لعيد الحرية (١٩٨٢/٤/٩)

وفيما يلى مقاطع من ذلك " الحدث الثقافى "

" ماذا يحدث لنا ، ماذا يحدث لنا ؟ ماذا نفعل ؟ كيف تحولنا فى حلال سوات قليلة جداً إلى مستبدين وإلى مراقبين للعبيد ومضطهدين ؟ . ونحن . الشعب الذى دعا حتى فى أوقاته الصعبة . إلى العدالة . وحدد قوانين أخلاقية وحارب إلى جانب الصعفا . . واليوم نحن الذين

نفرض حظر التجول ، ونحن الذين نُسجن ونُعاقب ، نحن بالذات دارسو التوراة من بيننا ورجال العقيدة والإيمان نهاجم بيتًا تلو بيت ونظلم ونضطهد يتيمًا وأرملة . نحن بالذات دارسوا التوراة من بيننا ، بأعين كارهة ومتأججة ، نحرق أيضًا الأوراق النفيسة والحروف المزهرة ..

الديكاتورية تقترب ، مثل سحابة سوداء تزحف ببطء . ونحن ، الذين كنا خبراء فى مشاهد القمع ، والذين عرفنا دائمًا الأسلوب والطريقة ، نحن نغمض أعيننا وآذاننا ونقول : هنا هذا لايمكن أن يكون . ونستمر فى أعمالنا وأشغالنا كالمعتاد ونتجاهل الحقائق والوقائع والأدلة ، الأفواه تُسد ، وكثيرون من هؤلاء كانوا ذات مرة شجعانًا وطيبين . يبدأون فى الخوف على المرتب ، والمنصب والمتع والمنافع وأخذوا يتغولون . وربما يجب ذات مرة أن نذكر أسماء من ولوا الأدبار ، فى التليفزيون وفى الإذاعة وفى إذاعة الجيش الإسرائيلى .

ذلك أن للديمقراطية أيضًا " خط أحمر " ، للديمقراطية أيضًا " ولا شبر واحد " . وقد حان الوقت للرد بحرب لإعادة المترددين إلى الصفوف ....

تثبت هذه الوثيقة التاريخية أن بطل قصتنا " اليسار الصهيونى " لم يكن مثقفًا أكاديميًا فقط ، بل شعر بأنه هو نفسه الشعب ، " نحن ، الشعب الذى دعا إلى العدالة " ، " أن نعيد إلى الصفوف " ... تلمح هذه الوثيقة أيضًا إلى عدة خطوط وسمات إضافية له : فهو " نحن"، وهو المؤسسة الحاكمة ، وهو التليفزيون ، وهو الجيش الإسرائيلى ، الديكتاتورية التى تقترب مثل سحابة سوداء تهدده وتهدد دولته بشكل مباشر ، ولكن تلك الدولة كما لو أنها مُهددة من قبل الدكتاتورية التى هى قوة خارجية أجنبية ، وكان الحدث الذى أثار حاييم حيفر، هو محاولة إلغاء " النا حل " والخدمة بدون أجر الخدمة التطوعية ، والذى قال عنهما : " هكذا يبدأون أيضًا فى تفكيك الكيبوتس " ، وكذلك التهديدات على حرية التعبير ليهود مثله. ولكن الكلمات الصريحة عما يحدث لنا ، عن المستوطنين والاستبداد ، تدل على وعى عال بما هو مجالات العمى فى المفهوم المتعصب : معاناة المهزومين والخطر الأخلاقى الذى يتربص بنا بسبب السيطرة عليهم . كذلك صريح جداً هو الإحساس بالخطر المترتب على تقييد حريتنا (وهو إحساس لم يتحقق ، لأن الكيبوتس ومعارضة الضم انهارا من تلقاء نفسيهما فى ظروف حرية تعبير وحرية ثقافة كاملة) : " غداً ستأتى النوافذ الزجاجية المحطمة ورفض كتب وننظر جميعًا إلى المشاهد ، ويكون هذا متأخراً جداً وأكثر مما ينبغى ، لأننا لم ننهض ولم نجرؤ على العمل .

أن نعمل ماذا ؟ لم نطرح فى هذا السياق خطط عمل أكثر من " وربما يجب ذكر أسماء من يولون الأدبار (منْ ؟) فى التليفزيون ، فى الإذاعة وفى إذاعة الجيش الإسرائيلى وكذلك استنكار لوسائل الإعلام : " ونحن ، الذين يجب علينا أن نكون عيون الشعب وصوته ، وحماة شعلة الحرية فى إسرائيل نرى السبق الصحفى وتسريب الأخبار ونغض الطرف عن العصاة.

وعلى خلاف خطاب طالمون لبيجن ، فإن مقامة حيفر لم تهبط تمامًا إلى هاوية النسيان التى فتحت فى أسبوع نشرها بين "صُب جام غضبك على الجوييم " وبين " تناول وجبة خفيفة فى عيد الفصح (كنايدلاخ) : فالقسم النشط من الناحية الفكرية فى المجتمع الإسرائيلى ، أى المستوطنين ، أخذها بجدية كبيرة وبعد ذلك بفترة طويلة نشرت فى مجلة نقودا " مقالات جادة ، معللة بكل الأنماط الممكنة لعَرض اللاإنسانية ، تحت عناوين مثل " هاصيفر والعار ويكون بهذا تقريبًا انتهى الموضوع.

وثيقة حركة " سلام الآن " : " بذور شريرة ومخيفة " :

إذا كان البروفيسور فريد ليندر قد تحدث عن " النقطة الحرجة التى لارجعة عنها " ، فمن شبه المؤكد أنه استقى معرفته عن الوضع الحقيقى على الأرض من كراسة صغيرة أصدرتها لجنة الإعلام فى حركة " سلام الآن " قبل ذلك بثلاثة أشهر ، فى يناير ١٩٨٣م . الذى أمدهم بمعظم المعطيات هو الدكتور ميرون بنبيتشى ، نائب رئيس بلدية القدس سابقًا ، أحد الخبراء الكبار فى الوضع فى المناطق (الفلسطينية) وأخذ القلاقل فى " اليسار الصهيونى " الذى يشاركنى فى الكثير من الأفكار النقدية لعجز " اليسار الصهيونى " وعماه إزاء سياسة الاستيطان .

وتلقى الوثيقة التاريخية لحركة " سلام الآن " الضوء على مفهوم ونشاط الجهات الصهيونية، المنظمة ، النشطة ، والممولة التابعة لمعارضى الضم . العنوان " كل ما لم ترد معرفته عن إسكان الضفة الغربية " . هذا عنوان جوهرى جداً بالنسبة لكل من يحاول فى الحقيقة أن يفهم مسارات تاريخية ويجب عليه من أجل ذلك . مثلما قال يعقوب طالمون "أن ينبش فى مسوغات بواعث علنية وخفية . حسابات عقلانية ودوافع غريزية " كمفتاح لفهم" سر الفجوة المذهلة والتراجيدية بين النوايا والنتائج "

ويدل هذا العنوان على أن نشيطى حركة " سلام الآن كانوا مدركين لأن جمهورهم لايريد أن يعرف الحقيقة عن إسكان الضفة الغربية (أى جعلها مأهولة بالمستوطنين اليهود) وفى

محاولة لفهم ، لماذا لا يريد الأشخاص فى مجتمع معين أن يعرفوا شيئًا ما ينتمى إلى السياسة فلن تساعد أو تفيد السياسة فى هذا . ولنا شأن مع عالمهم الداخلى ، مجال اختصاص الفهم والنظرية السيكولوجية ، ولم تحاول كراسة حركة " سلام الآن " إعطاء جواب على هذا السؤال ، لماذا لايريد الجمهور الذى نتوجه إليه ونخاطبه أن يعرف ، ولذلك فإن تحليلنا يجب أن يعطى جوابًا لذلك ، وها هو أمامكم :

فى حالة الحرب ، إذا كانت تلك الحقائق التى لا يريد الجمهور أن يعرفها هى فى مجال التهديد من جانب العدو ، والسبب ، طبقًا لكل نظرية ممكنة وأيضًا للرأى المألوف هو الخوف . فإذا كانت الحقائق هى فى مجال سياستنا وسلوكنا تجاه العدو الذى هُزم واحتُل فعلاً ، مثل الحقائق عن سكان الضفة الغربية ، فإن السبب هو ، استناداً إلى نفس التأسيس ، أنعدام الاستعداد لمواجهة المدلول الأخلاقى الشخصى والقومى ، لتلك السياسة . وفى الحالة الأولى هذا خوف من انتهاك وخرق السلام المادى وفى الحالة الثانية هو " خوف " من خرق السلام والتوازن الداخلى الذى يعتبر التضامن ، أو على الأقل التسليم ، بسياستنا هو مقومه ومركبه الرئيسى .

إن كراسة حركة " سلام الآن " هى محاولة جادة جداً لمؤلفيها للفت نظر الجمهور لمسألة لماذا لايريد جمهورهم أن يعرف وإن كان ، كما قلنا نفس عدم الرغبة فى أن يعرف هى ذاتها لم تجر معالجتها فى هذه الكراسة . ويطرح تحليل الكلام الوارد فى الكراسة بعض استنتاجات :

– وسائل الإقناع فى النص مبنية حول الاستعارة المركزية لأشجار البؤباب أو الجبحب (وهو شجر كثيف يكثر فى المناطق الاستوائية) التى تنمو على كوكب الأمير الصغير ، التى " إذا لم تقتلعها وهى فى مهدها فإنها تتكاثر وتمتد على سطح الكوكب وتكسره بجذورها ... ومن شأنها أن تحطمه تمامًا ... ".

يمكن أن نرى أن التوجه هو إلى نفس القطاع من الجمهور الإسرائيلى الذى يعتبر قصة " الأمير الصغير " جزءاً من ثقافته ، جمهور صغير نسبيًا و " شباب وطموح ، ولكنه ، من ناحية مؤلفى الكراسة ، هذا هو جمهورهم . وتعبر الاستعارة المركزية عن مسار هدم تدريجى ، غير ملموس ، إذا لم توقفه (نقتلع ؟) سيدمرنا (" سيُحطم تمامًا ") !

فالكراسة تُعلن حقائق : تتحدث عن ٣٠ ألف يهودى يسكنون فعلاً فى الضفة الغربية فى ٨٠ مستوطنة (حاليًا سنة ١٩٩٩ ، يقترب عدد اليهود فى الضفة الغربية إلى ربع مليون) ، وأن الحكومة والوكالة اليهودية تقوم بتنفيذ عملية الإسكان (أى إسكان المستوطنين اليهود) بتكلفة تتراوح بين ١٢٠ إلى ١٥٠ ألف دولار لأسرة المستوطنين ، بمبلغ إجمالى ٢٠ مليار شيكل حتى سنة ١٩٨٢ ؛ وأن المستوطنة غير قانونية (تتعارض مع معاهدة جنيف) . وتحتوى الكراسة على تفاصيل كثيرة لخطط الإسكان والوسائل الهمجية تحت ستار قانونى (قوانين عثمانية ، أردنية ، قوانين طوارىء) والتى تسيطر بها الحكومة على الأرض .

وتدل التشبيهات فى نص الكراسة على وعى وإدراك لخطورة ذلك المسار :

* مسارات تهدد بقلب المجتمع الإسرائيلى رأسًا على عقب .

* أحداث ستقرر مصير كل واحد منا ، سلبًا أو إيجابًا ، شراً أو خيراً .

* واقع جديد من شأنه أن يُثبت خطأنا

* نية لتوطين مائة ألف يهودى فى الضفة الغربية لتحقيق ضم المناطق (الفلسطينية) .

* **يجب علينا وقف هذا الحلم المرعب .**

تمثل كل التشبيهات تهديداً فى المستقبل غير محدد : ليس هناك تحقيق للضم ، هناك فى الواقع " إسكان " و " نية لتحقيق الضم " ، ليس هناك واقع جديد ، بل الواقع الجديد " من شأنه أن يثبت خطأنا ذات صباح قريب " مثل المسارات التى " تهدد بقلب المجتمع الإسرائيلى رأسًا على عقب " وحتى الآن لن تقلب المجتمع الإسرائيلى رأسًا على عقب " والأحداث التى" ستقرر مجدداً فى وقت ما فى المستقبل ، مصيرنا . أشجار البوبات التى تهدد مازالت لم تثقب وتكسر الدولة أنتم ترون إذاً أن ذلك نفس الآلية التى عملت لدى البروفيسور فريد ليندر، عندما قال أن ضم الضفة الغربية يقترب الآن من النقطة الحرجة .

ولم يحدد معارضو الضم أبداً ماذا سيعتبر فى نظرهم " يوم ساعة الصفر " ، وما هى تلك النقطة الحرجة على الأرض التى فى اللحظة التى تجتازها إسرائيل بتحول التهديد إلى حقيقة وواقع ونضطر إلى أن نواجه فى الحياة ذلك " الواقع الجديد " التى قلبنا رأسًا على عقب هنا والآن .

وكنتيجة لهذا فإن هذا الحلم المرعب قد تحقق ولم يتوقف . لقد خلق معارضو الضم الإطار المفهومي لـ " لم يحن الأوان بعد " (مرعبًا أم لا) وعشنا فيه ونعيش فيه حتى يومنا هذا . وحتى بعد وجود ٢٠٠ ألف يهودي في الضفة الغربية مايزال الحلم حلمًا للمستقبل (وهذا هو جوهر المفهوم حلم) والموعد لم يحن .

وثائق ألوني : " قاطع وواضح : مجال إسرائيل الديمقراطية (حتى الآن) ومجال الاحتلال:

في نوفمبر ١٩٧٩ قالت شولاميت ألوني في خطاب في الكنيست (نقلاً عن كراسة خطبها التي نشرتها حركة راتس) :

" ... تحاول حكومة بيجن ضم المناطق عمليًا إلى دولة إسرائيل ، ومنح هذه الأراضي لليهود والنظر إلى السكان المحليين باعتبارهم سكان أجانب ... ولم تعد هذه منطقة محتلة ويديرها حكم عسكري كضمانة للأمن حتى التوصل إلى تسويات واتفاقيات سلام ، بل سكان عرب يخضعون لحكم عسكري بسبب كونهم أجانب ومعادين في حين أن البلاد هي بلادنا ".

وهكذا بكلمات صريحة ، لم تعد هذه منطقة محتلة ، .. البلاد هي بلادنا " . هكذا عبرت شخصية صهيونية في " اليسار الصهيوني " عن حقيقة أن الحكومة قد تعدت " الخط الأحمر"، بأن هذه لم تعد منطقة محتلة مؤقتًا حتى حلول السلام ، بل جزءاً تم ضمه إلى بلادنا ! قالت؟! - قالت وأضافت إن هذه الحكومة تخرج نفسها بذلك من أسرة الشعوب الديمقراطية". أي أن نظام الحكم قد تغير وأنه " سيؤدي إلى عصيان مدني مزدوج في بلادنا - عصيان سكان الضفة الغربية (المقصود السكان الفلسطينيين فلم تكن هناك آنذاك سوى مستوطنات قليلة ، ولكن الأمر المثير للاهتمام أنها استخدمت آنذاك مصطلح " يهودا والسامرة " وليس " الضفة الغربية " - وعصيان مواطني إسرائيل ، الذين يريدون دولة ديمقراطية بروح وثيقة الاستقلال (المقصود وثيقة استقلال إسرائيل) وليس مغامرات إمبريالية تجلب كارثة " - كان هذا التشبيه الذاتي لكثيرين في " اليسار الصهيوني " سنُحدث لهم عصيانًا مدنيًا ! لا أكثر ولكن لا أقل ! ..

وبعد مرور نحو عشر سنوات ، وبعد أن أصبح هناك أكثر من مائة ألف مستوطن ، وسنتين من الانتفاضة وبضع آلاف من الضحايا المدنيين ، اقتربت سنة ١٩٨٩ من نهايتها . نشرت حركة " راتس " (حركة حقوق المواطن والسلام ") ، تقريراً لناخبيها استهل بخطاب الزعيمة، شولاميت ألونى : الآن استعدوا لـ " سبق صحفى " فمثلما أننى وجدت فى الكلام الذى قالته سنة ١٩٧٩ أكثر التعابير صراحة ، وربما الوحيد ، وهو أنه " لم تعد هناك منطقة محتلة " وأن نظام الضم قد أخرج إسرائيل من الديمقراطية - كذلك - وجدت فى كلامها فى سنة ١٩٨٩ أكثر التعابير صراحة عن تفكير أنه لايوجد ضم وتوجد ديمقراطية (!!!) :

" هناك دولة إسرائيل ، وهناك مناطق محتلة تخضع لحكم احتلال ، ونطاق اختصاص قوانين إسرائيل الديمقراطية (حتى الآن) قاطع وواضح ، ومثله قاطع وواضح مجال الاحتلال".

لم تعترف حركة " راتس " بسياسة الضم وعارضتها ومثلها كل اليسار الصهيونى ، ويمكنكم أن تروا بسهولة ميزة هذا المفهوم والموقف : إذا كان هناك شىء ما ليس فى حدود دولة إسرائيل ، فإنه ليس فى مجال مسئوليتنا ونحن فى حل من واجب مواجهته وأن نتصرف مثلما كان يجب علينا أن نتصرف لو كان الأمر كذلك . وحقيقة أن سياسة الحكومة ومعارضيها هى التى حددت حدود دولة إسرائيل وكان جوهر نظام الحكم فيها واضحًا لشولاميت أولونى فى سنة ١٩٧٩ عندما كان الموضوع مايزال فى بدايته والخطر ملموس بشكل أقل .. وبعد ذلك اختفت هذه الحقيقة من وعى (بتعميم دقيق بشكل مخيف) أحباء الديمقراطية ومعارضى الضم .

وبسبب السياق الذى قال فيه هذا الكلام (الكلام حسب سياقه) - لايمكن ألا نعقد مقارنة لسابقة تاريخية أخرى مشهورة فى ذلك السياق ذاته . وكان السياق ، أن أعضاء فى حركة ألونى ضغطوا لكى ترسم الحركة " خط أحمر "وتؤيد رفض الخدمة العسكرية فى المناطق (الفلسطينية) هذا هو السبب فى أن ألونى التى كانت أكثر تسامحًا من بين زملائها فى حركة " راتس " بالنسبة لأولئك الأعضاء ، رأت أن هناك ضرورة لتأكيد أن دولة إسرائيل ، هى دولة إسرائيل ("حتى الآن") . وبالمقارنة التاريخية المطلوبة فهى مع هنرى ديفيد تورو الأميركى ، نبى " العصيان المدنى " فهو يعيش فى داخل نطاق ولاية شمالية لم تكن فيها عبودية .

ماستشوسيتس . ونطاق العبودية خط مايسون- ديكسون . كان قاطعًا وواضحًا . إلا أن تورو فهم الوضع الذى يستوجب رد فعل أخلاقى من جانب شولاميت ألونى ولم يكن لـ "الخط " الفاصل أي دور فى نظره وكان الأمر الذى جدد موقفه هو سياسة الحكومة فى دولته التى لم تكن أقل ديمقراطية من دولة إسرائيل : -

" كيف يجدر به أن يتصرف تجاه الحكومة الأمريكية اليوم ؟ وجوابى هو ، أنه لايستطيع أن يتورط معها دون أن يجلب على نفسه عاراً ولا أستطيع ولو للحظة واحدة أن أمنح اعترافًا لتلك الحكومة بأنها حكومتى بينما هى أيضًا حكومة الرقيق "

كلام تحفيزى طبقًا للتثقيف الذى تلقيته فى اليسار الصهيونى (اعترف بشعور خجل قليل بأننى أخطأت إلى هذه الدرجة) ، كنت آمل فى أن يشعر كثيرون فى داخلهم بأنهم لا يستطيعون أن يشتركوا مع حكومة الضم دون أن يجلبوا على أنفسهم عاراً ولكن المفهوم الذى عبرت عنه أولونى صراحة وكان آخرون يعيشون فيه فقط . يخلق واقعًا داخليًا مثيراً جداً للاهتمام : فشولاميت ألونى ، التى رأت بشكل واضح جداً أن سياسة الضم تُخرج إسرائيل من مجموعة الدول الديمقراطية ، كانت توافق بالتأكيد على أن حكومة الضم تحول نفسها إلى حكومة أرض إسرائيل الكاملة وتحول الفلسطينيين إلى " رقيق " نتصرف معه أيضًا وفقًا لذلك

وكانت تتفق بالطبع مع كل كلمة للبروفيسور شاؤول فريد ليندر . الذى وصف ضم الضفة الغربية بأنه مثل شيء ما " مدمر " من ناحية أخلاقية واجتماعية " وإشارة واضحة إلى أنه يُوجد فى نفس وضعنا القائم نفس " الضعف المتكرر للمعارضة الليبرالية أو الاشتراكية الديمقراطية إزاء مسار شر وبهيمية نراهما بالعين ولكن لا نعرف كيف نوقفهما ؟ "

إلا أنها ومنظمات " اليسار " تصرفت دائمًا وكأنهم عرفوا كيف يوقفوا هذا المسار وفى الواقع " أوقفته " عن طريق إخراجهم هذه الروح الشريرة من جسد دولة إسرائيل الجميل وبالتالى من مجال مسئوليتنا الأخلاقية والشخصية إلى " المناطق المحتلة ضم يوك "احتلال " يوجد (أي لا يوجد ضم ولكن يوجد احتلال " وفى هذه الحالة تم إخراج الواقع ليس فقط من خارج مجال الزمن الحقيقى فقط بل إلى خارج حدود إسرائيل ١ التى هى حدود

هويتنا ومسئوليتنا كإسرائيليين !) كما أن حقيقة أن سياسة الضم أزالت هذه الحدود ، وحقيقة أن إسرائيل فى تلك الحدود لم تكن موجودة طبقًا لقرار الحكم ومُحيت من كل الخرائط . لم تغير خريطة المفاهيم الداخلية لشولاميت أولونى فى هذه الحالة .

ولم تستطع ألونى ، بالطبع ، ألا ترى أن هناك نظامى قوانين منفصلين ، ولكنها جعلت من نظام الحكم فى دولتنا ، الذى يطبق قوانين تمييز عنصرى ويخلق واقع عبودية ، كيانين منفصلين وأبقت علينا باعتبارنا " إسرائيل الديمقراطية حتى الآن " التى مجالها " قاطع وواضح".

ولو كان الإسرائيليون يستوعبون الحقيقة كما هى وليس عن طريق منشور أساطيرهم ، لكانوا يفهمون أن سيطرتهم على الفلسطينيين ليست " احتلال " بل استعباداً ، وإسرائيل هى الدولة الوحيدة فى العالم الغربى الديمقراطى التى تطبق نظام تمييز عنصرى " . « ميرون بنبنيشتى (هارتس ١٧/٩/١٩٩١) ».

وخريطة المفاهيم التى عرضتها ألونى على رجالها هى عرض مميز لليسار . وعلى خلاف بارز مع البروفيسور طالمون وفريد ليندر ، محت من صورة واقعها ومن قاموس تعبيراتها كلمة ضم واستبدلتها بمصطلح " احتلال " ، الذى هو مؤقت وله ما يبرره حتى حلول السلام ، فى منظومة مفاهيم اليسار . والـ " احتلال " هو وضع أوجدناه نحن جميعًا ، بحسب رأينا عن حق، فى سنة ١٩٦٧ . ويلائم هذا الكلام البلاغى نفسه دائمًا لخريطة المفاهيم وأيضًا فى هذه الحالة ، انتبهوا ، لو أنها قالت الحقيقة . " دولة إسرائيل توسعت على المناطق التى ضمتها فى الواقع " أو " سياسة ضم المناطق إلى إسرائيل هى أمر قاطع وواضح " - لو أنها قالت ذلك لما كان هناك أساس للفصل الذى عملت بشدة لتفصل بينهما بعد أن رأت قبل عشر سنوات من ذلك أن الحكومة تربط بينهما . أو كانت ستصبح لها آنذاك مشكلة كانت ستشعر هى وكل " اليسار " أننا قد تعدينا الخط الأحمر

لقد كان الضم (" أشجار البوباب ") ... مشكلة اليسار الصهيونى ، وكانت نتيجة هذا المفهوم أن مُحيت الحدود الأخلاقية التى من يتعداها يصبح شريكًا فى الجريمة التى ستهدم الديمقراطية فى إسرائيل " . وكما سنرى لاحقًا فقد مُحيت كل الخطوط الحمراء لدى معارضى

سياسة الضم : الخطوط الأخلاقية وكذلك خطوط التمييز في المفاهيم الأيديولوجية مثل "صهيونية " و " استيطان " ، وأيضًا خطوط استراتيجية للمواجهة وخطوط أساسية للأمن وأيضًا خطوط الهوية القومية ذاتها .

مستوطنة ثم مستوطنة ، شجرة ثم شجرة ... وفى نهاية هذا الجزء الذى يناقش إدراك " اليسار الصهيونى " لواقع الضم الزاحف وبعد ذلك بسير ثم بعد ذلك يضرب بحافره ، يمكن أن نشبهه بذلك الشخص الذى قالوا له " سمعنا أنك تلقيت ضربات رهيبة فى الغابة " فرد قائلاً : " إيه ، إلى هذا الحد وغابة أيضًا ، بالكاد كانت هناك بضع أشجار " .

وثيقة دايان : " ياجنود إسرائيل ليست لنا أية مطامع احتلال ! " :

إلى أى مدى كانت بطلة قصتنا إسرائيل الصهيونة ، في الحقيقة ذات ماضي نظيف من اللاإنسانية - إذا كان الأدب الإباحى هو موضوع جغرافيا - فإن اللاإنسانية ليست كذلك بالتأكيد ، لأن الجغرافية هى فى الغالب أيضًا أحد الأسباب وهى أيضًا نتيجة حرب . ففى ميثاق الاستقلال ، الذى كتب فى أصعب وأكبر أوقات إسرائيل الصهيونية ، بعد قرار الأمم المتحدة بشأن إقامة دولة يهودية مستقلة ودولة عربية وتقسيم البلاد بين كلا الشعبين جاء أنه " حتى فى أوج الهجوم الدامى الذى يجرى ضدنا ... فإننا نمد يدًا للسلام وحسن الجوار على أساس مواطنة كاملة ومتساوية " وما شابه ذلك من كلام " رقيقى المشاعر " . وهكذا تعودنا مع أنفسنا ، مع اليد الممدودة للسلام المعلقة فى الهواء ، بينما يحاول " أعداؤنا " تغيير الوضع على الأرض ونحن نريد فقط أن يتركوا لنا ما كان لنا فى حدود الخط الأخضر . هكذا تثقفنا وكذلك نقوم نحن بالتثقيف ، حاربنا وأحببنا ، كانت أزمان .

فى ٤ يونيو ١٩٦٧ ، وقفنا على رأس التلة فى الماجور ، وهو المكان الوحيد فى الجبهة السورية الذى كنا نحن فيه إلى أعلى وهم إلى أسفل فى موقع هاشيفخ (المصب) ، وهو حاليًا " بارك هايردين " ولم يكن هناك آنذاك تليفزيون وتليفونات محمولة ولكن كانت هناك راديوهات ترانستور والتفينا حول واحد منها لكى نسمع أن الحرب قد بدأت ، ووجه وزير الدفاع الحديث والنشط موشيه دايان كلمة إلى جيوش إسرائيل وقال : " يا جنود إسرائيل ، ليس لدينا أى مطامع احتلال ... " وكانت هذه هى آخر رسالة سياسية قيمية استوعبها ٦٠٠ ونيف من زملائنا الذين قتلوا فى تلك الحرب الناجحة .

وفى الحقيقة لم يكن لدينا مطامع احتلال ولست أذكر أن أحداً فى الكتيبة كانت له مطامع احتلال . كانت لدينا مطامع لإنقاذ دولة إسرائيل المطوقة من الاحتلال وتقلصت الفروق بين اليسار واليمين وأصبحت فى الأمور المتعلقة بالمزاج : هؤلاء الذين أرادوا " توجيه ضربة إليهم " وخافوا أن يعترفوا بأنهم خافوا (وهؤلاء هم اليمين !) وأولئك الذين كانوا يأملون فى أن تنجح جهود الوساطة السياسية التى يقوم بها أبا إيبان ، ويرفع ناصر الحصار عن مضايق تيران ويسحب القوات التى دفع بها إلى حدود إسرائيل فى سيناء بدون حرب ، ونعود جميعًا إلى بيوتنا سالمين .

ويعرف المؤرخ جيداً اليوم أنه كانت لدى موشيه ديان نوايا احتلال وربما كانت مكبوتة ، ذلك لأنه لم يمر يوم وأعلن أن القدس كلها ستبقى لنا إلى الأبد وفى خلال أشهر ، وجعل من شرم الشيخ ، فى الطرف البعيد من سيناء ، ثروة ملكيتها أفضل فى نظره من السلام بدونها ، وعلى الرغم من ذلك ، فإنه يجب على المؤرخ أن ينسب الفضل اللائق لحقيقة أن موشيه دايان : زعيم له كريزما هائلة لـ " أكبر شخصية كريزماتية " ، والذى كان فى تلك الفترة بؤرة تضامن ورمزاً عالميًا لإسرائيل الجريئة " ويجسد شخصية الصابرا القوية التى تتمتع بهيبة ومكانة ضخمة فى أوساط الجمهور ، إن موشيه دايان وجد ضرورة لأن يؤكد لجنوده أنه ليست لدينا مطامع احتلال . وإننى أعتبر ذلك إثباتًا وبرهانًا على أننا كنا كذلك فى الحقيقة ، لأنه لكى نحارب بإخلاص وصدق ، ولكى نؤمن بأن هذه الحرب عادلة ، شعر موشيه دايان بأنه يتعين عليه أن يقنعنا بأنه ليست لدينا نوايا احتلال ، وهذا المنطلق العقلى ، الذى ينبغى بالنسبة إليه وبمعياره أن نقيم ما حدث بعد ذلك لأولئك الصهيونيين الطيبين الذين لم تكن لديهم نوايا احتلال .

الفصل الثانى

أن نعرف الحدود - آلية التوجه والاهتداء إلى الهدف طبقًا لخريطة الحدود القيمية

ينهى هذا الفصل القصة التاريخية ويتجه إلى شرح النتائج. وأنوى أن أطبق على غير المتعصبين نفس النهج ذاته الذى اتخذته بالنسبة للمتعصبين ونفس النظرية التى توضح مفهومًا وسلوكًا سياسيًا كوظيفة التوجه على ضوء خريطة المفاهيم وقد حان الوقت لتنفيذ ما طلبه يعقوب طالمون عندما كتب أن " الكشف عن الآلية الخفية من شأنه أن يُكسب تناسبًا أكثر دقة للمشاكل والعقد وأن يخفف شيئًا ما من ظواهر العصاب والهيستريا التى تعذبنا و"نحن هنا تتعلق بشكل خاص بمعارضى سياسة الضم لمبررات أخلاقية . والذين يعتبرهم المتعصبون " رقيقى المشاعر و " يساريين " .

وبما أننى لا أريد استخدام مصطلح " رقيقى المشاعر " الذى هو مفهوم ينتمى لعرض اللاإنسانية . سأستخدم مصطلح " اليسار الصهيونى " لكى أشير إلى هدف التحليل الحالى . وتعريفه لغرض النقاش هو سيكولوجى وليس سياسيًا ؛ وينطبق التعميم " اليسار " على أولئك من بيننا . بدون علاقة بانتمائهم الحزبى . الذين يدركون ويعبرون عما فى المفهوم التعصبى من مجالات العمى مثل الإنسانية . المعاناة وحقوق الفلسطينيين في المناطق، ومثل الأخطار والعيوب الأخلاقية القائمة أو المحتملة فى سلوكنا وفى موقفنا فى النزاع ما هى تلك الألية الداخلية التى مكنت " اليسار " خلافًا لوعيه وإدراكه . من أن يسمح للضم أن يمر بدون أن يعترف بذلك مطلقًا ؟

وسيُستخدم الكلام السابق للبروفيسور شاؤول فريد ليندر منطلقًا جيداً لفهم تلك الآلية ، لكونه منطقيًا وصريحًا ومقبولاً جداً ، إن لم يكن بالنسبة لأنفسنا فعلى الأقل فى كل ما يتعلق بالآخرين :

" بما أن كل مرحلة فى حد ذاتها تبدو " محتملة " و " لها ما يبررها" ، كما يقال وقانونية، كما يقال - ولا نلاحظ النتيجة فوراً - فإن الطبيبين يجدون أيضًا صعوبة فى أن يقرروا أين نمد الخط الأحمر الذى لا يجوز تعديه . غير أن هناك خطًا أخمراً قائمًا وينبغى تعريفه قبل أن يفوت الأوان ... " .

كذلك فى موضوع الضم كنا فى حالة مأزومة تتطور بالتدريج ، بخطوات صغيرة تبدو كل واحدة منها فى حد ذاتها محتملة ولا تخلق تغييراً " ثوريًا " . فلو أعلنت حكومة إسرائيل ذات يوم عن ضم المناطق مثلمنا أعلنت عن ضم القدس والجولان ، لكانت قد نشأت ظروف مختلفة ولبدت مشكلة أين نمد " الخط الأحمر " مختلفة . إلا أنه وكما تطورت الأمور (حكومة الضم لم تكن غبية معاذ الله) ، سنضطر إلى أن نطبق بالنسبة للواقع الخارجى نموذج الأزمة التى تتطور بالتدريج .

١ - سلوك فى أزمة تتطور بالتدريج :

أشار شاؤول فريد ليندر ، إلى أنه فى ظروف الأزمة المتطورة بالتدريج يجد أيضًا الطبيبون صعوبة فى أن يقرروا أين نمد الخط المحظور تعديه . وكان محقًا تمامًا فى ذلك ، أيضًا على ضوء شهادات الناجين من الكارثة النازية وأيضًا علي ضوء التجارب العلمية ، التى أوجدوا فيها الأزمة بصورة مصطنعة فى المختبر .

وقد كشف برونو بطلهايم أحد علماء النفس المشهورين من بين الناجين من معسكرات الاعتقال النازية - كشف المشروعية التالية ، التى يُصعب أكثر اختيار اللحظة للانتفاضة فى وضع مأزوم يتطور بالتدريج : كلما أخر الإنسان اللحظة التى يقرر فيها الوضع باعتباره أزمة تستوجب تغيير فى سلوكه العادى - سيصبح بالتالى من الصعب عليه اختيار هذه اللحظة ، فالطاقة المطلوبة للتملص والقيام بعمل تضيع فى التردد . بالكلمات الكلاسيكية لهاملت (بترجمة شلونسكى) " الحمرة الطبيعية لجرأة القرار ستصاب بشحوب التأملات القلبية .. " وقد أوضح بتلهايم فى كتابه " The Informed Heart "[١] أنه فى هذه الحالات تعمل آلية

كبح منطقية جداً " إن كنت لم أفعل أى شىء حتى الآن . فلماذا أفعل الآن بالذات ؟ إذا قمت وأوقفت التعاون الآن . ربما يصبح هذا وكأننى اعترفت بذنب أننى لم أقم بالتعاون قبل ذلك "

وقد قام بالأبحاث الكلاسيكية فى " انصياع مدمر " ستانلى ميلجرام[٢] فى الستينيات . ودفع تقريبًا أموالاً فى مقابل وقت أشخاص عاديين وطيبين فى أمريكا لكى يشتركوا فى تجربة من أجل معلومات . هكذا قيل لهم ، تأثير الألم على الذاكرة . وقد نفذ نحو نصف هؤلاء الأشخاص تعليمات العالم الذى يجرى التجربة حتى عندما كانت تعليمات التجربة إعطاء صدمة كهربائية لشخص آخر (فى الواقع شريك فى التجربة لعب دوراً ، لأن الصدمة الكهربائية لن تكن حقيقية) ، حتى وإن توسل الشخص لوقف التجربة ويولول من الألم ، ولم يرد مطلقًا ، أى يحتمل أنه كان سيصبح مغميًا عليه أو ميتًا . وقد رتب ميلجرام التجربة طبقًا لنموذج أزمة تتطور بالتدريج لـ ١٥ فولت ويرتفع بنسبة ١٥ فولت مع كل تجربة إضافية. وكانت نقاط التماس الكهربائى موسومة ومؤشر عليها ترددات وأجزاء ترددات ومؤشر عليها أيضًا بأرقام الفولتات وبعناوين : "صدمة خفيفة ") خطر صدمة قوية وفى النهاية «XX» وقد عملت هذه الآلية على نحو أن كثيرين من المشتركين فى التجربة وصلوا حتى المحطة النهائية وهى محطة ٤٥٠ فولت ، وعلى الرغم من أن هؤلاء الأشخاص أظهروا علامات قوية للارتداع والخوف والضغط إلا أنهم لم يقولوا لمن يقوم بإجراء التجربة كفى، لسنا مستعدين لأكثر من هذا "

وقال من قام بإجراء التجربة ، قال فقط أنه سيحمل المسئولية وأن التجربة يجب أن تستمر.

وعندما تغيرت ظروف المختبر وأعطيت للمشتركين فى التجربة حرية أن يقرروا إلى أية قوة تعطى للصدمة الكهربائية لم يزد جميعهم عن ١٥٠ فولت . ومن هنا فإن تطويراً تدريجيًا بطيئاً لوضع مأزوم يزيد من حدود تحمل الإنسان للوضع ويبعد جداً الاحتمال فى أن يحاول إنهاؤه

ما الذى يمكن أن نتعلمه من هذا ؟ ما الذى ، ربما من الواجب أن نتعلمه من هذا ؟ لايمكن مع مثل هذه الأوضاع فى الحياة وما يمكن هو رفع الموضوع إلى الوعى والإدراك ودراسته وأن

نقترح في المدركات سبلاً للمواجهه . ولكن كما تثبت حاله فريد ليدر ، عندما ندرس عن "خيانة المثقفين " في أوربا ولاتكون لدينا خبرة بأوضاع مماثلة في حياتنا فإن الدراسة تبقى جداً غير فعالة وغير مؤثرة . والوسيلة المتبعة والمألوفة لاكتساب مهارة هي المرور بالتجربة وتكون خبرة ، وفي هذه الحالة ، عندما تكون المهارة المطلوبة اعتبار أخلاقيًا مستقلاً ، وقرار مخالفة السلطة والتمرد عليها ، فإن التعليم يجب أن يضع الدارس في وضع واقعي ملموس قدر الإمكان يكون فيه هو نفسه في مكان يضطر فيه إلى أن يتخذ القرار لا أن يحكم على آخرين فقط .

إن الفجوة هائلة بين معرفة تأتي من دراسة وحكم آخرين وبين ما يظهر عندما يواجه الإنسان في الحقيقة تجربة . هي فجوة هائلة ، وأكبر بكثير مما يخمن معظمنا . ولقد فوجيء ستانلي ميلجرام نفسه جداً من النتائج التي توصل إليها إلى درجة أنه قرر أنه يفحص ماذا يعتقد عن ذلك أشخاص آخرين ، وسأل ، إذاً ، طلابًا ، أطباء نفسيين ، وأشخاصًا غير محددين بعد أن حدثهم عن شروط التجربة ولكن ليس عن نتائجها ، هل كانوا هم أنفسهم سيصلون إلى نفس خط النهاية في إساءة معاملة الغير لو كانوا مشتركين في نفس التجربة . فقالوا جميعًا ١٠٠٪ منهم ، كما هو متوقع ، لا . ما كانوا سيفعلون هذا . وعندما سألهم بالنسبة لآخرين . وكان متوسط تقديرهم هو أنه ربما كان شخص واحد من ألف يصل إلى ٤٥٠ فولت ؛ وإذا لم تكونوا قد سمعتم عن هذه التجربة حتى الآن . ما هو تخمينكم وتقديركم ؟ - في الواقع ، انتبهوا ، نحو ثلثا المشتركين في البحث (٦٥٪) امتثلوا حتى النهاية ، حتى خط الـ ٤٥٠ فولت . بدون أي إكراه أو تخويف أو ضغط خاص ، وذلك لأن صاحب الصلاحية قال إن شروط التجربة تلزمهم بأن يستمروا !

ولتقليص هذه الفجوة المذهلة بين " تعليم جيد " والمرور بتجربة حقيقية ، فإن التعليم خاصة تعليم الكبار الذي يأتي لاكساب قدرات ومهارات سلوك وتفكير . أصبح " تعليم تجريبي " يبحث عن سبل لإيصال الدارسين قدر الإمكان إلى حالة أقرب إلى الوضع الحقيقي الذين يضطرون فيه إلى أن يستخدموا نفس القدرات والكفاءات التي يدرسونها هكذا يعلمون رجال الفضاء والطيارين على أجهزة المحاكاة أو على الأقل في أوضاع تحليل أحداث وتصور موجه ، لاختبار أنفسنا في أوضاع مماثلة قدر الإمكان للأوضاع التي قد نواجهها في الحياة والمدركات هي المفتاح للنجاح في مثل هذه الأوضاع لأن المسار التدريجي لا يعمل مباشرة

على الحواس (ولقد اصاب فريد ليندر بقوله . لا يلاحظ فوراً النتائج) . فلكى تنتبه حواس يجب أن يحدث شيء ما ، وفى أزمه تدريجيه لايحدث أى شيء جوهرى فى وحدة زمنية يمكن إدراكه حسيًا لذلك ليس هناك من خيار سوى استخدام المدركات والعمل على أساس ما تعلمه الإنسان ويعرفه حتى وإن كان لا يشعر بهذا بدنيًا ولا يكتسب خبرة من ذلك مباشرة على سبيل المثال ، فإن الأزمة المتكررة الحدوث ، طبقًا للنموذج الذى يتطور بالتدريج هى إضرابات ناقلى القمامة التى تجتاح المدن بين حين وآخر فى البداية لا يحدث أى شيء ، وتستمر الأمور كما هى العادة وبالتدريج ترتفع أكوام الزبالة وتجعل الحياة غير محتملة . والتجربة التاريخية . إذا كان يمكن أن سميها كذلك . لهذه الإضرابات كان يجب أن تقود السكان وأصحاب المحال إلى إدراك (أيضًا فى حالة فشل البلدية التى هى السلطة والقيادة فى ذلك) والإدراك كان يجب أن يؤدى إلى تفكير مسئول وعقلانى نهايته هذا القرار أو ذاك وعلى سبيل المثال . نظام الطوارىء الذى يستخدم فوراً مع نشوب الإضراب . لنفترض ، ألا نلقى قمامة زيادة عن سعة صناديق القمامة . بل نخزنها فى المنزل ، وعندما لا يكفى هذا ، نحفر حفراً فى منطقة مفتوحة وندفنها وما شابه ذلك

٢ - القدرة على أن نحدد على أرض الواقع خطوط الحدود القيمية على خريطة المفاهيم :

بنفس العبارة التى وصف بها شاؤول فريد ليندر الطابع البطىء ، التدريجى ، المحتمل والقانونى . حسبما يبدو . للمسيرة المأزومة التي تُصعب حتى علي الطيبين أن يقرروا أين هو الخط الأحمر ، فإنه أضاف أكثر الكلامات دلالة بالنسبة لموضوعنا " لكن هناك خط أحمر قائم. "

أحقًا ؟ أين يوجد هذا الخط ؟ - بالتأكيد ليس على أرض الواقع ، لأنه قائم فقط فى العالم الداخلى للمتحدث . وبالمدى الذى يتكشف فيه ، يمكن أن يتكشف ويظهر فقط للشخص نفسه فى داخل عالم مفاهيمه وقيمه لا توجد خطوط فى الطبيعة ولكنها توجد فقط فى أعمال الإنسان وفى خرائط مفاهيمنا ولا ترتفع أية « راية سوداء » فوق أى أمر غير قانونى على أرض الواقع . حسبما قالت المحكمة التى حاكمت المتهمين فى قضية كفر قاسم، فإن كل شيء فى عقول وقلوب المعنيين بالأمر وطبقًا لعبرة فريد ليندر وميلجرام وأيضًا طبقًا للقانون . إذا كان الإنسان لا يكتشف الراية السوداء " أو الخط الأحمر على أرض

الواقع، ولايرى أن من واجبه أن يعرفه ويحدده قبل أن يصبح هذا متأخراً جداً وأكثر مما يجب يمكن تحميلة المسئولية عن تعديه الخط الخيالى الذى كان محظوراً عليه أن يتعداه

وسنحدد الآن المشكلة بمصطلحات التوجه : المتعصبون يوجهون طريقهم بمساعدة خريطة مفاهيم لاتماثل أرض الواقع ، مع مجالات عمى ضخمة الـ " يسار " هو نفس الإنسان الذى تماثل خريطة مفاهيمه بالتأكيد مجال الصراع الإنسانى ونفس الأشياء التى هى فى مجال العمى لدى المتعصبين والموسومة عليها : لديه وعى وإدراك فعال لإنسانية ولحقوق " أعداؤنا " ولأخطار الاستخدام الزائد عن الحد للقوة ، ولخطيئة اللاإنسانية التى تتربص به ، وللتغييرات التى تحدث مع الزمن وغيرها غير أن الملائمة أو المناسبة للمجال لا تفى بالحاجة إلى ملاحظة وتمييز خطوط حمراء والقيام بالتمييز القيمى والمفاهيمى ، الخطوط والحدود التى بين المباح والمحظور ، بين المحتمل وغير المحتمل ، بين الأشجار والغابة ، بين نظام حكم ديمقراطى وبين دولة بوليسية وما شابه ذلك ، لا ولن يمكن أن تكون على أرض الواقع فتلك هى حدود وخطوط هيكلية قائمة فى خريطة المفاهيم ، فى القلب وفى الوعى

إن المشكلة الإنسانية للتوجه والاهتداء إلى الهدف والتوجيه الصحيح ليست فقط مشكلة ملاءمة الخرائط للواقع الخارجى ، بل القدرة على رصد وتحديد أماكن وجود خطوط وحدود المفاهيم فى خريطتنا فى الواقع الخارجى ومن ليست لديه القدرة علي ذلك فهو مثل إنسان يوجه طريقه بمساعدة خريطة الحدود ليست موسومة عليها وعندها فإنه يتوه فى المجال ويعبر الحدود بين مجالات هوية " نحن " ولا " نحن " أو " أعداؤنا " . بين القوى فى المجال وبين مجالات حيوية وغير حيوية ، بين المباح والمحظور وعندما لا تكون هناك قدرة على تمييز حدود لا توجد هوية واضحة ولا موقف واضح بل مراوحة فى نفس المجال باللف والدوران ، لا يوجد توجيه : فيوجد عُصاب يتمثل ويتم التعبير عنه فى صرف النظر عن الواقع : لا نريد توجيه طريقنا بشكل مستقل ، لا نريد أن نعرف لا نريد أن نرى ، نشعر بالتعب والإعياء من هذا .

ويوجد عُصاب انعدام الحدود ليس فى السياسة فقط ، بل إنه فى الحياة اليومية تثبت لنا الأحاسيس والمشاعر بشكل عام متى شخص ما أو نحن أنفسنا نقترب أو نعبر الحدود ، بين لنفترض ، الحب والسيطرة ، الصداقة والمشاكسة أو العداء ، طلب مساعدة والاستغلال ، وبين

النقاش والخصام ، مظاهر الود والتحرشال جنسى ، إستقامة والتلاعب وما شابه ذلك ؛ فالأشخاص الذين تصعب عليهم بشكل خاص مثل هذه التمييزات يعتبرون منغلقين إكراهيين عديمى الثقافة ، والأشخاص الذين يفسرون بتساوق منطقى سلوكهم الخاص فى حدود القيم الإيجابية ويسارعون إلى تفسير سلوك الغير بأنه سلبى يعتبرون عدوانيين ومصابين بالبارانويا. وتجرى كل هذه التمييزات ، والتشخصيات ، وآلاف مثلها يوميًا بدون أن نقدم لأنفسنا تقريراً صريحًا عما هى بالضبط فى واقع الأمور التى جعلتنا نمد خطوط تشخيصنا بالذات فى نفس الأماكن وفى نفس النقاط

وتستوجب الأوضاع الوثيقة الصلة بنقاشنا مثل هذا التوجه ، والاهتداء على الهدف وقدرة على التوجيه تنجح فى أن تحدد على الطبيعة ، حتى عندما تكون التغييرات فيه تدريجية وبطيئة . أين توجد تلك الحدود القيمية و " الخطوط الحمراء " الموسومة فى عالمنا الداخلى. وإلا فإننا أسوأ من ذلك الشخص الذى لديه مبادىء ولكنه لاينجح أبداً فى تحديد وضع يتعين عليه أن يطبق فيه واحداً منها ، ذلك الشخص هو فقط المثير للسخرية ، ولكن من لديه خطوطًا حمراء قيمية على خريطة مفاهيمه ولايعرف تحديد مكان وجودها فعندما يعبرها شخص ما على الطبيعة من شأنه أن يتحول إلى شريك فى أعمال لم يكن يرد أن يكون شريكًا فيها وحتى خيانة أقدس مبادئه هو نفسه .

إن الوعى بهذا الموضوع وإدراكه يجب أن يجعل " اليسار الصهيونى " الذى خشى جداً أن يؤدى الاستيطان إلى سلب إسرائيل روحها الديمقراطية ، أن يجعله يحدد لنفسه ، أو على الأقل يحدد بالتقريب ، ما الذى سيعتبر فى نظره خطًا أحمراً لحدود يستوجب تغييراً جوهريًا فى النظرة . وهذا ليس بسيطًا ذلك أن " خط " مفاهيمى ليس مثل المسار التدريجى بل هو " حاد وقاطع وواضح " ، يستوجب قراراً واعيًا . إنه مثل القشة التى تقصم ظهر الجمل أو حبة الرمل التى تُميل كفتى الميزان . ويمكن بالتأكيد أن يكون شخص ما فى فترة حكومة شامير قد درس الوقائع وتوصل إلي استنتاج مؤداه أن دولة إسرائيل لا تضم المناطق حتى الآن (فى نظرى ، هذا إلى حد ما مثل أن نصدق أن شخصًا ما مايزال يعيش طالما لم يُصدروا شهادة وفاة) . ولكن حتى مثل هذا الشخص ، إذا اعتبر أن الضم شىء مدمر وغير عادى ، كان يجب عليه أن يحدد لنفسه " خطًا أحمراً " ، أى أن يقرر من أجل نفسه ماذا سيعتبر فى نظره أو نظرها " ضمًا " .

إن الناس يميلون إلى أداء واجب تحديد خطوط الحدود على الأرض عندما يكون الأمر مهماً لهم فى الحقيقة . فعلى سبيل المثال ، كان من المهم بالنسبة لحكمائنا طيب الله ذكراهم أن يحددوا الخطوط الدقيقة ، التى لا توجد فى الطبيعة التى تتدفق وتتغير دائمًا ، بين يوم السبت والأيام العادية ، فلم تكن لديهم ساعات ولكن عرفوا طريقهم ، مثل أن يميزوا بين ألوان خيوط مختلفة فى نفس الفتيل المضفور ، أو يلاحظون أنه قد ظهرت ثلاثة نجوم . ولغة القانون تبذل جهوداً كثيرة لكى تحدد بشكل واضح الحدود بين المخالفات المخلة بالشرف والمخالفات التى ليست مخلة بالشرف ، أو بين الهدية والرشوة أو بين التحريض والعنصرية وبين ما ليس تحريضًا على العنصرية ، أو بين القتل والتسبب فى الوفاة عن طريق الإهمال والقتل . ولا تنجح هذه الجهود أبداً فى إيجاد خطوط تعريف واضحة مائة فى المائة . فكل حالة مختلفة ، فالخريطة ليست الواقع ، ولكن بدونها كان القانون سيصبح تعسفيًا ، وتنعدم فيه القدرة على التمييز عمومًا . وحقيقة أن " اليسار " لم يبذل جهوداً لتحديد ما يعتبر فى نظره " الخط الأحمر " فى عملية الضم تثبت أنه كان من أملهم بالنسبة له أن يلاحظه ويميزه أكثر من أن يُعرفه ويعرف أننا قد وصلنا إليه . لم أجد أية شهادة على أنه كان مستعداً فى وقت ما لمثل هذا النقاش واتخذ أى قرار فى هذا الشأن ، لقد فقد اليسار الصهيونى حاسة التمييز لديه .

إن التوجيه والتوجه القيميين والأخلاقيين فى المجال السياسى فى وضع أزمة خارجى يتطور بالتدريج ، ممكنًا فقط إذا كانت توجد القدرة الداخلية على أن يحدد على أرض الواقع موقع خطوط الحدود القيمية التى توجد على خريطة المفاهيم ، وليس لدى العلوم السلوكية والتعليمية ما نقترحه لتحسين هذه القدرة باستثناء التوجه إلى المعنيين ، وبشكل خاص لزعماء الجمهور ومثقفيه ومربييه لكى يجعلوا هذا الموضوع فى الوعى ومن المدركات ويناقشوا ويتخذوا القرار ... وجعل هذا الموضوع فى الوعى وضمن المدركات سيؤثر على أولئك الذين ماكانوا بغير ذلك يتصورون هذا الموضوع أو يخطر على بالهم مطلقًا .

ويختلف الوضع على أرض الواقع يختلف اليوم عما كان عليه فى سنوات حكم يتسحاق شمير ، الذى أعلن أن قطاع غزة هو جزء من أجزاء وطننا بالضبط مثل حيفا وتل أبيب ولكنه آنذاك أيضًا لم يقل أحد أن هناك ضمًّ . ومنذ أوسلو من الواضح أن إسرائيل لا تضم جميع المناطق مباشرة ، ولكنها ما تزال تسعى لضم أكثر ما يمكن ، وتحدد وتقرر حقائق بناء

مادى بمعدل ووتيرة سريعة . والواقع أنها تسيطر عن طريق حراسة شاملة دائرية كاملة وعزل تام لمناطق السلطة الفلسطينية من الخارج فى البحر وفى الجو وفى البر حول جميع المناطق

وقد وقف الإجماع القومى اليوم وراء إنجازات الاستيطان وسياسة ضم أى منطقة ممكنة فى الضفة الغربية وقطاع غزة بالإضافة إلى الاتجاه إلى عدم ضم السكان قدر الإمكان . و"اليسار الصهيونى " الذى يؤيد هذه السياسة لا يعتبرها ضمًا . وحقًا فإن " أرض إسرائيل الكاملة " لم تعد فى أيدينا اليوم . ولكن بحسب رأيى ، فإن " اليسار الصهيونى " قد تعدى الخطوط الحمراء الأخلاقية التى بدت له فى مخيلته عندما خشى مما قد يفعله بنا وبمستقبلنا ضم المناطق. ولقد تحققت توقعات يعقوب طالمون وشاؤول فريد ليندر . وحلم أشجار الباؤبات ، والمستوطنات التى ستخترق نباتتنا البرية الصغيرة " كوخافيت " وقد تصدعت حقًا صورة إسرائيل الروحية والأخلاقية .

هناك من أحس بأنه مايزال هناك مسافة بين الواقع فى المناطق والنوايا السياسية لحكومة إسرائيل من ناحية ، وبين الرغبة فى أن نخرج من هناك فى نهاية الأمر ، ونتيح لهم العيش فى دولة خاصة بهم ، لكى نشعر بأننا عادلون وتبدو مصالحة وأنسنة لحياتنا وحياتهم من ناحية أخرى ، مايزال يجب أن نحدد لأنفسنا " خطوطًا حمراء " ، علامات مختلفة على الأرض تقول له أولها ما إذا كانت إسرائيل قد رجعت حقًا إلى الطريق السوى أم لم تعد حتى الآن . كما أن هؤلاء من بيننا الذين يعتقدون حتى الآن أنه حدث تغيير جوهرى فى السياسة بالنسبة للفلسطينيين والمناطق ، يجب أن نحدد لهم " خطوط خضراء " ، تلك الأحداث ، التى إذا وقعت ، يمكننا أن نتنفس الصعداء وأن نُحس بأننا قد استردينا دولتنا . وفى غضون ذلك ، غنى بوب ديلون في تلك الأغنية الجميلة والتى سأل فيها : " كم مرة يستطيع الإنسان أن يدير رأسه ويتظاهر بأنه لا يرى ؟ " والجواب ، أصدقائى ، قبض الريح .

---

1 - Bruno Bettleheim (1960 : 1971). The Informed Heart · On retaining the Self in a Dehumanizing Society. New York : Avon .

2 - Stanley Milgram (1974) Obedience to Authority. New York : Harper & Row .

الفصل الثالث
تغيير الحدود القيمية
لإسرائيل فى سنوات الضم

١ - ماذا فعلت غداة تولى الضم الحكم ؟ :

لم يشغل المؤرخ يعقوب طالمون نفسه فى الرسالة المفتوحة التى بعث بها لرئيس الحكومة مناحيم بيجن (١٩٨٠م) لم يشغل نفسه بموضوع " الخط الأحمر " . فقد عرف بالضبط فى أى جانب من الخط يوجد بيجن ، الذى أعلن مع فوزه فى انتخابات ١٩٧٧م "ستكون هناك مئات المستوطنات مثل ألون موريه " . وافترض طالمون من تلقاء نفسه أن الفرق الجوهرى بين ضم واحتلال عسكرى مؤقت هو فى نوايا الحكومة السياسية ، وقد تحدث طالمون إلى " اليسار " واعتقد على ما يبدو أن " اليسار " يفهم مثله أن التحول قد حدث عندما تخلت حكومة إسرائيل عن السياسة المعلنة بأنه ليست لها مطالب إقليمية وأن الإفساد الذى " سيجعل أجمل أحلامه عن إحياء قومى وروحى مثار سخرية " سيأتى من حقيقة محاولة السيطرة على مليون وربع مليون عربى خلافًا لرغبتهم " أو فى مكان آخر " سعى نحو ضم المناطق " وقد عرف هذا الشخص أن العامل الحاسم من ناحية من يريد وقف المسيرة هى نوايا الحكومة التى سياستها موجهة لتحقيق حلم الضم من خلال أخذ ظروف الواقع على الأرض بنظر الاعتبار وما كان يمكن أن يكون هناك شك فى النوايا السيئة لحكومة اليمين بالنسبة للضم وكان هذا العامل الذى حسم الأمر فى نظره

وفى تلك الفترة ، قبل ثلاث سنوات من نشر تقرير أشجار " الياوباب " لحركة " سلام الآن " و " النقطة الحرجة " الذى رآها البروفيسور شاؤول فريد ليندر مع اقتحام المستوطنات لـ"قلب التجمع السكانى العربى " ، وقد بدأت نوايا الحكومة تتحقق فى حركة وزخم صريح وهائل ولم يعرف طالمون حتى الآن بذلك ، بل عرف ما يعرفه الجميع ووصف ديناميكية الضم فى بدايته :

" الرأى العام فى إسرائيل ، قسمه الأكبر إما معارض أو ينظر بتحفظ شديد للمستوطنات، والرأى العام فى دول العالم كله يستنكر ما يعتبره دوسًا بالأقدام للقانون الدولى واستفزازاً موجهًا للعرب عن طريق تقرير وتجديد حقائق من جانب واحد تجعل من المفاوضات فى حد ذاتها مثاراً للسخرية والازدراء " .

" بما أن الدولة والحكومة لا تستطيع ، أو تتردد ولا تجرؤ لهذه الأسباب أو غيرها على المبادرة وتنفيذ عمليات استيطان ، ازدهرت ظاهرة طلائعيين متعصبين متحمسين ، يعلنون عن أنفسهم أنهم حملة الرسالة القومية ، محققو حلم الأجيال ، وإليهم سلمت الوديعة التاريخية ، ولذلك من حقهم ومكلفون بالعمل على الأرض بدون أن يأخذوا بنظر الاعتبار أو يعُتدوا بحكومة جبناء ورعاديد ، وبقوانين تعتبر بالنسبة لهم قوانين الجوييم ، فى محاكم قضاتها ليسوا شركاء فى القضية ، وبالمعارضين والخصوم الذين هم فى الحقيقة خونة قوميين " .

" والنتيجة هى إهانة للمحاكم ، واستخفاف واستهانة بقرارات الحكومة ، وازدراء لنظام الحكم البرلمانى وللغير - باختصار لا استهتار وطيش وفوضى تحت قناع وطنية محسومة . كل هذا ، بينما ينجح الطابور الخامس للمتعصبين دعاة النزعة القومية المتشددة فى داخل الحكومة - ينجح فى استنزاف وإنهاك قوة معارضيه " .

وفى مقابل هذا الوصف ، الذى يعكس الواقع الذى كان ، فإنهم اليوم ينفخون الآن في أبواق أسطورة أن الاستيطان كان ثمرة سياسة حكومة " الذين أرسلناهم إلى هناك. " ولكن الحقيقة عن المستوطنين كانت مثلما وصف ذلك طالمون ومثلما توقع قبل سنوات " التنظيم السرى اليهودى " ، ناهيك الحديث عن التحريض الذى سبق قتل رابين ، فى الوقت الذى لم يكن قد ولد بعد جيل الاستمرار من المستوطنين . لقد كانت الصورة واضحة مذ ذاك فعلاً . من المؤسف أننى لا استطيع أن أتأكد من يعقوب طالمون طيب الله ذكراه من كان يقصد عندما

كتب " الطابور الخامس للمتعصبين ذوى النزعة القومية المتشددة فى القيادة الحكومية " . ولكننى واثق بما فيه الكفاية أنه قصد أريئيل شارون . فقد تحول شارون آنذاك من وزير زراعة لوزير دفاع (بعد خروج ڤايتسمان من الحكومة) وبعد مضى نحو سنتين نجح فى استنزاف وإنهاك قوة معارضيه (طبقًا لما هو معروف لم يكن له مثل هؤلاء) لكى يتوجه لاحتلال بيروت وعن طريق ذلك يصرف أنظار الجمهور عن ضم المناطق وكسر المعارضة نهائيًا.

فالواقع الذى " لا تستطيع فيه الحكومة أو تتردد ولا تجرؤ لهذه الأسباب أو تلك على المبادرة وتنفيذ عمليات استيطان " قد تغير فى الوقت الذى كتب فيه طالمون هذا الكلام . ولم تكن هناك حاجة لصورة تآمرية أو أية ذرائع وحجج . وانضم إلى هذا معًا لا مبالاة الرأى العام والرأى العام فى العالم حيث اتجها للاهتمام والابتهاج بالسلام مع مصر ، وتصميم وعزم ونشاط وزير الزراعة أريئيل شارون وقدرته التنفيذية ، وقرار بلينا ألبيك ، مدير الإدارة المدنية فى النيابة العامة (الذى نشر بعد ذلك فى قراراتها القانونية مثل قولها أن مواطنًا فلسطينيًا طالب بتعويضات من الدولة ولم يكسب من هذا سوى أن الجنود قتلوا زوجته) ، والتى قضت بأن جميع الأراضى فى المناطق (الفلسطينية) غير المسجلة بأسماء أصحابها الأفراد هى أراضى سيادية للدولة (دولتنا) . لقد شق الاستيطان طريقه علنًا وبزخم بعشرات الآلاف من الأشخاص وملايين الدونمات ، القرى والمناطق الصناعية وكل شىء .

ماذا ، أين بالضبط تعدينا الخط الأحمر ؟ هذا الاكتشاف هو لحظة شخصية ، خصوصية جداً ، كل شخص حر فى أن يقرر أو لا يقرر من أجل نفسه . فالاستقلال الفكرى والمسئولية الشخصية هما ذخرنا الحقيقى ، ربما الوحيد فى النضال ضد لا إنسانية وتعصب قطيعى منظم . ولكن من الآن سأصف مغزى ومدلول الضم ، الواقع ، والمسارات التى مر بها الوعى السياسى فى إسرائيل و " اليسار " وكأننا جميعًا نعرف ونعترف : لقد حدث ما كنا نخشاه . سياسة الضم جعلت منا فى تلك السنوات دولة أخرى .

٢ - حدود النظام الديمقراطى :

بمصطلحات التوجه " المدلول " هو وظيفة توجيه وإرشاد على ضوء خريطة المفاهيم . وعلى خريطة مفاهيمنا مشار إلى منطقة " ديمقراطية " بأنها منطقة . يختار فيها للأسف . المواطنون

الحكم فى انتخابات حرة . فإذا كان هذا هو مفهومنا عن الديمقراطية ، فمدلول الضم إذاً هو أن إسرائيل ليست ديمقراطية لأنه فى حدود الضم ليس كل السكان ينتخبون الحكم ، وقد اختارت حكومة إسرائيل أن تتوسع فى مناطق بها نحو مليون ونصف مليون من السكان وأن تتملكها إلى الأبد كجزء من الدولة بدون أن تعطى أولئك السكان حقوقًا ديمقراطية . هذه حقيقة ، وعليه ، وطبقًا لخريطة مفاهيمى ، لم تعد الدولة دولة ديمقراطية .

هذه هى " حقيقة " طبقًا لنفس التعريف من اللحظة التى جرى تعدى الخط الأحمر وسياسة الحكم أصبحت الضم . فإذا كان الإنسان متمسكًا بذلك التعريف وإذا كان الحكم فى الدولة يمارس قمعًا بالقوة فى المناطق التى يعتبرها جزءاً من دولته ، فإن المدلول هو أن نظام الحكم فى الدولة ليس ديمقراطيًا والدولة ليست ديمقراطية . أما الادعاء بغير ذلك فهذا معناه أن نغير التعريف والمفاهيم ووجهة النظر والإدراك ، وأن نوافق على أن الحكم العسكرى المفروض بالقوة على سكان فى مناطق معينة يمكن أن يكون نظام حكم ديمقراطى ، إذا كان ينتخبه قسم آخر من السكان فى نفس الدولة .

و " مدلول " الذى هو الاستنتاج طبقًا للتعريف ، ليس حقيقة علمية على الأرض ، بل نتيجة لاستخدام متساوق ومناسب ومعقول لمنظومة مفاهيم الإنسان نفسه ويمثل هذه الصفة لها خاصية ومطلقية قيمية ، الإنسان الذى يكشف مدلول إما أنه يقول الحقيقة لنفسه أو لا .

ويوضح نموذج بسيط بمصطلحات الواقع والخريطة موضوعية هذا التشخيص ، فالكرة الأرضية تدور حول محورها ، هذه حقيقة علمية ، أى فرضية علمية مبرهنة ومجربة ومألوفة ومتبعة فى ثقافتنا حول الوضع الواقعى في الطبيعة . وهذه ليست " حقيقة مطلقة " ، فليس هناك مثل هذا الأمر فى العلم وليس هناك مثل هذا الادعاء . ولكن مفهوم " شمال " وتحديد أنه يشير إلي الاتجاه لأحد أطراف المحور فى حين " جنوب " هو الاتجاه المضاد من كل نقطة على سطح الكرة الأرضية هو اختراع مصطنع من قبل البشر . وهو صحيح بصورة مطلقة فى الإطار الذى حدده الأشخاص وفى نظر كل من درسه وتبناه وأخذ به .

ويتعين علي من يقرر أن هذه خريطة مفاهيم صحيحة ويسير طبقًا لها لغرض توجهه والاهتداء إلى الهدف ، يتعين عليه أن يستخدمها بشكل صحيح . ولذلك فإن من يقرر أن اتجاهًا معينًا على الأرض هو الشمال سيكون مدلول تقريره هذا ، فى هذا السياق ، أن الجنوب

يوجد فى الاتجاه المضاد والشرق من اليمين مع اتجاه عقرب الساعة . ويمكن أن يخطئ الشخص والاتجاه الذى أشار إليه ليس بالضبط هو الشمال ، ولكن إذا كان هذا الاتجاه طبقًا لتعريفه هو الشمال ، فالحقيقة أن الجنوب هو الاتجاه المضاد والشرق من اليمين هو المدلول الصحيح الوحيد من ناحيته وهو الاستنتاج المُلزم . وإذا ادعى أن الشمال هو فى نفس الاتجاه والشرق يوجد بالضبط على اليسار فإن خطأه سيكون " مطلقًا " ، وقاطعًا لا لبس فيه وليس موضوعًا لنقاش بين أناس أسوياء ومعقولين يعملون فى إطار نفس منظومة المفاهيم . وبالموازاة مع موضوعنا ، فإن التعريف المألوف لدينا للديمقراطية يستوجب إيجاد الاستنتاج الذى مؤداه أنه مع انطلاق سياسة الضم فإن نظام الحكم فى دولة إسرائيل قد تعدى الخط الأحمر بين الديمقراطية وبين حكم إكراه بالقوة . ولم يعد ديمقراطيًا بالضبط بنفس المدلول الذى لم يكن فيه نظام الحكم فى جنوب أفريقيا ديمقراطيًا فى فترة التمييز العنصرى، على الرغم من أن البيض انتخبوه بصورة ديمقراطية وتمتعوا بحياة مواطنين أحرار.

ماذا كانت النتيجة الحقيقية ، إنه فى حين قام الحكم فى دولة إسرائيل بالاستيطان فى كل المناطق التى تحت سيطرته ، استمر اليسار الصهيونى " يشعر بأنه يعيش فى دولة حكمها هو نظام ديمقراطى وكانت النتيجة ، بالطبع ، أن اليسار كان يستطيع أن يعيش بشكل أسهل بكثير مع هذا النظام وأن يستمر وكأن هذا لم يحدث له . ففى خريطة مفاهيمه توسم إسرائيل بأنها دولة ديمقراطية دون حدود . نقطة . والتغيير فى الواقع لم يغير واقعه الشخصى باعتباره يعيش فى دولة ديمقراطية ولم يتسبب فى جعله يُحدث ويعدل خريطة مفاهيمه ، كل الأشجار لم تنضم إلي الغابة .

وثيقة شفايتسر : أين نظام الحكم وأين الأخلاقيات :

وثيقة شفايتسر هى مقال كتبه إبراهام شفايتسر ، وهو مشترك مركزى قديم ودائم فى صحيفة " هارتس ، فى شهر أكتوبر ١٩٩١ ، قبل فترة ليست طويلة من وفاته . وإذا قسم المؤرخون فى يوم ما أيام الضم إلى فترات ، سيشيرون إلى أن هذا كان فى السنة الرابعة للانتفاضة ، فترة الحكم الثانية ليتسحاق شامير وحكومة اليمين ، وإننى اعترف أن شفايتسر قد نجح فى أن يُذهلنى تمامًا . ذلك أنه لم تحم حوله أبدًا شبهة اليسارية بل كان محسوبًا على الوسط القديم

وها أنذا في نفس اليوم الذى رأيت فيه المقال ، تنبهت وانتعشت ، فقد رأيت الثورة التى كنت آملها جداً فى المفاهيم وفى الهوية .... ولكن حماسى لم يطل أكثر من دقيقة واحدة ثم تلاشى ، وإننى أعرض عليكم هذه الوثيقة لكى أؤكد ، مجدداً ، مدى ضخامة قوة مجالات العمى على خريطة مفاهيم متطابقة ، أيضًا لدى أشخاص حكماء وعقلاء وأخلاقيين . وعلى ذلك ، فإن هذا سار على النحو التالى :

" الدولة اليهودية ماتت ... رأى إسرائيل اليهودية مُنحى جانبًا عن دفن الدولة - التى كان الهدف منها أن تصبح حلم أجيال شعب معذب ومضطهد - يبذر حكامه مليارات لكى يضمن تصفيته طواعية " .

" أو ! " ، فكرت فى نفس هذه النقطة . هذا هو إنسان يرى ليس الأشجار فقط بل الغابة أيضًا ، أى لا يعالج التفاصيل الدقيقة فقط بل الموضوع فى مجمله ، ويرى أين الخطر الحقيقى وأين النضال الحاسم ، ويبدأ قسم من الجمهور المدنى فى أن يفهم أن سياسة الضم لا تهدد فقط مستقبل دولة إسرائيل ، بل تدفنها الآن فى الحاضر . واتضح بشكل سريع جداً أن الدولة اليهودية قد ماتت ، تحيا الدولة الثنائية القومية ! ... .

" ما يهدد الدولة اليهودية ليست صواريخ من دول بعيدة ، بل حرب أهلية ستدور بين الشعبين الذين يناصب كل منهما الآخر العداء وسجنا فى داخل حدود إسرائيل الكبيرة " وكان الخطر الذى رآه شفايتسر هو أن إسرائيل " ستمثل شعبين ... وعلى ذلك فلا يمكن سوى غبى أن يأمل فى أنه يمكن على طول الأيام أن نسلب جمهوراً كبيراً وذا وعى ذاتى التمثيل المناسب فى الأطر التى تتحدد وتتقرر فيها نهج الدولة المشتركة " .

ويتضح أن إبراهام شفايتسر لم ينتبه لأن الحكم الذى ، حسب كلامه ، " مُفسد ويُفقد ويُضيع الحلم القومى " ، سيعرف أيضًا كيف يسلب من الفلسطينيين ، الذين لا يريدونه مطلقًا التمثيل المناسب فى الدولة المشتركة . فقد خاف من دولة ثنائية ديمقراطية . ورأى أن الدولة الفلسطينية قد ماتت ، ولكن لخيبة أمله الشديدة ، لم ير أن نظام الحكم قد تبدل ، وأن الديمقراطية " ماتت " أو أن الأخلاقيات السياسية " ماتت " و " يحيا " قمع " الجمهور ذات الوعى الذاتى " . وفى الحقيقة بالنسبة لمن تتلخص هويته السياسية فى أنها يهودية والحلم السياسى لشعبنا المعذب والمضطهد هو أن تكون له دولة يهودية ، فإن تفاصيل مثل أن تكون

أيضًا ديمقراطية وعادلة فيمكن أن تكون في مجال العمى وإننى افترض أنه خاف من الاحتمال الخيالى وهو احتمال قيام " دولة ثنائية القومية " لأنه لم يكن يستطيع أن يتصور ولايمكن أن يرى أن دولة " يهودية " ستكون نفس الدولة غير الديمقراطية التى كانت .

فى خريطة مفاهيمنا كانت الدولة وماتزال محصورة فى الإطار المفهومى للديمقراطية ، ولكن ينقصها تمثيل حقيقى للمنطقة الحرجة والحاسمة لتعريف الديمقراطية : نظام الحكم . كان هذا ومايزال مجال عمى الجمهور الإسرائيلى كله ، بما فى ذلك اليسار ، حقيقة أن جوهر الديمقراطية مرتبط بنظام الحكم ، وجوهر نظام الحكم الديمقراطى مشروط بتطبيقه على عموم المواطنين السكان البالغين . لذلك ، حتى عندما تبدل نظام الحكم مع نوايا الضم وسياسة الضم وحقائق ووقائع الضم - فإن هذا التبديل لم يُسجل فى الوعى . وقد خدم هذا العمى بشكل رائع نظام الحكم الذى كان يستطيع أن يُطالب بوصاية لنفسه بسبب كونه كما يقال ديمقراطيًا ، وخدم بشكل رائع أيضًا اليسار لنفس السبب بالضبط ؛ أعفاه من الحاجة لمواجهة السؤال كيف يعارض نظام الحكم. وفقدان الديمقراطية كنتيجة ضرورية للضم ، كان حقيقيًا وواضحًا بما فيه الكفاية ، وحتى مفهوم من تلقاء نفسه ، لكى يسجل فى الوعى كتهديد للمستقبل ، ولكن مخيف، مُخجل ويبعث جداً على الكآبة ، لكى يُسجل كواقع تحقق وأحاط بنا .

لم أجد فى كل فترة الضم اعترافًا علنيًا من شخصية عامة أو هيئة عامة بحقيقة أن نظام الحكم الذى يسيطر علينا هو نظام الاستيطان فى المناطق ، لم يعد ديمقراطيًا (البروفيسور يشعياهو لايفوفيتس ، وهو شخصية فريدة جداً فى مشهد " اليسار الصهيونى " كتب بأسلوب صرخة أكثر من كونه اكتشافًا موضوعيًا أن دولة إسرائيل لم تعد " دولة الشعب اليهودى وأصبحت جهازاً لحكم يهودى عنيف على شعب آخر ") .

ولم أجد فى كل هذه الفترة شخصيات عامة أو حركات عرفت نفسها بأنها معارضة للحكم، منشقون حتى إلغاء سياسة الضم . لو جاء مثل هذا الاعتراف لكان يتعين على رجال اليسار أن يعيشوا مع الواقع الذى لم يعد فيه نظام الحكم ، طبقًا لتعريفهم شرعيًا وأخلاقيًا ، وحرب دولة إسرائيل من أجل وجودها فى حدود الضم لم تعد ، ماذا عسانا أن نفعل ، عادلة .

إننى أطرح هذا الموضوع هنا بأوضح صورة ، لأن التنكر للحقيقة المتنكرين لها يكلف ثمنًا مرتفعًا جداً. ففى كل عملية إشفاء وإعادة إلى الوضع والحالة السوية أو مداواة نفسية ، فإن

الاعتراف بالمرض ، ورؤية المشكلة الحقيقية ، هو الخطوة الضرورية الأولى . ليس هناك احتمال فعال لإعادة الديمقراطية لكل مناطق إسرائيل بدون اعتراف بالحقيقة ، بأننا فشلنا بوقف الضم الذى هدم حقًا ، بالضبط مثلما توقع فريد ليندر ، " سلام الآن " ، طالمون ، وفى الحقيقة "اليسار " كله ، هدم الديمقراطية فى إسرائيل . ولم يهدم لشخص فى " اليسار " الحياة والحريات بل هدم الديمقراطية بمعنى تغيير جوهر نظام الحكم . وبدون هذا الاعتراف فإن التحليل التاريخى لن يقول المهم ، فبدون اعتراف بأن نظام الضم يحول إسرائيل إلى دولة غير ديمقراطية ، فإن رجال " اليسار " لن يكونوا قادرين على مواجهة الواقع بل سيظلون مع محنهم ويبحثون عن سبل نجاة فكرية وعملية من هذا الواقع .

إن الديمقراطية والضم ، طبقًا للتعريف ، لايمكن أن يتواجدوا معًا . فالنظام الذى مركز وجوده هو حفاظ على المصالح وتحقيق قيم المستوطنين ، لايمكن أن يكون ديمقراطيًا ، وفى اللحظة التى تمارس فيها الحكومة سياسة ضم ، فإن الدولة تمتد على كل المناطق ونظامها هو نظام المستوطنين . وقد كتب ذات مرة روميان رولان " الحقيقة هى وطن الحر " . وقد نجح "اليسار الصهيونى " فى التملص براحة من الدفاع عن وطنه عندما تغير النظام .

٣ – حدود الصهيونية :

بث التلفزيون فى صيف ١٩٨٩ مناقشة نادرة بين رجال حركة " سلام الآن " وبين حركة "جوش أيمونيم " . وقد جاء هذا بعد عدة سنوات من ترسخ مصطلح " رد صهيونى مناسب " باعتباره يرمز إلى عمل ما من العنف أو الإكراه العسكرى شُرطى ، أو استيطانى ضد العرب فى المناطق . وقال البروفيسور زئيف شطر نيهل للمتحدث باسم المستوطنين بانى كتسوفر : " صهيونيتك ليست صهيونيتى " . ولم يحدث أبداً حسبما هو معروف ، فى أى مناقشة عامة أن سلب " اليسار " من رجال الضم لقب " صهيونى " . فاليسار الصهيونى مكن حركة الاستيطان من الانخراط فى داخل الصهيونية وفى داخل قيمها القومية " الاستيطان " و " توطين البلاد " ، دون معارضة ، دون أية معارضة . وعلى الأكثر قالوا لهم ، مثلما قال شطرنيهل أن صهيونيتهم هى صهيونية مختلفة عن صهيونيتنا ، الأمر الذى يعنى أنها مع كل هذا صهيونية .

هكذا قدم " اليسار " للمستوطنين على صينية من فضة رمزاً من الرموز العليا لهويتنا ، إن لم يكن أعلاها ، المفهوم الذى يماثل تقريبًا فى العبرية الإسرائيلية « " محب لشعبه " ، "وطنى مخلص " ، " يعمل من أجل شعبه " ، " مثالى " ، مثل ذلك الذى تطوع فى قوات المظليين أو التى تطوعت لمساعدة مهاجرى إثيوبيا " لأسباب صهيونية " . كذلك قدم لهم أيضًا قيمة من قيمه المقدسة " تساهل " (الجيش الإسرائيلى) . وبقيت القوات المسلحة لدولة الضم فى حدود ليفنجر وهاعيتسنى ، أيضًا فى وعى اليسار " تساهل " - لا جيش ، " تساهل " فى حين أنه مع تغيير النظام والروح تغيرت أيضًا رسالته وأدواره ، التى أصبحت أساسًا شرطوية . ولم يعد هذا ، عمليًا ، دفاعًا عن إسرائيلتنا وعن وجودها بل ضمان سياسة الاستيطان والمستوطنين .

وعن حدود الصهيونية بالنسبة لحركة الضم جاء فى " وثيقة طالمون " :

" إن مبشرى وأنبياء الصهيونية السياسية مثل موشيه هيس وبينيسكر وتيودور هيرتسل وماكس نورداو ، وحتى جاتبوتنسكى لم يستمدوا أبداً إلهامهم من واقع دينى أو حتى من التاريخ اليهودى - وعلى أية حال ليس فى بداية طريقهم . وكان ما حفزهم ، كما قلنا ، فكرة كرامة الإنسان وكنتيجة الكبرياء اليهودية التى جُرحت ، والتوق إلى الخلاص من وضع مهين ، ومن عمليات الاضطهاد ، والرغبة فى أن نكون شعبًا حراً بأسلوبه هو وبنهجه الخاص به هو فى أسرة الشعوب الحرة . وقد اكتشفوا هم اليهودية من خلال الصحوة الإنسانية وإذا أمكن القول هكذا تبنوها وأخذوا بها ، دون أن يعرفوا هم أنفسهم ماضيها وتفردها معرفة حقيقية " .

" لايمكن أن نتصور بالطبع ، صهيونية بدون الإيمان بوعد الخالق وآمال الخلاص ، بدون الصلاة والدعوات من أجل العودة إلى أرض أجدادنا ، لكن لم تكن تلك هى الشرارة التى أشعلت النار الكبيرة للصهيونية الدينية . والعكس هو الصحيح ، أخذت تلك الأمور مغزى ومدلولاً متجدداً فى أعقاب تطورات فى المجال غير الدينى ويمكن بالتأكيد أن ندعى أن التصورات الدينية التى تعود إلى أيام قديمة قد منعت تحويل حلم الخلاص إلى عمل سياسى تاريخى . واستخدمت بديلاً له وذلك لأن الاعتماد على العناية الإلهية ، المسيح المنتظر والمعجزة ، أعفيا اليهود من العمل هنا وعلى الفور" .

" اليسار الصهيونى " مثلى ، لم يكن جمهوراً من المؤرخين وبالنسبة له كله كان بينيسكر ، و هيس ونورداو أسماء شوارع ولكنه عرض أيضًا . مثلما يعرف كل فتاة وفتى فلسطينى .

أن وعد بلفور وليس وعد قورش ، هو الذى كان مفترق الطرق والتحول التاريخى فى تاريخ الصهيونية واليشوف اليهودى ، والذى جاء فيه بلغة واضحة أن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعطف لإقامة وطن قومى لليهود فى أرض إسرائيل (فى الأصل Palestine) بشرط ألا يُضر هذا بسكان البلاد العرب . وعلى ذلك رفعنا وعد بلفور على رأس سعادتنا وفرحتنا وفخارنا... ، ومعظم الأشخاص الذين يمكن أن نصنفهم على أنهم " يسار " لم يصنعوا هذا لأنفسهم ولكنهم عاشوا ذلك على أنه مفهوم من تلقاء نفسه ، كجزء من أعمق بنية أساسية لهويتهم الإنسانية والثقافية .

(بين قوسين : مثلما تنازلوا للمستوطنين عن الصهيونية كلها كذلك تنازلوا للمتدينين عن الروحانية كلها . تعطى وسائل الإعلام بإصرار بغل مُروّض ، تعطى اللقب « روحى » للتعصب الدينى بلباس دينى ، مثل عبارات الزعامة الروحية للمستوطنين فى يهودا والسامرة (الضفة الغربية وقطاع غزة) ، و " الزعيم الروحى لحركة شاس " أو الزعيم الروحى لإيران أو الزعيم الروحى لحزب الله " .

إن " الصهيونية " ليس بمعناها المصاغ فى الخطب وفى الوثائق بل بمعنى القوة الداخلية التى دفعت وحركت أناسًا فى هذه البلاد - هذه الصهيونية كانت حركة تحرير قومى تستمد إلهامها الأخلاقى من الأخلاقيات الشخصية والدولية لعصرنا وتختار وسائلها على ضوء هذه الأخلاقيات . وكان هذا أساس روح صهيونيتنا ، وقد عكست أقوال الزعماء ذلك دائمًا : " نضالنا عادل " . لم تكن هناك مطلقًا مسألة أنه عادل فى نظرنا بالمفاهيم المعمول بها والمألوفة لدى متحضرين فى عصرنا .

ولم تطرح دولة إسرائيل ذات السيادة ، فى كل سنوات وجودها وحتى الضم - لم تطرح أبدًا المطالبة بالحصول على " أرض أباتنا " كلها لتصبح تحت سيطرتنا بفضل العهد القديم والآباء . كما أن فكرة أن الحق التاريخى القديم هو تبرير ومسوغ لأن البلاد.تعود لنا ، ناهيك الحديث عن فكرة أنه من المسموح به الحصول على هذا الحق بالقوة - كانت شيئًا ما لم يخطر على بال أبناء هذه البلاد ، باستثناء الدوائر التصحيحية التى أُعتبرت منشقة عن الصهيونية. وأجروا لنا كثيراً عملية غسيل مخ باحتلال الصحراء القفراء والدفاع عن الحدود وتوطين النقب واستيعاب هجرة (يهودية) ، ولكن ليس بهذا ...

إن إسرائيل الصهيونية كلها . تعيش الصهيونية بدون صلوات للعودة إلى أرض أبائنا ، بل كاستمرار لامتداد تاريخي بدأ وتطور مع العمل الطلائعي الثوري الذي تضامنا معه ومع قيمه وعليها تربينا . وكان هذا العمل في نظرنا مشروعًا وأخلاقيًا بالنسبة للعرب بالمصطلحات السياسية لعصرنا ، بل واعترفت أغلبية الأسرة الدولية بأنه قانوني . وقد برر علاقتنا ورباطنا التاريخي الذي رفض أوغندا ورفض الحل الإقليمي في أي مكان آخر في العالم ، برر ، في نظرنا ، اختيار هذه البلاد كهدف لإقامة دولة الشعب اليهودي . وأن يتحقق هذا الهدف بوسائل سياسية وطبقًا للمبادىء الأخلاقية لعصرنا - وليس كتكرار لاحتلال البلاد بأسلوب يهوشوع بن نون - كان هذا أمرًا مفهومًا تلقائيًا .

إن القرار القيمي - الأخلاقي الذي يستخدم أساسًا للاستيطان ، والذي يقول أن البلاد كلها تعود لنا لأنها " بلاد آبائنا " . يبدو لي إنه قرار - معادٍ للصهيونية ذاتها ، فلم يُسمع مثل هذا الأمر في الأخلاقيات الدولية لعصرنا التي كانت الصهيونية جزءًا منها . وأقصد بـ"عصرنا" منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، فبعد تلك الحرب الواحدة والوحيدة والتي كان ثمنها عشرات ملايين الضحايا تغيرت أيضًا خريطة العالم وضمت الدول المنتصرة مناطق إليها. ولكن منذ ذلك الوقت ، كانت هناك ، حسب أفضل ما تسعفني به ذاكرتي ، حالتان فقط ، باستثناء حالتنا ، سيطرت فيهما دولة ذات سيادة بالقوة على منطقة تعود لدولة أخرى بدعوى أن هذه المنطقة كانت ذات يوم تعود لها من ناحية تاريخية دينية . وفي تلك الحالتين كان الأساس للادعاء التاريخي لهاتين الدولتين مايزال حديثًا " طريًا " بالنسبة لنا عمره عشرات إلى مائة حتى مائتين سنة . إجمالاً في مقابل سنة ٢٠٠٠ بالنسبة لنا . وقد انتهت هاتين الحالتين بشكل سيء جداً .

الحالة الأولى هي احتلال الزمرة العسكرية في الأرجنتين لجزر فوكلاند (بلاد الآباء جزر ملفيناس ") ، والحالة الثانية احتلال العراق للكويت (بلاد الآباء الإقليم الثامن عشر ") . إن الأخلاقيات السياسية والإنسانية لعصرنا لا تسمح بمثل هذه الأمور .

وقد جاء في " وثيقة طالمون " عن التشابه بين كلمتي استيطان (هيتنحلوت وهيتيشفوت) « وهما تعنيان في اللغة العبرية استيطان صهيوني » :" معروفة مقولة ماركس الرائعة عن الميل الإكراهي لتكرار تلك الأعمال ، في أوضاع تبدو ظاهريًا متطابقة أو متشابهة ولكنها في الواقع مختلفة تمامًا ، في المرة الأولى هذه تراجيديا ، وفي المرة الثانية مسرحية هزلية . وهذا يقال عن المقارنة بين طبرية وعين حرود وأعمال حوما ومجدال (سور وبرج طريقه بينا .

مستوطنات يهودية فى فلسطين فى فترة الانتداب البريطانى فى المناطق التى كانت عرضة لهجمات الفلسطينيين) وبين الارتحال الاستيطانى فى أيامنا هذه . فالمستوطنين فى أيامنا يعتمدون على دبابات وطائرات هليكوبتر وطائرات . إنهم يجيئون لإظهار وجود ولتجسيد قوة وليس لكى يحرثوا ويزرعوا ويغرسوا أشجاراً . إن الاستيطان فى المناطق (الفلسطينية) أكثر من كونه جهداً يائساً لاستملاك أراضى الوطن ، هو عمل سياسى ، أساس قصده هو تحديد من الذى يسيطر ، وبتعبيرات المستوطنين " أن نُظهر للإسماعليين من المسيطر هنا " ، " أن نضع العرب فى مكانهم ونوقفهم عند حدهم " .

والحقيقة التاريخية هى أن " اليسار الصهيونى " لم يناضل من أجل حدود الصهيونية كمفهوم وكقيمة إنسانية وخسر كل هذا لصالح المستوطنين . ولم أجد أيضًا محاولات للادعاء بأن الاستيطان على حراب الجيش ودباباته ليس استيطانًا صهيونيًا . ولم أجد أيضًا كذلك محاولة لتسمية التيار الفكرى لـ " أرض إسرائيل الكاملة " أخرى ، بأنه ليس " صهيونية " وفى رأى الشخصى ، فإن " مسحانية مسلحة " أو " تصحيحية رسمية " كقوة ثارت على الصهيونية ، كانت أكثر دقة من الناحية التاريخية والموضوعية وأكثر فائدة لـ " اليسار " فى النضال ضد الضم .

إلى أى مدى كانت " صهيونية " الإسرائيليين ما قبل الضم بعيدة فى الحقيقة عن عقلية ومنظومة قيم وثقافة " محبو أرض إسرائيل ؟ " طبقًا لخبرتى وبحثى – إلى حد شديد متطرف. ذلك أن " يهودا والسامرة ، وقطاع غزة " وكذلك " هضبة الجولان " ليس فقط أنها لم تكن موجودة مطلقًا كمفاهيم فى القاموس بل أيضًا لم تكن مطلقًا فى العقل أو فى القلب . وذهب أبطال الثقافة الجريئون الذين اشتاقوا وحنُّوا لأماكن وراء الحدود ذهبوا إلى بترا ("الصخرة الحمراء " !) ، وليس لأرض إسرائيل أو إلى حائط المبكى أو إلى الخليل ، وقد أجريت فى عيد الاستقلال سنة ١٩٦٧م ، منافسة الغناء العبرى ، وغنت مغنية لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت هى شولى ناتان بصوت يهز القلوب ذكّر بملكات الغناء العالمى فى الستينيات التى كان فيها " اليسار " موضة ، أغنية نعومى شيمر يروشاليم شيل زهاف – القدس الذهبية " ، وقد هزت هذه القصيدة الغنائية الرقيقة القلوب وكانت على رأس العرض العبرى . وعندما تم بعد مرور نحو شهرين احتلال الحرم القدسى ووصل المظليون إلى حائط المبكى ، وتم نقل هذا الحدث ببث مباشر ، والتقطته أجهزة راديو الترانزستور التى كانت موجودة لدينا فى الموقع ، سمعنا الأصوات وفهمنا أن الرفاق كالعادة فى أوضاع كان يجب التعبير فيها عن تأثر وحماس خاص، شعروا بالحاجة إلى أن يعوضوا بالأغنية ولم يجدوا سوى هذه الأغنية المتكررة يروشاليم

شيل ذهاف ، وشيل تحوسيت وشيل أور - القدس الذهبية والقدس النحاسية وقدس النور ألست قيثارة لكل أغانيك " .. ولم يعرف أحد كل الكلمات أو كل لحن هذه الأغنية الفنية ، التي ليست مناسبة أبداً للغناء أمام الجمهور

والاستنتاج : في كل ترسانة الأغانى الإسرائيلية لم تكن هناك حتى أغنية واحدة تناسب مواكبة النفخ فى البوق الذى قام به الحاخام جورين أو يعبر عن شىء ما مماثل لمثل هذه الثقافة والروح التى بثتها حركة الضم فوراً بعد ذلك

لقد بذل المستوطنون ويبذلون جهوداً لتقديم أنفسهم إلى الرأى العام كإسرائيليين صهيونيين، طلائعيين وامتداداً للثقافة والروح الصهيونية . ورأيت اليوم بالضبط بيانًا لمعارضى الانسحاب من هضبة الجولان بصيغة " إلى إهود باراك : هناك جبال جولان ، مد يدك والمسها ، فى سكون واثق يأمرون قف ! " (أى أوقف المفاوضات التى من شأنها أن تؤدى إلى انسحاب من هضبة الجولان) . والقصيدة بدون التأثيرات الجرافية . هى قصيدة الشاعرة راحيل إحدى ذخائر ثقافة " اليسار " الصهيونى . فهى تصف غاية حنينها وأشواقها ، دجانيا التى تقع على بحيرة طبرية . " هناك جبال جولان " ، بالنسبة للشاعرة مدلولها ومعناها كان هناك ، وليس هنا (" هنا بيتى فى مقابل جولان ") . قيل ذلك فى قصيدة إسرائيلية أخرى معروفة . وليس فى جولان بل " هنا " فى مقابلها) والأمر " قف " يرسم مجال بنية المنظر الطبيعى للوطن . هناك جبال جولان هناك تُوقف النظرة ويتجه ليرى وليحب ما هو قريب منها ، النخيل ، المنخفض القمة على شاطىء البحر والزهور البرية الرائعة على الكرك ، الاسم العربى لتل بيت يراح ... المدلول الصهيونى لشعر راحيل العاطفي (أو شعرنا العاطفى . فى كل الليالى ، التى كنا نغنى معًا هذه القصيدة) هو العكس بالضبط للاستخدام الذى فعله المستوطنون بها ، الذين استخدموا وركبوا الموجة راحيل مثلما ركبوا مع دبابات إلى هضبة الجولان

وقد سجل الغناء العبرى عبارات قليلة فقط عن الاحتجاج ضد تغيير صورة إسرائيل وروحها مثلما كانت موجودة فى قلب ورأس " اليسار " الصهيونى . وكانت إحدى هذه القصائد هى قصيدة إهود مانور الذى يقول بألم بأنه ليس له بلد آخر ، وعلى الرغم من أن بلده قد غير شكله وصورته فإنه لن يتنازل عنه . ويذكر لها " فضل وجميل صباه " حين تفتح عينيها . وقد تبنى شباب المستوطنين هذه القصيدة بفرح وسرور "ليس له بلد آخر ، رغم أن أرضها مشتعلة .. "

" صهيونية ١٩٣٨ – حانيتا[1]

صهيونية ١٩٨١ – قرنى شومرون[2]

(إعلان انتخابى لليكود)

كتب جورج أورڤيل فى كتابه المعروف " ١٩٨٤" حول رؤيا الإرهاب الشمولى أن من يسيطر على الماضى يسيطر أيضًا على الحاضر والمستقبل . وقد سمح " اليسار " لقوى الضم أن تسيطر على الماضى الصهيونى تقريبًا بدون نضال تقريبًا من خلال تشويه صورة وأعمال وروح الطلائعيين " الحالوتسيم " ومن المؤكد أن الطلائعيين لم يكونوا حكماء كباراً ، مثل كثير من المثاليين الشباب والثوريين رقيقى المشاعر وذوى النوايا الحسنة ، لكنهم لم يكونوا مثل جيوش الصليبيين (أو كالمستوطنين) الذين احتلوا بالقوة البلاد (فلسطين) وقمعوا أو طردوا سكانها وقد انضممت قبل انتحابات ١٩٨٤م إلي " جولة فى شومرون " التى نظمتها جوش أيمونيم " كحملة علاقات عامة ودعاية انتخابية ووقفنا فوق أحد جوانب جبل جريزيم . وأشار المرشد بابتسامة مليئة بالرضا والثقة الذاتية ، إلى الوادى الذى يقع فى الأسفل وذكر أنهم اكتشفوا صورة جوية من منتصف الخمسينات يبدو فيها هذا الوادى فى الطريق إلى نابلس مخيم كيبوتس تابع لحركة " هاشومير هاتسعير " وقال عندما عرضوا على رجال " هاتسومير هاتسعير " الصورة الجوية ، ، قال " ماذا كانوا يستطيعون أن يقولوا ؟ " – لقد حلم شبان هاشومير هاتسعير من الهجرة الثالثة وحاولوا أن يعيشوا أخوة الشعوب ، والعدل ، وحتى دولة ثنائية القومية ... ماذا كانوا يستطيعون أن يقولوا لمستوطن يقارن نفسه بهم وهو فى أوج سيادته وسيطرته على البلاد ؟ لو بُعثوا لما كانوا بالتأكيد سيجدون الكلمات لكى يقولوا شيئًا ما . فلو كانوا قد نجحوا فى كبح الدافع الطبيعى لتوجيه لكمة لذلك المستوطن على الإهانة ، ربما كانوا يواصلون إنشاد قصيدة " وحيداً أسير وأغرس مثل جدى، من الذى يدلنى على الطريق هنا ، الويل لى لأننى غريب فى بلادى ، وغريب علىَّ دربها فى كل شىء... " .

---

١ – حانيتا كيبوتس تأسس سنة ١٩٣٨ وهو أول المستوطنات العبرية فى جبال الجليل وكان اسم حانيتا لدى اليهود رمزاً للجرأة الطلائعية حسب المصادر اليهودية والصهيونية

٢ – مستوطنة يهودية فى الضفة الغربية تقع على مسافة ١٢ كيلومتر شرقى مدينة قلقيلية أقيمت فى سنة ١٩٧٧ ، يسكنها نحو ٥٠٠ شخص ، ويعود تسميتها إلى شكل سطح الأرض هناك

٤ – حدود الأمن :

لن يجد كل من يطلع ويدرس بإمعان توثيق ما نشر وما لم ينشر في وسائل الإعلام فى سنوات الضم – لن يجد محاولات جدية فى الحقيقة لإجراء نقاش بين أصحاب الآراء المتعارضة بالنسبة للضم ولأساسه الصهيونى ، التاريخى والأخلاقى ، ولم تكن هناك أيضًا محاولات لرفع الستائر العقلية التى تغطى مجالات العمى . وإحدى أكثر الأسئلة المناسبة لرفع الستار من فوق مجالات العمى لدى الإنسان هى توجيه رأيه إليها بواسطة سؤال لا يتعلق بمفاهيم أو أفكار بل بما يحدث على الطبيعة فى نفس المجال : ماذا يجب أن يحدث فى الواقع لكى يدرك نفس الشخص أنه أخطأ وأنه سيغير رأيه ؟ – هذا سؤال يُلزمه برفع نظره من الخريطة إلى المجال المفتوح وأن يفحص نهجه وطريقه .

ففي خلال ١٥ سنة متواصلة من حكم اليمين وسياسة الضم (١٩٧٧ حتى ١٩٩٢ بما فى ذلك ست سنوات " حكومة وحدة وطنية " بين ١٩٨٤ و ١٩٩٠) ، لم أجد حالة واحدة فى وسائل الإعلام بأن أحد الصحفيين أو من يقوم بإجراء مقابلات قد اهتم لدى سياسى من اليمين بـ " ماذا يجب أن يحدث في الواقع لكى نعترف بأن محاولة الاستيطان فى المناطق قد فشلت؟" وما الذى تقترح عمله فى مثل هذه الحالة " وفى مقابل هذا ، فى أصعب فترة بالنسبة لرابين بعد اتفاق أوسلو (مارس ١٩٩٤م) ، في موسم ذروة رد الفعل الهستيرى على الهجمات ضد تجمعات مواطنين ، كانت هناك صحيفة واحدة (الملحق "تل أبيب" فى صحيفة " معاريف " الذى يعتبر رئيس تحريره شموئيل شيم طوف " يساريًا) الذى طرح هذا السؤال المهم أمام ٢٧ من الشخصيات البارزة فيما يسمى " معسكر السلام " ، مؤيدو أوسلو: " ما الذى يجب أن يحدث لكى تقول / تقولى لنفسك أن هذه العملية (الاتفاقية المرحلية) قد فشلت، ماذا تقترح / تقترحى عمله فى مثل هذه الحالة ؟ ..

كانت الحملة الصحفية ، فكرة التوجه إلى يساريين لفحص ما إذا كانوا لم يخطئوا ، كانت تعبيراً عن التفكير الاستراتيجى الذى كان ومايزال عامًا ، وشاملاً فعلاً أيضًا فى اليسار وفى اليمين : الهجمات الإرهابية هى نتيجة لسياسة تصالحية فى حين أن استراتيجية محاربة الإرهاب والحماية منه تستوجب سياسة يمينية .

وكان هذا الاتفاق الإجماعى هو إحدى الكوارث التى جلبها " اليسار الصهيونى " على نفسه . وقد جاءت أبرز مظاهره وسوف تأتى بالتأكيد فى وقت الانتخابات . عندما يكشف

استراتيجيو حزب العمل وميرتس عن رأيهم بأن هذا معطى مضمون ، من ناحيتهم ، فإن هجومًا خطيراً فى موسم الانتخابات هو مكسب خالص لليمين . كما أنهم قالوا إنه ليس هناك ما يمكن عمله ضد هذا ، ولن يفيد أى عمل إعلامى . ولم تسجل أراء أخرى من جانب زعماء سياسيين أو إعلاميين .

وتشكل إجابات من أجابوا على الأسئلة فى نفس الاستطلاع كشفًا للوجه الفكرى - النفسى لأبطال قصتنا " اليسار الصهيونى " . وبمصطلحات تحليل السلوك السياسى ، تعكس هذه الإجابات خريطة مفاهيمهم التى تعكس هى ذاتها العالم الذى عاشوا فيه . فى أي عالم يعيشون ؟ وقد أجريت لكلامهم تحليل " تعقد إدراكى " . وهذا مفهوم شائع فى السيكولوجيا النفسية والذى يعرف بأنه " كمية ومجموعة القوى الثقافية التى يحملها الإنسان عندما يشرع فى تحليل وضع وحل مشكلة ملموسة " . وطبقًا للافتراض الشائع فى هذا المجال ، كلما كان كم " القوى الثقافية " المتمثل فى اهتمام بمعطيات فى مجالات مختلفة وفى جوانب مختلفة وليس موضوعًا واحداً فقط كلما كان أكبر بكثير - فبالتالى تميل الحلول إلى أن تكون أكثر ملاءمة للواقع . وكلما كان الكم أقل ، فإن الحلول تميل أن تكون أكثر تطرفًا وسطحية ، وكنتيجة لذلك معادية للتغيير ومخطئة وأكثر خطورة . وقد قمت بتحليل التعقد الإدراكى كتعامل مع ثلاثة أبعاد أساسية للواقع الذى يعيش فيه رجال " اليسار الصهيونى ".

- بعد الأمن الشخصى والإرهاب ، الأمر المعطى والمقدم مباشرة فى السؤال .

- بعد العلاقات مع الفلسطينيين فى المناطق . العلاقات بين حكام ومحكومين ، التى يتطلع " اليسار " حسب كلامه ، إلى إنهائها .

- بعد العلاقات مع الطرف الثانى ، اليمين ، فى الصراع على الحكم ، الجوهر الديمقراطى، الحدود ، النفس ... إلخ .

وقد شمل التحليل فحص هل وإلى أى مدى تُوجد فى كلام الذين أجابوا على الأسئلة من " اليسار الصهيونى " أية إشارة إلى أحد هذه الأبعاد . جميعهم تطرقوا بالحديث إلى مشكلة محاربة الإرهاب . " التعقد الإدراكى " لدى أكثر من نصفهم كان ضعيفًا جداً . فعندما يشرعون فى تحليل وضع وحل المشكلة الاستراتيجية الإدراكية للهجمات الإرهابية تطرقوا بالحديث فقط إلى البعد الأول ولم يتحدثوا مطلقًا عن واقع كوننا المسيطر والحاكم وكوننا فى حالة صراع مع اليمين لكى نتحرر من هذا الدور القمعى .

وظهر فى هذا الاستطلاع " دعاة أمن خُلص وذوى بعد واحد ، الوزراء وأعضاء الكنيست من حركة " ميرتس " ، يوسى ساريد ، أمنون روبنشتاين ، ران كوهين ، يائير صبان ، وكذلك تسالى ريشف من حركة " سلام الآن " ، الذى انضم قبل ذلك بفترة قليلة إلى حزب العمل . وتحدثت شولاميت ألونى أيضًا إلى بعد حاكم - محكومين ، وبرز هذا البعد فى كلام حجاى مبروم وياعيل دايان " من حزب العمل " . وكانت ياعيل دايان واحدة من شخصيتين (السياسية الوحيدة) تحدثتا فى الاستطلاع عن الأبعاد الثلاثة ، بما فى ذلك بعد الصراع من أجل روح إسرائيل ضد الضم . والشخصية الثانية هو يشعياهو لابفوفيتس .

ولم يكن لدى رجال " اليسار الصهيونى " مثل المؤرخ يعقوب طالمون . الذى كان قد توفى منذ بضع سنوات ، ومثل البروفيسور لابفوفيتس الذى توفى بعد تلك المقابلة الصحفية بفترة طويلة - لم يكن لديهم شك ماذا ومن المسئول عن خلق وتهيئة ظروف للإرهاب ، وا الذى يجب عمله لحماية الدولة من الإرهاب . ومثلما رأينا فى " وثيقة طالمون " كتب هو لبيجن أن " السعى لضم المناطق ليس فقط أنه لن يوفر لنا أمنًا بل سينهك وسيستنزف قوتنا للدفاع عن أنفسنا ضد عداء جيراننا " ثم أضاف وأوضح قائلاً :

" فلتسمح لى أن أقول على أساس بحث لعشرات السنين فى تاريخ القوميات أنه كلما كانت دوافعنا الذاتية قديمة العهد ، فريدة من نوعها أحادية المرة وأصيلة - فإن السعى إلى أن نسيطر وأن نحكم في أواخر القرن العشرين سكانًا أجانب - معادين مختلفين فى اللغة والتاريخ والثقافة . والدين ، فى الوعى وفى التطلعات القومية وفى اقتصادهم وفى بنيتهم الاجتماعية ، هو مثل محاولة إحياء الإقطاع "

" هذه ليست مسألة أخلاق . وهذا الأمر غير ممكن من ناحية عملية ، وغير مجد أيضًا بسبب الثمن ، مثلما تعلمت فرنسا ، فى الجزائر ... الوسيلة الوحيدة التى تؤدى إلى تعايش الشعوب معًا فى عصرنا هى ، بشكل ينطوى على مفارقة وبسبب خيبة أمل شديدة جداً ، الفصل بينها فالله نفسه والطبيعة والتاريخ ، قد قسموا أرض إسرائيل (فلسطين) قبل أن تقسمها قرارات البشر

يمكن القول أن أكبر حافز من ناحية قوته الذى يحفز أفراد ، طبقات وشعوب فى العصر الحديث هو معارضة ومقاومة وضع التدنى الذى ينتقل بالوراثة فتبعية شعب لشعب آخر ،

أى عدم مساواة سياسية ، يؤدى بالضرورة إلى تدن اقتصادى اجتماعى ، لأنه لأسباب تتعلق بتضامن قَبَلِي وخوف من أن يتكاثروا ويفوقوننا ، فإن الأمة المسيطرة لا تسمح للسكان الخاضعين لها بتعاظم قوة زائد عن الحد ... والجمع بين استيعاب سياسى وقمع قومى وتدن اجتماعى هو قنبلة موقوتة " .

وعندما حان وقت انفجار قنابل القمع القومى والتدنى الاجتماعى لم يتحدث الناطقون باسم اليسار الصهيونى لا عن هذا ولا عن ذاك . ومن أجل الدقة التاريخية ينبغى أن نشير إلى أن يائير صبان أحد رجالات الحزب الشيوعى وحزب مابام سابقًا ، قال إن المفتاح لوقف الإرهاب واستمرار المسيرة السياسية " موجود أساسًا فى يد الفلسطينيين " ، أى أنه أبقى شيئًا ما من المسئولية لنا أيضًا . ولكن النجم اللامع فى " اليسار الصهيونى " يوسى ساريد قال : "الاختبار على أرض الواقع سيكون فى قدرة عرفات على إقناعنا بأنه يقوم فعلاً بما يمكن". وقد سبق ساريد بذلك مقولة بنيامين نتنياهو : " إذا أعطوا سيحصلون ، وإذا لم يعطوا لن يحصلوا " . وألقي مهمة وقف الإرهاب على عاتق عرفات ، هذا هو العالم الذى يعيش فيه ساريد، وفى نفس المناسبة حملنا مسئولية استمرار أو وقف المسيرة السياسية التى يجب أن تُخرج إسرائيل من الاستعباد والقمع القومى والتدنى الاجتماعى ، الذى أوجدته ومنه جاء الإرهاب . هذا هو العالم الذى لا يعيش فيه ساريد عندما تفجر وكان دور " اليسار الصهيونى" حماية المسيرة السياسية منه .

إن الحقيقة الأساسية القاطعة ، المذهلة ، فى تاريخ مفاهيم الأمن لدى " اليسار " هى ، أن معارضى سياسة الضم لم يربطوا ، ولا يربطون حتى الآن ، الإرهاب ومشاكل الأمن القومى بسياسة الاستيطان والضم التى تستوجب إدخال الفلسطينيين فى وضع كان يريد فيه كل إنسان طبيعى أن ينتفض ويثور ، فإقامة مستوطنات مدنية فى مناطق معادية والخلط بين تجمعات سكانية ، إلغاء حواجز الحدود بين المناطق (الفلسطينية) وبين إسرائيل ومنع ما يعتبر فى رأى يعقوب طالمون " الوسيلة الوحيدة تؤدى إلى تعايش الشعوب معًا فى عصرنا . هى الفصل بينهم " .

وأنوى الادعاء هنا ، أن كل ما كان مطلوبًا لـ " اليسار الصهيونى " لكى يرسم حدود الأمن بالنسبة له هو حدود مادية وأخلاقية على خريطة مفاهيمه . فقد كانت لديه مثل هذه الحدود فكل ما هو مطلوب لبلورة استراتيجية أمن قومى وشخصى لم يكن سوى القليل من

المنطق السليم وحد أدنى من الاستقامة ، ولم يكن ذلك يتطلب أى خبرة استراتيجية أو حتى تاريخية . ولكن قبل أن استطرد ، أشعر بأننى ملزم بالإجابة على السؤال الذكى الذى لم أطرحه: " ماذا يجب أن يحدث لكى تقول/تقولى لنفسك أن العملية (أوسلو ، مسيرة التراجع عن سياسة الضم) قد فشلت ، ماذا تقترح / تقترحين عمله فى مثل هذه الحالة؟" وإننى أوصى كل واحد من القراء الذى يعرفون أنفسهم بأنهم مؤيدو المسيرة السياسية ومعارضو الضم (وأيضًا إذا أصبح لى ، بطريقة معجزة ما ، قراء من مؤيدى الضم) ، فليفعلوا لأنفسهم هذا المِران الثقافى ، ويسألوا أنفسهم هذا السؤال ويجيبوا عليه ، باسم الانفتاح والعقلانية .

وعلى ذلك ، فإن ما يجب أن يحدث ، فى البعد الأول ، محاربة الإرهاب ، لكى يتغير رأى هو أن يكشف جهاز الأمن العام (الشباك) أنه تحت غطاء البلاستيك لإحدى دفيئات الباذنجان فى قطاع غزة يقترب علماء السلطة الفلسطينية من تركيب قنبلة ذرية ، ما الذى اقترح عمله فى مثل هذه الحالة ؟ أن نقصف بالطبع . وأقترح ضد أعمال الإرهاب الأخرى التى تأتى من المناطق (الفلسطينية) ، أن نضع فى نهاية الأمر سياجًا وأن نغلق الثغرات .

وفى البعد الثانى ، القمع والاستبعاد السياسى والمعاناة الشخصية التى تخلفها سياسة الضم ، فإن ما يجب أن يحدث لكى أغير رأيى هو أن تقبل أغلبية الفلسطينيين فى المناطق أسس وجهة النظر الفكرية لـ " المعسكر القومى " . فإذا اعترفوا بحقنا الدينى والتاريخى فى أن نعيش سادة أرض إسرائيل كلها ، أو على الأقل كل أرض إسرائيل الغربية ، وإذا رحبوا بالحكم الذاتى الذى سنعرضه عليهم ويكونوا سعداء أن يعيشوا تحت حكمنا أو أن يحصلوا على أموال - ليس أكثر مما - يحصل عليه المستوطنون إذا أخلوا المستوطنات - وأن ينتقلوا إلى واحدة من الـ ٢٣ دولة عربية التى هى بحسب رأيهم " دولتهم " . ماذا سأقترح عمله فى مثل هذه الحالة (يجب أن اتبنى الخيال إلى أقصى حدود قدرتى) الاستجابة لرغبتهم بالحذر المناسب .

وفى البعد الثالث ، النضال من أجل أرض إسرائيل ضد المتعصبين ، ما الذى يجب أن يحدث لكى أغير رأيى ، هو أن يتبنى المعسكر القومى خطة مساواة مدنية وسياسية كاملة لكل سكان أرض إسرائيل فى كل مكان ، فى نابلس وفى الخليل وفى حيفا وفى تل أبيب وفى هاكريا وفي تل أبيب . في القدس وفى الكنيست وفى حقوق العودة والهجرة وفى المساكن وفى قوانين الزواج ، فى كل شيء ما الذى أقترح عمله آنذاك ؟ أن نصفح عن كل القتلة

والمحرضين المتعصبين . وأن نعانق ليفنجر والأخوة كتسوفر وفالرشتاين وبحمان وقطان وحنان بورات وإلياكيم هاعيتسنى وشامير وشارون ورفائيل إيتان ورحبعام زئيفى (ولكى لانمنع نساء تقليديات من المتعة ، نعانق أيضًا دانييلا فايس وليمور ليفنات وجيئولا كوهين وبلينا إلبيك) وبقية أوكار الضم الكبيرة - وأن نحتفل بانتصار فيروس اللاإنسانية.

للأمن بعدان ، قومى وشخصى . وباسم الأمن القومى يطلب المتعصبون مناطق ومجالات استراتيجية . والرمز المعترف به لهذا الطلب هو الاستراتيجى إريئيل شارون فوق الهضاب شرقى كفارسابا ، يشرح لضيوفه مشكلة الخاصرتين الضيقتين . وهناك تعبير بارز آخر هو وصف الكارثة التي ستحدث عندما تصل الدبابات السورية من مواقعها على نهر الأردن ، فى خلال ساعات إلى داخل قلب الجليل - (" انسحاب من الجولان يقرب السكين «المدية» من رقبة سكان الجليل " - عضو الكنيست عوزى لنداو ، ١٩٩٥) .

انتبه كثيرون فى " اليسار الصهيونى " إلى أن سياسة الضم تسببت فى إفساد المعايير الأخلاقية فى كل المجالات ولكن قلائل انتبهوا لمسألة أن هذه السياسة تسببت أيضًا فى تخويف عام ، وأن التخويف هو استراتيجيتها الرئيسية . واعتادوا بشكل عام استبدال سبب بنتيجة ويدعون أن إسرائيل تتمسك بالمناطق كضمانات استراتيجية ، بسبب ذكرى الكارثة النازية والمخاوف المتجذرة فى الروح القومية . ولكن الإجابة على السؤال : " هل المخاوف هى السبب للعدوان أو النتيجة ولضرورة أن نشرحه ونبرره لأنفسنا وللآخرين - نميل إلى الاحتمال الثانى - كالأشخاص الذين يخافون يميلون لتصرف الهروب عندما يكون لديهم خيار ، أى الجلوس فى هدوء والامتناع عن الاستفزاز ، وليس Fight القتال . حقيقة: قبل ١٩٦٧ وحتى قبل ١٩٧٧ ، عندما خفنا جميعًا أكثر بكثير وكانت هناك أسباب أكثر بكثير لأن نخاف ، كانت هناك تخويف أقل فى المناقشات السياسية الداخلية .

وإن أبرز نموذج فى مجموعتى ، للتخويف الغريب والمثير للسخرية من أجل سياسة الضم ، هو ذلك الذى نجد فيه موضوع ضم المناطق صريحًا تمامًا وليس مرتبطًا كلية بمصدر الخطر وهو ينتمى إلى كبير أبطال الحرب إريئيل شارون ، وقد حدث فى أجمل ساعات الخائفين : أزمة حرب الخليج والصواريخ العراقية . وقد وضع لمقال على صفحة كاملة فى صحيفة يديعوت أحرونوت ١٩٩٠/٨/١٧ عنوان : " تحذير أخير " ووجهه ليس إلى صدام حسين ، بل إلينا . ففى هذه الساعة التى أهاب فيها بالأمريكيين البدء فوراً بالهجوم " قبل أن يعتاد العالم على

ضم الكويت " (فى هذا الموضوع ، بالطبع ، يمكن الاعتماد على رأى خبيرة فى شئون الضم) فى نفس المناسبة يذكر لنا أن " ترك يهودا والسامرة (الضفة الغربية وغزة) معناه هدم جوهر المبرر والمسوغ والمنطق الذى يكمن فى إقامة إسرائيل " . هذه مقولة أيديولوجية ، ولكن المقولات الاستراتيجية أبرز :

"طرح احتمال أى تنازل إسرائيلى هو بمثابة جريمة أو حماقة ... تنازل عن يهودا ، والسامرة وغزة ، أو هضبة الجولان ، معناه تنازل عن قدرتنا للدفاع عن نفسنا ، معناه - استعداد فى الواقع للتسليم بالاحتلال الذى لا مفر منه عاجلاً أم آجلاً لدولة إسرائيل ... " احتلال " لا مفر منه " . هل هو تخويف بشكل كاف - لا ثم لا ، ويستطرد إريئيل شارون ويضيف " ... ومع القضية المادية والمطلقة والنهائية للوجود اليهودى فى أرض إسرائيل " . إذا رجاء لا تتهموا الكارثة النازية بأنها " الخوف الوجودى " . لقد حول إحياء الضم هذا المورد القومى ، الخوف ، إلى أغلى ذخر استراتيجى والأكثر استخدامًا لديهم . إن توقيت نشر هذا واستغلال أزمة حرب عالمية فى كل منطقة الشرق الأوسط . من أجل تقوية وتشديد القيود والموانع النفسية التى تحيط بأرض إسرائيل كلها يثبت أن الاستراتيجية الإقليمية هى نتيجة فقط لمصلحة الضم ووسيلة لهدف الضم . ولايمكن أن نقيس هذا ، بالطبع ، ولكن يمكن أن نقدره . وطبقًا لمعرفتى لشخصية شارون ، فإن هذا لديه ٩٥٪ ضم و ١٪ كحد أقصى خوف من مشاكل أمن .

هناك إغراء كبير للسخرية من هذه المبررات اليوم ، حيث لم تعد توجد دولة عظمى مثل الاتحاد السوفيتى تقف وراء القوة العسكرية للدول العربية وهناك سلام مع مصر بينما الدبابات جيدة أساسًا لقمع أناس عزل لا حامى لهم وليس لديهم سلاح فعال ، كما هو الحال فى ميدان تياننمين فى بكين أو فى المناطق (الفلسطينية) ، عندما دفعوا بها إلى موقع إطلاق نار أثناء الاشتباكات بعد أن قام رئيس الحكومة نتنياهو الأول بفتح " مغارة ، حائط المبكى " ، وعندما تتقدم الدبابات السورية من هضبة الجولان فإن طائرات الهليوكبتر الهجومية الإسرائيلية ستصطادهم من الجو مثلما يصطاد ملاحظو المحميات الطبيعية أفيالاً فى أفريقيا . وفى حرب صواريخ ذات مدى يصل إلى آلاف الكيلومترات وفى وضع سيطرة مطلقة لإسرائيل على المجال الجوى فى كل المنطقة ، وفى واقع نظرية سلام أمريكا Pax Americana - ، وفى واقع يعرف فيه أعداؤنا " أن لدينا أسلحة دمار شامل - فإن حدود المجالات الاستراتيجية هى نكتة ، دعابة .

كما أن حدود المفهوم المتعصب هو دعابة فى هذه الحالة : فالمتعصبون قادرون على أن يتصوروا وضع سلام عملى ، ولكن ليس وضعًا لا يصبح فيه من أقاموا معنا سلامًا " أعداؤنا" الذين يهددون بإبادتنا (" من الذى يضمن هذا ") (تُسلم ذخائر استراتيجية فى مقابل قصاصة ورق " ... إلخ) . ولكن ما يستحق نقاشًا جديًا فيما يتعلق بحدود الأمن القومى لدى " اليسار الصهيونى " هو حقيقة أنه لم يثر التناقض الجلى بين ادعاء المجال الاستراتيجى والاستيطان فيه . فهذه لم تعد دعابة ، هذه مأساة .

وفيما يتعلق بالاستيطان فى المجال الاستراتيجى لم يعد يمكن طرح أية ادعاءات أمنية ، فإذا كنا ندعى أن المجال الاستراتيجى مطلوب بالنسبة للتجمعات السكانية فى الجليل لايمكن أن ندعى إنه مطلوب بالنسبة لمستوطنات الجولان أو لمستوطنات غور الأردن . إن هذه الذريعة للاستيطان هى ذريعة مكشوفة إلى درجة أن حقيقة أن " اليسار " لم يستغلها يجب أن تذهل المؤرخ . ويمكن الادعاء ، بقدر من المنطق ، أن المجال الاستراتيجى فى جنوب لبنان مطلوب للدفاع عن التجمعات السكانية فى الجليل ، طالما لا توجد فيه تجمعات سكانية مدنية . فلو كانوا قد بنوا مستوطنات فى هذا المنظر الطبيعى الخلاب الذى يأخذ بالألباب ويحبس الأنفاس الذاخر بجداول المياه فى ذلك الجليل الأعلى الشمالى " (إننى لم اخترع هذا المصطلح ، بل استخدمه تشفى شيلواح ، وهو من مؤسسى " حركة أرض إسرائيل الكاملة " فى فترة حرب لبنان ، وهناك أيضًا لم يكن كل موضوع الاستراتيجية وحراسة التجمعات السكانية فى الجليل سوى خدعة لغرض الاستيطان .

وماتزال هذه الحقيقة المذهلة فيما يتعلق بـ " اليسار الصهيونى " وحدود الأمن والمجال الاستراتيجى أقل إثارة للذهول عن موقفه بالنسبة لمحاربة الإرهاب . فطبقًا للمفهوم الطبيعى لـ " اليسار الصهيونى " (مثل ذلك الذى عبر عنه يعقوب طالمون وكثيرون آخرون) كان يجب أن يكون واضحًا أن الاستيطان وسياسة الضم قد أوجدا الظروف للإرهاب و " مأزق " وجود قطاعين من السكان قامعين ومقموعين ، بدون حدود بينهما ، والملصق المنتشر على مصدات سيارات والذى يقول " يهودا والسامرة هذا هنا " معناه المفهوم من تلقاء نفسه هو أن إرهاب يهودا والسامرة هو هنا ، وأن " هنا " هذا مثل غزة ، نفس الدولة شيئًا ما يماثل ملصق "الإرهاب يأتى من المناطق " أو " يجب أن نغلق حدود الدولة أمام الإرهاب " . لم يظهر على

الطرق أو فى تفكير شخص ما معروفًا لدى إن " اليسار الصهيونى " لم يعبر عن ما كان يجب أن يكون الحقيقة المجردة والبسيطة فى نظره ، لا بالأقوال ولا بالأفعال ، وكما يبدو أيضًا ولا بالأفكار

وفى ليل سرقات نهاراً وليلاً وأعمال إرهاب كثيرة ومتعاقبة ، فإن أى مجلس إقليمى لمستوطنات بالقرب من " الخط الأخضر " لم يطلب إغلاق الحدود لديه . وكان منفذو الإرهاب واللصوص يأتون من وراء الحدود (أو كان يجب أن يكون حدود الدولة بمفاهيم " اليسار ") التى كانت ومازال مفتوحة ومخترقة ليس لمرور الأشخاص فقط بل أيضًا للسيارات . فعندما مارس حامل سكين فلسطينى نشاطه فى منطقة تعناخ ، لم تطلب المستوطنات المجاورة أن يضعوا حدوداً ويغلقوها فى الجزء الخاص بهم ، ولكن تواجد حراس أمن قاموا بعملية انتقامية على غرار حرب العصابات ضد سكان فى الطرف الثانى . ويتضح أن طالمون لم يخطىء أيضًا فى موضوع إحياء النظام الإقطاعى

ولم يحتج رجال المجلس الإقليمى مجيدو عندما نقلوا معسكر انصار -١ (معسكر المعتقلين من المناطق الفلسطينية) إلى شرطة مجيدو فى أراضيهم . لماذا كان يجب عليهم أن يأكلوا ما طبخه المستوطنون فى المناطق ؟ - إنهم لم يتصوروا هذا السؤال ، بحسب رأى، لأنه على الرغم من معارضتهم النظرية لضم حدود هويتهم فإن حدود الـ " نحن " قد أحاطت بكل أراضى إسرائيل وكل الإسرائيليين بما فى ذلك المستوطنين . وفى مشمار هاعميق ، بدون أن يتواجد فيها من قاموا بالاحتجاج ، شربوا فى عيد الحرية ١٩٩٠ خمر الخليل وحتى إن لم تتفقوا معى أن هذا محزن لكنه حقيقى .

ولقد ضُرب معارضو الضم مرتين : على أيدى الإرهاب ، مثل الجميع ، وأيضًا كنتيجة لأن النقاط السياسية الحاسمة من الإرهاب جمعها أولئك الذين قادوا إليه وفتحوا له كل الأبواب، وهذه حقيقة لست قادراً على تفسيرها إلا بأن " اليسار الصهيونى " خاف فى الحقيقة طوال الوقت من احتمال مهاجمة الاستيطان وأيديولوجية " حق اليهود للاستيطان فى أرض إسرائيل"، أكثر من الخوف من الإرهاب ، وبالطبع خاف من المواجهة ضد الضم أكثر من الخوف من أن يخسر فى النضال ضده .

وفى الموضوع الاستراتيجى لست أرى أى مفر من الاستنتاج الذى مفاده أن المواجهة العسكرية الشرطية لأعمال الإرهاب ، مثلما حدثت ومازال تحدث ، استوجبت إغلاق الحدود بيننا وبين المناطق (الفلسطينية) . هذا أمر يحتمه الواقع ، لكن كان هذا سيعطى المستوطنين وكل الجمهور الإحساس بأن يهودا والسامرة (الضفة الغربية وقطاع غزة) هى يهودا والسامرة وهنا هذا هنا وتوجد حدود . وكان هذا يذكر الجميع بأن الإرهاب جاء من المناطق ويؤدى إلي أن يخطر على البال ، حاشا لله ، الفكرة التخريبية بأنه جاء بسبب المناطق وإنه إذا لم تكن هناك مناطق لن يكون هناك إرهاب .

لنفترض أن المجال الفكرى ، حقيقة أن الإرهاب كله جاء نتيجة للقمع ، مسألة وجهة نظر محل خلاف . فالمستوطنون ، لايوافقون ، بالطبع ، على وجود هذه العلاقة بل مثلما كتب الحاخام يوئيل بن نون ، " لقد كسبوا رزقهم بكرامة فى داخلنا وقد دمر للإرهاب الفلسطينى كل هذا وتقع عليهم مسئولية كل ما سيحدث " (صحيفة يديعوت أحرونوت ١٩٩٤/١/٢٩) ولكن فى المجال الاستراتيجى ليس هناك مطلقًا مكان لخلاف أيديولوجى ، بالضبط مثلما أن أحداً لا يعترض على أن هناك ضرورة لإغلاق قفل البيت خشية اللصوص أو أن نُسيج جيداً المطار ضد إرهابين محتملين وفحص كل من يدخل . والحقيقة هى لمن مايزال غير مقتنع ، أن المسئولين عن الأمن فى الدولة كانوا يفرضون إغلاقًا بعد أعمال إرهاب أو فى ظروف تحذير خطير أو حتى لكى نحتفل بأعيادنا فى فرحة وراحة وهدوء . وعندما اتجه رابين إلى سياسة الفصل ، بشكل متأخر جداً أكثر مما يجب ولعدم وجود خيار بسبب الأعمال الإرهابية التى استغلها اليمين للدعاية ضده ، حدث لأول مرة فى تاريخ تلك الفترة المذكورة ، تغيير فى ديناميكية مسيرة الضم. وكانت هذه هى الخطوة الأولى ، خطوة صغيرة ، مثلما قال طالمون نحو " السبيل الوحيد لتعايش الشعوب معافى أيامنا - الفصل بينهما " ، من ناحية الهجمات كان هناك شعور عام بأن الفصل حقق هدفه على الرغم من أنه لم يكن كاملاً . وقد شكل رابين طاقمًا وزاريًا لإقامة سياج الكترونى لم يتم بناؤه حتى اليوم .

لم يكن يجب الانتظار ولو حتى يوم واحد لكى ندرك أن المستوطنين سيهاجمون سياسة الفصل . وقد كتب الحاخام يوئيل بن نون ، وهو مستوطن ذو صورة معتدلة فى دوائر اليسار بسبب الكلام الذى كتبه بعد اغتيال رابين - كتب فوراً فى صحيفة يديعوت أحرونوت (١٩٩٤/١/٢٩) قائلاً : " الفصل هو حرب " ويستحق هذا المقال تحليلاً كاملاً لكى نقترب

من فهم النفسية المتعصبة . خاصة لأنه تبدو فيها أنماط التفكير الثابته عن نحن أحيار ورفيقو المشاعر " و " أعداؤنا " يقررون مباشرة الاستنتاجات الاستراتيجية بدون علاقة بالواقع وحتى بدون أى منطق داخلى في داخل أنفسهم وقد كانت محاربة الإرهاب هدفًا مشتركًا أعلى للجميع : رابين واليسار والمستوطنون . وعلى الرغم من ذلك فتح نون النقاش الاستراتيجى بشرح مسهب للغاية لجوهر وماهية اليسار الجديد ، الليبرالى ، المستنير ، الغربى " باعتباره زيادة لشيوعية ستالين ولينين ، وقال لقرائه " إذا كنتم تريدون فهم الواقع فلتبدلوا الكلمات : عندما يقولون " غداً " ، " مستقبل " ، " حلم رؤيا " ضعوا بدلاً من هذا الكلمات المتعارضة " . وبعد أن ميز على هذا النحو سياسة الفصل التى نادي بها رابين اتجه لشرح أن " فصل معناه حرب " ! لماذا ؟ " .

١ - فصل إلى أبعد الحدود غير محتمل بالطبع إذا استمر الفلسطينيون فى العمل فى داخلنا وأن يرقصوا على أسطح المنازل إذا قام أحد من إخوانهم بمهاجمة اليهود " - هنا فإن المبرر ضد الفصل هو طابع " أعداؤنا " السيىء وكراهيتهم . واستنتاج نفس حاخام المستوطنين هو أنه يجب إبقاؤهم بيننا وليس الانفصال عنهم ... " كما أن الانفصال غير ممكن مع تسيج جزئى ومع سرقة أعمدة واختراق السياج عمل يتم يوميًا بدون أى رد " وعلاوة على إدانة " أعداؤنا " بأنهم لصوص أعمدة وإدانة حكم " رفيقى المشاعر " (رجال حرس الحدود) الذين يمكنونهم من القيام بهذا " بدون أى رد " تجدر الإشارة إلى أن المؤلف لايتصور أن قراءه سيستخلصون من كلامه الاستنتاج العكسى (يجب العمل بسرعة على تسييج كامل وليس جزئيًا ، ومنع اختراق السياج والسرقات والرد بشكل مناسب بدلاً من عدم القيام بأى رد) .

وهناك أيضًا " الممر الآمن معناه حركة فلسطينية شبه حرة فى أوساطنا " كمبرر ضد سياسة الانفصال الموجه بعدم السماح لهم بحرية الحركة فى داخلنا . ويدعم هذا المبرر القول بأن الفلسطينيين " سيحاربون بكل قوتهم من أجل الربط بين غزة والخليل - مثلما حدث فى سنة ١٩٤٨" (التخويف كالعادة وكذلك عنصر " الزمن " فى المفهوم التعصبى . لتفهموا فى أى واقع يعيش) وقد كُتب هذا المقال قبل فترة قصيرة من الخروج من قطاع غزة ، وبذلك كان باستطاعة بن نون أن يكتب قبيل النهاية عزة أصبحت بيروت اليسار الإسرائيلى " . ويصعب علىَّ فى هذه النقطة حتى أن أفهم ما هو تفكيره . أى ما هى بيروت فى نظر اليمين

الإسرائيلي: هل أرض آباؤنا ، مثل غزة ، التي أخليناها بجريرة اليسار الإسرائيلي ؟ وكر مخربين ، كان يجب الدخول إليه وأن نبقى فيه حتى نقوم بتصفيتهم جميعًا ؟ .

....

لقد دفع مستوطنون كثيرون حياتهم من أجل سياسة عدم الفصل . فقد طلبوا لأنفسهم حق التحرك في كل مكان بصورة حرة ، كما هو الحال في تل أبيب ، وهكذا أصبحوا ضحايا كمائن في الطرق . وفي كل سنوات الضم لم يوجد أي استراتيجي يساري أو يميني في إسرائيل (باستثنائي أنا للأسف ، استراتيجي رغمًا عنه في السنوات التي كتبت فيها مقالات أسبوعية في صحيفة دافار ") طالب أن يدافعون عنهم ويحمونهم عن طريق الفصل بينهم وبين السكان في الطرق : بألا يسمحوا لهم بالتحرك بحرية في مناطق الحكم العسكري إلا فقط في إطار حركة يقوم الجيش بتأمينها . وليس لدى أي شك في أنه لو كان المستوطنون قد طالبوا بذلك " غاضبون " مثلما غضبوا في أوقات متقاربة من أنهم " يتخلون عن توفير الأمن لهم " لكانوا سيحصلون على مواكبة عسكرية وفقًا لما يروق لهم . إلا أن كل الحكومات التي كانت مستعدة لحمايتهم من الإرهاب لم تجرؤ على حمايتهم من أيديولوجيتهم .

وطبقًا لما أوردته وسائل الإعلام ، لم يكن لـ " اليسار " أي دور في قرار رابين عن سياسة الانفصال ، بل العكس . أولاً ، بسبب الهجمات ، ما كان يجب أن يكون انفصالاً ورسم حدود بدا كإغلاق عام ، كحصار . وقد عارض بعض المتحدثين باسم اليسار ذلك ، واعتبروا إغلاق الحدود عقابًا جماعيًا ومنع العمال من العمل . وفي الواقع لا يجب أن تكون هناك علاقة بين كلا الأمرين ؛ يمكن إغلاق الحدود والسماح للعمال بالمرور بعد إعطاء تصريح وتفتيش مثلما يسمحون بالمرور لكل سائح أو عامل أجنبي يدخل أو يخرج منفذو الهجمات لم يكونوا عمالاً، ببساطة : لم تكن هناك حدود ..

إن سياسة " الضفة الغربية هي هنا " استوجبت محو الحدود بين إسرائيل والمناطق (الفلسطينية) ومنعت قوات الأمن من مواجهة ناجحة وفعالة للإرهاب . أما كون " اليسار الصهيوني " لم يطلب إغلاق الحدود أمام الإرهاب فهذا يثبت أنه لم ينجح في الابتعاد والانفصال عقليًا وذهنيًا عن هذه السياسة . أو أنه نجح ولكنه خاف ، أو ببساطة فقد كلية

التوجه فى هذا المجال أيضًا بعد أن طُمست كل حدوده الطبيعية والأخلاقية وحدود الهوية الذاتية على خريطة مفاهيمه .

الأفكار فى اختبار الواقع : اليوم حسبما يقول الحاسب هو يوم الخميس ١٦ مارس ٢٠٠٠. فى كل مرة أضيف فيها ملاحظة متأخرة على النص الرئيسى أقول لنفسى أن هذه ستكون المرة الأخيرة ، وإلا فإن هذه الكتابة لن تنتهى ، ولكن من الصعب التخلى عن متعة تأكيد جديد من الواقع لأفكارك الـ " تاريخية ... فى الأيام الأخيرة كان دون وقوع هجوم عندما تم تفجير المخربين فى داخل بيت فى الطيبة التى تقع فى المثلث . وماذا كتبت وسائل الإعلام ، مع خريطة ملونة فى صحيفة يديعوت أحرونوت ؟ " المخربون مروا فى الطريق الذى تتوفر فيه الحركة إلى مناطق الضفة الغربية " . والمقصود بـ " الطريق الذى تتوفر فيه حرية الحركة " هو " الممر الآمن " ، للفلسطينيين بين قطاع غزة ومناطق الضفة الغربية ، والذى يناضل ضده الآن معسكر دعاة الضم (وبهذه فإن المخربين لم يمروا عن طريق " الممر الآمن " بل فى سيارة أحد المستوطنين من نيسانيت) . وكان يجب أن يتكون لدى القراء انطباع مفاده أن الممر الآمن الذى هو جزء من المسيرة السياسية ، هو المسئول عن الإرهاب (هو سبب الإرهاب) .

ولكن الأمر الجوهرى هو أن التغطية فى وسائل الإعلام تسمى الممر الآمن " الطريق الذى تتوفر فيه حرية الحركة " . وبعد ذلك يشار بسهم قصير وساذج إلى مسار الطريق الذى عبره المخربون من قلقيلية إلى الطيبة . ففى حين أن " الممر الآمن " ليس حراً وتقوم قوات الأمن الإسرائيلية بتفتيش من يمرون فيه ، فإن المنطقة بين قلقيلية والطيبة التى يمر فيها الخط الأخضر مايزال الطريق المفتوح وتتوفر فيه حرية الانتقال بعرض غير محدود ، وهكذا يحدث أن تزداد قوة الرأى العام القائل بأن الإرهاب يأتى من " مسيرة السلام " وليس من ضم المناطق .

٥ - تغيير الحدود الأخلاقية :

" أن تكون يهوديًا ، معناه أن تناضل ضد لامبالاة وعدم اكتراث الشخص المحايد ، إننى ضد الحياد ، فهو قريب جداً من الشر وسوء النية .... فاللامبالاة تهدم اللامبالى لأن معناها أن الإنسان ميت قبل أن يموت ، وليس هناك أسوأ من شخص لا مبالى ، لم يعد لديه إحساس، لم تعد لديه مشاعر ، لم تعد لديه أفكار ، لم تعد لديه طموحات ... "

" إننى مرتبط من أعماق قلبى بإسرائيل وكل ما يتعلق بإسرائيل يتعلق بى وهذا هو السبب فى أنه لايمكننى أبداً أن أوجه انتقاداً لإسرائيل " .

- إيلى فايزل ، عند حصوله على جائزة نوبل للسلام ، أكتوبر ١٩٨٦م .

أ - مدخل شخصى :

. هذا الجزء ، وكذلك الفصل التالى عن الانتفاضة ليس بحثًا تاريخيًا بل إجمال لأحداث كما فهمت وانعكست من انطباعى الشخصى . وقيمته التاريخية هى مثل شهادة شخصية ، فإذا شكك شخص ما فى مدى الدقة الواقعية أو مدى تأسيس وسندية الاستنتاجات يمكنه أن يستوضح الوقائع بدون صعوبة . فكل المصادر علنية .

وإننى أشعر واعترف بأن توثيق تغيير الحدود الأخلاقية فى السلوك وفى الوقوف فى مواجهة الفلسطينيين وفى مواجهة المتعصبين اليهود فى المناطق ، يتطلب منى أقصى جهد فى الحفاظ على الموضوعية ، فى اختيار الوقائع الوثيقة الصلة بالتحليل وفى التحليل نفسه. وهناك عدد من الأسباب لذلك ؛ أولاً : لدى تداخل شخصى ، وجدانى عميق طوال الفترة كلها. وتعود الأمور التى أحدثت لدى أشد هزة والتى تثير لدى أقوى رد فعل وجدانى حتى اليوم - تعود إلى موضوع النظرة الأخلاقية إلى " أعداؤنا " . وإننى مستعد لأن اعترف أن أخطاء موضوعية ومظاهر الأمر الذى يبدو لدى كحماقة سحيقة أو عمى أو شر وسوء نية فى المجال السياسى تثير لدى أسى أو سخرية ، ولكن أذى أو مساس جسدى أو سيكولوجى نفسى (عنصرية ، إهانة وسوء معاملة) بأشخاص ، أو أقوال تقود إلى مثل هذه الأضرار تثير لدى غضبًا ويأسًا أنجح كيفما اتفق فى كظمهما ولكن بصعوبة .

ثانيًا : إن المحاكمة الأخلاقية التى أحاكم بها " اليسار الصهيونى " تتعلق بكل فرد وليس بصناع السياسة فقط .

ثالثًا : فى حين إن الحماقة والخطأ والتجاهل ليست جريمة ، إلا أنه فى مجال النظرة إلى البشر يمكن بسهولة أن تنزلق إلى جريمة ، وإننى أرى الكثير من المجرمين بين الشخصيات المعروفة والمعلومة لى ، إذا أراد أحد ما ذات يوم أن يحاكمهم . رابعًا : البعد الأخلاقى هو البعد الحاسم والفيصل فى شئون النزاع كله وفى كل مكون من مكوناته . وإذا عبرنا عن هذا

بصورة لاذعة ومباشرة : إننى انظر إلى إسرائيل مثلما ينظرون إلى عاشق أو معشوقة انحدرا إلى سلوك منحط ، وفى نظرى ، بلادى لا تحتاج إلى سلام مع أعدائها (أعداؤها عاجزون ولا حول لهم ولا قوة فى مواجهتها) لأن أكبر خطر على وجودها هو خطر فقدان روحها الأخلاقية . إنها لم تعد تحتاج إلى آمال أو " ثقافة " أو صحة أو قوة ، فلديها ذلك ، إنها تحتاج إلى العودة إلى الطريق السوى أما كل الباقى ، فى النظرة ، فليس مهمًا حتى اليوم الذى يتحرر فيه آخر ممثلى الحكم الإسرائيلى من وظيفته ودوره كمتحكم فى مصير آخر الفلسطينين فى المناطق وحتى تعاد آخر أصفاد البلاستيك والطلقات المطاطية وآخر الهراوات إلى المستودعات وتتحرر إسرائيل من دور الدولة التى تمنع الفلسطينيين من حق تقرير المصير والاستقلال .

ولتجسيد ذلك : إلى أى مدى مهم أن نعالج الآن المشاكل المؤلمة فى مجال البطالة والتعليم والإهمال الاجتماعى التى يتحدث الجميع عنها ، والذى أحد رموزها هى مدينة أوفاقيم فى النقب ؟ ما هى أكثر مشاكل أوفاقيم إلحاحًا ؟ ما هى المتغيرات التى تحول المدينة أو قرية أوحى إلى مكان من الجيد العيش فيه ؟ - بحسب رأى ، هذا شىء ما مرتبط بما حدث فى سنة ١٩٩٠ ، بعد ثلاث سنوات من نشوب الانتفاضة . فقد وصل خمسة من الضيوف الإسرائيليين إلى المدينة من عين ماهل بالقرب من الناصرة ، وجميعهم من خريجى التعليم الرسمى فى إسرائيل ، وناموا فى شقة استأجرها من أجلهم المقاول الذى يقوم بتشغيلهم ، وسياق الحديث يستوجب ، فى هذه الحالة الإشارة أيضًا إلى أصله : إنه يهودى . وقد كانوا هناك لتنفيذ مهمة قومية صهيونية ، وهى أن يقوموا على عجل ببناء شقق لجماهير المهاجرين الجدد الذين وصلوا من الاتحاد السوفيتى الذى سمح بهجرة اليهود . وقام غوغائيون مسلحون بالعصى (جميعهم من خريجى جهاز التعليم الإسرائيلى) بمحاصرة شقتهم مرددين صيحات " عرب أخرجوا من هنا " وقسم من هؤلاء الغوغائيين كان قد صعد على سطح المبنى لكى يقتحموا شقتهم من الشرفة . وقامت الشرطة بتخليص هؤلاء الضيوف ونقلتهم إلى خارج المدينة ولم يعودوا إلى هناك . ولم تعتقل الشرطة أحداً من السكان المحليين . كما أن وسائل الإعلام لم تفعل من هذا أمراً كبيراً . وبالنسبة لـ " اليسار الصهيونى" لم يقف أحد من أعضاء الكيبوتسيم فى الجوار (أوريم ، ماجين ، نيرعوز ، كيسوفيم ، نيريم) لم يقف فى موقع احتجاج فى وسط البلدة مع صندوق جمع تبرعات لتعويض الضحايا ونية لترسيم حدود أخلاقية . حتى هنا وقائمة

الصامتين وغير المنفعلين هي لا نهائية ، من رئيس الدولة وحتى معاهد البحوث والتعايش والسلام وعلى اختلافها . ولكن في سدوم كانت لديهم نظرة إلى الضيوف وأهم مشكلة لسدوم لم تكن اقتصادية أو اجتماعية . ورأيي الشخص القاطع هو أن مشاكل أوفاقيم الخطيرة وهي هنا كمثل لكل مكان آخر في البلاد لن تحل ما لم يتغير المناخ الأخلاقي في أوفاقيم .

(وإذا كنت قد اعترفت بتوارد الخواطر الذي كان لي مع سدوم التوراتية (نسبة إلى التناخ) ، فإنني واثق بأنه لم يكن فيها عشرة فقط بل عشرات ومئات صديقيين مثلي أشخاص لم يضروا أحداً وأن موضوع معالجة وضع الضيوف الذين جاءوا إلى المدينة أثار لديهم اشمئزازاً عميقًا . وهم لم يتفرغوا للقيام بشيء ما ناجح في هذا الشأن) .

إن السلوك الأخلاقي هو دائمًا سلوك أفراد ولكن رد الفعل بشأنه هو ظاهرة اجتماعية . ففي اللحظة التي عرف فيها أمر هذا الجرم ، يصبح المجتمع كله مسئولاً عن رد فعله بواسطة قوانينه وسلطاته . وفي اللحظة التي يعرف فيها رد فعل الجمهور والحكم وهو ذاته رد فعل غير أخلاقي ، يصبح كل فرد مسئول عن رد فعل على رد الفعل الحكومي . في معظم الوقت، لا يأخذ معظم الأشخاص على عاتقهم هذه المسئولية (في حالة واحدة يذكر رد فعل جماهيري قوي بشكل خاص لدينا اضطر السلطات لاتخاذ رد فعل قانوني وأخلاقي : " مظاهرة الأربعمائة ألف " التي طالبت بتشكيل لجنة تحقيق رسمية للتحقيق في المذبحة التي ارتكبها مقاتلو الكتائب اللبنانية ضد الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا في سنة ١٩٨٢ ، وفي سنة ١٩٨٤ كان هناك رد فعل أخلاقي قوي من جانب شخصيات عامة ألزم بتشكيل لجنة تحقيق في أحداث " خط أتوبيس ٣٠٠ " ، قتل أسير) .

وقد اخترت في هذا الفصل التاريخي عن تغيير الحدود الأخلاقية إيراد القضايا التي اعتبرتها الأكثر جوهرية لترسيم المستوى الأخلاقي للجمهور والمجتمع الإسرائيلي . وحاليًا ، في محاولة لإلقاء نظرة إجمالية إلى الوراء ، بحثت لكي أنظمها وأضع لها طريقة لأوضح العوامل المؤثرة على مدى خطورة ومدلول الأحداث المختلفة على صورة دولة إسرائيل . وسأوضح لاحقًا معايير للتقدير / الحكم على المدلول والمغزى الأخلاقي للأحداث بالنسبة للمجتمع وللدولة .

ب - أسس نظرية عامة : تشريح الضمير وخصائص الأخلاقيات الاجتماعية لدولة فى حالة الحرب :

الضمير هو جزء عضوى ، ذلك العضو في التوجه الذى يقول للإنسان ما إذا كانت الخطوة التى قام بها أو يخطط للقيام بها ، أو قام بها آخرون ، هى خطوة صحيحة أو غير صحيحة عادلة أو غير عادلة ، خير أو شر ، إنه عضوى أيضًا بهذا المدلول : لدى الإنسان الذى تطور بصورة طبيعية سوية ووصل إلى سن المسئولية الأخلاقية ، الضمير غير مرتبط بإرادة سيده أو سيدته . وكما أوضحت ذلك فى الجزء الأول ، فإن منظومة توجه اللاإنسانية تنجح فى أن تُحيد بصورة فعالة الضمير فى كل ما يتعلق بـ " أعداؤنا " لكن ليس لإعفاء المتعصبين منه من الاعتبار الأخلاقى ، أو من الحاجة لأن نشعر بأننا محقون وأن نعترف بأنهم يتصرفون طبقًا لما يمليه عليهم ضميرهم .

الضمير هو عضوى أيضًا فى هذا المدلول ، وهو أنه لايمكن اقتلاعه من إنسان طبيعى سوى. ولا يعترفون فى علم النفس وأيضًا فى القانون والعرف الثقافى بذريعة عدم الضمير أو عدم المسئولية الأخلاقية . (" إننى متأسف سيادة القاضى ، ولكننى فقدت ضميرى ، لا يوجد لدى .... ") . وفى هذا المدلول أيضًا فإن وظيفة التمييز بين الخير والشر لدى أشخاص هى وظيفة عضوية ، إن التعليم العسكرى بشكل خاص يفعلان الكثير لتحييد ولتفادى عمل الضمير الشخصى ، وتقضى كريزما الزعماء على قدرة استخدام الضمير لدى أنصارهم ، ولكن على ضوء الواقع الإنسانى والنظرية ، لايمكن أبداً اقتلاع الضمير من نفسية إنسان ، كما أن من يقول أنه لم يتصرف طبقًا لضميره بل نفذ أوامر فإنه تصرف طبقًا لضميره الذى أملى عليه تنفيذ الأوامر .

وللمحيط الاجتماعى القريب تأثير حاسم على رد الفعل والسلوك الاجتماعى :

" عندما يرى أشخاص أن آخرين يفعلون أشياء لا يجب أن تفعل ولا يعبرون عن معارضتهم ينشأ تآكل أخلاقى . ويعتبر التقصير المتمثل في عدم استنكار صريح وعلنى لعمل الشىء إعطاء للمشروعية وحتى أولئك الذين لديهم ميل لاستنكار هذا العمل ستواجدون فى وضع من الصعب مهاجمته بينما الآخرون الذين لديهم فى الأساس نفس المكانة ونفس القدرات على إصدار حكم أخلاقى مثلهم ، يدلون بسلوكهم أن الفعل مقبول فى نظرهم "

(جون سافينى وموراى سيلفر : قتل جماعى لأبرياء بضمير نقى . سوسيو سيكولوجى الكارثة (الهولوكوست) [(١)] .

ولدينا قال البروفيسور شلومو أفينرى فى نقاش علنى أن " عصيان مدنى هو الملاذ الأخير للحقير وأحيانًا ملاذ من يعتقد أن ضميره أفضل من ضمير الآخر (صحيفة هارتس ٢١/١٠/١٩٩٤) فلتتعمقوا للحظة فى مدلول ومعنى ألا يعتقد المرء أن ضميره أفضل كمصدر صلاحية أخلاقية ، فى حالة ما إذا أملى عليه ضميره شيئًا ما لا يتفق مع رأيه ويتعارض مع ضمير البروفيسور أفنيرى أو شخص ما آخر . والمدلول هو ألا تتصرف طبقًا لضميرك ، لضميرك (الذى ليس " أفضل ") بل بما يتعارض مع ضميرك أو ليس وفقًا لضميرك ... بدنيًا ، عضويًا وأيضًا قانونيًا . كل واحد يتصرف طبقًا لضميره وكأن ضميره "أفضل " لأنه هو ضميره ، الواحد والوحيد ، وفرض إلهى بمصطلحات دينية ، لايمكن بطبيعته أن يكون " أفضل " أو " أدنى " عن ضمير شخص ما آخر سواء كان هو أو هى يعترفان بذلك أم لا .

وتقاس خطورة جُرم الأفراد ويحكم عليه المجتمع بالمعايير الواضحة للغاية لبنود القانون ، كل جرم ورقعة أقصى سعر ملصقة عليه ، حتى كذا وكذا سنوات سجن . والافتراض هو أنه يمكن أن يوجد بين البشر أشخاص يرتكبون مخالفات مختلفة وهذا فى حد ذاته ليس مشكلة أخلاق اجتماعية . ومن أجل هذا هناك قانون ، ومجتمع ديمقراطى مثل أى مجتمع مستعد للدفاع عن نفسه ضد المخالفين بواسطة إجراء قانونى . فعلى سبيل المثال ، إذا قام بعض جنود بضرب وجرح شخص أعزل بهراوات فإن الجرم هو جرمهم ، وليس جرم المجتمع . وعندما يكون كل شىء سليم فإن هذه المخالفة تدرس وتقاس بالمعايير الواضحة لإجراء قضائى قانونى .

فى مقابل هذا ، ليس هناك معيار قانونى أو موحد لتقدير مستوى خطورة انحراف عن الأخلاقيات والقانون فى نظام اجتماعى وفى المجتمع . حتى أولئك من بيننا الذين يعون وقلقون بسبب تدهور أخلاقيات الحرب وحساسية المجتمع الإسرائيلى ليسوا جميعًا فزعين بنفس المدى من تلك الأحداث ومن تلك الأسباب . ولقد تأثرت بهذه الأحداث وجدانيًا بأشكال مختلفة من الشدة وبعد ذلك فقط قمت بتحليلها كمحاولة لاقتراح معايير لتقدير مدلول ومغزى الظواهر من ناحية خطورة المرض .

إن المعايير المتخذة هنا ، لتقدير خطورة ظواهر مختلفة للانحراف عن مستوانا الأخلاقى ، مبنية على عدد من المقاييس أو المتغيرات ، المقياس الأول يتعلق بعدد من النظم الاجتماعية المشتركة فى الظاهرة . والفكرة هى أن خطورة المرض فى الجسم القومى مرتبطة بعدد الأعضاء التى تفشى فيها الداء . وبحيوية تلك الأعضاء لأداء الجسم كله . فعلى سبيل المثال ، عندما تتعلق المخالفة بالوحدة المتورطة من قوات الأمن ، الشرطة أو الأجهزة السرية، يبدو لى هذا أقل خطورة عنه إذا كانت متعلقة بالمستويات التى تقرر سياسة الأمن.

وإننى اقترح أيضًا النظر بخطورة أكبر بكثير إلى تلك الظواهر فى النقاش الجماهيرى أكثر عنه من الحكم ، علي افتراض أن الجمهور فى إسرائيل هو الذى ينتخب الحكم ويؤثر على الحكم وهو مسئول ، أو جدير بالحكم الموجود لديه .

وهناك مقياس آخر هو سياسة الحكم والخوف من الحكم ، فالحكم هو السمة الرسمية للشرعية فى الدولة . والجرائم والمخالفات والتى ترتكب عن قصد من خلال خشية أن تتكشف وتعاقب (التنظيم السرى اليهودى . على سبيل المثال) ، هى ظاهرة أقل خطورة من المخالفات التى ترتكب من خلال إحساس بأن الحكم يتغاضى أو يتعاطف . وعندما تكون السلطات نشطة وحاسمة وصريحة فى المواجهة مع الجرائم المحتملة وفى استنكارها (على سبيل المثال ، جرائم الإرهاب العربى) ، فإن مدى شدة الخطر الأخلاقى وخطر انتشار وتجدد الظواهر أقل . وكلما كانت السلطات أكثر سلبية ، وترد فقط بعد حدوث الفعل ولا تعمل بشكل نشط وحاسم على منع ذلك ، فإن الخطر أكبر . والمقياس الثالث هو موقف الجمهور ، فجرائم ومخالفات ، بما فى ذلك جرائم ومخالفات أخلاقية ليست مخالفة قانونية (مثل التعبير عن مواقف غير أخلاقية وتأييد أعمال غير أخلاقية) تتم من خلال علم بأن الرأى العام يرفضها ويعارضها ، هى ظاهرة أقل خطورة من تلك المخالفات التى ترتكب من خلال إحساس بأن الرأى العام غير مكترث ، والوضع أقل خطورة عنه إذا ما ارتكبت هذه المخالفات فى جو متعاطف من جانب الجمهور . والدرجة الدنيا للتدهور نحو هذا المقياس هى مخالفة أخلاقية ترتكب جهاراً بدون أن يكون لدى شخص ما من هذا الجمهور ما يغير شيئًا ما .

رجال حركة " كاخ " نسفوا اجتماع "نساء يرتدين الملابس السوداء" فى القدس (يديعوت أحرونوت ٢٨/٦/ ١٩٩٠)

" لقد جئنا لنسف هذا الاجتماع وهذا ما فعلناه " .

هل لديك تفسير لماذا لم تعتقلهم الشرطة ؟ " بالتأكيد ، هذا يدل بالضبط على مدى كراهية الشرطة لهؤلاء النسوة اللاتى يرتدين ملابس سوداء وتتعاطف مع كهانا " .

وهناك عامل آخر وهو موقف النشطاء فى الدفاع عن الديمقراطية وعن حقوق الإنسان ، المنظمات والحركات والأشخاص الذين نتوقع منهم أن يكونوا " كلاب حراسة " للأخلاقيات العامة ، بما فى ذلك " اليسار الصهيونى " . وكلما كانوا أكثر نشاطًا وحسمًا وشجاعة . فإن درجة التدهور الأخلاقى للمجتمع أقل خطورة والأمل فى الإصلاح ، فى المقابل أكبر .

يوجد فى كل مجتمع عنصر الزعامة الروحية والمتمثل فى تلك الشخصيات التى تعبر عن مواقف أخلاقية والتى لرأيها ثقل كبير نسبيًا . وكلما تواجدت فى المجتمع مثل هذه الشخصيات ، فإن المرض الاجتماعى أقل خطورة . وأقصد شخصيات مثل ما كان مارتين بوبر فى الحركة الصهيونية ، وفى بلادهم توماس مان ، إميل زولا ، روميان رولان ، أندريه زخاروف ، نجيب محفوظ وآخرون . وربما إيلى فايزل كان يمكن أن يكون زعيمًا روحيًا من هذا القبيل لولا ، مثلما قال فى الاقتباس الذى أوردته فى بداية هذا الجزء ، إن الارتباط العميق الذى يملك عليه كل كيانه لإسرائيل حال دون قدرته على توجيه انتقادات إليها : الزعماء الروحيون بالمعنى الأخلاقى لا يقدمون تسهيلات للأقارب .

والمقياس الأخير هو مدى التبرير العلنى للمخالفات ، للأخلاقيات السياسية ، فإذا افترضنا أن " لجنة الحفاظ على الأمن " التابعة للمستوطنين تقوم بأعمال عقاب في القرى وتطلق النار على خزانات المياه على أسطح المنازل وتقلب بسطات البائعة فى الأسواق وتضرب المارة ، فإن هذه درجة خطورة واحدة . فإذا كانت الجهات السياسية التى تقف وراءهم تدافع عن أعمالهم أمام الجمهور فإن هذا أخطر . ولو كان الجمهور والدولة يؤيدان صراحة حق السكان اليهود فى المناطق (الفلسطينية) فى القيام بمثل هذه الأعمال ، فإن هذا سيعتبر أخطر ، والدرجة الدنيا للتدهور الأخلاقى على امتداد هذا المقياس كانت ستقبل لو تحولت مثل هذه الأعمال إلى مشروعة طبقًا للقانون .

وإننى أنوى بمساعدة هذه المعايير تقييم وتحليل بعض من الظواهر التى مررت بها وكلنا مررنا بها بشكل أو بآخر فى الفترة التى نحن بصددها .

" المسألة الرئيسية ليست المناطق ولا المحادثات السياسية ولا المؤتمرات الدولية ، بل هل نحن مانزال بشراً ؟ نحن الذين نجلس على رؤوس مليون ونصف مليون من البشر ، ونحبسهم ونجبرهم على أن يكونوا رهائن لأفكارنا عن التسويات ، نحن الذين نحتلهم ، والذين نضغط عليهم ونمرر حياتهم ، وحياتنا أيضًا – ولا نطلق سراحهم حتى يدفعوا لنا فدية قومية ومادية وسياسية ، وحتى تبلد الحواس غير المبالى بالألم والظلم ، وحتى سجن شعب كامل فى دياره بدون كهرباء ومياه وخطر الإعراب عن الفرح ، بدون أن يرتاع أحد من هذه "الحملة" التى لا تصدق . فالأمر هو : احتلالنا وأننا محتلون ، وتعودنا على أن نتعود أن نكون محتلين، هذا هو الأمر. ليس الأراضى وليس المناطق . وليس السياسة . إنها بهجتنا – هذا هو الأمر . واتفاقنا العام بأن هذا لا بأس به . وأنه يمكن ، وإننا مضطرون لذلك ، وليس هذا فقط ، بل يجب أن نضغط عليهم أكثر وأن نحتلهم حتى القضاء عليهم- . " يزهار سميلانسكى" فى خطاب فى اجتماع " حتى هنا " تنظيم فاشل لعلمى جامعة تل أبيب ضد الاحتلال (صحيفة دافار ١٩٨٨/١١/٢٥) .

جـ – حدود التفكير الأخلاقى حول النزاع :

كما أوضحت من قبل كان موقف إسرائيل الأخلاقى الاستهلالى فى النزاع أنه ليست لنا مطامع احتلال فى حدود الخط الأخضر وإننا نمد يدنا للسلام لجميع أعدائنا من داخل هذه الحدود، ولكن فقط أن يعترفوا بنا ويدعونا نعيش فى هدوء . ولقد تضامنت أنا شخصيًا مع تلك الدولة ، والموقف الأخلاقى الذى أتاحته لى أن أفهمه كان مريحًا لى بالتأكيد واستطعت أن ألقى نظرة فى عينى كل عربى وأقول له : فلتعترفوا أنتم بحقنا فى الوجود فى هذه البلاد مثلما نعترف نحن بحقكم فى الوجود . وعندما جندت فى الجيش وأقسمت يمين الولاء للدولة ولقوانينها أقسمت يمين الولاء للدولة لأن هذا كان جوهر موقفها الأخلاقى فى النزاع وأن نظامها الديمقراطى ، مع كل عيوبه شمل رسميًا على الأقل كل سكانها .

وبما أن جوهر نظام الحكم وكل موقف إسرائيل الأخلاقى فى النزاع قد تغير مع سياسة الضم، من المهم أن ننتبه ونقول بصراحة مالم يقله اليسار الصهيونى ، صراحة أو على الأقل لم يسجل هذا ولم أجد أثراً لذلك فى النقاش الجماهيرى ، باستثناء لدى أشخاص " أخرجوا من

المعسكر " (نبذوا) وأولاً وقبل كل شيء يشعياهو لايفوفيتس . وإننى أقصد تعبيرات مختلفة لما بدا لى صحيحًا طبقًا لتعريف : لايمكن أن نصدق أن موقف إسرائيل الأخلاقى السابق كان عادلاً وأن نصدق أن موقف إسرائيل فى حدود الضم هو موقف عادل . ولهذه النتيجة أهمية " علة العلل " ، وأساس عدم القدرة على وضع حدود أخلاقية . فى كل الحالات الدقيقة للوقوف فى مواجهة جرائم حرب ومخالفات الأخلاق العامة التى جاءت من خلال ومن أجل سياسة الضم . فإذا لم يكن لدى الشخصية ما يكفى من الشجاعة للاعتراف بأن موقف الدولة فى النزاع غير عادل - فإن كل منظومة اعتباراتها وردود أفعالها الأخلاقية يجب أن تكون متأثرة بهذا العامل وأن تشوش أو تتفسخ .

والحقيقة التاريخية (الحقيقة التاريخية الحاسمة فى كل هذه الفترة فى رأيى) هى أن مواقف أخلاقية أساسية لمنطلقات فى المواجهة حول السياسة فى المناطق (الفلسطينية) لم تعبر عنها منظمات " اليسار الصهيونى " فى كل تلك الفترة . فعلى سبيل المثال ، المنطلق الذى يقول أن سياسة الضم سحبت البساط من تحت أقدامنا وقضت على الروح الأخلاقية للصهيونية . ولكى لا أعتبر ، حاشا لله ، غريب الأطوار فى المشهد الأخلاقى لأيامنا ، ها هو من يؤيد رأيى ، خمنوا من هو :

" مثلما نريد أن يكون الشعب اليهودى سيد نفسه ومصيره بدون أن يكون مرتبطًا (تابعًا) لآخرين يجب علينا أيضًا أن نرغب فى هذا أيضًا بالنسبة للعرب ... يحتمل أن تحقيق رغبة العرب فى حق تقرير المصير ستثقل على وضعنا عدة أضعاف ، ولكن لايمكن أن يستخدم هذا كأساس لسلب العرب حقهم ... كل قوة ليس لها أساس أخلاقى يتعذر إصلاحها " .

" وتكشف أحلام عن سياسة صهيونية للقوة ، لا تحرص مائة فى المائة على العدالة بالنسبة لحقوق العرب - تكشف ليس فقط غياب أى شعور استقامة بل أيضًا انعدام شعور بسياسة واقعية ، وإن الرأى العام العالمى ، الذى نحتاج لاعترافه وتعاطفه لصالح مشروعنا - سيطالبنا بالقطع بالنسبة لغيرنا بمدى من العدل مائة فى المائة " .

هل سمع أحد بيرس أو رابين أو حتى سياسى من " اليسار الصهيونى " يتحدث بهذا الشكل فى فترة الضم ؟ عن العدل ؟ عن " سلام عادل " ؟ .

فى حين أن هذا الشخص ، أيها الأصدقاء الأعزاء ، يقول أنه يجب علينا أن نطلب ، وليس أن نوافق فقط بدون أن يكون لنا خيار ، على أن يكون العرب سادة أنفسهم ومصيرهم ... وإلا ، إذا لم يكن هناك أساس أخلاقى لقوتنا لن يكون لنا صلاح " . ويجب عليكم أن تحرصوا على " العدل بالنسبة لحقوق العرب " وليس مجرد هذا فقط ، بل عدل مائة فى المائة" ... - وليست هذه غرابة أطوار ، هذا ما يفعله الحكم والقوة فى مقابل ما تفعله التبعية لحكم أجنبى وضعف الحاسة الأخلاقية ، وذلك لأن الشخص الذى كتب هذا الكلام عاش تحت حكم أجنبى وكنا آنذاك ضعفاء . كان هذا هو دافيد بن جوريون ، والاقتباس مأخوذ من خلال " نحن وجيراننا " ، سنة ١٩٣١ . وبعد ذلك تحول ليصبح ولم يعد يكرر هذا الكلام . ولكنه وصل إلي الحكم ونحن إلي الاستقلال ، وهذا هو فى نظرى مبرر لمصالح موقفه المعلن الذى كان عادلاً وليس هذا فحسب بالنسبة للعرب بل صحيح بالنسبة بمصالح الصهيونية (وبعد كل هذا نعتبر المستوطنين صهيونيين " ...) .

وبالمناسبة ، فى أواخر أيامه ، بعد الاعتزال ولم تعد القوة فى يده ، كشف بن جوريون عن موقفه ضد التوسع إلى ما وراء حدود الدولة ، دولته ودولتنا

د - حدود أخلاقية بين الإنسان وزميله :

إن الحدود الأخلاقية فى أي مجتمع هى الخطوط الخيالية التى تفصل بين التصرفات أو الأعمال التى يكون المجتمع مستعداً لقبولها باعتبارها شرعية وبين تلك التصرفات التى لا يبدى المجتمع استعداداً لتحملها ويعتبرها مخالفة للقانون أو للأخلاقيات العامة . فعلى سبيل المثال ، مستعدون لأن نسلم بقرط فى سرة عارية - ولا نسلم بثديين عاريين ، نحن مستعدون للتلسيم بالقول " يجب إطلاق النار على كل عربى يرفع حجراً ، ولسنا مستعدون للتسليم بالقول . يجب إطلاق النار على كل يهودى يرفع حجراً " ، إن حدود الأخلاقيات العامة مختلفة جداً ليس فقط من مجتمع إلى مجتمع بل تتغير إيجاباً أو سلباً ، مع أفعال أفراد . كيف يتحول سلوك أو تعبير غير أخلاقى لفرد إلى معيار أخلاقى للجمهور ؟ - المسيرة الديناميكية هى كما حدد ذلك أولئك الباحثون لظواهر الانصياع المدمر الذين أوردت أقوالهم سلفاً ، بأنه "عندما يرى أشخاص آخرين يفعلون أشياء لايجب أن تفعل ولا يوقفونهم ينشأ تآكل أخلاقى . والتقصير الذى يتمثل فى عدم استنكار صريح وعلنى للعمل السيء بفهم على أنه إعطاء شرعية " [١]. وقد كان مثل هذا الضبط المسيرة الديناميكية التى حددت تاريخنا ومصيرنا

فى الجيل الأخير بينما " الأفعال التى لا يجب أن تفعل " قام بها مستوطنو الخليل وسيبسطيا والحكم والجمهور و " اليسار الصهيونى " لم يوقفهم أصبحت لها شرعية كاملة .

ومن أجل الحيلولة دون حدوث تآكل فى الأخلاقيات العامة يجب أيضًا على أفراد أن يضعوا حدوداً أخلاقية بينهم وبين أولئك الذين يتعدون الحدود ، والحفاظ عليها ، وفى الواقع، يتم هذا عن طريق إقامة الدعوى على المخالفين ، أو نخرجهم من التنظيم أو نقاطعهم فى العلاقات بين الأشخاص حتى يعتذرون ويصلحوا الضرر الذى تسببوا فيه ، ولقد كان فى إسرائيل فى الفترة المذكورة ، كثير جد من مظاهر تصرف لفظى وغيره من جانب شخصيات سياسية والتى تعتبر بمصطلحات " اليسار الصهيونى " مخالفات للقانون والأخلاقيات السياسية . ولكن باستثناء كهانا الذى أصبح بمثابة كبش فداء لم يقترح أحد رفض شخص ما بسبب تحريض لارتكاب جرائم حرب ، جرائم ضد الإنسانية ، وترحيل/ ترانسفير ، وتعبيرات عنصرية ، بربرية وغيرها . وقد أوجدت هذه التعبيرات والتفوهات الطبقة الملساء فى المنحدر الذى انزلقت فيه الأخلاقيات العامة إلى أسفل . وقد وعظ الحاخام عوفديا يوسف رعيته (أتباعه) قائلاً " ليس هناك حيوان أسوأ من العرب " (هارتس ١٩٩٣/٣/٢٣) ولم يرد أحد، وأعطيت الشرعية الأخلاقية ، ولا يوجد فى إسرائيل عمومًا منظمة جماهيرية مثل رابطة مكافحة التشهير " فى الولايات المتحدة التى تتابع وتنشر بيانات عنصرية وتحريض عنصرى فى وسائل الإعلام العلنية .

وثيقة شاس :

أفراد فى وسائل الإعلام وفى السياسة ردوا بالطبع . وإلا لما كنت قد علمت بذلك ، ولكن أحداً لم يتخذ إجراءات . فقد أحاط حاييم حيفر الجمهور علمًا بعمل عنصرى فظ وجماهيرى وعلى رؤوس الأشهاد بنشره ذلك فى صحيفة يديعوت أحرونوت ١٨/ ١٩٨٨/١٠ باسم ناحوم بارنياع . وإننى أورد هذا بسبب أنه له ، بحسب رأى ، أهمية تاريخية فى تاريخ الأخلاقيات العامة فى إسرائيل بفضل الواقعية الكبيرة والصلة بالأحداث الجارية لمسألة اشتراك " شاس " فى الحكومة من أجل جلب " السلام " وإننى اقترح أيضًا ، من أجل الاستقامة والموضوعية ضم النص إلى خزانة الكتب اليهودية " التى يقرأ فيها " اليسار الصهيونى " .

" كخدمة للقارىء الذى لا تصل إليه المجلة الأسبوعية كوتيرت راشيت لسبب ما ، فإننى أورد مقطعًا من ملاحظات ناحو بارنياع " :

" صديق طيب ، والذى ربما قلق من أنه ربما أمضى أيام السبت فى إثم أرسل كراسة جيب بالألوان من إصدار حركة شاس وعلى الغلاف صورة الحاخام عوفيديا يوسف وشمعتين موقدتين وعنوانها " سبت مفعم بالسرور وأعياد سعيدة " وتتضمن الكراسة ترانيم وتراتيل وأناشيد أناشيد يوم السبت وطلبات مختارة وأغانى نادرة ... كلها لذيذة ، وغيرها . وفى الصفحة الاستهلالية يبارك الحاخام القارىء بالغنى والتكريم ويقترح عليه لصالحه تأييد شاس ... وفى الصفحة ١٤٧ فى الكراسة وجد صديقى الطيب شعر دينى جميل ، ومرتب طبقًا للحروف الأبجدية . لعيد سمحات توراه [١].

يوم نور لإسـرائيل	يوم ملعـون لإسـماعيل
يوم مـبارك لإسـرائيل	يوم اضطراب لإسـماعيل
يوم خـلاص لإسـرائيل	يوم شـتات لإسـماعيل

(إلخ ... إلخ .. حتى)

يوم خـيـر لإسـرائيل	يوم شـر لإسـماعيل
يوم سـلام لإسـرائيل	يوم كـارثة لإسـماعيل
يوم نصـر لإسـرائيل	يوم هزيمة لإسـماعيل

وقالت شخصيات عامة كثيرة أنه يجب إطلاق النار على كل عربى يرفع حجراً . وفى يوم الأربعاء ٢١ ديسمبر ١٩٨٣ فى الساعة ١٢,٤٥ قال نائب رئيس الكنيست عضو الكنيست مئير كوهين أفيدوف (الليكود) فى حديث فى إذاعة الجيش الإسرائيلى إنه يجب أن نطلق النار فوراً على كل عربى يرفع حجراً وقد سأله من أجرى الحديث معه . " ماذا . وهل تطلق النار أيضًا على أولاد صغار ؟ " فأجاب هذا الرجل العملى " ماذا تريد ، هل تريد أن نفتح معسكرات اعتقال للأولاد فى سن العاشرة ؟ وفى نفس الوقت تقريبًا صرح شمعون بيرس (وزير الدفاع الذى أقام مستوطنة سبيسطيا) قبيل فوزه المتوقع (بحسب رأيه) فى انتخابات ١٩٨٤ " نحن لا نرفض أحداً ". وعندما لا نرفض أحداً نعطى شرعية لكل تصرف إجرامى ونتسبب فى تدهور الأخلاقيات العامة .

---

١ - عيد سمحات توراة أى فرحة التوراة وهو اليوم الذى يحتفلون فيه بالانتهاء من قراءة التوراة

ولا تشمل معلوماتي حالة واحدة فقط رسم فيها شخص ما من " اليسار الصهيوني " حدوداً أخلاقية بين شخصية بعينها وبين المجتمع المعياري normative بسبب جريمة ارتكبتها شخصية بعينها على خلفية نزعة قومية متعصبة . وقد قامت بهذه المحاولة عضو الكنيست ياعيل دايان التي طالبت برفع الحصانة عن أعضاء الكنيست الذين أعربوا عن تأييد أو حتى حماس للعمل الذي قام به المستوطن يورام شكولنيك (بعد ذلك أدين وحكم عليه بالسجن المؤبد ، ويبحثون حاليًا الإفراج عنه)الذي قتل أسيراً مقيد اليدين والرجلين وكان راقداً على الأرض . وكان أعضاء الكنيست هؤلاء هم من الصف الأول هم رئيس لجنة الداخلية في الكنيست يهوشوع متسا (من الليكود) الذي دعا رئيس الحكومة ووزير الدفاع إلى تهنئة وامتداح المواطن الذي قتل المخرب في سوسيا " (صحيفة دافار ١٩٩٣/٣/٢٥) ، وعضو الكنيست موشيه بيليد (حركة تسوميت ، وأصبح بعد ذلك نائب وزير التعليم في حكومة نتنياهو) والذي كان أكثر تمالكًا لنفسه وقال فقط في الكنيست " في الفوضى السائدة في الدولة ، وحيث أن الحكومة لا تسيطر وتعمل قوات الأمن وأيديها مقيدة ، قام شكولنيك بعمل صحيح " . وكذلك رافول عضو الكنيست رفائيل إيتان (من تسوميت) وعضو الكنيست ليمور ليڤنات (من الليوكد).

وتجسد هذه الحالة مشكلة الانزلاق في منحدر الأخلاقيات العامة ، وذلك لأنه كان رفائيل إيتان وأيضًا لليمور ليڤنات من قبل " ماضيًا " لم يستحق عدم شرعية . فقد صرح رفائيل إيتان مع بداية الانتفاضة ، " بدلاً من مطاردة العرب بعُصي (هراوات) كان يجب على الجنود أن يطلقوا عليهم النار في الرأس " (يديعوت أحرونوت ١٩٨٨/٢/٢٩) ، وأيضًا " يجب أن يقتل على الفور كل عربي يتم العثور على سكين على جسمه " . ولي يتم العثور على سكين على جسم العربي ، يجب إجراء تفتيش ذاتي له ، أي أن ذلك العربي الذي يجب قتله على الفور يجب أن يكون أسيراً - بالضبط مثلما فعل شكولنيك وحكم عليه بالسجن المؤبد لهذا السبب . ولم يكن يمكن اتهام ليمور ليڤنات بالتحريض على القتل مثل رفائيل إيتان ، بل فقط بلواط أخلاقي والذي تمثل في تصريحها فيما يتعلق بتقرير منظمة الحفاظ على حقوق الإنسان « بتسيليم » ، والذي قالت فيه : " لم اقرأ تقرير " بتسيليم " ذلك أنني أشعر إذا ما قرأت ما يكتبونه هناك بأنني شريكة في الرذيلة الأخلاقية لهذه المنظمة وإنه ليصعب عليَّ أن استوعب كيف يشكل يهود طابوراً خامسًا في داخل دولتهم ، ويصعب عليَّ أنم أفهم كيف يقوم يهود على الوشاية بيهود آخرين " (صحيفة هارتس ١٩٩١/٥/١٠)

وكما ذكرنا ، لم تصرح أية شخصية عامة بأن ليمور ليفنات لا تستحق أن تكون فى جمهور متحضرين طالما أنها لم تتراجع عما قالته وتسحب هذا التصريح .

ولم تنجح عضو الكنيست ياعيل دايان ، بالطبع ، فى إصدار قرار برفع الحصانة عن أنصار القاتل شكولنيك فى الكنيست . ولكنها على الأقل وسمت الحدود ، وهى لم توسم تلك الحدود فى علاقاتها الشخصية مع ليمور ليفنات . حسبما ما هو معروف لى ذلك أن كلتيهما تظهران وتلتقط لهما صوراً معًا فى مجموعة الزعامة التى تقود المعركة لمساواة حقوق المرأة . ولم تُضر ليمور ليفنات بأى شىء فى مسار عملها السياسى ولا حتى فى دوائر " اليسار الصهيونى " ، بسبب كشف وجهها الأخلاقى .

ولم يقم زعماء ومنظمات " اليسار الصهيونى " بنبذ أى يهودى إسرائيلى (باستثناء ديك الفداء الحاخام مئير كهانا الذى اعتبرت حركته " كاخ " غير قانونية ولكنها ماتزال قائمة علنًا تحت أسماء مختلفة) من أولئك الذين أوردنا أقوالهم هنا لنماذج تحريض لتنفيذ جرائم حرب أو تحريض غير مباشر عن طريق تأييد هؤلاء الذين ارتكبوا جرائم على خلفية تعصب قومى (وهو ما يسمى بالإنجليزية الأمريكية " جرائم كراهية ") . وبالنسبة للتفوهات والتصريحات التى ليست بالضرورة مخالفة للقانون بل مخالفة فقط للأخلاق الإنسانية الأساسية ، " مخالفات " بهيمية أخلاقية من النوع الذى يبرر ويعلل جرائم ويفعل أشياء لاشرعية ، مثل ليمور ليفنات . لمن يحاولون منعهم من باب أولى ، وقد وفرت الانتفاضة نماذج كثيرة من هذا القبيل فور نشوبها وقد قال عضو الكنيست بانى شليطا الكلام الذى تردد صداه فى الفراغ العام " كان يجب أن نقتل فى أول يوم ٥ عربيًا وكان هذا سيضمن هدوءاً لثلاثين سنة " (دافار ١٩٨٧/١٢/٢٣) وكان يمكن أن نرى مخالفة لقواعد الأخلاق الإنسانية الأساسية وازدراء للشرعية ذاتها فى تصريح عضو الكنيست بيسح جروبر فى لجنة الخارجية والأمن فى الكنيست " أربما نجهز كل جندى بمثياق حقوق من يقوم بأعمال شغب ونعطيه تعليمات بأن يتلو على المشبوه حقوقه ؟ " . وكشف مئير كوهين افيدوف . الذى سُجل فى تاريخ شعبنا بأنه قلع عيون ومزق أمعاء بكلامه - كشف لمراسل سأله عن ذلك بأن هذا الكلام زاد من التأييد له فى فرع حزبه فى حيفا . والخلاصة نرجو أن يسجل فى تاريخ إسرائيل بأنه لم يُضر أى سياسى إسرائيلى فى عمله السياسى بسبب فرط بهيمية أخلاقية أو فرط تعصب إذا كان هدفهم "هم"، العرب ، ومحبيهم الخونة " وسائل الإعلام " و " اليسار".

هـ - حدود التفكير الأخلاقي في فترة ما قبل الانتفاضة :

حتى نشوب سياسة الاستيطان ، فإن حوادث جرائم الحرب وانتهاك حقوق الإنسان كان يمكن أن يقوم بها فقط رجال قوات الأمن . ومن هنا وحتى اليوم تشمل القوات المسلحة أيضًا مدنيين ومستوطنين . ففي السنوات الأولى لم يكن المستوطنون معروفين كجهة تشتبك مع سكان المناطق . وكانت صراعاتهم ضد قوات الأمن ، كما هو الحال في سبيسطيا وفي الخليل ، ثم بعد ذلك في إخلاء مستوطنة ياميت (في سيناء)

وقد وصلتني الأنباء الأولى عن أن المستوطنين ينتهكون بشكل منظم القانون والأخلاقيات العامة في تصرفهم تجاه العرب . في فترة قريبة من حرب لبنان ١٩٨٢ ، وهي الحرب التي شغلت اهتمام الجمهور أكثر بكثير من حركة إقامة المستوطنات التي بدأت في تلك الفترة حقًا إن الهجوم الإرهابي ضد رئيس بلديتي نابلس ورام الله في سنة ١٩٨ ولكن " التنظيم السري اليهودي " بين المستوطنين تم اكتشافه فقط بعد مرور نحو أربع سنوات . في سنة ١٩٨٤. والوثيقة الأولى التي حافظت عليها هي مقال بقلم تسفي برنيل في صحيفة هارتس (١٩٨٢/٤/٢٠) تحت عنوان " حديث مع مستوطن " وتوجد في هذه الوثيقة كل الأسس المميزة للتعامل غير القانوني وغير الأخلاقي من جانب جمهور المستوطنين والحكم العسكري التي تكشفت لاحقًا . وقد وصف الصحفي المتحدث بأنه صديق من إحدى المستوطنات بالقرب من القدس وسجل هذا الكلام على لسانه :

" أنا ، على سبيل المثال ، لا أطلق النار في الهواء إنني أطلق النار لكي أصيب إما ألا نطلق النار مطلقًا أو نطلق النار لكي نقتل . في الأسبوع الماضي عندما كنت متجهًا بسيارتي في طريقي إلى منزلي رشقوني بحجارة خرجت من السيارة وأطلقت النار " .

ولم يقل المستوطن ما إذا كان قد قتل في هذه المناسبة ولداً أو حاول فقط أن يقتل ، ولكنه أوضح أيضًا دور الجهة الثانية ، سلطات الجيش :

" بلغت الشرطة بأنهم رشقوني بالحجارة وأنني أطلقت النار وسألني المحقق هل أطلقت النار في الهواء ؟ فأجبته بأنني أطلقت النار لكي أصيب وقد سجل في شهادتي بأنني أطلقت النار في الهواء . ويبدو أنه لم يكن يريد توريطي

كما أنه لم يدع مجالاً للشك بأنه ليس " شاذاً " وأن المستوطنين يحسون بأن الجيش يهيىء في الواقع لتصرف إجرامي من جانب المستوطنين ، ويؤيد بذلك أن يكونوا جهة عقاب"

مستقلة وأن يعملوا طبقًا لـ قوانين خاصة بهم يأحدونها بأيديهم . وليس طبقًا لقوانين الدولة

" الزملاء يخرجون بين الحين والآخر وطبقًا للحاجة ، يطلقون النار قليلاً على نوافذ البيوت ويتصادف أن يمسكوا بشاب ما قام برشق حجارة ويحضرونه إلى المستوطنة ويضربونه قليلاً ثم ينقلونه إلى الجيش لكى يستكمل العمل ... هل تفهم ، الجيش أضعف من أن يتولى معالجة مثل هذه الحالات . فلديهم تعليمات لجان تحقيق ومحاكمات . وهذا يُمكِّن العرب من أن يرفعوا رؤوسهم . نحن نستطيع ما لا يستطيع الجيش القيام به ، وانطباعى هو أن الجيش سعيد بذلك"

من ناحية درجة الخطورة فى الجرم الأخلاقى يشترك جمهور منتظم ومتكتل له أيديولوجية متعصبة صريحة والقسم القريب فى منطقة قوات الأمن . ولم يأت رد الفعل الجماهيرى سوى بعد أن عقد ضباط احتياط خدموا فى المناطق (الفلسطينية) مؤتمراً صحفيًا وجاء فى العنوان فى صحيفة يديعوت أحرونوت (١١/٥/١٩٨٢) .

ضباط حركة " سلام الآن " : الجيش الإسرائيلى يفقد صورته الإنسانية بأعماله فى الضفة الغربية " : وفى أعقاب هذا جاءت المحاكمة المعروفة باسم " محاكمة التكدير " واتضح أيضًا أن الرتب العليا فى الجيش ، رئيس الأركان رفائيل إيتان وقائد المنطقة أورى أور ووزير الدفاع أريئيل شارون مشتركين فى هذا الجرم وانتهاك القانون فرفائيل إيتان كرئيس للأركان لم يطلق العنان بعد للسانه للتحريض على جرائم حوب مثل " ينبغى أن يقتل على الفور أى عربى يعثر على سكين فى حوزته " ولكن شهادته فى المحاكمة . وهو يقف فى صلف الواثق وراء تعليماته . برأت المتهم الرئيسى نائب قائد منطقة الخليل الرائد دودو موفاز قد اقتنعت المحكمة العسكرية بأن تلك فى الحقيقة هى التعليمات فلقد قال رفائيل . على سبيل المثال ، رداً على محامى أحد المتهمين أنه إذا قام الجندى رداً على استفزاز حركة بغيضة وأنزل نابوطًا على عربى وأرقده أرضًا إننى اتفق مع ما ذهب إليه ".

كما أن أنماط الرد المميزة من جانب الحكومة على الاتهامات تحددت آنذاك ، وكانت تغطية وهجومًا على من وشى . ولم يتفرغ وزير الدفاع شارون للتحدث مع الضباط ، ولكن المتحدث باسم وزارته أدلى بتصريح جاء فيه ان " المؤتمر الصحفى لم يأت الا لاذكاء ميول

وعواطف سياسية وتحقيق مكسب سياسى على حساب جنود الجيش الإسرائيلى والسكان فى يهودا ، شومرون (الضفة الغربية) وقطاع غزة

وقد اتضح فى المحاكمة ماذا كانت توجيهات رئيس الأركان لمعالجة أعمال الإخلال بالنظام فى المناطق وقد أثار هذا الصحافة . وعنونت صحيفة هارتس ١٩٨٣/٨/٢١) مقالها الافتتاحى بعبارة " وجه إسرائيل المتفسخ " ووصفت وثيقة تعليمات رفائيل إيتان بأنها " وثيقة مذهلة " وردت هيئة تحرير صحيفة هارتس وكأنها لم تكن لديها فكرة ولم يخطر على بالها ولم تتصور فى خيالها ماذا يجرى فى المناطق . كانت الوثيقة كما قيل " مذهلة " فى نظرها ، وكان " من الصعب عليها أن تصدق عند قراءة ما هو مكتوب" ... المكتوب هو:

" يأمر قائد جيش الدفاع الإسرائيلى جنوده بتكدير وطرد ونفى وتخطى القانون والقضاء ... وفى النهاية يعطى تعليمات بإطلاق النار على عرب بدون إشارة مطلقًا إلى التعليمات القائمة بالنسبة لإطلاق النار على مدنيين وبدون أن يؤكد مطلقًا واجب عدم القتل إلا لغرض الدفاع عن النفس . وبالفعل فإنه فى أعقاب تعليمات رئيس الأركان تلك وكلام وزير الدفاع بنفس الروح ، قتل فى الفترة الأخيرة عدد من العرب ، بما فى ذلك فتيان - أكثر ممن قتلوا فى المناطق المدارة منذ حرب الأيام الستة " .

وكانت أقوال وزير الدفاع شارون " بنفس الروح " التى وصلت إلي وسائل الإعلام هى : "أن نجتث لهم الخصيتين " (ليس بالمعنى اللفظى ، بالطبع ، بل بمعنى أن تكون أكثر وحشية وبلا قيود) . وتضمنت تعليمات رئيس الأركان أساسًا عقابًا جماعيًا ومعاقبة الوالدين .

وثيقة أهرون بيخر :

أبدى صحفى " يديعوت أحرونوت ، أهرون بيتخر ، فى كتاباته دائمًا حساسية أخلاقية وحساسية بالنسبة لسلوكنا الأخلاقى وقد ضمن ملاحظاته فى مقالة بتاريخ ١٩٨٢/١٢/١٩ نص شهادة جندى عن الخدمة فى المناطق (الفلسطينية) ، والتى نقلها عضو الكنيست شيفح فايس إلى رئيس لجنة الخارجية والأمن فى الكنيست ، وتصف هذه الشهادة تكديرات مميزة :

" أعلن إغلاق . وكانت التعليمات التى أعطاها قائد الكتيبة والضباط فى عدة مناسبات هى ضرب كل شخص يتجول فى الخارج واعتقاله فى حالة حدوث شغب . وقد اعتقل فى أعقاب أعمال شغب كبيرة ١٢ شخصًا فى القرية من بينهم أولاد . وتعرض معظمهم للضرب

بالهراوات بعد اعتقالهم ولغرض رفع الأحجار والنفايات ربما في ذلك صخور ثقيلة تم إرغام مسنين (شيوخ) ونساء تم اختيارهم بشكل تعسفي على الخروج من بيوتهم وللقيام بهذه العملية ، كل هذا من خلال إهانات وشتائم وتهديدات بالهراوات ... "

"... في أعقاب رشق حجارة اعتقل بشكل تعسفي سبعة أشخاص كان واحد فقط من بينهم مشتبها في مشاركته في رشق حجارة . وجرى ضربهم في وسط القرية لكي يكونوا عبرة. وجرى احتجازهم نصف يوم في مخزن بلا ماء ولا طعام أو قضاء الحاجة ، ثم أطلق سراحهم بعد ذلك وتلقى أحدهم كسرت يده من جراء الضرب علاجا مضحكًا عبارة عن ضمادة، وهذا أيضًا خلافًا لتعليمات صريحة بعدم معالجته "

" وجرى ليلاً ، بمعاونة المخاتير الذين دلونا على عناوين السكان اعتقال نحو ٥٠ شخصًا وتم تجميع المعتقلين على طول جدار وأرقدوا على بطونهم وبأمر من قاموا باعتقالهم أدوا تدريبات ثني المرفقين بينما يتلقى من يبدو أنه يتوانى في ذلك ضربة بالهراوة في الخصيتين أو في الظهر . ولم تغب أيضًا ركلات وضربات ... وأطلقت يد الجنود وأعطيت لهم الحرية في أن يجروا تحقيقات شخصية تخللتها ضربات وإهانات . وجعل المعتقلين يقفون على رجل واحدة وأيديهم ممدودة إلى الأمام ، مثل تماثيل ... وأوقفت فجراً قبل شروق الشمس شاحنة أحد السكان المحليين بشكل تعسفي وأرغم السائق على نقل جميع المعتقلين إلى إدارة الحكم العسكري في المدينة القريبة ...

ويشار أيضًا للذكرى التاريخية أن " عمليات التكدير " التي علم بها الجمهور اشتملت أيضًا على إهانات على خلفية " صهيونية – أيديولوجية " . وقد حكى أحد الضباط في " محاكمة أعمال التكدير " قائلاً : هناك حادث واحد جرى فيه إرغام السكان المحليين على أن ينشدوا نشيد " هاتكفا" (النشيد الوطني الإسرائيلي) وأن يهتفوا هتافات استنكار ضد (م.ت.ف) ... وقد طلبت من أحد رجال حرس الحدود أن يوقف هذا ... " وقد اشترك في هذا الحادث بشكل فعال ، كما شهد في المحاكمة قائده المتهم الرائد موفاز ، ضابط برتبة مقدم لم يقدم إلى المحاكمة

" وجه إسرائيل الممسوخ (المشوه) ، " وثيقة مذهلة " . " من الصعب أن نصدق عند قراءة ما هو مكتوب - من الصعب أن نصدق أنه كان من الصعب في الحقيقة . أيضًا على محرري

صحيفة " هارتس أن يصدقوا . لقد كان هذا بعد حرب لبنان وبعد الأحداث التى هيأت الرأى العام لأن يصدق أنه قد أخذت تتحقق فى المناطق (الفلسطينية) نبوءة يعقوب طالمون بشأن الإفساد الأخلاقى المتوقع لنا . غير أن تعبيرات الذهول تدل، مع كل هذا ، على أن المنطلق الأخلاقى ومستوى توقعات المجتمع الإسرائيلى من ذاته كانا قريبين إلى " اليسار الصهيونى " كما أن الصحفى رؤبين فيدهتسور ، فى مقاله إجمالية عن " محاكمة عمليات التكدير " كرر هو أيضًا تعبيرات مثل " اكتشافات مخيفة " ، ولكن لم يعبر عن أى مظاهر مفاجأة . كما أنه قد أعطى تعبيراً واضحًا عن أنه قد اتضح فى المحاكمة أن " قيم أخلاقية مشكوكة ومعايير مرفوضة " هى جزء من معيار السيطرة فى المناطق (الفلسطينية) .. ويمكن أن نجد فى نفس التحقيق الصحفى أدلة على تدن إضافى فى سلم خطورة التدهور الأخلاقى ، من حيث أنه يشير إلى أن الوباء قد تفشى فى المناطق ولكن اللامبالاة تفشت فى أوساط الجمهور " الظواهر المخيفة التى اكتشفت فى " محاكمة عمليات التكدير " لم تتسبب فى أى رد فعل جماهيرى .... معايير المجتمع الإسرائيلى تغيرت إلى حد كبير " هكذا كتب فيدهتسور (١٩٨٣/١١/٣) ... " وفى الجمهور سكوت . القائد الأعلى للجيش ، جيشك وجيشى - جيش الشعب - يقف على المنصة ويروى أنه أصدر تعليمات بالتعامل مع الآباء فهم سيعاقبون الأولاد ، وهذا يفلح جيداً جداً لدى العرب ، ولم ينفعل أحد حتى الآن " . والجملة الأخيرة يمكن أن تعتبر تصريح ضمنى قوى وضخم understatment monomntal . وليس فقط أن الجمهور لم يهيج على شارون ، بل إنه قد أصبح يحظى بشعبية وتقدير الجمهور المتعصب . فى سنة ١٩٩٢ جرف هو بمفرده ثمانية مقاعد فى الكنيست ، مثل حركة " راتس، ومبام معا ، وجاء فى التعليق العام أن شبابًا كثيرين تخبطوا بين المعسكرين ... وبعد فترة ما تحدثوا عن رفائيل إيتان بتبجيل كمرشح ليكون وزيراً للتعليم فى حكومة رابين . ولم يهاجمه " اليسار الصهيونى " ولا مرة واحدة بسبب آرائه فى شئون أخلاقيات القتال والعنصرية أو الشرعية .

وإذا نظرنا إلي المؤسسات التى ترمز قابلية إصابتها بهذا الداء إلى تدهور أخطر ، فإن فترة عمليات التكدير تعكس الصورة التالية فى النظرة إلى مؤسسات فرض القانون والقضاء، لم يكن للمؤسسة القضائية المدنية آنذاك أى موطىء قدم فى المناطق . كما أن فرض القضاء العسكرى لم يكن عاملاً . وقد أشارت وسائل الإعلام إنه لولا أن هؤلاء الضباط قد توجهوا

للسلطات وللجمهور ما كان أحد سيُقدم إلى المحاكمة . وقدم المتهم فى القضية خطابًا من قائد المنطقة (حاليًا عضو الكنيست أورى أور) يضمن له دعمًا فى القضية وبعدها أيضًا ، أى حتى إذا تمت إدانته كما أن الاستنتاجات الإدارية للمدعى العام العسكرى بالنسبة للقادة المباشرين للرائد دودو موفاز ، الذين ثبتت مسئوليتهم فى المحاكمة ، لم يتم تطبيقها . وقد أدت المحاكمة إلى هز الجهاز (العسكرى) لأنها شاذة وفريدة من حيث أن محامى المتهم ، يهودا ريسلر ، بدلاً من أن يتطلع إلى الحصول على العفو لموكله ، قرر أن يتهم الجهاز واستدعى رئيس الأركان للإدلاء بشهادته .

وعندما تزايدت الأنباء عن " أخذ القانون باليد " من قبل المستوطنين وعن ضعف الجهاز العسكرى قررت الحكومة فحص الوضع . وقد كلف الجهاز القضائى المدنى يهودا كارف ، مساعد المستشار القانونى للحكومة بمهمة فحص الموضوع . وتحدثت الصحافة عن تقرير كارف بكلمات مثل " مذكرة اتهام خطيرة ضد الجيش الإسرائيلى والشرطة : إهمال ، لامبالاة، معالجة فاشلة ، جهود للمداراة والتغطية ، سياسة تفرقة وتمييز - تلك هى نتائج التقرير " (هارتس ١٩٨٤/٢/٩) . وعندما تم تقديم التقرير فى جلسة مشتركة للجنتى الداخلية والدستور والقانون والقضاء هاجم ممثلا اليمين يهودا كارف الدكتور يوسف بورج ودوف شيلانسكى ، واتهم شيلانسكى جهاز الادعاء الحكومى بأنه " يعالج بحماس شكاوى ضد يهود ولكن ليس كذلك بالنسبة لشكاوى ضد عرب " (هارتس ١٩٨٤/٢/٩) كما أن مجلس المستوطنات فى الضفة الغربية وقطاع غزة (لمن ليس واثقًا بالنسبة لسريان التعميم بأن المستوطنين لم يخوضوا معًا آنذاك حربًا ضد القانون والأخلاقيات السياسية لدولة إسرائيل) طلب فوراً إقالة يهودا كارف .

وقد عكس رد الفعل الجماهيرى ، فى تلك المرحلة حقيقة أن التقسيم بين " يسار " و "يمين " أو انقسام فى الشعب " ، ليس فقط ما نعتقده موضوع " سياسى " ولا يدور فقط حول مناطق، استيطان وسياسة ، بل إنه انقسام فى شئون قانونية بحتة ، ونظام عام، أخلاقيات حكم وأخلاقيات أساسية وتمثل المفهوم المتعصب فى كل مجال كانت له علاقة ما بسياسة الضم ولم يتوقف فى حدود القانون والأخلاقيات الإنسانية . فمن كان مع الضم قد اتخذ آنذاك المواقف التى تهيىء وتمهد كل ما تم من أجل قدسية هذا الهدف وهاجم بدون أى رادع وقيد محاولات لجم المستوطنين من الناحية القانونية والأخلاقية وقد عبر أمنون روبنشتاين من

حركة " شينوى " (وليس حزب شينوى الحالى برئاسة يوسف لابيد " بل إحدى الأحزاب المشكلة لميرتس حاليًا) " عبر عن إحساس " المذهول " من الهجوم على كارف بقوله : " لا سابقة لمثل هذا الحدث ، بأن يهاجم وزراء موظفى دولة دونما أساس حقيقى موضوعى " وخلقت سياسة الضم انحرافًا أوجد " سوابق " بمعدل لم ينجح أحد فى " اليسار الصهيونى " فى اللحاق به .

• وكان هذا أيضًا جيداً . من هنا فصاعداً يمكن استعراض النقاش الجماهيرى حسبما سُجل ولنرى أنه قد بدأ تآكل كبير فى مقابل الوضع الذى ساد فى فترة ما قبل الانتفاضة . ووقعت فى هذا السياق لاحقًا أعمالاً مخيفة " أكثر بكثير ، أعمال قتل كثيرة ، وقلت جداً تعبيرات التبريرات (" طلقات فى الهواء ") ، الذهول والصدمة " لماذا نشبت الانتفاضة " : فى عدد من التقارير والعروض التى نشرت فى الصحف بمرور السنوات ، بمناسبة نشوب الانتفاضة فى نوفمبر ١٩٨٧ ، نسيت حقيقة أن الشرارة التى أشعلت الانتفاضة كانت شرارة أيديولوجية أشعلها عن قصد فى البداية مستوطنون . وفى استعراض التغيير الأخلاقى لدى الجمهور بجدر أن يُذكر هذا الموضوع وألا يُنسى . ومن المألوف الإشارة إلى أن الانتفاضة قد نشبت كرد فعل مباشر على أن شاحنة إسرائيلية دهست وقتلت ثلاثة عرب (فلسطينين) فى غزة وكان هذا حادثًا مأسويًا فسرها المواطنون المحليون على أنها قتل مع سبق الإصرار ، انتقامًا إسرائيليًا لمقتل شلومو سيقل وكيل شركة " كير بلاستيك " الذى قتل فى نفس المكان قبل ذلك ببضعة أيام . والأمر الذى نُسى فيما نشر عن نشوب الانتفاضة هو أن مقتل شلومو سيقل اعتبر أيضًا انتقامًا من مقتل التلميذة انتصار عبد الله (١٧ سنة) من خان يونس . وبعد مرور ثلاث سنوات ، فى بداية ديسمبر ١٩٩٠ نشرت وكالة الأنباء الإسرائيلية " عيتيم " النبأ الآتى :

" قبلت المحكمة العليا أمس طعن النيابة العامة وأدانت شمعون يفراح ، من سكان نافية دقاليم فى جوش قطيف ، بقتل تليمذة عمرها ١٧ سنة من خان يونس بطلقات مسدس. وفى ١٠ نوفمبر ١٩٨٧ تعرضت سيارة كان يستقلها يفراح وثلاثة إسرائيليون آخرون ، للرشق بالحجارة من جانب تلميذات فى المدرسة الثانوية ، وواصل السائق السير بالسيارة لمسافة نحو مائة متر أخرى ، ثم استدار بعد ذلك وعاد فى اتجاه التلميذات ، وفى أثناء السير أطلق يفراح وراكب آخر كانوا يستقلون السيارة طلقات رصاص فى الهواء . وهربت التلميذات من المكان .

ولكن السيارة استمرت فى مطاردتهن ، وبالقرب من بوابة المدرسة أطلق يفراح طلقتين أخريين من مسدسه وأصابت إحدى الطلقتين الفتاة انتصار عبد الله فى ظهرها وتسببت فى موتها " .

وقد تضمن هذا الحدث عناصر الوضع التى صاحبت الأحداث فى الانتفاضة : إسرائيليون مسلحون فى مواجهة راشقى حجارة . دفاع عن النفس فى مواجهة الرغبة فى العقاب وإلحاق الضرر . وبنت المحكمة العليا إدانتها للمتهم على المعيار الأخلاقى المفهوم تلقائيًا فى ظروف عادية ، والذى يسمح بإطلاق النار فقط للدفاع عن النفس وليس من أجل مطاردة ومعاقبة مشاغبين . وتضمنت التبرئة فى الدرجات القضائية الدنيا نظرة السلطات إلى الإسرائيليين الذين يحاربون الانتفاضة ، مثلما رأينا من قبل فى نظرة محقق الشرطة الذى لم يرغب فى " توريط " المستوطن الذى أطلق النار بغرض الإصابة ، ويعبر تصرف المستوطنين عن معيارهم ، الذى هو جريمة من ناحية أخلاقية وقانونية ، والتى كان يتعين على الدولة مواجهتها .

والأمر الخطير من ناحية الأخلاقيات الاجتماعية هو أنه قد ثبت فى هذه الحالة ، أن الجرائم ضد السكان الفلسطينيين كانت معياراً أيديولوجيًا فى دوائر المستوطنين ، وأن كثيرين فى قوات الأمن وفى الدولة بشكل عام قد برزوا هذه المعايير المرفوضة . وعند الإفراج عن شمعون يفراح بعد تحقيق الشرطة ، نشرت الصحيفة صورة له ولزملائه وهم يرتدون سترة من الفراء ويحملون رشاشات عوزى على الكتفين ، وطواقى على الرؤوس ، ويرقصون فى دائرة فى مدخل مبني الشرطة .

ولقد روعتنى هذه الصورة : الفرحة العلنية ولم استطع أن أعرف فى ذلك الوقت ما إذا كان هذا الشاب مذنبًا ، ذلك أن الظروف والملابسات الدقيقة لهذا الحادث عُرفت فقط مع صدور حكم المحكمة العليا بعد مرور ثلاث سنوات . ولكن لنفترض أنه لم يكن مذنبًا ولم يكن يقصد إصابة التلميذة ، أو أنه لم يكن هو الذى أصابها " ففى نفس الوقت تقريبًا دهس سائق طفلتين صغيرتين كانتا تلعبان على الطريق فى بيتح تكفا ، وتم الإفراج عنه أيضًا بعد التحقيق . فهل يمكنكم أن تخمنوا كيف يشعر إنسان سوى قتل عن طريق الخطأ ولداً ومتورط فى قتل طفلة ، وكيف يشعر أصدقاؤه وأسرته ؟ هل يمكنكم أن تتصوروا أن زملاءه وأسرته كانو سيستقبلونه على هذا النحو بفرحات وتهاليل الانتصار عند خروجه من تحقيق الشرطة؟

وبعد حدوث ما حدث ، وطبقًا لما جاء فى حكم المحكمة ، يتضح أن الثلاثة الذين كانوا معه فى السيارة لم يكن يمكن ألا يعرفوا ليس فقط أنه قتل التلميذة ، بل والظروف التى عادوا فيها وطاردوا فيها التلميذات عن سبق إصرار لكى يقتلوا ، ولقد رقصوا فرحًا لأنهم نجحوا فى أن ينكروا ما حدث فى تحقيق الشرطة (هذا ما تفعله اللاإنسانية لمشاعر إنسانية طبيعية) وتبدو الفجوة بين سلوك أخلاقى وبين قتل بدافع إيديولوجى مفتوحة على مداها أيضًا فى المجال الذى يقول فيه الحكم والقانون فى الدولة وفى العالم الحر كلامًا واضحًا - ولكن المتعصبين يقولون ويفعلون أمورًا أخرى إلا أنه تتقزم هنا أهمية النقاش الأيديولوجى حيث ارتكب هنا عمل إجرامى . يجب أن نعترف ، إذًا بأن الانتفاضة أشعلتها الشرارة الأيديولوجية للمستوطنين الذين اعتقدوا أنه كان مسموحًا لهم أن يقتلوا التلميذة انتصار وكانت لديهم أسبابهم كما هو الحال دائمًا ، نفس الأسباب التى أشار إليها يعقوب طالمون قبل ذلك بثمان سنوات ، " أن نظهر للإسماعيليين (للعرب) من الحاكم والسيد هنا " " أن نوقف العرب عند حدهم " ، صورة هذه الرقصات على دم الفتاة صاحبتنى طوال كل فترة الانتفاضة .

المصادر

1 - John Sabini and Maury Silver (1993), " Destroying the innocent with a clear conscience: a sociopsychology of the Holocaust", in Neil J. Kressel (ed.) Political Psychology, New York : Paragon House Publishers .

الفصل الرابع

دولة إسرائيل فى الاختبار الأخلاقى للانتفاضة (١٩٨٧ - ١٩٩٣)

يجب أن نفردفصلاً منفصلاً للانتفاضة فى التاريخ الأخلاقى لدولة إسرائيل (إذ لم يتم حتى الآن مثل هذا الأمر ، فيجب أن يتم) . ذلك أن الانتفاضة قد جعلتنا فى وضع اختبار أخلاقى لم نواجهه من قبل . فقبل ذلك كانت السيطرة على سكان خانعين وكانت الحرب ضد أفراد ومجموعات صغيرة مسلحة ، أما الآن ، فلأول مرة خرج السكان المحتلون بجماهيرهم ضد قوات الأمن . قبل ذلك كان الإسرائيليون يستطيعون التحرك فى داخل مناطق قطاع غزة والضفة الغربية مثلما يتحركون فى مناطقهم ولكن الآن أصبحت هذه مناطق عدو ، مثل الدخول بسيارة إلى حى ميناه شعايرم أو شمونيل هانفى يوم السبت ، وكان يجب على كل إسرائيلى فى المناطق (الفلسطينية) أن يعتبر كل مجموعة من الفلسطينيين مهاجمين محتملين .

ونشأ وضع اشتباك بين الجيش وبين مشاغبين مدنيين ، والذى تسرى عليه طبقًا لأى قانون وطبقًا للأخلاقيات المتبعة ، كل تلك القوانين وقواعد السلوك الملزمة للشرطة المدنية فى فض مظاهرات عنف ، بدون رغبة فى القتل وبدون اعتبار الطرف الثانى كعدو تسرى عليه القاعدة، من جاء لكى يقتلك بادر إلى قتله " إن الجيش لم يواجه أبداً مثل هذه الأوضاع التى يحظر فيها إطلاق النار ، من أجل القتل فالعدو الذى يتعلم الجنود محاربته يطلق النار ويحارب ،

لايقف فى مواجهتهم فى صورة أولاد ونساء لايتحدث إليهم ويسُبهم . الجنود يتدربون على أن يَقْتلوا ، ولم يؤهلوا أبداً لكى يخوضوا حربًا لا يعتبر فيها التسبب فى قتل العدو إنجازاً بل فشلاً أو إهانة محتملة لهم . ويتعارض فى هذا الوضع مع أهداف الحرب (تحقيق حسم) ومع تكوين كل مقاتل ، ولكنه صعب بشكل خاص وإمكانية خطرة خاصة إذا كان المقاتلون يميلون إلى التعصب . إن الحرب هى وضع يسود فيه انسجام تام بين الميول النفسية والأيديولوجية لمتعصبين وبين متطلبات المجتمع حتى وإن كان غير متعصب ، فبالنسبة للمقاتل أن يكون حيوانًا مفترسًا " هذا إطراء . بعبارة أخرى ، إن دولة مستنيرة ونموذجية تحتذى تحتاج أيضًا إلى أن يتصرف مقاتلوها فى الحرب كمتعصبين . ولكن فى الانتفاضة كان يتعين عليهم أن يواجهوا ليس وضع حرب بل وضعًا مسئولون هم فيه أيضًا عن حياة وسلامة أعدائهم ، وضعًا يتطلب السلوك العكسى ، ضبط النفس وترو إنسانى .

لقد شعرت عندما نشبت الانتفاضة بتوتر شديد بسبب ترقب كيف ستجتاز دولتى هذا الاختبار الأخلاقى الذى فرض عليها . وكان واضحًا أن هذا اختبار صعب ، حيث أنه من ناحية الفلسطينيين تعتبر الانتفاضة وسيلة نضال أكثر نجاحًا وفاعلية بكثير عنه من " النضال المسلح" الذى تمسكوا به طوال سنوات كثيرة جداً ، وكان الاختبار الأخلاقى في مصطلحات " اليسار الصهيونى " ، إذاً هو فى القدرة على مواجهة السكان المتمردين مثل شرطة فى الدول الديمقراطية المتقدمة .

يستند العرض الحالى لأحداث الانتفاضة على توثيق شخصى للأحداث مثلما تأثرت بها من الجانب الأخلاقى . ولم أقم بإعداد بحث تاريخى إلى الوراء لكى أفحص مجدداً صحة الانطباعات والاستنتاجات لأنه لا حاجة لذلك . فلو كان لدى الجمهور اهتمام ورغبة قوية فى أن يعرف ولو كانت تفاصيل ووقائع مهمة لم يعلم بها كل من أراد أن يعرف لكان هناك ما يدعو إلى إجراء بحث . إلا أننى أدركت بشكل قوى جداً فى فترة الانتفاضة ، بأنه حتى عندما تحدثت الحقائق والوقائع عن نفسها كانت صارخة فى حد ذاتها - لم يرد الجمهور أن يعرف . وعلى ذلك فلن اكتفى بإيراد المصادر التى تتحدث عن نفسها بل أضيف أيضًا تعليقًا إلى ذلك ، وفيما يتعلق بالموضوعية ، فإننى أؤكد بأمانة بأنه لوجدت أية مادة تتضمن على ما يناقض التعميميات والاستنتاجات النابعة من المادة الموجودة لدىَّ لكنت سأعرضها ، على سبيل المثال شهادات عن قلق أخلاقى فى دوائر " المعسكر القومى " والمستوطنين بسبب حالات

القتل وأعمال خرق القانون من جانب رجالهم أو الجيش . أو حالات طرحت فيها الحركات الكيبوتسية تساؤلات ما على الجيش فيما يتعلق بسياسة قمع الانتفاضة . أو طلبات من أعضائها الذين يخدمون هناك . أو لو وجدت أية نداءات من كبار المسئولين فى الدولة وفى الجيش موجهة إلى الجنود لكى يحافظوا على طهارة السلاح (شرف الجيش ؟) فى الوضع الخاص الذى نشأ مع مواجهة جماهير من شبان ونساء وأولاد غير مسلحين . لم أجد شيئًا من هذا .

أ - قضية مطاردة إنسان وتعذيبه :

لقد كان من الفظيع جداً أن تقتل نحو عشرة مدنيين بنيران قوات الأمن ويصاب مئات ، فى الأيام الأولى للانتفاضة وقبل أن يصبح واضحًا أنه قد نشأ فعلاً وضع جديد وأن الوضع السابق لن يعود على الرغم مما قاله الخبراء المتخصصون بعد الموجة الأولى من أعمال الانتفاض وتفجر المشاعر . وقد تكرر هذا النمط فى كل مكان : الجنود فى دورية اصطدموا بجمهور مشاغبين رشقوهم بالحجارة (بلوكات صخور) واضطروا إلى إطلاق النار لأنه كان هناك خطر على حياتهم . ويستند كل التبرير الرسمى للقتل على هذا المبرر الأخلاقى ، وهو أن الجنود أطلقوا النار فقط للدفاع عن النفس عندما كان هناك خطر على حياتهم .

من ناحية أخرى ، كان من السهل لأى إنسان فى إسرائيل أن يرى النموذج المناسب . فى فترة الانتفاضة عرض التليفزيون بين الحين والآخر ضوراً من مظاهرات الطلاب فى سيول عاصمة كوريا الجنوبية والتى ظهرت فيها جماهير شباب يرتدون بناطيل الجينز وأحذية رياضية مثل فتيان الانتفاضة ، يرشقون الحجارة ويقذفون مولوتوف على رجال شرطة كانوا يقفون فى مواجهتهم فى هدوء كسور حصين من وراء دروعهم ومن تحت خوذاتهم ، حتى قاموا بصدهم دون أن يطلقوا النار أو يصيبوا أو يقتلوا . ولم أجد أى نموذج فى وسائل الإعلام على أن أى شخص قد عقد مقارنة بينهم وبيننا على الرغم من أن الحقائق والوقائع صارخة فى حد ذاتها : لا يجوز إرسال جنود دون تجهيزات حماية ووسائل مناسبة لتفريق المظاهرات ، ولا يجوز بشكل خاص إرسالهم بقوات قليلة إلى داخل جمهور يقوم بأعمال شغب، فلقد عرفنا جيداً كيف يجهز الجيش جنوداً للقتال بعتاد عندما يكون هناك خطر على حياتهم : خوذات فولاذية وسترات واقية من الرصاص هنا رأوا كل يوم صور رفاق يتجولون وهم يرتدون بيرياتهم فى مواجهه

راشقى الحجارة . ليس هكذا يخرجون إلى القتال ، تصرخ الوقائع معبرة عن نفسها . وكان أمر الخروج فى جماعة صغيرة وبدون وسائل إلى داخل جمهور يقوم بأعمال شغب - كان فى الحقيقة أمراً بتعريض الحياة للخطر أو الشعور بخطر على الحياة والرد بإطلاق نار قاتل .

والأمر الذى أظهرته الوقائع صارخًا أيضًا هو أن رجال قوات الأمن يهاجمون السكان بتناسب طردى مع وجهات نظرهم الفكرية والسياسية على الرغم من الأوامر موحدة للجميع . وقد تحدثت كل التقارير عن أن لدى الجنود مجال لاتخاذ قرار هل يطلقون النار أم لا ، ومدى ردود فعل مشاعرية وأخلاقية يؤثر على هذا القرار . وسلم عدد من رجال الاحتياط فى الانتفاضة تقريراً عما يحدث وقالوا أنه يمكن أن نرى على الفور كيف يتصرف كل واحد تجاه السكان وفقًا لوجهة نظره وتربيته . وبعد عدد من الأيام ، عندما اتضح أن الاضطرابات لم تنته ولن تنته ، أبرزت وسائل الإعلام المقولة التاريخية لعضو الكنيست بانى شليطا (من الليكود وهو حزب حاكم كبير) :

" كان يجب أن نُرقد فى اليوم الأول ٥٠ عربيًا وكان هذا يضمن هدوءاً لثلاثين سنة " إن التنويهات والتصريحات من جانب شخصيات عامة طلبت إطلاق النار على كل من يرفع حجراً، كانت معروفة جيداً أو قبل ذلك . ولاشك فى أن من تجاهل تأثير مثل هذه العواطف فى داخل الجيش وحرس الحدود ، هو مسئول عن أنه لم يمنع " التجاوزات " التى يهيؤها مثل هذا الأساس الأيديولوجى .

وعلى ذلك ، فعندما يكون الواقع تأييد واسع لسلوك وتصرف غير قانونى وبربرى جلى ، وعندما تتضمن البنية التحتية الروحية كثير جداً من كراهية ونظرة عنصرية للعدو ، وعندما يكون هذا العدو هو سكان مدنيين يخضعون لسيطرتنا - كان يجب إعطاء أمر عمليات يحذر الجنود بحيد قدر الإمكان تأثير وجهات النظر تلك . وكان هذا ضروريًا من أجل أن يكون المساس بالسكان فى الحقيقة من خلال دفاع عن النفس وليس من خلال كراهية العدو (التى أساسها اللاإنسانية) والرغبة الطبيعية فى الانتقام والعقاب.

فى الأسابيع الأولى للانتفاضة ، بعد أن لم يُستجب لنداءات تنظيمات وأحزاب اليسار ، قمت بجمع توقيعات ٣٢ طالبًا ومعلمًا فى كلية المعلمين فى الكيبوتسيم فى تل أبيب على خطاب مفتوح (نشر فى صحيفة معاريف ١٩٨٨/١/٢٥ ، وفى هارتس ١٩٨٨/١/١٣) أهم

ما جاء فيه مطالبة بعدم إرسال جنود إلى داخل التجمعات السكانية فى مجموعات صغيرة بدون وسائل حماية وتجهيزات لتفريق المظاهرات ، وأن يصدر الجيش الإسرائيلى أمراً عامًا وحاسمًا يُلزم قوات الأمن بأن يواجه السكان فى المناطق (الفلسطينية) وكأنهم سكان يهود يقومون بأعمال شغب . وفى خلال أقل من ساعة وقع جميع من توجهت إليهم تقريبًا على هذا الخطاب . ويثبت هذا النموذج أن هذه المطالب لم تكن مدحوضة فى نظر " اليسار الصهيونى" ومع كل هذا ، فإن أحداً من زعمائه أو المتحدثين باسمه لم يطرحها ، حتى عندما كان هناك جنود توسلوا فعلاً من أجل أن يعطوهم توجيهًا ومساعدة .

والمطالبة الأخلاقية أن تُعطى تعليمات للجيش بأن يعمل فى مواجهة جمهور الفلسطينيين الذين يقومون بأعمال شغب كأنه يعمل ضد يهود يقومون بأعمال شغب ، تتناسب مع كل تفسير ممكن للأخلاقيات والقانون المعمول بهما فى عصرنا . ولكن أن نتعامل وننظر إلى العرب كبشر = يهود مثلنا ؟ كان يمكن أن تكون مثل هذه المطالبة موجهة بالضبط إلى قلب المشكلة الرئيسية : اللاإنسانية . وليس هناك أى شىء يمكن أن يكون أبعد من المتطلبات والاحتياجات السياسية والنفسية للجمهور الإسرائيلى الذى ألف واعتاد فى حياته نظام الضم، وهذا يشمل أيضًا اليسار الصهيونى . وكما سبق أن أشرت وقف يوسى ساريد فى الأيام الأولى للانتفاضة فوق منصة الكنيست وقال بالأسلوب البلاغى المفضل لديه مخاطبًا وزير الدفاع رابين " بإسم الأطفال الفلسطينيين القتلى - إرحل يا رابين ! " وقال أيضًا على الفور لمؤيديه من بين الجنود الذين أدوا مهامهم فى قمع الاضطرابات " بأفضل صورة " ولكن لم يقل كيف ولم يطلب منهم الطلب الأخلاقى البسيط ، الذى لم يطلبه الجيش وبأسلوب يفهمه كل واحد : " أن يتعاملوا مع الفلسطينيين الذين يقومون بأعمال شغب وإخلال بالنظام وكأنهم تم استدعاؤهم لتهدئة اضطرابات فى حى يسكنه يهود فى إسرائيل ، أو فى مكان سكناهم . هذا صعب ، هذا ليس لطيفًا ، فليس هذا هو ما تدربوا على القيام به - ولكن هذا بالضبط ما تطلبه منهم الدولة ، القانون والضمير الإنسانى .

لست أعرف كم من الفلسطينيين والإسرائيليين قتلوا ، أصيبوا ، ودمرت حياتهم فى هذه المطاردة الإنسانية ، عندما أرسلوا جنوداً غير مجهزين نفسيًا وماديًا مع تعليمات للرد على كل استفزاز فى مواجهة جماهير مدنيين يقومون بأعمال شغب عرضوا حياتهم وكرامتهم للخطر والذين كان من الممكن إطلاق النار عليهم .

وقد انتهت هذه القضية بالنسبة لى شخصيًا مهما بدا ذلك مثيراً للسخرية ، بشعور انتصار أخلاقى . وهذه متعة مشكوك فيها جداً ، متوقع مع كل هذا ، لأولئك المستعدين للتصارع من أجل حقيقتهم حتى عندما لا يعتقد كل الآخرين بأن لهم الحق فى ذلك . وقد حدث هذا فى ٢٦ مارس ١٩٩١ ، عندما وجدت هذا الخبر فى الصحيفة : " كان يمكن منع معظم إصابات قوات الجيش الإسرائيلى فى المناطق فى فترة الانتفاضة بواسطة استخدام الخوذات ، والنظارات الواقية ، والسترات الواقية ووسائل الحماية - هكذا قال الدكتور سام إيرينج من سلاح الخدمات الطبية فى بحث أجراه على إصابات الجنود فى المناطق ... وبحسب كلامه ، ٥٠٪ من الإصابات حدثت فى منطقة الرأس ولذلك كان يكفى ارتداء خوذة . وفى السنوات الأولى من الانتفاضة تلقى جنود كثيرون عتاداً واقيًا ولكن لم يستخدمونه ".

وعلى ذلك فإن أقارب المصابين فى "قضية مطاردة الإنسان" من وسط الجيش مدعوون لتنظيم أنفسهم مثل أقارب الذين لاقوا حتفهم فى " قضية تساليم " أو فى حادث أو آخر من حوادث التدريبات . وربما هناك من يشكك فى أن الخروج إلى هذه المطاردة هو ثمرة أيديولوجية (لا إنسانية بالطبع) وسياسة موجهة ؟ وفيما يلى إحدى البيانات والأدلة :

صدرت توجيهات لجنود الجيش الإسرائيلى فى المناطق لخلع الخوذات :

> **" كان الادعاء الذى يقف وراء هذا التوجيه هو منع احتمال تفسير هذا الأمر من قبل من يقومون بأعمال الشغب على أنه إظهار ضعف أو خوف ... والنتيجة مزيد من تعريض حياة الجنود للخطر وبسبب هذا الخطر بأن يطلقوا النار حتى ولو للقتل" (طالى زلينيجر ، المراسلة العسكرية لصحيفة دافار " ١٧/١/١٩٨٨).**

فى سنوات الانتفاضة العشر قتلت قوات الأمن الإسرائيلية ١,٣٤٦ فلسطينيًا من سكان الضفة الغربية وقطاع غزة (مارتس ٩/١٢/١٩٩٧) . من بين القتلى ٢٧٦ ولداً من تحت سن السابعة عشرة و٧٠ ولداً من تحت سن الثالثة عشرة ، وقد أصيب ١,٣٠٨ من القتلى من جراء إطلاق النار ، ١٥ تعرضوا للضرب حتى الموت ، عشرة توفوا فى أثناء التحقيق معهم ، وتوفى خمسة كنتيجة ظروف سجن متدنية . تلك هى المعطيات التى أوردتها منظمة "بتسيليم " . وقتل المستوطنون ١٣٣ فلسطينيًا .

ب - " أبناؤنا " فى الانتفاضة :

وثائق الابن البرىء الذى يستصرخكم : بما فى ذلك نماذج على فكاهيات الانتفاضة (" كيبوتس " المجلة الأسبوعية للحركة الكيبوتسية الموحدة ، ١٩٨٨/١/٠٠٢٧)

أيها الرفاق :

أناديكم الآن ! أصرخ بكل ما تبقى لدى من قوة تجاهكم : إصحوا ! من ضواحى وأطراف نابلس ، من أزقة غزة ، من سراديب بيت فجار ونحلين . من داخل مخيم الدهيشة ، خان يونس ومخيم جياليا استصرخكم !

كيف أخرجكم من داخل المقعد الوثير ؟ من داخل الصالون ؟ أصرخ باسم الشبان الذين أرسلتموهم هناك ، باسم الشبان الذين يرتدون الملابس الخضراء والبيريهات الحمراء والبنية والبنفسجية .

أصرخ !

أصرخ باسم اليد التى ربيت علي أن تلوح بالسلام التى تربيت على أن تحارب من أجل أن تدافع ، وتجد نفسها ذات يوم مرفوعة بكل قوتها وشدتها صوب وجه ولد عمره ١٣ سنة من رام الله .

بإسمكم أنتم أيها الرجال ، بإسمكم !!! بإسمكم خرجت أنا ... " " ... حاولوا أن تشرحوا لى الآن عدالة جوليات حاولوا أن تشرحوا لى كيف حرضتمونى على أطفال الأحجار ، حاولوا أن تشرحوا ... إننى لا أجد لديكم البيت المتعاطف ، ولا أجد فيكم الظهير الذى احتاج إليه حاليًا ، لا أجد عيونكم التى تختفى وراء ملحق نهاية الأسبوع فى الصحيفة .

إننى لا أبحث عن تصاريح لإطلاق النار ، لا أبحث عن دورة فى ضبط النظام والمحافظة على الأمن أو عن كلاب لتفريق مظاهرات - إننى أبحث عن ظهير وعون ، أبحث عن يد مؤيدة ومتعاطفة فمن أرسلنى إلى قلقيلية إلى الرام وأبوديس . أبحث عن إنسان واحد يفكر قبل أن يذهب إلى النوم ، أنه على مسافة خمسة كيلومترات شرقًا يتجول شبان مسلحون بطلقات مطاطية وقنابل غاز مسيل للدموع ... " .

" أنتم تكررون فكاهات الانتفاضة عن أولئك الذين يطلقون النار فى الهواء الموجود فى الرئتين ، على ذلك الذى سمع من قبل على من يطلقون النار لكى يصيبوا إنسانًا فيصيبون الهواء ولكن ليس على من يطلقون النار فى الهواء ويصيبون إنسانًا . هذا لا يضحكنا !

لم نبحث عن فكاهة ودعابة لديكم . إننا نبحث عن قول – طريق ... بحثنا عن صرختكم، أما الحل فليكن ما يكون. أومأتم برؤوسكم علامة الموافقة وفهمتمونا ، ونحن طلبنا مساعدة... " .

لم تأت أية مساعدة ، بالطبع . ولا أى قول " وسيلة " أو " حل " ، ولم تصدر أية زعامة لمنظمة من منظمات " اليسار الصهيونى " توجيهات أو تعليمات لجنودها حول كيف يتصرفون في الانتفاضة . ولم يتوجه أى كيبوتس أو كيبوتس واحد ولا أية مؤسسة تعليمية تربوية أو مربى أو مربية ، إلى خريجيه سابقًا . ولم يقل أى عضو لذلك الجندى : عفواً ، ليس بإسمى ! يُشار إلى أن وسائل الإعلام كانت مليئة بنصائح وتوجيهات للجنود من جانب المستوطنين ومؤيديهم ، نصائح إجرامية قالت لهم أطلقوا النار لكى تصيبوا ، وأزيلوا القيود والعوائق . وماذا كان يدور آنذاك فى عقل وقلب " اليسار الصهيونى " ؟ – فقط نوايا حسنة وخالصة فى أن ينتهى كل شىء بسلام . لا أى شىء عملى يمكن أن يؤثر علي شخص ما . على سبيل المثال، رد فعل أم عبرية على نفس الصفحة ذاتها التى نشر فيها الخطاب الصارخ عاليه .

وثيقة الأم العبرية :

" أصعب شيء في الليالى . أتوجه إلي النوم ويصاحبنى هذا الأمر واستيقظ معه فى الصباح . طوال الوقت أهمس ليفتاح : المهم أن تصمد ! المهم ألا تتحطم مقاومتك ! .

وهكذا دائمًا ، منذ الأزل . أمهات تقفن فى النافذة ينتابهن القلق والخوف وتترقبن عودة أبنائها ، وألا يصيبه أي مكروه ، بدنيًا أو نفسيًا ... "

" الأمر صعب بالنسبة لى بشكل خاص ، ربما لأننى كبرت وأصبحت أكثر حساسية ، ويفتاح هو ابن شيخوخة ... أمس ، فى برنامج " مباط " ليلة السبت انظروا عرب مكسورى الأرجل والأيدى ، وفكرت أنا : هل هذا ما يجب على إبنى أن يفعله ؟ ... " .

" طوال الوقت أقول له وأكتب له : يفتاح فلتحرص على ألا تتحطم نفسيًا ! إننى لست قلقة عليه جسديًا ، مطلقاً لا . إنه شاب قوى إننى أخشى عليه نفسيًا . إنه يفعل اليوم أموراً تتعارض مع طابعه والتربية التى تلقاها . إنه لم يرب على العنف ، واليوم ليس له خيار سوى تنفيذ الأوامر " (شفرعون هاتاكم «المجلة الأسبوعية لحركة الكيبوتس الموحدة » ١٩٨٨/١/٢٧) .

تحليل : بالإضافة إلى المطالبة الصريحة والمؤكدة على عبارة " المهم ألا تتحطم مقاومتك ! أى فلتستمر فى كسر أيدى وأرجل إذا كان هذا ما يجب عليك عمله ، انتبهوا للكلمات السبع الأخيرة ، فهى بحسب رأىّ المفتاح لفهم نفسية " اليسار الصهيونى " المعذبة، عمله ونتائج عمله .

وكان هناك ، مع كل هذا ، من استجاب لصرخة الابن " البرىء " الذى تعانى نفسيته الرقيقة من ضرب الأطفال والنساء والشيوخ بالهراوات . وكان الجيش هو ذاته الذى كان يجب أن يهتم بالمعنويات وشكل لهذا الغرض أطقم خاصة من وحدة الطب النفسى العسكرى التقت مع الجنود فى الميدان . وقد وقع كثيرون من بينهم على عريضة حملت توقيعات ٥٠٠ من رجال الصحة النفسية :

عريضة ٥٠٠ من رجال الصحة النفسية :

نحن مجموعة من الأشخاص العاملين فى مجال الصحة النفسية . ولا نعبر بشكل عام علنًا عن أرائنا السياسية ، ولكننا فهمنا بأنه إذا استمرينا فى صمتنا الآن ، فإننا نساعد بذلك فى التأثيرات المدمرة للاحتلال المستمر .

فمنذ عشرين سنة يعيش العرب الخاضعون لسيطرتنا بدون حقوق مدنية ، فى خوف وفى إذلال ، عرب يطردون من بيوتهم ، يفصلون عن أسرهم . يسجنون بأعداد غفيرة ، يُعذبون . ومؤخراً أيضًا تطلق عليهم النار للقتل وفى شكل متتال مريع . ومن القتلى أيضًا نساء وأطفال . ولا يخالجنا شك فى أن هذا الواقع يجب أن ينتهى .

ولهذا الواقع تأثيرات رهيبة أيضًا على السكان اليهود فهو يحصد ضحايا من الأرواح من بين اليهود أيضًا . وكثيرون من بيننا مشغولون يوميًا بأعمال القمع . لقد تعلمنا جميعًا طوال هذه السنوات أن نصم آذاننا ، وأن نبلد حواسنا ، وكأنه لا تحدث أمور هنا بالقرب منا ، لنا

وبمسئوليتنا . جميعنا نجر إلى حياة خوف ، عنف وعنصرية . إننا نفقد حساسيتنا لمعاناة إنسانية . ويتربى أولادنا ويكبرون على قيم تفرقة وعنصرية وجنود الجيش الإسرائيلى تواجههم أوضاع غير محتملة من الناحية الأخلاقية .

إننا نأمل فى أن ينضم المزيد من الأشخاص إلى الاحتجاج ضد الاحتلال المدمر .

الاحتلال يجب أن ينتهى .

هكذا ترون أنه حتى رجال الصحة النفسية لم يقولوا شيئًا عمليًا للجنود سوى " بعداً للاحتلال ".

وقد نشرت المجلة الأسبوعية " كيبوتس " مقابلة مع أحد الأطباء النفسيين الذين عملوا من قبل الجيش في علاج أبنائنا فى الانتفاضة ، وقد صرح بأن يتضامن تمامًا مع مضمون العريضة ومع الموقعين عليها . وقال نفس الطبيب النفسي وهو من رجال الكيبوتس (مجلة كيبوتس ١٩٨٨/٢/١٠) :

" يحكى الجنود فى الأحاديث الجماعية عما فعلوه فى نفس اليوم وهناك عدة أمور تبرز بشكل فورى : أولاً وقبل كل شيء - تسليم متزايد بالعنف كمعيار لسلوكهم فى الحرب : "تنافر إدراكى " يحدد فيه الواقع الوعى : أنت محتل ، تحدث عنفًا ، ثم تحاول تبرير هذا وتحرف قيمًا ... في حالة فورة غضب من استفزاز متطرف يتلقى الجندى هذا وهكذا يتصرف: إنهم حقيرون ، قذرون ويثيرون الغضب ، هم فى الحقيقة أقل من بشر ، من حقى أن أكسر هراوة على ظهورهم .

" هناك ظاهرة أخرى مثيرة للقلق وهى التطرف فى الآراء السياسية . من ينتمى إلى اليمين يزداد تطرفًا ومن ينتمى إلى اليسار يرى الإفساد ، ويقول " إذا لم أعارض أكثر سأجرف " . وليكن واضحًا : الصورة هى أن ٨٠٪ يمينيون متطرفون . ولست أعرف خياراً أضمن من هذا ، لحروب أهلية فى السنوات القادمة ، إذا لم نجد وسيلة لتهدئة الحريق " .

" الأمر الثانى الذى نفعله معًا هو بلورة معايير جماعية ، تحدد بصورة مطلقة ما هو المعقول عمله على أرض الواقع . ربما تكون هذه المعايير قاسية ووحشية فى نظر قسم منهم - ولكنها أفضل من إبقاء القرار على عاتق الفرد - فالمعايير لا تحددها القيادة الحائرة المرتبكة ، ولكنها تُخفف جداً على ضمير الفرد وتمكنه وتتيح له مدى معيشة نفس . والاستنتاج هو بصراحة تقليل المسئولية الشخصية وتنمية معيار جماعى واق ".

ها أنتم ترون ، أن هذا الطبيب النفسى يتحدث فى الفترة الأخيرة ماذا يفعلون لصالح الجنود على أرض الواقع ، هنا والآن ، باستثناء توقع نهاية الاحتلال ، ملاحظة شخصية : كلامه يعد من الكلام الذى قهرنى جداً فى جميع وثائقى ، خاصة وأن وجهات نظره العامة ومعطياته الشخصية قريبة جداً من وجهات نظرى ومعطياتى .

تحليل : إنه يقترح أن نفعل للجنود أفظع شىء ، بمفاهيم إنسانية ، يمكن أن يحدث أن نلغى الضمير الشخصى لكى يهدأوا ويؤدوا مهامهم بنجاح . بدلاً من تقوية صمودهم الأخلاقى وتعريفهم بمسئوليتهم الشخصية ، فإنه يسعى إلى أن يحيد " بصورة مطلقة " (!) الضمير الشخصى والمسئولية الشخصية لصالح " معيار جماعى " ، هكذا دائمًا فى التاريخ أطلقوا عنان كل وحشية ، إن خصى الضمير بدون إبقاء ذيول وتوابع هى عملية غير ممكنة بالطبع . ولكن فى الواقع ، فإن هذا العضو الداخلى قد سحق بسهولة وزرع تحويلات معايير جماعية ("ربما قاسية فى نظر قسم منهم ") فى الوثيقة الآتية ، يشهد على نفسه بأنه استوعب المعيار الجماعى وهو يتفق مع المعيار ولا يطلب فى مساعدة سيكلوجية أو غيرها :

لم تصلنى أية شهادة عن أية حالة عكسية ، لأطباء نفسيين عسكريين تم إرسالهم إلى الجنود من أجل أن يساعدوهم فى تجنب المساس بـ " طهارة السلاح " ، ويقوون عزيمتهم فى الصمود ضد ميل زملائهم إلى سوء المعاملة والقسوة والبهيمية و الـ" تجاوزات " .

وثيقة الأبن الذكى ، الذى يعرف بأنه ليست هناك وسيلة أخرى ، يجب ممارسة اللعبة حتى النهاية "

وصف اللعبة :

" أنا ضابط فى الخدمة النظامية " ابن كيبوتس ، أخدم في المناطق (الفلسطينية)

لا تشفقوا علىَّ ، لا تشاطرونى حزنى ، فأنا إنسان راشد لا أرغب فى أن يقولوا كيف أتصرف كجندى فى المناطق ، لا احتاج إلى مساعدة الكيبوتس الذى انتمى إليه . وإننى مستعد لتنفيذ هذا العمل النتن العفن وأؤديه على أكمل وجه . ولكننى أطالبكم أنتم المدنيون أن تصرخوا ، بكل وسيلة ممكنة لإنهاء الوضع الحالى للاحتلال " .

" ... إننى أقول لجنودى ، أن من يعتقد بأنه يستطيع أن يكون لطيفًا مع السكان ويتصرف بشكل يقلل الكراهيـة لا يجب أين يوجد ليـست هناك وسـيلة أخـرى للاحتـفـاظ بالمناطق . فالاحتلال والإنسانية لا يسيران فى طريق واحد ولا يتفقان . والسؤال هو ليس ماذا سيفعله بنا هذا ، بل ما الذى فعله بنا فعلاً .

" إن الإنسـان مخلوق قادر على التكيف . فالجنود الذين لم يكونوا منذ أسبوعين أو ثلاثة قادرين على ممارسة الضرب يفعلون هذا اليوم بسهولة ، ليست لديهم أية مشكلة فى التنفيذ وإننى اتفق مع سياسة الضربات . فقد أثبتت فعاليتها على أرض الواقع . هذا رد صحيح ، بشرط أن يكون لفترة قصيرة . لأنه من الواضح لى أنه سيكون هناك هدوء ثم بعده تفجر فى الوضع وهكذا دواليك .

إننى أثور عندما أسمع عن مظاهرات ضد سياسة الجيش الإسرائيلى فى المناطق . لأن معنى هذا أنتم تقولون أنه يمكن استخدام سياسة أخري . وأريد أن يفهموا أنه ليست هناك سياسة أخرى . جيش الاحتلال يجب أن يمارس اللعبة حتى النهاية ، ليست هناك وسيلة أخرى"

" الأوامر لدينا أن ترد على أية محاولة استفزاز وتحدي فى حالة فرض حظر التجول ، والتعليمات هي عدم السماح لأى أحد بالتجول . وهم يحاولون اختبارنا : يرسلون أولاداً فى سن الرابعة إلى خارج البيوت إلى الشارع . ما الذى يمكن عمله ؟ نمسك بمثل هذا الولد ونرغمه على أن يقول لنا أين يسكن . وندخل إلى البيت ونضرب والده بشدة . وفى المخيمات، هرب قسم من الرجال فى الأيام الأخيرة ، فى ساعات الليل ، معظمهم للعمل فى إسرائيل ، وبقى فى البيوت النساء والشيوخ والأطفال ، ولكن محظور علينا ألا نرد ، وعليه فإننا نضرب - نضرب المرأة ، كان هذا من المحرمات ، لا نقترب . وإننى بشكل شخصى ، أنحى الهراوة جانبًا، وأوجه إلى المرأة صفعات قوية ، تؤلم وتُخيف . أمسكنا بعجوز كان متوجهًا للصلاة فى فترة حظر التجول . وقامت كل دوريتنا بتمثيل مسرحية ضربات وصيحات المهم أن يسمع كل الحى ويعرف . محظور الابتسام ، ولا حتى للأولاد ، عندما نريد أن نخيف يجب أن نقوم بدور الأشرار والقساة . وإننى الذى لم أكن أرفع يداً على إنسان ، بدأت اعتاد على ذلك . الفكرة هى إشاعة الخوف وأن يكون واضحًا تمامًا ، أن الفترة الأولى التى فعل فيها السكان فى المناطق ما كانوا يريدون ولم يكن لدينا ردود ، لن تتكرر ... ".

" حالات أصعب كثيراً تلك التى نجد فيها فى البيوت مخزونات كبيرة من السكاكين والهراوات ، أو حالات محاولات استفزازية لاجتذاب جنود إلى بيت ملىء بالرجال من خلال نية لاختطاف سلاح . وهؤلاء نقوم بضربهم بدون حساب ، ونكسر عظامًا ، لا نخرج بدون أن نترك إصابات تحطيم الأطراف " .

" ... تعالوا نسمى الأمور بمسمياتها ، هذه سياسة تحطيم عظام بغرض الردع ، وبث الخوف. وإذا بقينا مستقبلاً فى المناطق ، هكذا سيحدث وأيضًا أسوأ من هذا ... فإذا قام أحد من السكان بكتابة اسم م . ت . ف . على الحائط أو يرفع علمًا ويشعل النار فى إطارات سيارات ... سنكسر عظامه . نحن نبثت أننا أشرار وحتى أشرار جداً .

عندما يبكى طفل صغير ، لأنه يرانى ، أنا الجندى الذى يرتدى الزى العسكرى ، عندها أقول لنفسى : قمت بعمل جيد . وهكذا سنتصرف طالما نحن هناك . الخيار الوحيد هو الخروج من هناك! .

" ... لا يمكننى ألا أتوصل إلى استنتاج بالنسبة لزعامة الحركة الكيبوتسية الموحدة ، حيث أن المقصود جهة نفعية شبعانة تهتم بنفسها . وإلا فإننى لا أستطيع أن أفهم عدم الاكتراث واللامبالاة والموافقة على الخط الحكومى .

" ... الجنود في الميدان ، يبدأون إن عاجلاً أو آجلاً ، فى كراهية السكان فى المناطق ، كراهية جماعية . هذا فى نفوسنا ونحن لا نفهم هذا ، ليس هناك طريق وسط ، الاحتلال سيحولنا إلى دولة شرطية ذات نزعة قومية متعصبة " .

تحليل : تبين الوثيقة بوضوح كيف يعمل الجهاز الداخلى الذى يمكن إنسانًا أخلاقيًا وصاحب مبادىء متينة من ارتكاب أعمال شريرة . وتعكس أيضًا كيف تستطيع دولة كاملة الصمود فى هذا ومواجهته . فالضابط لا ينفذ أوامر وسياسة فقط ، إنه يؤمن بأنها صحيحة ، وليس هناك من وسيلة أخرى . ولصالحه ينبغى أن نذكر أن أية شخصية جوهرية فى بيئته الإيديولوجية والاجتماعية لم تعتقد وتقول أن هناك وسائل أخرى . ففى مقابل الجندى البرىء الذى يستصرخ المساعدة (يصرخ من أجل المساعدة) يعرف هذا الضابط الذكى والعنيد أنه لا ولن توجد مساعدة ، وأن زعماء حركته (الحركة الكيبوتسية الموحدة) هم " جهة نفعية تهتم بنفسها فقط " . وتجدر الإشارة أيضًا والتأكيد على أن الأمل المسيحانى لـ " اليسار

الصهيونى " بشأن نهاية الاحتلال التى ستأتى مع الحل السياسى قد ساعده فى تبرير وتنفيذ سياسة القمع بلا حدود ، لأنه " ليست هناك وسيلة أخرى " وحقيقة ، أن " الجنود فى الميدان يبدأون إن عاجلاً أم آجلاً فى كراهية السكان فى المناطق ، كراهية جماعية " حصلت على مصادقات من مصادر كثيرة ، ولكن " اليسار الصهيونى " الذى أرسل أبناءه للقيام بالعمل "على أفضل وجه " بحسب كلام يوسى ساريد ، لم يبد دلائل قلق .

حديث مقاتلين ١٩٨٨ : وثيقة الإبن الذى لا يعرف أن يسأل الإنسان الذى كسّروا عليه هراوتين كيف نجح فى أن يكتسب مناعة وألا يشعر بألم

(عريس عاد من فترة خدمة احتياطية فى مناطق الانتفاضة ، ليس فى مهام تكسير عظام وبث خوف ، بل فى حراسة سجن الفارعة ، وقد سجل فى دفتر مذكراته حديث المقاتلين ، زملائه والجنود النظاميين الذين خدموا هناك . مقاطع من مذكراته التى نشرت فى جريدة الكيبوتس الذى ينتمى إليه) :

" رشقنا بالحجارة فى رؤوسنا ، إنها ليست حجارة ، بل بلوكات ! ويقول القادة طوال الوقت لا تطلقوا النار هنا لا تطلقوا النار هناك ... لو كنت مسئولاً لأصدرت أمراً بإطلاق النار عليهم جميعًا . ٥٠ جيفة قتلى ، وسوف ترى أى هدوء يكون هنا ، هدوء مقبرة " .

" نعم ، هذه هى فقط اللغة التى يفهمونها ... "

" ... ولكن ليسوا جميعًا يخافون على هذا النحو . كان هنا أحدهم فى التحقيق كسّروا عليه هراوتين ، ولم يرد ولم يستجب ، إنهم محصنون (لديهم مناعة) ، لايشعرون بالألم ويستطيعون أن يغسلوا وجوههم بالغاز المسيل للدموع ولا يحدث لهم أى شىء "

" هل دخلت ذات مرة إلى بيت عرب ؟ أنت محظوظ ، كنت سأختنق فقط من الرائحة الكريهة . نعتقد أننا نعاقبهم بالسجن ، ونضع ٢٠ فى غرفة صغيرة بدون نور ودورة مياه بالنسبة لهم هذه دار نقاهة ، ففى القرية الوضع أكثر ازدحامًا ونتانة بالنسبة لهم "

" ... ذات مرة كان العربوش (لقب ازدراء للعربي) يحصل على عشرة شيكلات فى مقابل عمل يوم طويل ثم يقول شكراً ، أما اليوم فإنه يساوم وهو يحصل على ٢٠ شيكلاً . لقد أفسدنا هؤلاء الحثالة . كل واحد منهم مليونير ، ماذا يضيرهم هنا ؟ توجد أرض وتوجد مياه وتوجد كهرباء ، كل شيء مجانًا ومعفى من الضرائب ، صدقنى إنهم يعيشون أفضل منا".

سيكون فى تحليل هذا الكلام ما يعتبر بمثابة تكرارلتحليل أنماط اللاإنسانية فتعبير " ٥٠ جيفة قتلى وسترى أى هدوء سيكون هنا " ، يجسد عملية التآكل الأخلاقى الذى وصفناه من قبل . هذا نموذج واحد من نماذج كثيرة ، على أنه إذا لم نضع حدوداً لشرعية أخلاقية للتعبيرات ، فإنها ستحصل بذلك على شرعية أو بكلمات المهاتما غاندى " كل ما هو مطلوب لانتصار الشر هو ألا يفعل الأشخاص الطيبون شيئًا " . إن الكلام الذى يكرره هذا الشخص فهو صدىً ، تصريح عضو الكنيست بانى شليطا فى بداية الانتفاضة ، الذى قاله ولم يسبب له لاشرعية بمدلول اجتماعى أو قانونى . والإجابة على السؤال ، هل كان بانى شاليطا أو الجندى الذى قال هذا سيصدر فى الحقيقة أمراً بقتل ٥٠ شخصًا لو كان مسئولاً الإجابة هى: من شبه المؤكد لا " بسبب الأسباب التى شرحناها بتعمق فى الجزء الأول . وفيما يتعلق بتغيير " استراتيجى لدى المتعصبين الذين يتولون مراكز مسئولية . والإجابة على السؤال ، هل كان هذا الجندى سينفذ أمر إطلاق النار على جمهور لكى يقتل ٥٠ " جيفة حقيرة " ، لو تلقى مثل هذا الأمر ، هى " من شبه المؤكد نعم " . وأود أن استخدم هذا النموذج لكى ادعم موضوعًا مبدئيًا نوقش سلفًا ، فيما يتعلق بالعلاقة بين " يسار " و " يمين " ، الإيديولوجية والسيكلوجية . وكان الموضوع كما هو معروف هو : ما يحسم فى الأمر فى الحقيقة فى الصمود السياسى فى نزاع مسلح هى " السيكولوجيا ، أى لا إنسانية فى مقابل إنسانية وليس الموقف السياسى وفى هذه الحالة أحد المتحدثين هو " يسارى " إيديولوجى :

" لكن هل أقول لك الحقيقة ؟ يجب إنهاء هذا الموضوع . إما أن يرسلهم إلي حسين أو أن نتخلص منهم أو أن نخرج منها وهو الشيء الأسرع ونتركهم لوحدهم . فليأكل كل منهم الآخر. ولست مستعداً لأن اتعرض للرشق بالحجارة فى رأسى ، وأن أقضى كل سنة ستين يومًا خدمة احتياطية فقط لكى أحافظ على حجر ما بال عليه فاسد ما قبل ٢٠٠٠ سنة " .

وثيقة الابن الأكثر شراً فى شعب إسرائيل : مع شجاعة بأن هذا خوف رهيب وباعث غير عادى بشكل يتجاوز كل شىء :

تأتى هذه الوثيقة لكى تشهد أولاً ، على أن الجيش قد طور وسيلة ناجحة جداً لمواجهة الانتفاضة ما كان من المفترض أن تصيب جماهير بل أولئك الذين يراد وضع اليد عليهم والإمساك بهم . وهذه الوسيلة هى وحدات المستعربين . والابن الشرير ليس بالضبط إبن بل رائد الاحتياط الذى تجند من أجل أن يقوم بتدريب جنود شبان فى هذه الوحدات . وهو أيضًا ، بحسب رأىّ ، أكثر حماقة من الشرير ، ولكن إذا كان أحمقًا ، فإن الصحفيين الذين نشروا كلامه (ملحق نهاية الأسبوع فى صحيفة معاريف يوليو ١٩٩١) هم " أشرار " لأنهم لم يسألوه أى سؤال وثيق الصلة بالموضوع من أجل أن يستطيع أن يفحص ويدقق ويوضح النوعية الموضوعية لوحداته المطلقة العنان ، التناقضات ، المغالاة الوحشية . وكأنهم لم يحسوا باللاأخلاقية " الاحترافية " لهذا المنتج لثقافة الماتشو الإسرائيلية :

" أفضل رفاق فى شعب إسرائيل ، خلاصة الخلاصة "

" ... أفضل شباب لدينا ... كيف يقولون اليوم شباب ١٠ ؟ إذا هؤلاء الشباب هم ١٧ ... ملح البلاد ، صفوة الصفوة ":

" لقد تطوعت ... عمل هؤلاء الأشخاص ليلاً ونهاراً ليلهم كنهارهم ، كانوا يمثلون وحاضرون دائمًا بدون كلمة شكوى . مجموعة رائعة مع باعث ودافع غير عادى ..ليس من أجل أن يحصلوا على جائزة ، بل فقط إرادة قوية وحقيقية ومن خلال إيمان كامل بأن ما نفعله ونقوم به مهم لأمن الدولة ... هذا يفوق كل تصور .. على الرغم من كل شىء استمرينا فى العمل لأننا اعتبرناه رسالة ... " .

" ... أى ذكاء فكرى حاد ، أية يقظة وحيوية ونشاط ، أية مهارة ، أية شجاعة يحتاجها هؤلاء الأشخاص ، أنا مستعد لأن أذهب مع هؤلاء " الأولاد " إلى أى مكان فى العالم وأنا مغمض العينين ... عندما يقفز عليك ٣٠٠ شخص مع بلطات ... إنه شىء مخيف جداً أية شجاعة يتحلى بها هؤلاء الرفاق أنه لشىء رهيب " .

" ... تعليمات إطلاق النار لم تكن من شأننا ... الحفاظ على طهارة السلاح هى قيمة عليا بالنسبة لهؤلاء الشبان "

" وإننى أريد أن أرى أولئك المرهفى الأحاسيس الذين يجلسون فى بارات تل أبيب ، فى بيبر أو فى زيجل " ويوجهون الانتقادات . إننى أريد أن أرى هؤلاء المرَهفى الأحاسيس الذين يجلسون والكؤوس فى أيديهم ويثرثرون ، يذهبون لإخراج قاتل بسكين وبلطة ، من أى زقاق مظلم فى نابلس ... " .

فى محاكمة لواء جفعاتى عندما صرخ اليسار بأنهم يأخذون أولاد حديثى السن ويفسدونهم هل كان هذا الغرض توجيه الانتقاد ؟ لقد كان هذا استغلالاً ساخراً للموضوع لأهداف سياسية".

" قال أحد هؤلاء القادة ، إذا جاءت شعبة التحقيقات فى الشرطة العسكرية إلىَّ فى بيتى، فإننى بعد أول تحقيق سوف اشترى تذكرة إلى اتجاه آخر (أى مغادرة إسرائيل) .

تحليل : من ناحية الخطورة ، هذا أمر خطير جداً عندما يظهر ما يعتبر بمثابة إنسان آلى أخلاقى أحمق ويقبل الجمهور ظهوره دون تحفظ ، وبإعجاب وبتعاطف .

لأن هذا الأمر يعكس المستوى الأخلاقى للجمهور ، وتدل الوثيقة على الحضيض الذى وصلت إليه ، فى حالات كثيرة ، التغطية الإعلامية للانتفاضة بمرور الزمن ، لم يسأله الصحفيون حتى كيف يتفق الخوف والجبن من تحقيقات الشرطة العسكرية ويتمشى مع الشجاعة وكيف أن النزوح من إسرائيل بسبب الخوف من المحاكمة طبقًا لقانون الدولة يتفق ويتمشى مع إرادة قوية وحقيقية لخدمتها من خلال إيمان كامل بأن هذا العمل هو بتكليف منها .

جـ - انطباعات جولة فى بلاد القسوة : مشاهد ، روائح ، أصوات :

اثنان من رجال جهاز الأمن العام السابقين الذين أجريت معهما مقابلات صحفية بتصديق من قادتهم سابقًا (هارتس ١٩٩٠/١/٥)

" لقد درست علوم الأحياء فى الجامعة وأعرف قليلاً عن جسم الإنسان وأعرف أن الإنسان يمكن أن يصاب بنزيف فى المخ فى منتصف الشارع . إننى لا أقول قد مات فى زنزانته ، إننى

اعتقد بالتأكيد أن شخصًا ما وجه إليه ضربات لابأس بها . ولكننى لا أعتقد أن هذا محقق . يحتمل أن يكون هذا شخصٌ ما من الجهات العاملة فى الميدان - حرس الحدود أو الإدارة المدنية ولديهم هذا ليس مخالفة بل مشكلة ... عندما نحضر معتقلاً إلى الإدارة فإن كل شخص سيء وتافه يوجه إليه ركلة " .

أعضاء وفد " أطباء من أجل حقوق الإنسان " من الولايات المتحدة

" يشير حجم ونطاق وشدة وباء عنف الجيش الإسرائيلى فى المناطق (الفلسطينية) إلى أن هذا مبدأ وقاعدة سلوك ... فعدد السكان الذين أصيبوا فى أعقاب استخدام القوة فى الشهرين الأخيرين يزيد بعشرات المرات عن المعطيات التى تعلن عنها جهات رسمية فى إسرائيل (هارتس ١٢/٢/١٩٨٨) .

رون بن يشاى (يديعوت أحرونوت ٢٢/١/١٩٨٨) :

س : هل أدى تواجدك هنا إلى تغيير نظرتك للعرب ؟

ج : نعم . ذات مرة كنت فى الوسط (المقصود تيار الوسط فى الخريطة السياسية) واعتقدت أنه يمكن العيش مع العرب . ولكن الآن أرى أن هذا صعب . واتجاهى الآن هو حركة هتحيا ، وربما أيضًا إريئيل شارون " .

إن النتانة والرائحة الكريهة فى أزقة المخيم أصعب من أن تحتمل . المجارى التى طفحت على ضفتيها ، تتدفق بلا عوائق فى الشارع الرئيسى فى اتجاه الصيادين . وفئران ضخمة تقفز فرحًا فوق أكوام القمامة التى بدأت فعلاً تختمر وقطط سمان تطاردها لاصطيادها . عشرة من رجال لواء جولاى يحملون هراوات ، وقنابل غاز مسيل للدموع وطلقات مطاطية يتحركون بسرعة فى مسار متعرج من حى ٩ إلى حى ١٠ ، من هناك إلى حى ٨ وهكذا دواليك . ويغيرون كل بضع دقائق الاتجاه لكى يفاجئوا من يخرقون حظر التحول ويخففون رتابة وملل الوضع الروتينى .

فى زقاق جانبى ، من خلال خرق صريح لحظر التجول ، تنزل بضع عشرات من النساء اللاتى ينسن ترصدن وتترقبن وصول شاحنات الأغذية فى شارع ناصر ، وتغلق الدورية الطريق أمامهم فتتوقفن وتبدأن فى الندب والنواح والصراخ بأصوات عالية تصم الآذان . وتلقين بالتراب وتسبن وتشتمن الجنود ... "

" إننى بصفتى قائد كتيبة أعطى الجنود بصراحة شرعية ضرب الرجال ، وأن يضربوا بشدة على أى خرق لحظر التجول فالتعليمات تسمح لنا بضرب النساء وأحيانًا يجب على المرء أن يفعل هذا فإذا لم نرد هنا بشدة فإنهم يمزقونك فوراً إذا كانت هذه بهيمية ووحشية ان تفعل أحيانًا أشياء خلافًا لسلم القيم التى تحددها لنفسك ، هذا يحدث هنا ولكننى أعرف كيف أفصل بين أنا كنمرود وبين أنا كجندى نعتقد أن أسلوب العمل الذى نتخذه هنا هو أسلوب سليم لأنه ليس هناك أسلوب آخر " .

عمانوئيل روزين (معاريف ١٩٨٨/٣/١٨) :

" من لبنان كان الجنود يعودون مترعين بالرعب والأسى والحزن . فشحنات المتفجرات على جنبات الطريق أعملت فيهم قتلاً زملاء كثيرون قتلوا الإحاسيس تلونت باللون الأسود . ومن المناطق (الفلسطينية) يعود الجنود حائرون ، مضطربون وكارهون . يخجلون من أن يتحدثوا فى البيت عما يجرى ، ويخجلون من قراءة صحيفة . غاضبون من كل العالم".

تقف امرأة فى مدخل بيتها ، على مسافة مترين من الجنود ، وفى يدها اليمنى حجر كبير وتمسك بابنتها باليد اليسرى وتأمر الابنة بأن تشير بعلامة النصر "V" فى مقابل وجوه الجنود وترفع الحجر ويصيح مدفعى أحمر العينين بصوت مبحوح من الغاز " فلتدخلى إلى البيت أيتها النتنة " فتقول المرأة وهى تخرج لسانها " لا أريد " فيصيح قائلاً : سوف أضاجع صورتك يا عاهرة " وهى تضحك " عاهرة " بح صوته وهو يركض صوبها

فتدخل وتخبط الباب الحديدى فى وجهه ، فيستشرى غضبًا ، وينقض بمؤخرة البندقية على الباب ويصيح . واقترب زميله لتهدئته ، ويمسك برأسه بكلتا يديه ويهمس له بشىء فى أذنه هناك شخص ما يقول لقد انقضى السبت ، ويبصق على الطريق .

بعض مستوطنين ، من سكان مستوطنة جينوت شومرون المجاورة ، تعطلوا على هذا الحاجز الجنود لم يسمحوا لهم بمواصلة سيرهم ، وصاح أحد المستوطنين " أغبياء بلهاء ليست لديكم فكرة " . ثم يضيف رفيقه قبل أن ينصرف ، بغضب شديد : " يجب إحضار كل المستوطنين إلى هنا لكى يعلمونكم ومتسناع (عمرام متسناع ، قائد المنطقة الوسطى سابقًا ، رئيس بلدية حيفا حاليًا) كيف تفرقون مظاهرة " وأضاف مستوطن آخر . حريدى (من اليهود الحريديم المتزمتين دينيًا) من سكان مستوطنة عمانوئيل . نقتل ٥ دفعة واحدة وكل شىء سيصبح مستقراً " وصاح المستوطن الغاضب أنتم جنود أنتم ؟ "

ولكن الجنود ، من وحدة تسمى وحدة خاصة كظموا غيظهم وتحلوا بالصبر ، وفقط عندما فُتح الحاجز ودخل المستوطنون إلي السيارات وساروا فى طريقهم . صرخ أحد الجنود بحنجرة مخنوقة : " توافه ، حسالات ، بسببكم أصلاً نحن هنا " .

و " يؤنبنى الضابط : فلتبتعد من هنا أيها الأحمق لقد قالوا لك أن هذه منطقة عسكرية مغلقة ! لماذا أنت هنا ؟ .

وأحاول أن أقول للضابط أن أحداً لم يقل ذلك ، ولم تكن هناك حواجز وإننى كنت ذاهبًا . ولكنه لا يصدق ما الذى حدث فجأة لكى يصدق وسائل الإعلام . وهو يشير لجنوده : ياللا ، تعالوا نتركهم لوحدهم ، فليقتلونهم ، ياليت " .

ب - قضية " يخرب بيتا " :

لقد وقع الحادث فى قرية بيتا شمال الضفة الغربية بعد ثلاثة أشهر من نشوب الانتفاضة . وخلافًا للأحداث العادية فى البلاد لم تكن هذه الانتفاضة حادثًا محليًا ، بعيداً عن العين والقلب من حيث أنها يشارك فيها فقط سكان فلسطينيون وجنود ، بل تحولت إلى حدث قومى مركزى . وقد جسد هذا الحدث أكثر من أى شيء كيف تسيطر الأخلاق المتعصبة على روح كل الدولة وتدفع سياستها ، ويبدو يتحقق هنا كاملاً تنبؤ يعقوب طالمون بشأن الإفساد الأخلاقى الذى " يجعل أحلامنا الجميلة عن بعث قومى وروحى مثار سخرية وازدراء " .

الحقائق واضحة من البداية ، ووصلت أطقم تلفزيونية إلى قرية بيتا قبل قوات الأمن وبث صوراً لفتيان وفتيات يهود يقفون فى القرية ، وفتيات تبكين وهن تعانقن بعضهن بعضًا ، ومرر جنوب عرب يقومون بإخلاء الجرحى بسيارات إسعافهم .

وذكر على الفور أن العرب سيطروا على الرحلة ، ونزعوا سلاح الحراس الذين كانوا بمهمة تأمين الرحلة واقتادوهم جميعًا إلى القرية ، وأنه قد سقط قتلى وجرحى . وتضمن تقرير قائد المنطقة بعد التحقيق الذى أجراه الجيش جميع الحقائق :

خلافًا للتعليمات ، لم يتم تنسيق الرحلة مع الجيش . وقد هاجمها بالأحجار جمهور من الشبان الفلسطينيين بالقرب من قرية بيتا . وكان الشخصان اللذان يقومان بتأمين الرحلة هما الشاب روميم الدوفى مشاغب ومضطرب نفسيًا معروف فى محيطه ومعروف لدى الشرطة .

والثانى رجل كبير هو مناحيم إيلان ، مستوطن مركزى وطبيعى (أدين قبل ذلك لقيامه بالمساعدة فى إخفاء أدلة تفيد بأن مستوطنًا آخر أطلق النار فقتل طفلة) . وقد منع إيلان الدوفى من إطلاق النار ، بل إنه تبادل معه الضربات . ومع كل هذا أطلق الدوفى النار وقتل فلسطينيًا ، وعندها هاجمت جماهير من الفلسطينيين المتنزهين الذى جاءوا ضمن الرحلة ، وأحاطوا بهم وأرغموهم على الذهاب معهم إلى القرية . وعندما وصلوا إلى القرية رأت إحدى السيدات جثة أخيها الذى قتله الدوفى ورشقته بحجر ، وعندئذ بدأت الحرب العامة . وأطلق الدوفى النار بدون تمييز . وأصاب عدداً من الأشخاص وقتل طفلة واحدة من المتنزهين . وبلغة التقرير العسكرى :

" يمكن من مجمل الشهادات والنتائج التوصل إلى استنتاج مفاده أن ترتسا بورات أطلقت عليها النار من سلاح روميم الدوفى " (يديعوت أحرونوت ١٩٨٨/٤/٢٨) . وهاجم الفلسطينيون ونزعوا سلاح روميم الدوفى وسلاح آخرين . ولم يستخدموا السلاح وأعادوه إلى الجيش بعد ذلك . وقد خاف من قاموا بأعمال الشغب وهربوا عندما رأوا أن هناك قتلى وجرحى . وحاول سكان من القرية كبح جماح من يقومون بأعمال الشغب ، وانقذوا بعض المتنزهين وأووهم فى بيوتهم .

من الواضح من خلال الوقائع أن جزءاً منها ليست مناسبًا أبداً للآراء المقولبة للتفكير المتعصب . وطبقًا للسيناريو المتعصب ، كان يتعين على جهور الفلسطينيين أن يهاجم " مثل حيوانات مفترسة مثل " قوقازيون فى مذبحة " متعطشون لدماء الفتيان اليهود (انظر ما يلى) . وبدلاً من هذا اقتادوهم إلى القرية كأسرى ولم يمسوهم ولم يقتلوهم ، ولكن المستوطنون قالوا بالضبط ما كان يجب بحسب رأيهم أن يحدث . فطبقًا للمفهوم المتعصب ، كان يتعين على العرب أن يستخدموا السلاح الذى نزعوه من المستوطنين الذين كانوا عُزْل بدونه ، وهذا ما ادعاه المستوطنون . وكانت الحقيقة أنهم لم يستخدموا هذا السلاح ، ولم يطلقوا ولاحتى طلقة واحدة . وطبقًا للمفهوم المتعصب كان يتعين على الفلسطينيين أن ينتفضوا كجمهور متعطش للدم وينتقمون من فتياننا وفتياتنا ، وهذا ما قاله المستوطنون . وفى الواقع ، قام أشخاص فى القرية بحماية الفتيان وخلصوهم وأووهم فى بيوتهم (وكانت من بين أولئك الذين

أنقذهم العرب ابنه بانى كتسوفر من زعماء المستوطنين) . ولكن كل هذه الوقائع والحقائق لم تؤثر قيد أنملة على المستوطنين ومؤيديهم فى الكنيست وفى الحكومة ، الذين عرضوا الحادث بالضبط طبقًا لأنماط اللاإنسانية المناسبة لهم . فقد كذبوا عن عمد وتنكروا للحقائق بشدة مطلقة ليس أمام أجانب بل أمام كل الدولة أو أمام كل من لم يقبل روايتهم . وقد نشروا الفرية والتهمة الملفقة بأن الفتاة قُتلت بالسلاح الذى اختطفه العرب من المستوطنين ، وأن العرب فى قرية بيتا ألقوا قنابل يدوية على المستوطنين ، وأن القرية كلها ارتكبت مذبحة ضد المستوطنين . لقد كانت هذه فى نظرى الخاصية الأخلاقية للحادث فى قرية بيتا الكشف التام للكذب المطلق ، والمطلق العنان وبلا وازع وغير الأخلاقى بمدى لا يصدق ، من جانب أشخاص خلقوا هذا الواقع ويقودون كل الدولة حاليًا إليه.

إلى أي مدى كانوا مطلقى العنان ؟ عندما قال رئيس الأركان دان شومرون ، قبل تقديم تقرير التحقيق العسكرى إن الفتاة قتلت من طلقة أفلتت من سلاح حارسهم ، قال المتحدثون باسم مجلس المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية وقطاع غزة أن رواية الجيش قد دحضت، وإن رئيس أركان الجيش الإسرائيلى " لفق لهم تهمة كاذبة " . ولم يقل أحد فى إسرائيل أبداً مثل هذا الكلام من قبل - من ناحية الجمهور كانت خاصية وميزة حادث بيتا تكمن فى أنه كان بمقدور كل شخص فى البلاد لديه مدى متواضع من الاستقامة والنزاهة الأخلاقية ، كان بمقدوره أن يدرك كيف أن المستوطنين ومؤيديهم يتبنون دون أدنى شك وبدون تردد الكذب المكشوف ويرفضون الحقيقة الواقعية والموضوعية فقط لأنها لا تتلاءم مع وجهة نظرهم ومصالحهم ، ولكن رد الفعل فى وسائل الإعلام عبر عن الديناميكية المعروفة للتهم الملفقة مثل تهم كاذبة ، شائعات خبيثة مقصودة وإنكار الكارثة النازية : عندما ينشر كذب تام فى وسط جمهور مستعد لتصديق ذلك الكذب ، فإن ميدان المفهوم كله يتغير ، وأيضًا مفهوم أولئك الذين لا يقبلون الرواية الكاذبة . وكلما قيل الكذب بأسلوب فظ وأكثر عدوانية يتزايد تأثيره، وقد انطبقت هذه القاعدة أيضًا فى حالة قرية بيتا . فالجمهور بشكل عام يقبل بثقة مطلقة رواية الجيش عن أى حادث ، ولا يتصور أو يخطر على باله أن يقبل رواية الطرف الثانى .. وفى هذه الحالة طعنوا فيها بشدة مطلقة جداً إلى درجة أن وسائل الإعلام نظرت وتعاملت مع الحقيقة فى حادث بيتا باعتبارها واقعًا توجد روايات متناقضة بشأنه ولايمكن الحسم بينها .

ولقد مر كثيرون من الشخصيات العامة بالاختبار الأخلاقى للحادث والدرجة التى ستعطونها لهم ستعتبر فى نظرى مكونًا رئيسيًا فى شهادة استقامتهم ونزاهتهم الشخصية . وينبغى أن نشير لصالح الدكتور يوسف بورج العضو القديم فى حزب المفدال ، الذى انتقد قبل ذلك بشدة وحدة مساعدة المستشار القانونى للحكومة يهوديت كارب على تقريرها الواقعى الذى لم يكشف عجز الدولة فى فرض القانون على المستوطنين . وعندما قال الوزيران زبولون همر وحاييم شارير إنه يجب تخريب القرية كلها ، قال بورج ، فى إحدى الحالات الشاذة لمخالفة القاعدة التى تقول بأنه لايمكن المقارنة بين اليهود والنازيين - قال إن هذا يذكره بليدتسيا ، وكانت ليدتسيا قرية تشيكية خربها النازيون بعد أن اغتال رجال مقاومة سرية بالقرب منها هايدريخ ، أحد كبار رجالهم .

ولم ينضم إريل شارون ، على سبيل المثال ، إلى الكذب ، على الرغم من أنه اعتقد أن الجيش أجرى تحقيقًا فى الحادث " بصورة أحادية الجانب " فهو لم ينف أن رجال قرية بيتا قاموا بحماية فتيان المستوطنين . وصرح فقط أن الإشارة إلى هذا أو نشره هو تزلف ومداهنة. فالإخفاء كما يعرف كل رجل دعاية ومتعصب بالغريزة ، أفضل من الكذب ، وقد أظهرت هذه القاعدة فى حادث قرية بيتا عن طريق أن مشاغبين مستوطنين هاجموا أطقم التصوير ومراسلى وسائل الإعلام .

وفى مظاهرة المستوطنين فى مواجهة منزل رابين بالإضافة إلى الشعار " الدم اليهودى ليس مباحًا " حملوا أيضًا شعارات " يخرب بيتا " . وصرحت سكرتيرة حركة جوش إيمونيم ، دانييلا فايس بأن القرية " ليس لها حق وجود " ووصفت الحقائق بأنها مثل حيوانات مفترسة دخلت نشوة عندما رأت فريسة بريئة " (صحيفة حداشوت ١٩٨٨/٤/٧) ، وتكرر هذا الإسقاط لعالمها الفكرى فى ردود فعل كثيرة لمتعصبين وفى مجلة " نيكودا " الناطقة باسم المستوطنين، لم تغب حتى نفس أغاط التعبير عن التعصب التى تعكس مفهوم الزمن التاريخى . وميدان قتالها الأزلى : " من مسافة الأيام رأينا فعلاً الوجوه الهائجة ، الإجرامية، من قرية بيتا ، وفى آذاننا يتردد صدى ضرب حوافر خيول مثيرى الشغب القوقازيين من أرتال حملنيتسكى ".

طلب رئيس المجلس الإقليمى شومرون (كيف ظهرت فجأة مجالس إقليمية فى المناطق ؟ ضم المستوطنات فى الضفة الغربية وقطاع غزة إلى جهاز ونظام المجالس الإقليمية فى إسرائيل

كخطوة إدارية ، بدون أى رد فعل من جانب " اليسار الصهيونى " - بانى كتسوفر طلب هو أيضًا إطلاق النار على العرب الذين يرشقون الحجارة ورفع القيود القانونية على العقاب " التى ليست سوى مماحكة " حسب كلامه ، أى محو الحدود بين دفاع عن النفس ، عقاب قانونى، ومجرد قتل . وقد عبر فى لقاء مع رئيس الأركان عن هذا الكلام الذى أصبح نمطًا دائمًا - المستوطنون يطلبون ويهددون ويحصلون على ما يريدون لدى السلطات : " ما حدث هنا سيشعل نيرانًا كبيرة . الكرة فى أيديكم ، ومن يمكنه أن يتنبأ بالعواقب ؟ إذا لم تفعلوا هذه المرة شيئًا ، بحجم وترتيب كبير يُنهى قواعد اللعبة القائمة ، لن يكون من الممكن وقف أى شىء آخر " .

وأبدى " شباب تسوميت " رأيهم وهو أنه ينبغى ترحيل جميع سكان القرية إلى لبنان وشملت قائمة التصريحات والتفوهات بمقولة تحريض على تنفيذ جرائم ضد الإنسانية - هكذا يُعرف القانون هذا أيضًا - شملت فى نفس المناسبة وزير العدل حاييم شارير ووزير الأديان زبولون همر اللذان قالا إنه ينبغى هدم قرية بيتا عن آخرها (هارتس ١٩٨٨/٤/٢٢) . وكذلك عضو الكنيست جيئولا كوهين " لا يحتمل أن يرشق شخص ما حجراً ولا يواجه برصاصة " ، ورئيس مجلس ألفى منشا " قررنا أن ندعو جميع سكان الضفة الغربية وقطاع غزة إلى أن يطلقوا النار على كل من يرشق حجراً لأنه بذلك فقط يمكنهم الدفاع عن حياتهم" ، ورئيس " شباب حيروت " ميخائيل رتسون الذي طلب فى برقية أرسلها إلى رئيس الحكومة وإلى وزير الدفاع طلب تغيير التعليمات والأوامر و " السماح للجنود ولمدنيين إسرائيليين بإطلاق النار رداً على أى رشق حجارة " ، كما طلبت عضو الكنيست جيئولا كوهين أيضًا إقالة رئيس الأركان لأنه أكد أن سكان قرية بيتا هم الذين انقذوا الفتيان وليس الجيش " .

وفى جنازة الضحية اليهودية التى سقطت في الحادث قُوطعت كلمة قائد المنطقة الجنوبية عمرام متسناع بنداءات من الجمهور بعدم السماح له بالكلام . ودعا عضو الكنيست الحاخام العيزر فالدمان إلى " محو قرية بيتا ، التى ارتكبت مذبحة ضد أطفال إسرائيل . وإلا فإننا سنصبح مثار سخرية وازدراء فى نظر العرب " . ولكن الكلام الذى نقش أكثر من أى شىء آخر فى الذاكرة هو خطاب الحب من قبل رئيس الحكومة يتسحاق شامير الذى ألقى على خلفية دعوات الانتقام من وسط الجمهور ، " إن القلب ليغلى ويهتز لرؤية عملية القتل الوحشية لفتاة من إسرائيل . إن ما يدفع العرب هى الكراهية العمياء . فلديهم كل يهودى ، صغير أم

عجوز، رجل أم امرأة يثيرون التعطش للقتل . نحن نعمل بحب وليس بكراهية . ولكن الحب أكبر وأقوى . وسوف ينتصر " (دافار ١٩٨٨/٤/١٠) .

وقد تمثل التحريض على تخريب قرية بيتا - وربما كان هذا انتصار الحب الذى وعد به شامير - تمثل فى هدم ١٤ بيتًا فى القرية ولايمكن أن نعرف كم من البيوت كان سيهدم لو أن جمعية حقوق المواطن قد حصلت على أمر وقف تنفيذ يمنع الجيش من هدم بيوت أخرى . وفى النقاش الذى جرى فى المحكمة العليا ، اضطر ممثل الدولة إلى أن يضمن أن الجيش لن يهدم مزيداً من البيوت بدون أعطاء السكان مهلة ٤٨ ساعة لكى يستطيعوا الطعن فى ذلك ، وقد حدث هذا بعد أن أعطى الجيش مدة ساعة أو ساعتين فقط لكى يخلوا الحاجيات والأمتعة من ١٤ بيتًا كان قد هدمها فعلاً . وإننى افترض أنه ليست هناك وسيلة أخرى لكى نعتبر الهستيريا التى انتابت سلطات الجيش على هذا النحو ، سوى كثمرة للضغط الذى تعرض له وزير الدفاع رابين عن طريق رد فعل اليمين فى إسرائيل .

إن حادثة بيتا ، كان يجب أن تُسجل ، فى الساحة السياسية ، فى تصرف الجيش وفى الحرب على اكتساب تعاطف الجمهور وتأييده ، كمكسب كبير للمستوطنين أدى إلى تسريع عملية ، الضم المادية والأخلاقية والعقلية . ذلك أن الأقوال التى رددوها قلبت الأخلاقيات الإسرائيلية رأسًا على عقب وتردد صداها فى كل الفراغ الإعلامى ورقصت المؤسسة السياسية الحاكمة على أنغام مزمارهم ، نفذت المؤسسة السياسية الحاكمة تعليماتهم بالضبط . وسوف أورد على الفور نماذج لها علاقة بموضوعنا الرئيسى والمركزى ، وهو الوقفة الأخلاقية للـ"اليسار الصهيونى " .

رد فعل اليسار الصهيونى :

لم يكن هناك رد فعل أخلاقى مباشر من جانب منظمة من منظمات " اليسار الصهيونى " ضد موقف المستوطنين فى حادث قرية بيتا . فقد كررت كل الأحزاب والمنظمات نفس الفكرة ودمجتها " حركة سلام " حتى مع رد استنكار أخلاقى للفلسطينيين من خلال القول : " هذه نتيجة كراهية عمياء وتحريض فلسطينى ضد خطوات السلام " (صحيفة حداشوت ، ١٩٨٨/٤/٧) . ومن ناحية واقعية ، فكما هو معروف ، قام الشبان فى حادث قرية بيتا برشق حجارة ، أى لم تكن فيها كراهية أكثر عنها من مئات حوادث الانتفاضة التى شملت كل

قرية وكل مخيم لاجئين ، ولكن كانت هذه هى المرة الأولى التى تكشف وظهر فيها أن تلك الكراهية لم تكن عمياء ولم تكن عامة : العرب لم يهاجموا فقط بل ساعدوا وأنقذوا يهوداً من مهاجميهم . لذلك فإن افتراضى هو أن تصريح حركة " سلام الآن " كان متأثراً فعلاً من دعاية الفظاعة المتعصبة التى نزلت مثل ضربات مطرقة على الرأس . فى التليفزيون (٣٠/١٠/١٩٩٠) رأوا مستوطنين خارجين على القانون همجيين يهاجمون المصورين بصرخات " زبالة ، زبالة ، أنتم زبالة ...." وقد أحس " اليسار الصهيونى " وكأنه مهدد من قبل غوغاء محرضين فانتابه الخوف والفزع . وقد ربط تصريح حركة " سلام الآن " سبب الحادث بتحريض ضد خطوات السلام ، التى كانت ، كما هو معروف ، شيئًا ما مسئول عنه يتسحاق شامير فى مقابل أولئك الذين قال عنهم " كل يهودى يثير لديهم تعطشًا للدم والقتل" لذلك يجب علينا أن نرى أن يوجد فى ردود الفعل السياسية لليسار الصهيونى جانب أخلاقى أخذ يصبح أقل فأقل معقولية وأخلاقية مع الأعمال والتصريحات السياسية من جانب السلطات فى أعقاب حادث قرية بيتا .

وتولت الحكم فى البلاد حكومة وحدة وطنية تضم شامير وبيرس ورابين ، وسلم " اليسار الصهيونى " بتأييده سياسة القمع فى الانتفاضة ، بسبب هذا المبرر الأخلاقى فقط وهو : يجب على الحكومة أن تعمل على استقرار الوضع فى المناطق استعداداً للحل السياسى الذى تسعى إليه . وقالوا هذا للجنود من مؤيديهم وصدق هؤلاء ذلك ، وأدوا مهامهم فى الانتفاضة كما توقعوا منهم ، إلا أن ردود فعل المؤسسة الحاكمة دحضت تمامًا الافتراض والأمل المعلن لليسار الصهيونى . وأثبتت أحداث قرية بيتا صراحة أن هدف الحكم الإسرائيلى فى المناطق هو خدمة متطلبات المستوطنين ومنع أى احتمال لانسحاب ، ولا شبر واحد .

وفيما يلى ردود الفعل من جانب المؤسسة الحاكمة على حادث قرية بيتا ، التى تشير إلى ذلك :

صرح يتسحاق نافون وزير التعليم ورئس الدولة السابق " يجب علينا أن نستمر فى القيام برحلات تنزه فى أنحاء البلاد " . وصرح على مسامع اليسار الصهيونى ، الذى كانت بالنسبة له الضفة الغربية وقطاع غزة هى المناطق المستهدف إعادتها فى إطار " الحل السياسى " صرح بأن تلك المناطق الموجودة فى نطاق حرب الانتفاضة ، هى " أنحاء البلاد " من أجل رحلاتنا

التنزهيـة . وهكذا ، وبالمناسبة ، امتلك المناطق وجعل منها " أنحاء بلادنا . ولم تحتج جهة منظمة فى " اليسار الصهيونى " ولم تقل ، ماذا هناك ، أولاد إسرائيل يجب أن يقوموا بنزهات فى المناطق المحتلة التى سيتحدد مستقبلها فقط فى المفاوضات فى المستقبل ، والتى تخضع للحكم العسكرى الذى يقمع انتفاضة شعبية .

وقد عبر رئيس الدولة حاييم هيرتسوج بالضبط عن نفس فكرة من سبقه فى منصبه (يتسحاق نافون) بالإشارة الرسمية إلى " اتفاق عام بيننا جميعًا " ، " لا يمكن أن نسمح بأى شكل أن تكون الطرق فى إسرائيل مغلقة أمام متنزهين " (هناك مساحات واسعة فى داخل إسرائيل خارج المناطق (المحتلة) مغلقة أمام المتنزهين لأنها مناطق تدريبات عسكرية) ، وكان هذا أيضًا عمل ضم فى أكثر مجال جوهرى وهو المجال الذى يتعلق بالهوية . إن الكبار والأطفال الذين سمعوا رئيس الدولة يتحدث عن الطرق فى مناطق الضفة الغربية مثلما يتحدث عن " طرق فى إسرائيل " ولم يسمعوا أن أحداً يعرب عن معارضة أو حتى استغراب - لم يستطيعوا ألا يحددوا هوية هذه المناطق التى تمر فيها هذه الطرق ، بأنها ضمن دولة إسرائيل .

طلب حاييم كوفمان ، رئيس كتلة الليكود فى الكنيست ، من الحكومة أن تقيم فوراً نقطة استيطان بالقرب من قرية بيتا ودعا المعسكر القومى إلى القيام برحلات تضم آلاف اليهود فى أنحاء الضفة الغربية ، أى إظهار ملكية هذه المناطق . كما أن هذا التحدى الرئاسى التعليمى التشقيفى المتمثل فى عبارة " الاستمرار فى التنزه فى أنحاء البلاد " قد رفعه بالطبع المستوطنون الذين نظموا رحلات إحياء لذكرى الفتاة التى قتلت فى قرية بيتا فى نفس المسار.

وكانت لهذه الرحلات التى تمت من خلال تنسيق وبمواكبة عسكرية كاملة - كانت لها بالطبع أهداف سياسية عملية بالإضافة إلي الهدف التعليمى ، مثلما قال رئيس لجنة " مأمتس " (التى قادت بعد ذلك حملة التحريض ضد رابين وأوسلو) الذى نظم الرحلة ، " لا يوجد لدينا مصابون كل شىء على ما يرام ، ولكن لا يوجد لديهم أيضًا مصابون - إذاً فمع كل هذا ليس كل شىء على مايرام " (ملحق معاريف مايو ١٩٨٨) .

وقد ضم رئيس الأركان دانى شومرون سياسة الاستيطان والضم إلى الاستيطان الصهيونى. فعندما أجرى معه حديث فى التليفزيون ، فى أعقاب حادثة قرية بيتا وسئل ماذا سيكون الأمر فى النهاية مع الانتفاضة ، أوضح أن النهاية ستأتى مثلما جاءت نهاية الحرب العربية ضد الاستيطان الصهيونى ، شيئًا فشيئًا ، بالصبر ، وفى خلال سنوات كثيرة وبالتدريج . هذا تعبير عن ضم تطابقى تاريخى أمنى تام ، يتناقض بشكل صريح ولا يمكن جعله يتفق ويتمشى مع تفسير وشرح " اليسار الصهيونى " ، بأن للجيش مهمة لإعادة الهدوء إلى المناطق حتى حلول " الحل السياسى " والانسحاب . وتجاهل " اليسار الصهيونى " ما قاله رئيس الأركان فى هذا الحديث ولم يعقب . كما لم يعقب أيضًا على التصريحات السابقة لرئيس الدولة ووزير التعليم . وكان هذا تصرفًا متوقعًا بالتأكيد . ذلك أن دفن الرأس فى الرمال مثل النعامة ، كلما كان هذا ممكنًا ، هو رد الفعل المتوقع ، فى الأوضاع التى يشعر فيها الإنسان الذى يوجه طريقه نحو هدف معين بأنه فى مشكلة ، لأن الواقع لا يماثل مطلقًا ما كان يجب أن يكون ، هناك طبقًا لمفتاح مفاهيمه .

وبقى أيضًا أن نرد على السؤال البلاغى الذى سأله جندى مقاتل فى الانتفاضة ، " ماذا يعتقد القادة أنهم أعطونا الهراوات من أجل أن نحك الظهر بها ؟ " . وعلى ذلك ، وبعد أن اتضح ماذا كان تفكير رئيس الأركان ، اتضح أن قائد المنطقة الجنوبية عمرام متسناع الذى تعرض للإهانة من جانب اليمين قد انضم هو أيضًا إلى التحدى التعليمى التثقيفى واشترك بنفسه فى إحدى الرحلات التنزهية الأولى - عمل قبول عبء أوامر المستوطنين والوقوف إلى جانبهم فى صمودهم الأخلاقى فى مواجهة قرية بيتا وفى مواجهة " الحل السياسى " . وقد أجريت مقابلة مع العقيد جابى أوفير ، قائد قوات الجيش الإسرائيلى فى الضفة الغربية بعد مرور نحو سنتين، مع انتهاء خدمته فى منصبه . وقد مرت به لحظات صعبة من الناحية الأخلاقية ، كما شهد بنفسه فى المقابلة مع عنات طال شير (يديعوت أحرونوت ١٩٩٠/١/١٩) : "اضطررت إلى أن أفرق المتظاهرين بالغاز المسيل للدموع . هل تعرفين أى قرار هذا ؟ أن أصدر تعليمات للجنود بأن يفرقوا اليهود بالغاز ؟ " توجد ندوب ، آثار جروح، لم آمر ولم أعان أبداً من مثل هذه الأمور . أن أرش الغاز على اليهود ؟ وفى إجابته على سؤال للمراسلة ، ماذا كان شعوره عندما أمر بهدم بيت كانت قبل دقيقة من ذلك ترضع فيه امرأة رضيعًا ، لم يجب بشكل مباشر بل انتقل إلى موضوع اليهود ، الموضوع الوثيق الصلة

بالنسبة للاعتبارات الضميرية وشعوره ! : أيضًا منظر شمعون ناڤون ، الضابط الذى أحرق فى الضفة الغربية لا يحتمل ، وأيضًا خط الأتوبيس ٤٠٥ الذى تصرف فيه بطيش ووحشية شخص مهووس ... "

وقد كشفت " تجربة قرية بيتا " المواقف السياسية والأخلاقية للجميع . وحاليًا لا يستطيع الجميع ألايسمعوا ويروا هذا . فرئيس الدولة والحكومة و الجيش وجهاز التعليم ومعظم وسائل الإعلام ، أخذوا على عاتقهم الأخلاقية المتعصبة المصاحبة للاستيطان . وكان يمكن فى سلم التدهور الأخلاقى الإسرائيلى أن نشير إلى المؤسسات الرسمية . بقى فقط الجهاز القضائى - على الرغم من موافقته على أن قوانين الطوارىء ملزمة أيضًا فى المناطق - باعتباره الجهة التى تقف ضد موجة الكراهية والبربرية المتزايدة .

هـ - محاكمة جفعانى :

اتهم أربعة من جنود لواء جفعانى بالقتل ، بعد أن كسروا عظام أحد المعتلقين . لقد عملوا طبقًا للتعليمات . وقد تلا رئيس المحكمة العسكرية ، العقيد عمانوئيل جروس - تلا الحكم بعد وقت قصير من حادث قرية بيتا ، فى جو التحريض وسفك الدماء ومعارضة وضع قيود قانونية على قوات الأمن من جانب المستوطنين والمؤسسة الحاكمة . وأذكر أننى قرأت كلامه وكررته لنفسى جيداً ، فقط لكى أتقوى بالشعور بأننى لست أنا الذى فقدت التناسبات بالنسبة لسلوك أخلاقى ، قانونى ، طبيعى سوى ومُلزم . واعتمدت على هذا الكلام باعتباره تعبيراً موضوعيًا وموثوقًا به للأساس الأخلاقى القانونى الرسمى فى الدولة . واقترح إدخال النص كله على كتب القراءة للتلاميذ فى موضوعات التاريخ والمواطنة . بما فى ذلك الصورة التى انظر إليها هنا : المتهمون تفيض وجوههم فرحة وجمالا . قوة وأمن . مقاطع من النص:

من خلال الحكم الصادر فى " محاكمة جفعانى " (حداشوت ١٩٨٩/٥/٢٦) :

" وجدت على جثة العربى علامات استخدام قسوة يندر أن نجد مثلها "

" .... إن هذا العمل يجب أن يهز ويصدم كل شخص متحضر وكل إنسان ينبض فى داخله إحساس أخلاق وعدل ، وأن حياة الإنسان غالية فى نظره وتشكل بالنسبة له القيمة العليا فى سلم قيم المجتمع الإنسانى ".

" ... وذهلنا أن نسمع تعبيرات كراهية واحتقار وازدراء لحياة الغير ، عندما يكون الغير من ضمن نفس السكان الذين تحكمهم قوات الجيش " .

" ... لقد تملكتنا قشعريرة ورجفة عندما سمعنا شهوداً من ضمن جنود الجيش ، نظروا إلى المشهد المهين لضرب معتقلين مقيدين وعزل وهم غير مبالين ولا مكترثين بما ترى أعينهم ، ويصمون آذانهم عن سماع صرخات يأس الذين يتعرضون للضرب ... بمثابة دمهم مباح ومهدر".

لقد ذُهلنا ؟ ... إنه شيء يهز ويصدم كل شخص متحضر ؟ ... كل إنسان ينبض فى داخله أخلاق وعدل . حياة كل إنسان قيمة عليا ؟ نحن نعيش على سلم قيم مجتمع إنسانى ؟ تكشف بيتا " كراهية وازدراء لقيمة حياة الغير ... بمثابة دمهم مباح ومهدر " ؟ ... وفى نفس الوقت تقريبًا إتُهم أيضًا حاخام المستوطنين موشيه ليفنجر بالقتل وصرح : " هذه تهمة ملفقة أننى قتلت إنسانًا .. ليتنى قتلت " الاستقطاب الأخلاقى فى المجتمع الإسرائيلى كان قد أصبح كاملاً .

و - قضايا بأسلوب قابيل وهابيل :

ادعى كثيرون من " المعسكر القومى " أن الحجر هو سلاح فتاك بكل معنى الكلمة . وقد نشر فى الصحف فى ١٣ سبتمبر ١٩٩١ حقًا ، النبأ الآتى ، هنا نقلاً عن يديعوت أحرونوت :

" تم أمس يأمر المحكمة المركزية فى تل أبيب إرسال بنحاس أسياج البالغ من العمر ٣٠ سنة من مستوطنة ألون موريه ، الذى اتهم بقتل اثنين من رعاة الأغنام العرب بالقرب من المستوطنة التى يسكن فيها - تم إرسالة للعلاج فى مستشفى للأمراض النفسية ... وجاء فى مذكرة الاتهام أن أسياج اقتاد بمسدس زائف ضحيته الأولى من قرية زعموط فى اتجاه قبر قديم، وهناك قيد يديه وضربه بعضا رعاة فى كل أجزاء جسمه وحطم جمجمته بحجر ..."

أما ضحيته الثانية فهو شخص يبلغ من العمر ٥٤ سنة من قرية بيتا المشهورة فى تاريخ الانتفاضة فقد " ضربه حتى الموت وحطم جمجمته بأحجار .. "

وإلى هنا كان يمكن أن يكون هذا أيضًا حالة قاتل محترف مهووس بدون علاقة بالمشاكل الاقتصادية لأشخاص طبيعيين سويين . إلا أننى تذكرت على الفور أنه فى نفس المنطقة

بالضبط قد حطموا جمجمة ولد بحجر قبل ذلك بسنتين . ولد يهودي ، وأنه يوجد فى مستوطنة ألون موريه أشخاص يبحثون عن انتقام . وقد نشر هذا الكلام بتوسع . ويمكن لمن لم يعلم بذلك أن يقرأ فى ذلك اليوم فى صحيفة هارتس أن أسياج قال " إنه نفذ هذه الأعمال بعد أن ظهر له حاخامون (لسبب ما لم يذكر أسماءهم) وأمروه بأن ينتقم لمقتل ولد من مستوطنة ألون موريه " الفرق بين السوى وغير السوى هناك ليس بالضبط ما هو موجود هنا.

إن الأمر مرتبط بموضوع الأخلاقيات السياسية من حيث أن السلطات عرفت فى أوج أيام الانتفاضة أنه يسكن فى الجوار ويتجول والد الفتى الذى قُتل ، مجرم مدمن سابق للمخدرات، مسلح ، يبث الرعب ، فى أوساط السكان ويبحث عن انتقام شخصى - ولم تقم باعتقاله. وعلى ذلك كان مقتل الراعيين قتلاً متوقعًا جداً مسبقًا ، حتى وإن لم تكن هناك أية علاقة مباشرة بين والد الفتى المقتول العاقل وبين بنحاس أسياج غير المتزن عقليًا وغير السوى ، وقد نشرت بتوسع قصة الأب المنتقم فى ملاحق صحيفة معاريف فى الصيف الأول للانتفاضة، وكان يتكون لدى الجمهور انطباع ، وأن يهتز ويصدم من واقع " الغرب الأمريكى " (المقصود فقدان النظام والاضطراب) ، الذى يقوم فى غياب عملى للسلطات .

وقد افتتح الأب الذى فقد ابنه مقصفًا فى مفترق طرق مجاور يستخدم مكان توقف لآلاف من الجنود ورجال الاحتياط ، وتحدث بحرية عن خططه . وقال للصحفى عاموس ليفاف :

" إننى أعرف بأنه سيحكم علىّ بالسجن المؤبد ، لذلك بنيت هذا المقصف ، لكى يكون لأسرتى مصدر رزق " . ومن الناحية الإيديولوجية والاجتماعية اعتبر نفسه قد رُد له اعتباره ، تحت رعاية يانى كتسوفر ، الشريف المحلى ، الذى قال عنه " إنه كل شىء بالنسبة لى ، فهو صديق ، وهو رئيس المجلس المحلى ، إنه شخص متعدد المواهب ، كلى القدرة " ، على الرغم من أنه لم ينجح فى أن يثنيه عن نوايا انتقامه . ولم يقم أحد باعتقاله فى حملات الهدم وسوء المعاملة والقسوة التى مارسها فى التحقيق مع السكان المحليين عن مقتل ابنه ، وتظهر الصورة فى الصحيفة النصب التذكارى الذى بناه من أحجار الصيغة المكتوبة عليه لم تكن ممكنة فى دولة إسرائيل على الرغم من العلم القومى الذى يرتفع فوقه " قُتل بوحشية بأيدى إسماعيليين " (المقصود عرب) . إن الخلفية الطبيعية لنظام الحياة فى المناطق (الفلسطينية) التى تسرى طبقًا لمنظومة القيم المحلية ، تبدو طبقًا للتحقيق الصحفى على النحو الآتى :

" ولذلك فإنه ليس من المفاجأة رؤية نسيم حفا الشاب الذهبى " كما يقول أصدقاؤه ، يتجول بين جبال السامرة (شمال الضفة الغربية) ويبحث عن انتقام . ففى هذه الأيام المضطربة لايمكن للمرء أن يستغرب عندما يحصل شخص تم تسريحه من الخدمة فى الجيش بدرجة لياقة ٢١ ، على تصديق بحمل سلاح وقع عليه القائد العسكرى للمنطقة يدير حديثه معك بينما يده على رشاش العوزى ويصرح دون خشية أو خوف بأنه يُعد لانتقامه بكل التفاصيل . إن ما كان يستدعى الشرطة فى كفار سابا ، يبدو طبيعيًا تمامًا من اللحظة التى تمر فيها بقلقيلية متجهًا شرقًا " (صحيفة معاريف ١٩٨٨/٨/٥) .

ولم يكشف الصحفى ما إذا كان قد بذل جهداً لكى يسأل القائد العسكرى عن تفسير النظرة إلى نسيم حافا ، وكتب وكأنه سلم بالواقع السائد شرقى قلقيلية . وذكر نسيم حافا أيضًا أنه أحضر إلى السامرة أصدقاءه القدامى حيث يقول : " توجد فعلاً فى أريئيل عشرون أسرة من هؤلاء . وكذلك فى مستوطنة جينون شومرون . إنهم يعملون قسم منهم فتح أعمالاً تجارية ، تركوا الجريمة تمامًا ، وبدأوا حياة جديدة " . يحتمل إن بنحاس أسياج قد وصل إلى مستوطنة ألون موريه على هذا النحو . على أية حال لم يسمعوا أكثر عن انتقام نسيم حافا ، ولم يحكم عليه بالسجن المؤبد مثلما كان يخشى ، فى حين أن مصير بنحاس أسياج فقد كان أحسن حظًا فمستشفى الأمراض النفسية فى هذا الجانب من الخط الأخضر هى بالتأكيد مكان مناسب لإعادته إلى حالته السوية أكثر من مستوطنة ألون موريه . إن العلاقة بين شخصية جنائية وإيديولوجية متعصبة موجودة فى أن بيئة متعصبة " طبيعية " مناسبة لهذه الشخصية ، وعلى ذلك فإن ذوى الإيديولوجية المتعصبة الذين هم أشخاص مسئولون يجب عليهم أن ينتبهوا وأن يحذروا . ويؤدى وجود هذه العلاقة فى تاريخنا فى واقعة أخرى انزلقت من مستوطنة ألون موريه إلى السهل الساحلى : أحد أتباع ومريدى الحاخام عوزى مشولام من بلدة يهود ، الذى أطلق النار على طائرة الهليوكبتر التابعة للشرطة وقتله قناص من الشرطة ، كان مستوطنًا من مستوطنة ألون موريه.

ز - التغطية الإعلامية للانتفاضة :

تنتمى الوثيقة الآتية ، وهى المقال الافتتاحى لصحيفة " دافار " من بداية الانتفاضة - تنتمى من ناحية : " الصنف " الأخلاقى إلى الفترة السابقة ، التى كان فيها الجمهور فى حالة صدمة مع اكتشاف " المخالفات والفظائع من إنتاج إسرائيل (التى ارتكبتها إسرائيل) فى

المناطق الفلسطينية وقد اختفى هذا الصنف ألى حد كبير لاحقًا . الأمر الذى يدل على انخفاض فى حافة سلبية الجمهور الأخلاقية . وسأورد هذه الوثيقة بكاملها أيضًا كشهادة تاريخية تطرح حدثًا أصبح منسيًا ، وقد نسيته طوال السنين حتى راجعت الوثائق لغرض كتابه هذا الكتاب ، وفى مثل هذه الأمور فإننى أؤمن ، مثل الجميع ، بالمبدأ القائل بأنه من أجل السلامة والصحة النفسية لأى شعب يجب " أن نتذكر وألا ننسى شيئًا " .

الجرافة ككابوس (دافار ١٦/٨/١٩٨٨) :

من بين جميع مظاهر الاكتشافات المفزعة للعنف والوحشية فى الأسابيع الطويلة للاضطرابات فى المناطق فإن أكثرها فظاعة حتى الآن هى قصة دفن أربعة من سكان قرية سالم بالقرب من نابلس وهم أحياء . حقًا هذا القول مفتوح للاعتراض والطعن فيه ، وذلك لأن عملية الدفن فى نهاية الأمر لم تكن فتاكة ، ويمكن الادعاء وبحق أن موت إنسان – تم حتى الآن إحصاء خمسين قتيلاً فى الاضطرابات – صعب وأكثر نهائية أيضًا مما تمثله المعاملة بقسوة من خطورة ومهانة . وعلى الرغم من ذلك ، فإنه بالنسبة للجيل الحالى من الإسرائليين واليهود تدل عملية الجرافة على أعماق الانحطاط التى يمكن أن يتدهور إليها أيضًا جنودنا ، فلذات أكبادنا .

وليس المقصود هنا إطلاق النار فى أثناء معركة أو مطاردة ، ولا حتى إطلاق النار على جمهور فى ظروف مثار خلاف ولا مذبحة تقع فى أعقاب ذلك . بل المقصود عقاب طارىء تعسفى لسكان أخطأوا فى السكنى بالقرب من حاجز أحجار فى الطريق المجاور لقريتهم .

بداية – كما هو متبع مؤخراً أيضًا بدون أن يثبت من المسئول عن بناء الحاجز – تم إخراج السكان من بيوتهم لإخلاء الحاجز . وبعد ذلك تم إرقادهم على الأرض وداس الجنود على أجسادهم . ثم أمر أحد الجنود سائق الجرافة التى تم إحضارها إلى المكان لكى يدهس بالجرافة الأشخاص الأربعة . وهذه بكل معنى الكلمة دعوة إلى ارتكاب عملية قتل . وفى النهاية ، عندما رفض أن يدوسهم وافق السائق على طلب بديل وقام بكف الجرافة بتكويم تراب ورمل فوق الأربعة . وينسحب الإسرائيليون من المكان دون أن يبذلوا جهداً أو أن يكبدوا أنفسهم مشقة استيضاح مسألة هل اختنق الأربعة فى قبرهم أو هم مايزالون أحياء .

هناك بعض تفاصيل ماتزال تحتاج إلى استيضاح فى هذه القضية (من بينها الدور الدقيق للمستوطن . أب ثكل ابنه من مستوطنة ألون موريه التى تقع فى الجوار) ولكن يكفى ما

قد ثبت فعلاً لكى يُصاب المرء بالقشعريرة والرجفة . حذار أن يقول لنا هذه المرة أيضًا وزراء وقادة فى الجيش ، إن هذه حالة شاذة فقط ، حالة شاذة تم حالة شاذة أخرى تتجمع لتصبح ظاهرة . وعلى الظواهر الشاذة وغير العادية مطلوب ردود أفعال غير عادية ، لكى يتعظوا ، يروا ويسمعوا .

ولا تتركز المشكلة فى الجنود القلائل ، وإن كان غير قلائل يصرون على التصرف كجنود ويعزون إلى الجيش الإسرائيلى كله مثل هذا التشخيص ، هذه مشكلة المجتمع الإسرائيلى كله، بالتعليم الذى يمنحه لشبانه والرسائل التى يبثها لهم بشأن مكان العنف فى الحياة اليومية ، والنظرة اللائقة للأقليات والرعايا . فمنذ اللحظة التى يرتدى فيها الشاب الزى العسكرى ، تصبح هذه أيضًا مشكلة القادة الذين لم ينجحوا فى كبح جماح المتهورين والخارجين على القانون من الوحدات ، خاصة تلك المكلفة بمهمة الاتصال والعلاقة مع السكان المدنيين ، ولم تنجح في فرض انضباط يكبح جماح المنحرفين . كما أن قائد المنطقة الوسطى ، الذى قال أمس أنه لم يشاهد مثل هذا الحدث حتى فى أسوأ كوابيسه ليس هو أكبر مستوى كان كلامه الذى لا لبس فيه يجب أن يُقال ويتردد من قبل . ويتعين علي رئيس الأركان وعلى وزير الدفاع أن يوضحا بصورة علنية وقاطعة . ما الذى ينويان عمله لكى يتم الحيلولة دون وقوع مثل هذه الأحداث . وإن من التزم الصمت حتى الآن وأتاح للأرواح والنفوس الشريرة أن تصل إلى هذه الدرجة ، فإنه لم يدفن فقط رأس الغير فى الرمال .

من نافلة القول أن نشير إلى أن رئيس الأركان ووزير الدفاع (دان شومرون ورابين لم يستجيبا لنصيحة هيئة تحرير صحيفة الهستدروت (صحيفة دافار) التى كانت تحتضر ولم يوضحا بشكل علنى وقاطع أى شيء .

هذه هى الاستنتاجات بالتعميم الضرورى ، عن التغطية الإعلامية للدراما الأخلاقية للانتفاضة :

١ - باستثناء أصحاب الأعمدة الذين يعبرون عن رأيهم الفردى ، فإن وسائل الإعلام الإسرائيلية ، والتلفزيون أيضًا أخفت الجانب الأخلاقى لأحداث الانتفاضة . وفيما يتعلق بالتلفزيون ، فإننى افترض أن الأمر كان مرتبطًا أيضًا بضغط مؤيدى الاستيطان الذى نجح من قبل الانتفاضة فى نقل مراسل التلفزيون فى المناطق رفيق حلبى من منصبه ، بعد أن نقل تقارير تلفزيونية حية من الجانب الفلسطينى . وبصورة مميزة ، فإن معرفة الجمهور للأحداث

الدراماتيكية المأساوية جاءت فى أعقاب خطابات وبيانات جنود احتياط وفى أعقاب محاكمات لمرتكبى " مخالفات " ، والتى بدأت أيضًا بشكل عام كنتيجة لتقارير وشكاوى رجال احتياط ومدنيين إسرائيليين كانوا حضروا ما يجرى فى المناطق ، وليس بمبادرة السلطات أو وسائل الإعلام .

٢ - اشتملت التغطية الإعلامية فى البداية على بيانات مطمئنة من ناحية قانونية أخلاقية بصيغة ثابتة من قبل المتحدث باسم الجيش الإسرائيلى مثل " فتح جنود الجيش الإسرائيلى النار بعد أن تعرضوا لخطر على حياتهم " ، " وبدأت قوات الأمن تحقيقًا فى ظروف الحادث " . وقد اختفت هذه الصياغات بشكل عام بعد فترة قصيرة ، وتحدثت وسائل الإعلام عن حالات قتل مدنيين بأيدى جنود مثلما نتحدث تقريبًا عن حوادث طرق .

٣ - تميزت التقارير عن إصابة وقتل فلسطينيين باللاإنسانية ، أى انعدم فيها الجانب الإنسانى لتقارير عادية عن مثل هذه الموضوعات : فعلى سبيل المثال ، فى ديسمبر ١٩٨٨ ، بعد سنة من نشوب الانتفاضة ، تحدثت الصحافة عن حادثة إصابة فتى فلسطينى بطريق الخطأ ، وهى الحادثة التى كانت فيها كل الأسس الدراماتيكية لمأساة أخلاقية : جنود أمروه بأن يتسلق عموداً وأن ينزل علمًا فلسطينيًا . ورأت قوة أخرى من زاوية أخري الفتى فوق عمود عال ومعه علم فلسطينى فأطلقت عليه النار . هذه نهاية القصة ، بدون أي تعليق أو أية إضافة . وبغرض المقارنة ، فى نفس الفترة تقريبًا حدثت حالات فى الجيش قُتل فيها جنود خطأ بنيران قواتنا فى لبنان ، أو بسبب إهمال إجرامى فى اللعب بالأسلحة و " الروليتا الروسية " ، وقد احتلت الحادثة التى وقعت فى لبنان حيزاً إعلاميًا ، عناوين ومنشتات وتفاصيل وأعطوها ألوانًا وأشكالاً كثيرة على النقيض تمامًا من التقارير المقتضبة عن حالات الموت فى الانتفاضة . وكانت العناوين " كمين فتاك " ، وتم إبراز الجانب الإنسانى كتعبير عن الموت والألم والشعور الكبير بالذنب : " سرية مصابة " ، " فلتفهموننا ولتصفحوا عنا "، " إنهم سيضطرون إلى العيش مع الشعور بهذا الذنب الفظيع طوال حياتهم " . ولم يُذكر أى تعبير مماثل فيما يتعلق بحالات الموت الكثيرة التى وقعت خطأ فى المناطق . إن الأمر يتطلب قدرة خيال قوية لكى تخطر فى الذاكرة عناوين أو قصة إعلامية عن جنود وحدة عسكرية مصابة ويطاردها الشعور بالذنب على أن جنودها قتلوا خطأ أى طفل أو امرأة أو شيخ طبقًا للإجراءات المتبعة . ولم يكن هناك أيضًا اهتمام من جانب وسائل الإعلام بمشاعر وانطباعات مثل هؤلاء الجنود

وتكشف مقارنة التغطية التى أعطتها وسائل الإعلام من ناحية لحالات الموت من جراء ألعاب محظورة بالسلاح ، و من ناحية أخرى ، لحالات موت الفلسطينيين كنتيجة لأخطاء وعوائق مختلفة الانتفاضة ستكشف ، بصورة لايمكن ، فى رأيى ، نفيها ، إنه فى الحالة الثانية تجاهلت وسائل الإعلام الواقع الإنسانى فى تلك الوحدات التى وقعت فيها الحوادث . وفيما يتعلق باللعب بالسلاح انعكست فى التغطية الإعلامية مطالبة جماهيرية قوية بإجراء تحقيق واستخلاص الاستنتاجات التى تمنع وقوع مثل هذه الحوادث فى المستقبل . ولم يُقل أى كلام مماثل فيما يتعلق بالانتفاضة ، ويبدو أن هذا كان من نوع الكلام الذى يقول " لا يمكن أن يتصور أو يخطر على البال " بكل معنى الكلمة ... وفيما يتعلق باللعب بالسلاح ، اعترف المتحدثون باسم الجيش وقال كل الخبراء بأن هذه الظاهرة متأثرة جداً بالجو السائد ، والضغط الجماهيرى والمعايير فى الوحدة . أى أن هذا ليس فقط موضوع " حالات شاذة " ولم يقل أي كلام مماثل فيما يتعلق بالانتفاضة ، وكان هذا مجال عمى آخر . وفيمايتعلق باللعب الخطير بالسلاح ، فإن التغطية الإعلامية تعكس حقيقة أن الجمهور والجيش توجها إلى حاسة المسئولية والضمير لدى الجنود وأثارا المطالبة بأن يبلغ الجنود قادتهم فوراً عن زملائهم الذين يميلون إلى مثل هذه الألعاب . ولم يكن هناك أى طلب مماثل فيما يتعلق بـ " مرتكبى المخالفات " فى الانتفاضة . وتكشف هذا المعيار ، فى أبرز حالة ، ليس عن طريق وسائل الإعلام ، بل عن طريق القاضى العسكرى فى محاكمة جفعاتى ، الذى انتابه قشعريرة عندما أدرك أن جنوداً نظروا بعدم اكتراث ولا مبالاة إلي مشهد قيام زملائهم بضرب معتقلين مقيدين وعزل .

وإجمالا لقد كانت حربًا طويلة جداً وصعبة للغاية ولم يحصل أي جندى على وسام على البطولة التى أبداها فى منع قتل أو تنكيل بعربى ، ولم يهتم المراسلون والصحفيون لماذا لم يحدث هذا فى الحقيقة ، ولاشك فى أن وسائل الإعلام عمومًا قدمت مساهمة فى لاإنسانية الأخلاقيات العامة فى فترة الانتفاضة .

وثيقة يارون لوندون :

تعتبر وثيقة يارون لوندون غير عادية واستثناء فى مقابل التعميمات سالفة الذكر فيما يتعلق بوسائل الإعلام فى الانتفاضة ، كذلك في أسلوب كتابتها . ففى ديسمبر ١٩٨٨ كان يارون لوندون يؤدى خدمته الاحتياطية ويقوم بدور التقديم فى لعب الأزمة فى دورات ضباط وقادة فصائل ونشر انطباعاته بعد أن حصل على تصديق المتحدث باسم الجيش الإسرائيلى

(يديعوت أحرونوت ١٩٨٩/٦/٢) وقد سأل الدارسين فى دورة قادة الفصائل بالضبط نفس الأسئلة الوثيقة الصلة بالسلوك الأخلاقى وحصل على إجابات واضحة . لن نسلم زميلاً يقتل شابًا عربيًا " ، " لن نسلم زميلاً قتل مخربًا مقيداً " ، " من يقوم بتسليمه سيطير من اللواء . وأجمل لوندون ، بجهد لكى يكون واقعيًا ودقيقًا !. " بما أن عينة الوحدات التى تمر لدى كبيرة للغاية ، فإننى استطيع أن أتابع التغييرات فى التوجهات والمزاج من بداية الانتفاضة وحتى الآن . إن التغيير سريع ومخيف . قلوب الجنود الشبان مهيأة فعلاً للاشتراك فى أعمال شنيعة. وبحسب رأيى ، كخطوة فقط بين استعدادهم النفسى وبين تفجر الشر على نطاق واسع".

ح - استعراض تاريخى للمذابح فى إسرائيل مع تحليل سيكولوجى اجتماعى لهذه الظاهرة :

لقد تحولت المذابح فى إسرائيل إلى موجة وظاهرة اجتماعية فى فترة الانتفاضة وبتأثيرها . ومكان هذه الظاهرة فى تاريخ التغييرات التى مرت على المجتمع فى إسرائيل هو أيضًا تاريخ - موضوعى وأيضًا أخلاقى . من الناحية التاريخية فقط ، المذابح هى ظاهرة خاصة فى التاريخ الطويل للشعب اليهودى التى جربها وخبرها ونظر إليها دائمًا من وجهة نظر الضحية . وها قد حدث الآن ، لأول مرة فى ألفى سنة ، انقلاب ! بفضل الصهيونية التى أخرجتنا من زاوية الضحية كانت لنا مذابحنا الخاصة ويتزايد الاهتمام بالظاهرة أيضًا بسبب أن رد الفعل من جانب الجمهور والحكم ، كله فى الواقع ، لم يعترف بأنه توجد حقًا هنا ظاهرة اجتماعية تاريخية . من الناحية الأخلاقية ، المذبحة هى الانحطاط ذاته ، عنف حتي قتل أبرياء ، مشتبه فيهم بدون محاكمة ، أو أسرى عزل لا حماية لهم ، على أيدى جمهور مدنيين وبتشجيع صريح أو خفى من أغلبية الجمهور وجهات فى المؤسسة الحاكمة .

صور :

وصف صحفى لمذبحة فى حى " شموئيل هانفى " فى القدس فى أعقاب الهجوم الذى تسبب فيه مخرب بانقلاب أتوبيس فى الطريق إلى القدس وقتل ١٤ شخصًا (أغسطس ١٩٨٩) . انتبهوا للديناميكية المميزة للعلاقات بين غوغاء وبين من يرغب فى إيقافهم ، بينما الغوغاء لايخافونه :

سائق عربى من المناطق (الفلسطينية) تصادف وجوده فى اختناق مرورى . وصاح شخص ما " ها هو عربى " ، وجرى رشق السيارة برشقات من الأحجار والبلوكات والزجاجات . وأخذ السائق ينتحب ويبكى على مقود السيارة وصاح سائق من إحدى السيارات " كفى اتركوه، اتركوه " . فاحتج أحد المشاغبين قائلاً " ماذا حدث لك ! هل ترى عربى يبكى وتبدأ فى التأثر؛ لماذا لم تتأثر عندما قتل منا ١٤ من الأبرياء فى الأتوبيس ؟ فصمت السائق اليهودى.

فى داخل غوغاء قتل بدون محاكمة : شهادة "ب. ميخائيل " (هارتس ١٨/٧/١٩٩١):

" إننى أقر بأن كل ما سيذكر هنا هو حقيقة ، كل الحقيقة ولا شىء غير الحقيقة ، حتى أصغر كلمة وفاصلة .

فى يوم الأحد ١٤/٧/١٩٩١ ، كنت أسير فى شارع يافا فى القدس .. ليس بعيداً عن ملتقى شارعى يافا وهيلين هاملكا ، كان يقف أتوبيس ، مع أنه لم تكن هناك أية محطة فى هذه النقطة ، وحوله جمهور غاضب ومنفعل . واندفع الأشخاص إلى الباب الخلفى للأتوبيس وهم يلوحون بأيديهم ويصرخون . فاقتربت . ولم أعرف حتى الآن ماذا يحدث . وفى داخل الأتوبيس ، كان يجلس فى مقعد بجانب الباب الخلفى شاب ، رأسه مثبت تحت ذراع أحد الأشخاص . وكان الشاب عربيًا ، ولكن الشخص لم يكن عربيًا . وعلاوة عليهما كان يوجد فى الأتوبيس شخصان فقط . وكان قسم من المحتشدين حول الأتوبيس ركابًا نزلوا منه .

وشيئًا فشيئًا زاد الجمهور وتزايدت الصرخات . وصرخت امرأة من ورائى باضطراب عصبى وتشنج فى كل أجزاء جسمها ،صرخت بكل حنجرتها الغاضبة والتحشرجة : " رددت ألفاظًا بذيئة .....، ..... ، فليحرقوك ، ليتهم يحرقوك ! " وعبارات أخرى كهذه . وانضم شخص آخر إلى الجمهور وسأل ماذا حدث هنا .

فردت المرأة المتشنجة شارحة الوضع قائلة : هذا ابن الزانية العاهرة هذا ، حاول حرق كل الأتوبيس ، الخرا . لقد ضبطناه متلبسًا ابن الزانية ، وفى يده صفيحة بنزين ! سأقلع عينيك أيها العربى النتن ! " .

وتوجه أحد الشبان لاستدعاء الشرطة .

وتزايد الجمهور . وبدت فى الجو رائحة دم وهوس . فمن كل اتجاه ، أخذت الأيدى تخبط بغضب تشنجى أعمى على جوانب الأتوبيس . وعادت قصة المهمة المريعة للمخرب العربى الشرير تحكى مرة تلو أخرى ويجرى تضخيمها أكثر فأكثر من لحظة إلى أخرى . لقد رأوه فعلاً يصب البنزين على رأس طفل ، وأقسموا أنهم رأوه يخرج كبريتًا لإشعاله ".

" ... كما أن الشخص الذى كان فى الأتوبيس (يبدو لى أنه السائق) ، الذى أمسك ، أمسك فقط برقبة الشاب العربى ، أثار غضب الجمهور . وأخذ يوبخه أحد المتجمهرين قائلاً: " فلتحطمه وتكسره ! فلتمزقة ! ماذا تفعل تقف هناك فقط ! فلتكيل له ! .

وقال غوغائى آخر موجها الشخص الموجود فى الأتوبيس : " يا للا افتح الباب وإعطينا إياه " . واستطرد قائلاً مفصلاً الخطة : " نريد أن نحرقه مع البنزين الذى كان يحمله " .

مر فى الشارع شرطى يستقل دراجة نارية ... فأوقف دراجته واقترب من الأتوبيس . وسارع الجمهور وحكى له قصة ما حدث . وحُكى هذه المرة أيضًا أنهم نجحوا فى آخر لحظة فى أن ينتزعوا من يد العربى برميل الوقود الذى كان يحمله . وشق الشرطى طريقه إلى باب الأتوبيس ودلف فى داخله ، وأغلق الباب وراءه ولحقت به . والآن رأيت جيداً الشاب العربى...

" نفذ الدم من وجنتى .. إننى أعرفه ، تعيس مسكين ، مدمن بائس معروف جيداً لجميع من يسكنون أو يعملون فى وسط مدينة القدس ... هذا الشخص مدمن استنون تينر ، وسائر مخففات اللون ذات الرائحة النفاذة والغازات . وهو يجمع الصدقات من أصحاب المحال التجارية ثم يجري إلي حانوت لمواد البناء ، ويشترى بالبروطوت[1] التى جمعها قليلاً من التنر أو الاستون ، ثم يبحث لنفسه عن ركن هادىء ليقبع فيه ولكى يستنشق إلى داخل مخه المهترىء تمامًا بخار هذه السوائل التى تسبب الإدمان . ولا يستطيع هذا الشخص ، حتى إذا أراد ، أن يضر ذبابة ... " .

" ... وبدأ الغوغاء يهيجون . حيث أحسوا بأن الفريسة سوف تفلت من مخالبهم وأرادوا أن يعوضوا أنفسهم بصرخات وزعيق متزايد .

---

١ - البروطا كانت تساوى ١/ ١٠٠٠ من الليرة الإسرائيلية سابقًا قبل إلغائها وهى تساوى الآن مليمًا.

فـهـا هى امـرأة أم لطفل رضـيـع فى عـربة أطفـال ، تركت العـجلة وهجـمت وكـأنـهـا مـصـابة بسعار على جوانب الأتوبيس . وكان يبدو عليها أنها تفعل كل ما فى استطاعتها لكى تهيج نفسها إلى درجة هستيرية تامة . وكانت صرخاتها الأولى يعيبها أنها مصطنعة إلى حد ما . ولكن شيئًا فشيئًا وصل الهوس الحقيقى ، ونضحت غضب وحنق وثيق الصلة بالموضوع على من يحيطون بها : " لتحرق أطفالاً ؟ هلى جئت لتحرق أطفالاً ؟ إننى سأحرق أمك ! دعوه لى ! أريد أن أقلع عينيك بأظافرى . هل جئت لكى تقتل أطفال اليهود ؟ والجمهور يحتد ويردد وراءها بحنجرة بحت من الزعيق والصيحات .. "

" بلهاء شابة ، انضمت للتو إلى الغوغاء ، وجهها ملطخ بالمساحيق الملونة بطبقات كثيفة، بحلقت عينيها بذهول وقالت لصديقتها بصورة مملوءة دهشة والاستغراب الحقيقى : " انظرى انظرى الشرطى ماذا يفعل ، إنه حتى لا يكيل له الضربات ... "

وقد التقط هذا الموضوع الغريب شخصًا آخر من دعاة القتل دون محاكمة ، وهو حقير ومحبط جداً . فقد ارتفع فوق أصابعه وصرخ فى اتجاه الشرطى : " فلتمزقه ، فلتفجره ، فلتمزقة ، فلتفجره ! " .

" ونفذ صبر الشرطى ، وتوجه إلى هذا القزم المتشنج وصاح فيه قائلاً : هل أطلق عليه طلقة فى رأسه من أجلك ؟ هل هذه متعة حياتك ؟ أن ترى كيف أطلق عليه النار ؟ أهذا ما تريده ؟ أهذا ما يجعلك سعيداً ؟! .

وانكمش القزم الصغير وكأن بغلاً قد رفسه . وتمتم فقط بصوت ضعيف : " هل هذا شرطى هذا ... " وخَرس . وبدأ الجمهور يفهم أن هذا ليس هو الشرطى الذى يحقق له أحلامه الندية ثم انتقل إلى بيانات سياسية تتظاهر بالحكمة .

" الآن سيأخذوه إلى مصحة على حسابنا ، بدلاً من أن يشنقوه سيرسلونه إلى مصحة الحكومة ...

" على الفور سيأتى رجال حركة سلام الآن ، ويطلبون الإفراج عنه حتى يحرق مزيداً من اليهود : هكذا تنبأ شخص آخر وجرف وراءه موجة هائلة من أصوات موافقة وتشجيع .

(وقد همست لي غريزة خفية بأن هذه ليست اللحظة المناسبة لكى أطرح أمامهم وجهة نظري السياسية . وبدون انتباه رفعت يدى إلى جبهتى لكى أفحص ما إذا كانت الطاقية الموجودة هناك بارزة بشكل كاف لكى أضلل الجراد الجائع من حولى) .

" ... فتح باب الأتوبيس ووقف رجل الشرطة الذى جاء بدراجة نارية على السلالم ، وارتفع هدير عميق من الغوغاء .

أعلن الشرطى " سأنزل الآن ، وكل من يمسه سأحطم له رأسه ! هل هذا واضح ؟ وهدأ الهدير قليلاً وفحص الشرطى القطيع المتعطش للدم الذى يقف تحت الأتوبيس وفكر فى الأمر بينه وبين نفسه ، وعاد ودخل إلى الأتوبيس ، وتبادل بعض كلمات خبير المفرقعات الثانى ومع سائق الأتوبيس ، ومن ثم عاد ونزل إلى دراجته وابتعد الأتوبيس من المكان وبداخله فقط الشاب العربى والشرطيين مصحوبًا بتيار من الخبطات والبصقات والشتائم وصيحات الجمهور. وبقى فى المكان فقط الشرطى راكب الدراجة النارية ودراجته ... "

" ... لقد كان هذا مخيفًا . كان هذا غوغاء وينادى بالإعدام بدون محاكمة ، ولولا وجود شرطى كفء وشجاع ، ومهما كان سائق الأتوبيس كفئًا وشجاعًا ، ما كان ينجح فى وقف الجمهور . وكان المدمن الأعزل قد مُزق مثل سمكة .

وفى اليوم التالى استمرت فرائصى ترتعد من الخوف ومن الخجل ، خوف فى مواجهة هذه الهوة السحيقة المفتوحة على مداها لكراهية عمياء وحمقاء ، وخجل لأننى لم أرفع صوتى للدفاع عن الشاب (العربى) . وأحاول أن أجد عزاء وسلوى فى الوهم بأنه لو كانت الأقوال تصل إلى أفعال حقيقية كنت ساتدخل ، سواء أكنت أريد ذلك أم لا ... "

ولكن لن أعرف أبداً ، لن أعرف أبداً لو كنت تدخلت فعلاً وأمزق مع العربى مثل سمكة ، أنجو بنفسى من المكان (وأقيىء أمعائى فى أول منعطف طريق) ، أو استمر فى الوقوف مشدوهًا (مقنعًا نفسى بأن هذه مهمتى كصحفى) .

ملاحظة : وفى ختام الكلام ، الذى يتساءل فيه ب . ميخائيل عن مكانه فى الحدث ، يعدد المهام الأربعة الجوهرية على ملعب التاريخ الذى تجرى عليه المباراة المهمة فى نظر هذا المؤلف . ويحدد الاختيار بينها فى كل وضع موقع الإنسان فى السلم الأخلاقى والمستوى الإنسانى للمجتمع الذى يعيش فيه . ويستطيع كل شخص أن يتواجد فى قرب نسبى من أحد

زوايا الملعب : زاوية الضحية المُطارد ، زاوية المُطارد ، زاوية البطل الذى يعمل لإنقاذ المُطارَد ، وزاوية المشاهد المتفرج من الجانب ، زاوية الضحية ليست موضوع اختيار ، إنها تُفرض عليه بالقوة . والاختيار الوجودى الضرورى هى بين الزوايا الثلاث الأخرى .

ومن أجل تدعيم الادعاء بأن المذابح هى أعراض خطيرة جداً لمرض أخلاقى فى المجتمع ، أورد قبل عرض الأحداث أسس النظرية بالنسبة للديناميكية الاجتماعية لهذه الظاهرة .

وخلافًا لانتفاضة أو مظاهرة عنيفة تنطويان على تعريض متظاهرين للخطر ، فإن المذبحة هى ظاهرة يشعر المتورطون فيها بأنهم آمنون من كل خطر ومن كل عقوبة ، وتوزيع الأدوار بين مشاغب وضحيته واضح مسبقًا ، وهكذا يستطيع أى جبان وتعيس ، رجل ، امرأة أو طفل ، أن يقوم بدور فعال ، وخلافًا للعمل القتالى ، الذى هو صعب ويثير الخوف ، وفقط بعد أن ينتهى بشعور بالانتصار يمكن للمشتركين أن يحسوا بمشاعر حماس ومنفس - غوغاء المذابح ، الذى هو فى حل من الخطر متحمس ويتمتع طوال الوقت مثلما هو الحال فى معرض أو فى مباراة كرة قدم يسمحون له فيها بأن يركل .

وخلافًا لأعمال الشغب أو اضطرابات الشارع ، التى يشتبك فيها المشاغبون مع قوات الأمن ، فإن المشتركين فى المذابح يتضامنون مع القسم المهيمن فى المجتمع ويشعرون بأن السلطات ، أو على الأقل قطاعات من متخذى القرارات فى الحكم ، تؤيدهم ، وأن مايفعلونه مباح ومسموح به - وإلا فإنهم كانوا سيخافون فعل هذا . وهكذا كانت أشهر مذبحة في التاريخ اليهودى فى كشينيف " مدينة القتل " ١٩٠٢ ، والتى قام فيها رجال دين وإحدى الصحف بالتحريض وكانت الشرطة متعاطفة معهم وهكذا حدث أيضًا فى البلاد (أى فلسطين) عندما كان العرب هم الأغلبية ، وكان اليهود الأقلية ، فى فترة الأحداث ، بما فى ذلك مذبحة الخليل ١٩٢٩ . وهكذا حدث فى فترة الإعدامات دون محاكمة فى ولايات الجنوب فى الولايات المتحدة ، عندما كانت قوات الشرطة المحلية وسلطات الولاية عنصرية. وأيضًا فى نفس الحادث التى ارتكب فيها جمهور فلسطينى مذبحة ضد جندى وحيد دخل خطأ فى فترة الانتفاضة فى مخيم للاجئين بالقرب من غزة ، وكانت تسيطر على المنطقة المحيطة كلها " اللجان الضاربة " المحلية وكان الجمهور فيها يقف إلى جانب المشاغبين . ولدينا فى وقت المذبحة الكبيرة فى بات يام ، قال رئيس البلدية إهود كينمون إنه "يتفهم مشاعر المواطنين "

وإنه شخصيًا ما كان " يستخدم تعبير الموت للعرب " ولكنه يتفهم " مشاعر الأشخاص الذين رددوا هذه الصيحة (معاريف ١٩٩٢/٥/٢٢) .

من هنا يأتى حجم وخطورة المذابح بالنسبة للمستوى الأخلاقى للمجتمع وسلطاته . إذ كان الحكم لايريد مذابح . فمنذ أكثر من نصف القرن ، فى سنة ١٩٤٦ ، فى كليتشيا ، فى بولندا ، أخطأ الغوغاء ذوو النزعة القومية المتعصبة فيما يتعلق بنظرة الحكم الشيوعى للمذابح ضد يهود وارتكبت مذبحة . وجرت محاكمة ستة أشخاص من هؤلاء الغوغاء وأعدموا شنقًا وكانت هذه آخر مذبحة ضد اليهود فى بولندا وفى أوربا ، وفى العالم كله ! وقد أوردت وسائل الإعلام الإسرائيلية عدة مرات تقارير كاذبة تحت عناوين صارخة عن مذابح فى روسيا (يحتاج " المعسكر القومى " للمذابح ضد اليهود لاستكمال الأسطورة القومية) ، ولكن طالما أن الحكم لا يوافق ولا يكون غير مبالى وغير مكترث تقع مذابح .

وخلافًا لعمليات تنتظيم سرى وإرهاب ، وأيضًا خلافًا لأعمال عصابات مجرمين جنائيين ، متورطين فإن المتورطين فى مذابح لايعملون فى الخفاء ولايخافون ، بل العكس . فإذا كان المشاغبين المحتملين يخافون ، فإنهم لا يستطيعون أن يتجمعوا كجمهور وأن يرتكبوا أفعالهم صراحة وعلنًا . وخلافًا لعمليات ميليشيات مسلحة ، فإن المشتركين فى المذابح ليسوا منظمين مسبقًا ، ولذلك فلا تندرج فى هذا العرض أعمال العنف من جانب المستوطنين فى المناطق (الفلسطينية) ، التى اقتربت من ناحية العلاقة بين المُطارد وضحيته والنتائج - اقتربت من مذابح .

إن المذابح هى حالات قتل عفوية على أيدى غوغاء وطبقًا لتعريف جوهر هذه العملية التى هى مطاردة وإصابة ضحايا لا حول لهم ولا قوة مما يتعارض مع الإجراءات القانونية وللأخلاقيات المتبعة ، يشترك فيها ذوو طابع جنائى أو يميل إلى الجرائم الجنائية . والقسم المحفز فى أعمال الهيجان هم بشكل عام غوغائيون جنائيون . وفى إسرائيل أيضًا كانت مراكز أعمال الهيجان المهيأة لذلك هى المناطق التى كان موجوداً فيها هذا العنصر بتركيز عالٍ ، مثل الأسواق وفى محيط المحطة المركزية . ومن المعروف أن المؤسسة السياسية الحاكمة فى إسرائيل تعطى لهذه الأماكن المعاملة المفضلة باعتبارها تجسد " روح الشعب " ولذلك فإن جمهور " يقومون بأعمال الشغب يشعرون بمدى من التأييد المسبق لهم فى هذه المناطق . ويجرى اختبار شعبية زعماء شعبنا فى سوق الكرمل أو فى سوق محانيه يهودا ، قواعد التأييد لحركة " كاخ "

المشبعة بجو جرائم جنائية وتعصب ، وهما المكانان المرغوبان لدى الغوغاء فى سنة ١٩٨٦ ، ونجحوا تقريبًا فى ارتكاب مذبحة ضد رجال وسائل الإعلام الإسرائيلية فيهما ، وليس فى مكان أكثر تمثيلاً من ناحية إحصائية لنفترض مثل المركز التجارى أيالون أو ملحا .

لقاء فى " إيتسل " - ناحوم بارنياع يديعوت أحرونوت ١٩٩٢/٣/٢٠ :

(على خلاف الشرطى الذى وصفه ب . ميخائيل ، فإن هذا نموذج لتظرة مؤسسية مميزة لثقافة المذابح : لايهمهم السلوك الأخلاقى بل ما يهمهم فقط هل سيعطونهم أصواتهم أم لا).

لقد سار عضو الكنيست إيلى بن مناحين ظهر يوم الهجوم فى يافا - سار فى شارع "إيتسل" فى حى هاتكفا . وكانت الشمس مشرقة بضوء ساطع . ولاحظ البائعون فى محل الدهانات وجوده ، إن بن مناحيم شخصية معروفة ومحبوبة فى الحى . وصاح أحدهم " فليقتل يوسى ساريد " . فسأله بن مناحيم : " ماذا تريد من يوسى ساريد ؟"

فقال الأول : يجب أن نقتل كل العرب " .

وقال بن مناحيم : " إذا كانت لديكم ادعاءات فلتوجهوها إلى أرنس ، فهو وزير الدفاع "

وقال البائع الأول : " أرنس لايستطيع لايمكنونه " .

فسأل عضو الكنيست بن مناحيم : " من الذى لايمكنه ؟

فقال البائع : " يوسى ساريد " .

ويعتقد بن مناحيم أن ١٠٪ من ناخبى الليكود فى حى هاتكفا سينتقلون هذه المرة للتصويت إلى جانب حزب العمل .

إن السبب فى هيجان غوغاء المذابح واحد إزالة الخوف . ومن يحثون على ذلك وينضمون إليه هم أشخاص لايوجد لديهم رادع أخلاقى داخلى ضد العنف بشكل عام . فالتعصب فقط هو الذى يعطى للعنف ضد أبناء لأقليات تبريراً إيديولوجيًا وتأييداً . وتحدث إزالة الخوف بوسائل مختلفة . فى الأماكن التى يوجد فيها خوف من كوارث طبيعية أو حرائق، هزة أرضية أو حريق . تزيل الخوف مؤقتًا ، أيضًا الخوف من الشرطة - وعندما يهيج الغوغاء والقيام بأعمال نهب ، أى فعل ما كانوا يريدون دائمًا فعله لولا الخوف من العقاب . ويقل سبب الخوف

جداً أيضًا كنتيجة من كون الأشخاص يعملون لجمهور واحد وليسوا كأفراد. (فى وصف ب. ميخائيل ظهرت التعبيرات المميزة فى لغة كثيرين فى اللحظة التى قرر فيها شخص ما الانتقال من الأقوال إلى الأفعال ... (أعطنا إياه أتركه لنا " ، " نريد أن نحرقة")، فالخوف فى إسرائيل هو من هجمات إرهابية يختفى سيكولوجيا بعد أن يحدث الهجوم فى المكان أو يتم اكتشاف المخرب . كذلك الخوف من الشرطة يختفى عندما تكون مشغولة بهجوم أو بمخربين .

لقد وقعت أول مذبحة يهودية فى إسرائيل فى مفترق طريق الخروج من أشكلون بالقرب من الطريق الرئيسى المؤدى إلى قطاع غزة ، فى نوفمبر ١٩٨٦ ، بعد هجوم وقع فى الجوار . وقال قائد الشرطة أن تدخلاً مكثفًا هو فقط الذى حال دون حدوث سفك دماء ثم توالت بعد ذلك الحوادث - فى القدس ، ومجدداً فى أشكلون (" انتفاضة يهودية ") ، عفولا ، حديرا، بات يام - وأماكن أخرى . " وأخذت " أنماط هيجان المشاعر شكلاً مؤسسيًا وأصبحت متماثلة تقريبًا فى كل مكان :

* هجوم فى المنطقة المحيطة أو اشتباه فى هجوم . وفى فترة لاحقة ، هجوم فى أى مكان فى إسرائيل ، بعد أن استحوذ الهجوم أو أعمال الشغب على عناوين كبيرة فى وسائل الإعلام.

* هيجان غوغاء وكبحه من خلال ضبط نفس شديداً جداً عن طريق الشرطة وبدون عقاب .

* تأييد غير مباشر من جانب المؤسسة الحاكمة والذى يبدو فى عدم معاقبة المشاغبين فى الواقع ، فعلى سبيل المثال ، سيدة من إحدى الأسر التى تضررت من الإرهاب ، التقطت لها صورة فى الصحف فى قاعة المحكمة وهى تستل سكينًا وتحاول طعن أحد المتهمين . ولم تكن هناك أية إشارة أو ذكر لأنها اعتقلت أو اتهمت بشىء ما ، كما لو أن هذا كان عرضًا جديراً بأن يشاهد . وفى التلفزيون (٣٠/١٠/١٩٩٠) شاهدوا شخصًا يقول بإبتسامة متغطرسة "لقد أردنا أن نعدمه بدون محاكمة " . ولكن الشرطة لم تمكننا من ذلك . ويمكن لرجال الشرطة أن يخجلوا " يقف إلى جانبه ، ينتظر إجراء حديث العميد بيبى قائد الشرطة فى القدس . وعلى وجهه هو أيضًا ابتسامة متغطرسة ، مثل زميلين كل واحد منهما يعرف مهمته.

* تأييد شخصيات عامة بواسطة ردود فعل تبدى تفهمًا للـ " الأم والغضب " وإبراز جانب المشاغبين عن طريق وسائل الإعلام ، استغلال الهجمات لتحقيق مكسب سياسى لليمين المتطرف .

* تحريض شديد من جانب اليمين المتطرف فى أماكن الحادث ضد العرب وضد " يساريين".

* انعدام رد فعل من جانب " اليسار الصهيونى " (فى أية حادثة لم يجر القيام بمظاهرات مضادة ، ونشاطات احتجاج ، إعلام ، أو أية أعمال أخرى فى تلك الأماكن التى حدثت فيها مذابح) .

وحيث أن أنماط الأحداث قد تكررت ، فإننى لم أقم بجمع القائمة الدقيقة ، ولكن يجدر الذكر أنه كانت هناك ضحايا . فقد قتل عامل من قطاع غزة من اصابته بحجر على طريق كريات – جات أشكلون وقتل مخرب أسير على أيدى غوغاء ، بعد أن فشلوا فى إقناع رجال الشرطة بأن يطلقوا النار عليه فى مفترق طريق ألونيم فى عميق يزرعئيل . ورشقت بالحجارة سيارة تستقلها أسرة عربية ، ولم تكن متورطة فى أى هجوم وأنقلبت السيارة وأصيب ركابها إصابات خطيرة . وقد اعتقلت الشرطة مشبوهين فى هذا الحادث . وقد وقع هذا الحادث على طريق الخليل . ووقعت أيضًا حادثة قامت فيها سيدة " أبرزت وسائل الإعلام أنها متدينة ، بإنقاذ اثنين من العرب من مذبحة فى القدس . وفى الحادثتين اللتين قتل فيها عرب فى مفارق طرق على أيدى " منحرفين " (أشهرهم عامى بوبر الذى قتل بطلقات رصاص ستة من العمال، والثانى شخص مختل عقليًا طعن عاملاً عربيًا حتى الموت). وقد دافع الناس فى محيطهم عنهم ودخلوا فى مواجهة مع الشرطة .

أما المذبحة التى استحوذت على عناوين كبيرة للأخبار فقد وقعت فى بات يام فى ١٩٩٢/٥/٢٠ . حيث قامت جماهير من الناس بأعمال شغب فى الشوارع حتى سيطروا على المنطقة المحيطة وقام أصحاب حوانيت وأعمال بتخبئة عمالهم العرب . وتوجهت مجموعة من المشاغبين من بات يام إلى أحد مواقع البناء فى ريشون لتسيون وأصابت عرب إسرائيليين كانوا يعملون هناك . وقتلت فى بات يام طفلة وأصيب أطفال آخرون فى هجوم جنونى نفذه شخص يحمل سكينًا. وتحول والد هذه الطفلة ليصبح بمثابة " سلبريستى " الذى تنشر وسائل

الإعلام رأيه المؤيد للأعمال الانتقامية والعقابية . ولكن الذاكرة المشتركة لهذا الحدث نسيت (يبدو لى أننى نفسى نسيت ولذلك جئت لأذكر) أنه فى ذلك الهجوم المجنون من جانب فرد قتل طعنًا بالسكين عربيًا من يافا حاول إيقاف حامل السكين وحماية الأولاد . وقد قام بالتحريض رجال كهانا ومولِيدت إلى درجة أنه فى جنازة الطفلة كان يجب على الشرطة أن تُهرب من هناك وزير الشرطة رونى ميلو .

وقد تحددت نظرة السلطات وتتمثل أساسًا فى نظرة الشرطة والتى لم تبرز أكثر عنه مما جاء فى كلام مفتش عام الشرطة ، يعقوب تيرنر . فبعد إحدى المذابح سُئل فى التلفزيون لماذا أظهرت الشرطة عجزاً ولم تعتقل المشاغبين . وقد أوضح تيرنر بأن هذا لم يكن عجزاً بل ضبط نفس جدير بكل ثناء بأن الشرطة هى " شرطة حكيمة " " شرطة تتفهم مشاعر الجمهور " . ولم أجد أى مناص من الاستنتاج بأن نظرة المؤسسة الحاكمة إلى مذابح إسرائيلية هى حماقة تامة صِرْف - إذا كانت معرفة أساسية للآداب العلمية المهنية بالنسبة لذلك السلوك الإنسانى هى حكمة . إن الموقف الذى عبر عنه يعقوب تيرنر هو " فشل " يبحث لنفسه عن وسام وعلي ذلك، فإنه استعداداً للمذابح التى تُهيىء لنا ، أوردت هذه الافتراضات المألوفة عن سلوك المشتركين فى ذلك النشاط الجماهيرى العفوى . ولكى نستكمل الصورة يجب أن نتحدث أيضًا عن الحماقة المبنية على " تفهم مشاعر الألم والغضب " . وهذا التعبير هو نمط مميز لخريطة التعصب المفاهيمى فى النظرة إلى " منحرفين " ، ولم يكن يخطر على بال أحد - وليس يعقوب تيرنر فقط - ألم وغضب المخربين فى هذا السياق ولم يكن يمتدح ضبط النفس الذى تصرفت به شرطة فيينا ، على سبيل المثال ، فى تعاملها مع الفاشيين الجدد الذين هاجموا يهوداً ، ولكن ماذا يحدث فى الحقيقة فى الواقع ؟

لكى نصدق أن الغوغاء يتألمون لألم ضحايا الإرهاب يجب أن نفترض أن ذلك الشخص الذى قال " لماذا لم تتأثر عندما قتلوا لنا ١٤ شخصًا بريئًا فى أتوبيس ؟ " .. كان محقًا فى قوله لأن هذا ألمه أكثر بينما الشخص الذى ينضم إلى المذبحة كان أقل ألمًا ، أو أنه بالنسبة للغوغاء الذين يصفهم ب . ميخائيل دم يهودى أغلى من دم ذلك الشرطى الذى كبحهم . وعمومًا فإن الألم السيكولوجى هو إحساس عكس الغضب الذى يقود إلي العنف . ويتمثل الألم فى بكاء وحزن وحداد وانطواء على أنفسنا ووضع اكتئاب . وعندما يصرخ إنسان يتألم

حقيقة مطالبًا بالانتقام فإنه يكون قد وجد متنفسًا للتخلص من الطاقة النفسية التى تتمثل فى ألم داخلى عن طريق تفجر نشاط جسمى تجاه الخارج . أما أن تنسب هذا الشعور النبيل، الألم . لهذه الغوغاء فإن هذه حماقة فى أفضل الأحوال .

إن الغضب الذى يتفجر فى شكل عنف ، فهو إحساس تتملكه روح شريرة . إن مشاعر الإحباط والغضب يمكن أن تكون فى داخل الإنسان ، ولكن التفجر العنيف للغضب كسخط فيأتى فقط عندما يشعر الإنسان بأن الهدف أضعف منه وأنه يستطيع أن يسمح لنفسه بأن يهاجم . انتهى . فالأولاد الأضعف لايثورون فى وجه الأولاد الذين يبدون أكبر وأقوى منهم . والأشخاص العنيفون جداً لا يثورون فى وجه رجال الشرطة أو القضاء ، إلا إذا كانوا يعتقدون أن ضرراً لن يلحق بهم من جراء هذا " ، والشرطة التى تبدى مشاعر تفهم لألم وسخط غوغاء ليست حكيمة على افتراض أنها تعتبر مهمتها هى الحفاظ بأمانة وإخلاص على القانون ومنع مثل هذه الظواهر .

الفصل الخامس

الحدود بين القوى في ساحة النزاع

١ - خطوط الجبهة على الأرض فى مقابل خطوط الجبهة فى القلب :

أ - وثيقة زئيف :

فى العدد الخاص بالعيد الذى أصدر بمناسبة عيد الاستقلال الخامس والأربعين ، صحيفة هارتس (ربيع ١٩٩٣) احتفل يعقوب بيركش (رسام الكاريكاتير القديم المعروف باسم زئيف) بفوزه بجائزة إسرائيل فى فن الكاريكاتير والذى بدأ على الرسم الكاريكاتيرى التالى:



ابنة ٤٥ كم - يجب أن أنقص وزنى حتى أروق لهم

رابين (جمعية الحفاظ على الوزن)

يبدو هذا بريئًا جداً وغير ضار أبداً ، توجد فى هذا الرسم كل الخطوط الأساسية المهمة لخريطة المفاهيم الإسرائيلية حول القوى فى ساحة النزاع أو العلاقات بينها : المناطق التى يجب على إسرائيل أن تتخلى عنها (باعتبارها وزنًا زائداً) بإرشاد من رابين هم عظمها ولحمها ، جزء من جسمها ، يجب أن تتخلى عنها لأنها تريد أن تنقص وزنها وأن تصبح أجمل وأصح بدنيًا ، بل بدون أن تريد هى ذلك ، لكى تروق لأعدائها وتجد حظوة لديهم. أعداؤها هم شخصيات مخيفة : إنهم فى حجمها ، وهم كثيرون، يحيطون بها من حولها ، ويهددون بالإرهاب (نظرات عرفات هى قنابل) . وهى امرأة ، المرأة النمطية هى مخلوقة عرضة للإصابة ، لا تهدد ، بالطبع ، أعداءها الرجال . ولا تبدى أى حماس " لانقاص وزن جسمها ولا تبدى أيضًا أى تعاطف أو مشاركة وجدانية تجاه " المدرب " رابين . ليس هناك أى شخص إيجابى أو يشكل ضمانة فى عملية التخسيس هذه ، بل العكس ، إنها تنطوى على ضرورة لإرضاء الأعداء ، تخسيس اللاخيار لوزن حرب اللاخيار ، الآن هذه المرأة تخضع الآن للمدرب الذى اختارته لنفسها .

إن زئيف واحد من أكثر الذين دأبوا على إنكار ضم المناطق . فلقد كانت رسومه الكاريكاتيرية تتضمن تناسقًا كاملاً : حمامة السلام (أمريكا) فى الوسط ، ومن ناحية نحن ومن الناحية الأخرى أعداؤنا . ولم ينزعج أحد من زعماء اليسار من العدد الذى لا حصر له من مثل هذه الرسائل التى لم تنكر صراحة سيطرتنا على أعدائنا ، ولكنها بثت وغرست فى الوعى صورة وضع " مسيرة سلام ، متناسقة ، وكأن مشكلتنا هى هم وليس المشكلة أن نقرر ماذا نريد : إن نتخلى عن المناطق أم لا ... ولاتوجد فى الصحافة الإسرائيلية رسومًا كاريكاتيرية لأطفال فلسطينيين فى مواجهة جنود إسرائيليين ، وليس هناك رسومًا تُشبهنا بجوليات وقد ارتسمت ساحة النزاع فى صورة ليست لها أية علاقة بالواقع ، ولكن " اليسار الصهيونى " دخل فيها ولازم تمامًا مسرحيات الدبلوماسيين الذين قدموا عروضًا في هذه الساحة ، والذين لم يكن لهم أيضًا علاقة بالواقع .

كيف كنتم ستغيرون رسوم زئيف الكاريكاتيرية لكى تكون مماثلة للواقع ؟ ليس لدى للأسف موهبة للرسم ، ولكننى سأرسم لكم بكلمات اقتراحى ، صورة الواقع الذى عشنا فيه : إسرائيل التى كان عمرها ٤٥ سنة تعدت الآن الخمسين . امرأة قبيحة تسعى جاهدة لكى تحتفظ بالقوة بذراعيها السمينتين بقط صاحب يخدش ، يعض ، هزيل جريح يبعث على

الشفقة . رابين ، بقى رابين ، المدرب . ومن بعيد يشاهدهم " أعداؤنا " ، وهم أيضًا فى صورة قطط منتصبى الأذناب ، وعن قرب يحيط بالمرأة جمهور متعاطفين مشاغب وعنيف ، يشجعها على ألا تترك القط وشأنه ، والمتعاطفين فى صورة مستوطنين : دببة صغيرة ، رشاشات عوزى وطواقى . وتسأل المرأة - دولة إسرائيل - رابين " كم من الوقت يجب أن احتفظ به لكى أحوز رضاهم وأروق لهم ؟" .

هذا هو الواقع الذى تفوق " اليسار الصهيونى " جداً فى تجاهله . الجميع عرفوا أن هذه هى القوى ، وذلك هو ميزان القوى ، وهذه هى مشكلتنا ، ولكنهم فضلوا رؤية الصورة بمصطلحات تناسق يتعلق بالقوة والأخلاق . نحن جميعًا فى جانب - أعداؤنا فى الجانب الثانى - وحمامة السلام تحوم فوقنا إنها مسألة وقت حتى تهبط .

ب - وثيقة عاموس عوز :

" ... كل هذه السنوات ، ونحن نكتب عن الاحتلال ، عن التفسخ والانحطاط ، وعن القمع فى المناطق (الفلسطينية) ، وحتى عن حرب لبنان ، وحتى عن أفعال المستوطنين ، نستخدم دائمًا ، بلا استثناء ، كلمة " نحن " ... ما هذا نحن هذه ؟ من هذا هنا عمومًا " نحن " ؟ أنا والحاخام ليفنجر ؟ أنت وكهانا ؟ ... انظر بنفسك ، تسفيكا ، كم هو سهل الوقوع في الفخ ، انظر على أي حبل رفيع حكم علينا أن نسير " .

هكذا قال إفرايم (بيما) نومبرج ، عقل رئيس حكومة فى جسم مزعج مشاكس ، معاد للبطل فى رواية عاموس عوز ، "هامتساف هاشليشى الحالة الثالثة" التى صدرت فى ١٩٩٠. وفى حالة ما إذا كان شخص ما غير قادر على اجتياز الحدود التى حددتها له مفاهيمه ، من السهل جداً فى الحقيقة أن يقع فى الفخ وأن يفقد طريقه . إلا أنه كانت لدى ومضات إدراك حتى فى أصعب ميدان لتوجيه أخلاقى وسليم ومتزن : الهوية ، " من نحن هؤلاء هذا ... من هذا عمومًا نحن ؟ . كانت لديه ولم تكن لديه . كانت لديه عُصاب، اضطراب عصبى وظيفى. ولم يجعله الإدراك يغير الاتجاه . بل استمر فى السير على " حبل رفيع " فى داخل التيار العام ، مجهزاً بمقولة المجرمين الكبار والضحايا على حد سواء وهى " هذا قدرنا " .

إلا أن نحن فى قصة من الحياة (الموت) ، ليس فى تراجيديا يونانية ، لم تُفرض علينا ، لم تكن قدرنا .

يعتبر الأديب عاموس عوز بدون شك إحدى الشخصيات البارزة إن لم يكن أكبرها وأهمها فى " اليسار الصهيونى " ولو أجرى استفتاء بين معارض الضم حول من الذى يجدر أن يعتبر صوت الضمير الإسرائيلى فليس لدى شك فى أنه سيتم اختيار عاموس عوز ليكون فى الصف الأول . وقد تحدث فى كتاباته الأدبية بشكل مباشر عن المأساة الكبيرة والحقيقية لحياتنا فى الجيل الأخير ، الصراع المركزى بين مؤيدى الضم ومعارضيه . أيضًا فى الروايات التى كتبها كوفسا شحورا " علبة سوداء " و " الحالة الثالثة " وأيضًا فى " الكتب الفكرية مثل بوفيشام فى إريتس يسرائيل . هنا وهناك فى أرض إسرائيل " ومؤخراً فى " كل هاتكفوت - كل الآمال" .

وفى اللحظة التاريخية - السياسية الأكثر دراماتيكية فى تاريخ النزاع فى العقد الأخير ، عندما علم باتفاق الاعتراف المتبادل بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية (اتفاق أوسلو) كرمت أكبر صحيفة " يديعوت أحرونوت" عاموس عوز بكتابة المقال الرئيسى (١٩٩٣/٨/٣١) . لم أقصد هنا امتداح عاموس عوز على الجمع بين حساسية أخلاقية ، وأسلوب رائع ودقة موضوعية وقائعية ، والذى استنكر به سياسة الضم والمستوطنين مرات غير قليلة ولم أقصد كذلك محاكمته . إننى أقصد عرض وتحليل وثيقة واحدة ، تعتبر وثيقة مهمة جداً أيضًا فى المعيار المتبع لتقييم أحداث تاريخية - معيار التغييرات الدراماتيكية التى يُحدثها الزعماء ، مثل حروب واتفاقيات دولية ؛ وأيضًا بالمعيار المطبق هنا ، وهو معيار تطور الوعى الذاتي للمجتمع فى إسرائيل .

وإن مقال " هجعنوا لجيشر - وصلنا إلى الجسر " مكتوب كله طبقًا لصورة العالم المتناسقة نحن - أعداؤنا . على غرار كاريكاتير زئيف ، ليس فيه أى مظهر شك ، مثلما كان لبيما نوبيرج الأدبى ، إذا كان " نحن " فهذا نحن ، بما فى ذلك ليفنجر وكهانا ، وإذا كان أعداؤنا فهم " أعداؤنا " وليس " مهزومين " مثل ذلك المخلوق التعيس يخدش ويعض لأننا نحن نمسك به بتطويق خانق بسبب أن المستوطنين يريدون ذلك ،

لا ينطوى هذا المقال الاحتفالى على أى شىء ما يجعلنا نتنفس الصعداء ولا حتى أن نسعد لأن سياسة الضم التى هاجمها عاموس عوز مرات كثيرة ، على وشك أن تنتهى وأن دولة إسرائيل تقرر فى نهاية الأمر " من هذا نحن " . تدير ظهرها للمسيحانية المسلحة وتعرب عن نيتها فى أن نعود لنفسها ، إلى الصهيونية مثلما يعيش عاموس عوز ويفهمها وصلنا

إلى الجسر" ، هكذا يصورنا نحن والفلسطينيين كما لو كنا شعبين بعيدين عن بعضهما البعض اقتربًا من جهتين مختلفتين " ها نحن قد وصلنا الآن إلى مفترق طرق : شعبان قريبان من أن يعترفا أخيراً بأنهما شعبان وأن البلاد هى وطنهما " ، هذا تعبير مساواتى تمامًا وليس أى أساس فى الواقع ، الذى نطوقهم فيه بعناقنا الخانق منذ عشرات السنين . كما أن الوصف المتناسق العلاقات الطرفين يتعارض مع الحقيقة بالنسبة للحدث على الأرض لأن كل ما حدث فى نفس " مفترق الطرق " كان فقط أن نحن (حكومة رابين) قررنا أن نعترف أخيراً بأنهم شعب وأن البلاد هى وطن لهم أيضًا .

ومن اللحظة التى وضعنا فيها على الجسر الذى فى جانبه الثانى الفلسطينيون - كتب عاموس عوز مثل سياسى حذر ، محترس ونزاع إلى الشك والارتياب ، وكأنه تلقى تلقينا دقيقًا من مكتب رابين :

" ... ولأن الفلسطينيين سيحصلون فى هذا الحل الوسط على مناطق من البلاد ونحصل نحن على التزامات ووعود - يجدر أن ندمج فى المعادلة عنصر المدة الزمنية لكى تستطيع إسرائيل أن تتوجه إلى البنك ونتحرى هل توجد أولا توجد تغطية لسند السلام العربى ... وفى غضون ذلك تستمر فى الاحتفاظ بالمواقف التى تستطيع منها إلغاء الحقيقة ، إذا ما اتضح أن الفلسطينيين لا يريدون أو غير قادرين على القيام بدورهم والوفاء بالتزاماتهم " .

وتعبر عبارات " أن ندمج في المعادلة .... ، " وهم سيحصلون ونحن سنحصل ... " تعبر عن العلاقة المتناسقة وترسخها . ولكن الفلسطينيين سيحصلون على مناطق من البلاد ونحن نحصل على التزامات ووعود " ، تشير هذه العبارة إلى عدم التوازن وتترك الفلسطينيين كطرف مَدِين . فقد قيلت وكأن هذه المناطق من البلاد ليست لهم ، بل سيحصلون على مناطقنا (وكان يمكن القول ، بدون أن نخطىء الحقيقة ، أنهم سيحصلون على استقلال وسيطرة على مناطق هى الآن تحت سيطرتنا ، أو ماشابه ذلك) . لايمكن أن نتجنب مقارنة لغة المقال التجارية القيمة ، مع البنك والسند ، ولكن رد حاييم حيفر (حصل هو أيضًا على مكان بارز فى صحيفة يديعوت أحرونوت ١٩٩٣/٩/١٠) الذى احتفل بالتوقيع على اتفاق أوسلو بسعادة وشعور ترفع وانتصار فى أقدس مكان فى " اليسار الصهيونى " مقبرة عسكرية.

" وأنا أهمس لهم ، لرفيقى من ١٩٤٨ ولأبنائى من المعركة الأخيرة : ها هى قد جاءت أيام صفح وإحسان ، ها قد انتهى العداء والغضب ، وستغطى أناشيد الحب والمصالحة كل شئ

بقدومنا إلى زهور الذكرى ، والأحجار التى تتصبب عرقًا تحت رؤوسكم ، مع الأحرف والتواريخ، وأنا أعرف أنه الآن فقط سلام لترابكم وأنتم الآن فقط ترتاحون / وأريد أن أقول " حمداً لله أننا عشنا ووصلنا إلى هذا الوقت ... " .

وفى وثيقة عاموس عوز ، فى مقابله ، ليس فقط أنه لا يوجد صفح وإحسان ، حب ومصالحة ، بل لا يوجد أيضًا شعور بالتحرر من دور السجان الملازم للسجين بالأغلال والأصفاد (تشبيه استخدمه عاموس عوز فى عدة مناسبات قبل ذلك) ، وليس هناك أى تعبير عن حاجة لمصالحة أو كرم وجود . المقال يجرى حسابًا جاداً مع الفلسطينيين المستعدين للتوصل إلي حل وسط ، أخيراً ، على أقل كثيراً مما كانوا يستطيعون الحصول عليه ، قبل خمس حروب ، قبل عشرات آلاف القتلى منا ومنهم : " الحقيقة هى أنهم كانوا مستعدين منذ سنوات كثيرة قبل ذلك ، وليس هناك مثل الهزيمة والعجز للتوصل إلى الحكمة السياسية ، بما فى ذلك الغربة فى التوصل إلى حل وسط ويستطرد قائلاً :

" وها هى إسرائيل تعود أيضًا إلى ما كان طريق الصواب الصهيونى طوال عشرات السنين: استعداد لحل وسط أخلاقى وواقعى مبنى على اعتراف بأن للغير أيضًا حق فى وطن. اعتراف مقابل اعتراف بأن للغير أيضًا حقًا فى وطن . اعتراف مقابل اعتراف ، أمن مقابل أمن ، حسن جوار فى مقابل حسن جوار " .

وماذا إذا ماخدعونا ومكروا بنا ويقبلون ما نعطيه لهم ويطالبون بالمزيد بواسطة العنف والإرهاب ؟ .

عندها تستطيع إسرائيل فى إطار التسوية المطروحة أن تغلق على فلسطين وأن تلغيها .

وفي أسوأ الحالات ، فى حالة ما إذا اتضح أن السلام ليس سلامًا ، سيكون من السهل على إسرائيل أن تكسر ، عسكريًا ، ظهر كيان فلسطينى صغير ومنزوع السلاح ، أكثر منه عن أن تستمر بلا نهاية وبدون أمل فى كسر ظهور أولاد فى سن الثامنة يرشقوننا بأحجار ، الحمائم فقط ملزمون ، مع حلول السلام ، بأن يأخذوا على عاتقهم مهمة اتخاذ موقف صقرى جاد بالنسبة لواجب الحكم الفلسطينى فى الوفاء بالتزاماته ، كلمة كلمة وحرفًا حرفًا ".

" لقد قلنا لأنفسنا سنوات طويلة ، أحيانًا بحق وأحيانًا بذنب تشنج خوف وعداء ، لايوجد من نتحدث معه وليس هناك مغزى ولاجدوى من أن نلعب الشطرنج مع أنفسنا ، بل نربط الأحصنة أمام العربة وأن نعبر الجسر عندما نصل إليه .

وبذلك ، ها نحن قد وصلنا إلى الجسر "

فى تحليل هذا الكلام يجب أن ننطلق من أساس الإطار المفاهيمى . فالمضمون هو نتيجة لمكونات صورة الواقع طبقًا لخريطة المفاهيم . وطبقًا لخريطة مؤلف الوثيقة ، الشعبان هما طرفان يقاتلان بين جانبى النزاع / الجسر ، وليس كالسجان والسجين المربوطين كل منهما بالآخر ، أو كذلك الشخص الذى يقبض على قط هائج . وفى اللحظة التى يفرض فيها تناسق خريطة المفاهيم الأساسية نفسه على الواقع - " نحن " لانعد مسئولين عن الوضع ، سادة الوضع ، بناة الجسر ، وتصبح كما لو أننا طرف واحد فى صفقة . هذه هى سيكولوجية الإيديولوجية بشكل عام :

خريطة المفاهيم الأساسية تُملى وجهة النظر ، الفهم والمواقف التى يتخذها الإنسان على الأرض . ولدى أديب فنان مثل عاموس عوز فإن تخمينى هو أن خريطة مفاهيمه الحقيقية ليست هى التى أملت فى هذه الحالة الاستنتاجات ، بل ذلك المجاز " جسر بين شعبين " ، الذى نشأ لديه فى اللحظة المؤثرة ووقع أسير سحره وأقلع على جناحيه ، على الرغم من أنه لم يتلاءم مع صورة الواقع الذى نراه وفهمه هو نفسه وعبر عنه على امتداد الفترة التى سبقته .

كما أن الحدود الخيالية التى تفصل بين الشعبين على جانبى الجسر والتشبيه المتناسق ("عدالة فى مواجهة عدالة ") استوجبت وأملت استنتاجات لم يكن لها مكان فى الواقع أيضًا طبقًا لقيم الإنسان نفسه . على سبيل المثال ، " اعتراف فى مقابل اعتراف ، أمن فى مقابل أمن . حسن جوار فى مقابل حسن جوار " . يرن هذا الكلام البلاغى فى أصداء البنية التحتية الروحية للمتعصب " العين بالعين ، السن بالسن " . ولكن فى جوهر الموضوع ، كان اليسار الصهيونى وعاموس عوز نفسه ، دائمًا بالنسبة لـ " أعداؤنا " فى الموقف الأخلاقى الذى يقول " اعترفوا بنا مثلما أننا نعترف بكم " وليس " سنعترف بكم فى مقابل أن تعترفوا بنا " . ولم يخطر على بال رجال " اليسار الصهيونى " أنه يجب عليهم أن يعترضوا بحق تقرير المصير للفلسطينيين فقط " فى مقابل شىء ما . كذلك " أمن فى مقابل أمن " هو غرس غريب فى عالم مفاهيم " اليسار " الذى كانت توجد فيه كأمر مسلم به حق الدفاع عن أنفسنا ومد يد السلام . لقد كان هذا منطلق ثابت ، نتيجة هوية قيمية ، " هكذا نحن " ولم يكن مرتبطًا بأى مقابل " . فعلى سبيل المثال جاء فى ميثاق إعلان الاستقلال " وحتى فى أوج الهجوم الدامى الذى يجرى ضدنا ... فإننا نمد يدنا للسلام ولحسن الجوار ... " وليس " حسن جوار فى مقابل حسن جوار " .

إننى أشعر بأنه ما كان يخطر على بال يعقوب طالمون أن يخرج من تحت يده مثل هذه الوثيقة . . فلقد رأى أن الصراع يدور بيننا ، صراع على روح الشعب وعلى مضمون حياته . ولو كان يعيش حتى الآن ، كان سيحتفل بالتأكيد بالحدث الذى يفضله ، ربما ، أنقذنا من الإفساد الذى تحدث عنه الذى " جعل أجمل أحلامنا عن إحياء قومى وروحى مثار سخرية وازدراء " . ولكن بين هذين المقالين مر عقد من الضم ، ومقال عاموس عوز باعتباره يمثل اليسار الصهيونى ، يمكن أن يستخدم كَمعْلم للطريق الذى سار فيه اليسار فى تلك السنوات.

إن الجذر الداخلى لهذا الكلام ، كما قلنا ، هو المجاز الخيالى المتناسق لعلاقات الحرب والتقارب بين عدويين على جانبى الجسر . هذه صورة خاطئة جداً بالنسبة للواقع ، وجوهرية جداً لكل ما حدث ويحدث حتى يومنا هذا فى البلاد ، من الجدير أن نتوقف عندها لكى نسبر غورها .

إن أساس الضرر الناجم عن تحريف هذه الرؤية الوجودية يكمن فى أنه يعفى " اليسار الصهيونى " من الشعور بمسئولية كاملة عن وضعنا . ويتسبب في أن ننظر إلى واقع حياتنا ، سياسة الضم ونتائجها ليس باعتبارها مشكلتنا ونضالنا ضد الضم ، وبالتالى نزاعًا يرتبط حله بإرادتنا أو عدم إرادتنا بل كشىء ما موجود فى العلاقات مع الفلسطينيين ومرتبط بهم. وإذا لم يكن هناك رصيد لسندات السلام التى قدموها ، نكسر ظهورهم ، وماذا نعتقد ؟ هل أننا أخطأنا ؟ وأنه لايمكن الثقة فى العرب ؟ وأن م . ت . ف سببت لنا خيبة أمل مجدداً فلتذهب إلى الجحيم ؟ أن المستوطنين كانوا على حق ؟ .

ولكى نفهم كل جوهر الفرق بين واقعنا وبين العالم طبقًا لخريطة مفاهيم زئيف رسام الكاريكاتير ، وثيقة عوز " شعبى اليهودى " ، ومعظم رجال اليسار - ربما يجب أن نأتى بشهادة ووقائع بعيدة . ربما يكون الواقع القريب مُهدداً ومؤلما أكثر مما يجب من ناحية " اليسار الصهيونى " إلى درجة أنه غير قادر على أن يلقى عليها نظرة مباشرة ، هذا هو افتراض ، خذوا فى الحسبان أن هؤلاء أشخاص يجرى فى عروقهم إحساس أن الدولة هى هم ، وأحبوها ، وقُتلوا من أجلها وشكلوها وكانوا فخورين بها وبأنفسهم . وقد قالوا أن الضم لن يمر وأنه "يخرج إسرائيل من أسرة الشعوب الديمقراطية " وشعروا أنه يضعنا فى موقف غير عادل

بالنسبة لأعدائنا وتحدثوا عن خط أحمر وانتفاضة وعصيان مدنى ، وسمحوا له بأن يمر وحتى لم يعترفوا بذلك ، وكأن شيئًا من كل هذا لم يحدث . هؤلاء الأشخاص - نحن - لديهم أسباب وجيهة جداً لكبح الواقع وعدم الاعتراف به وعدم رؤيته بل العيش فى واقع آخر .

وعليه نعقد مقارنة مع واقع آخر ، فهنا فى إسرائيل وفى جنوب أفريقيا أيضًا قبل إلغاء التمييز العنصرى عاش نوعان فى داخل دولة واحدة وفى طوائف منفصلة وقام المقموعون بإرهاب ، كثير من الإرهاب . والآن فلتنقلوا أقوال عاموس عوز إلى هناك . تصوروا أن شخصًا ما من زعماء البيض قرر أن يحاول التوصل إلى اتفاق مع المؤتمر الأفريقى وهو جهة تستخدم الإرهاب بشكل جدى جداً ، فعرض إلغاء التمييز العنصرى وعن طريق ذلك أيضًا إلغاء أعمال الإرهاب من جانب السود . ونفس الشخص (على خلاف دى كلارك الحقيقى الذى فهم أنه " لايمكن إجراء إصلاحات فى الشر بل مضطرون لإلغائه ") يقول إن هذه بمثابة محاولة . وأنه إذا لم يسددوا بنود الصك الذى وقعوا عليه ، فإننا ، نحن البيض ، نستطيع دائمًا أن نقصم عسكريًا ظهر كيانهم . وأننا سنعترف بهم كبشر متساويين إذا ما اعترفوا بنا ، اعتراف فى مقابل اعتراف . وإذا لم يقوموا بأعمال شغب سنعطيهم أمنًا فى مقابل أمن ، ويجب بالذات على المناضلين ضد التمييز العنصرى من بيتنا أن يكونوا الآن متصلبين ، " وأن يأخذوا على عاتقهم موقفًا صقريًا حاداً " لكى يكافح السود الإرهاب وينفذوا التزاماتهم كلمة كلمة وحرفًا حرفًا " - لم يكن هذا مناسبًا هناك وناسب ولائم الوضع هنا بنفس المدى . فالسود فى جنوب إفريقيا ، مثل الفلسطينيين فى المناطق هم ليسوا " أعداؤنا " بل "مهزومين " والحرب ضد التمييز العنصرى مثل الحرب ضد الضم هى من ناحية مقاتلوها ، ليس حربًا ضد الإرهاب بل حربًا ضد حكم مبنى على إيديولوجية متعصبة تسبب شراً بلا شرط وبكل شرط كان .

فى وثيقة عاموس عوز وقف المؤلف كمقاتل فى الحرب ضد الإرهاب ، وحتى ضد الفلسطينيين (إذا اتضح أنهم " لايريدون وليسوا قادرين على أداء دورهم والقيام بما يتوجب عليهم القيام به ") ولكنه لم يقف كمقاتل فى النضال ضد الضم . فقد أغفل فى مقاله حقيقة أن " الجسر " الذى بناه بيننا وبين الفلسطينيين هو فى الحقيقة ديكور يغطى الموقع الذى وقفت فيه حكومة رابين ، لأول مرة ، فى مسار صدام مباشرة مع المستوطنين ومؤيديهم حول مستقبل دولة إسرائيل ، حدودها ، تشكيل سكانها شرطتها ، وطابع روحها وحياتها ، وقد وتجنبت

وثيقة عوز الاعتراف بحقيقة أنه فى ذلك اليوم تم الإعلان عن النية ونشرت خطوط الخطة لإلغاء نظام الضم ، وإخراج إسرائيل من يد المستوطنين ولإعادتها لنفسها ولنا .

ولم يظهر صراع القوى الكبيرة الذى شكل صورة إسرائيل حتى آنذاك ومنذ ذاك – فى الصورة التى رسمها عاموس عوز . وأشار إلى المستوطنين فقط باعتبار مشاعرهم تستحق الفهم والاحترام ولكن لايجوز الاستفادة من كارثتهم . وبالقدر الذى يعتبر فيه عاموس عوز عنصراً تمثيليًا ، فإن وثيقته تعكس الوضع الذى لم تكن فيه خرائط مفاهيم اليسار عمومًا ملائمة لقيادته للوقوف فى نفس المنطقة الحرجة للنضال من أجل حياة إسرائيل وروحها من أجل حل النزاع . مايزال هذا هو مجال عماه – فقد عرف الجميع فى جنوب أفريقيا أن هناك تمييزاً عنصريًا وأنه لا حل بدون انهائه . أما لدينا هنا .، بعد أن تم تعدى كل الخطوط الحمراء فى الطريق إلى الضم بدون أن يشعروا أو بدون أن يعترفوا بذلك ، فإن " اليسار الصهيونى " لم يعد يشعر بالأرض التى خطا عليها . ثم اتضح بعد ذلك أنه حتى المعركة العنيفة التى خاضها اليمين حتى مقتل رابين لم تعده إلى الواقع والنضال .

لدى قصة حقيقية ، تكشف الأمور وتحدث صدمة ، فى رأيى ، عن ما يحدث عندما لا تعرف الشخصية وضع حدود لهويتها القومية التى تلزم بالتضامن مع جسم الأمة (بمعنى " نحن " شعب ، ثقافة بلاد وطن) كقيمة عليا ، بينما تتبدل فى الواقع روح الدولة (بمعنى نظام الحكم سلوك القوة المركزية الحكم) وتتحول إلى دولة لا يجب التضامن مع الحكم القائم فيها . وقد ذكر لى البروفيسور عقيقت أرنست سيمون أنه بعد هجرته إلى البلاد (فلسطين) فى الثلاثينيات كتب لأبيه بأن يترك ألمانيا النازية ويأتى هو أيضًا إلى هنا . وكتب الأب فى رده على خطاب ابنه " إننى متعجب منك جداً ، أن يطلب صهيونى قومى مثلك من ألمانى قومى مثلى أن يترك وطنه " .

جـ – المسيرة ، السلام ، وما هو مَضْمُونُ :

وثيقة واضحة وواعدة : صحيفة تل أبيب ١٩٩٠/٣/٢ :

يوسى ساريد ، الوضع مائع ؟

ماذا هناك ، لم يكن أبداً أكثر وضوحًا وواعداً أكثر مما هو عليه الآن . إننى أتوقع أنه فى غضون أسبوعين تقريبًا سيعقد لقاء وزراء الخارجية فى واشنطون ، وفى غضون ثلاثة أسابيع

على الأكثر وعلى الرغم من كل الكلاب التى تنبح ، سنسمع عن الاتفاق الأكثر حسمًا فى تاريخ النزاع الإسرائيلى العربى ، لقاء مع الفلسطينيين فى القاهرة

وهل يقبل شارون الحقيقة الفلسطينية المرة ؟

" ... لقد حسم الأمر ، لا نتحدث مع م.ت.ف. هذه أصبحت المعركة الأخيرة ... هذه مسيرة جارفة ثم التعبير عنها هذا الأسبوع فى تصريح الزعامة اليهودية الأمريكية ، التى تؤيد التحدث مع م.ت.ف ، وهذا بعد أن أصبحوا فى الزعامة السفاردية ، من نسيم جاؤون وحتى عوفديا يوسف يؤيدون ذلك ... ومثلما أن مناحيم بيجن قد نفذ سياسة يوسى ساريد فى سيناء فإن يتسحاق شامير سينفذ كذلك برنامج يوسى ساريد فى الضفة الغربية .

تحليل ، مستوى أول . وقائعى :

بعد مرور نحو أسبوعين تقريبًا لم ينفذ أى شىء مهم من ناحيتنا فى واشنطون . بعد مرور أسبوعين بالضبط ظهرت " المناورة الكريهة " ، حيث أقال شامير نائبه شمعون بيرس وسقطت حكومة شامير التى كانت تحمل طابع حكومة وحدة وطنية. وتشكلت بدلاً منها حكومة ذات طابع يمينى ضيق وحاد . وبعد ثلاثة أشهر أقال شامير عيزر فايتسمان من الحكومة بسبب اتصالاته مع م . ت . ف وبعد مرور نحو ستة أشهر دخل إيبى ناتان ، إلى السجن لنفس السبب . وتكاثرت المستوطنات مثل الفطريات بعد هطول المطر . وأعلن رئيس الحكومة التى أدارت " مسيرة السلام " - أعلن صراحة أن أرض إسرائيل لن تقسم مرة أخرى أبداً .

وعلاوة على ذلك : ليس هناك شىء كهذا " الزعامة اليهودية الأمريكية " ، وفى حالة ما إذا كان المقصود مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية ، فإن معظمهم يؤيدون الضم وقلة منهم يجرأون علي معارضة سياسة حكومة إسرائيل ، وكذلك أيضًا اللوبى اليهودى القومى فى الكونجرس ، حتى يومنا هذا بعد ذلك بعشر سنوات . أما عوفديا يوسيف (الذى قال " ليس هناك حيوان مفترس أكثر من العرب " هارتس ١٩٩٣/٣/٢٣م) ، فقد انكمش فى مواجهة الضغط الشديد من جانب الحاخام شاخ والحاخام ملوففيتس وأحبط مع وزير بلاطه أرييه درعى محاولة بيرس ليخلف شامير فى رئاسة الحكومة ولم يتخذ أى موقف ضد الضم حتى يومنا هذا ، بل العكس . أما أن يتسحاق شامير قد نفذ سياسة يوسى ساريد فى الضفة الغربية وفى قطاع غزة ، فهذا أمر لايمكن بالطبع دحضه أو تأكيده علميًا ، لأن يوسى ساريد فقط هو الذى

يعرف فى الحقيقة ما هى سياسته . وينبغى أن نشير إلى أن أحد من أنصار يوسى ساريد لم يقترح إمكانية التصويت مباشرة لشامير بدلاً من يوسى ساريد لكى ينفذ شامير مثل بيجن ، برنامجه .

تحليل ، مستوى ثان - معنى ومدلول :

أولاً ، لكى نمنع أن يتسلل خلسة شك إلى قلب مؤرخ المستقبل (فى الحقيقة ، الحاضر: الزمن يجرى بالنسبة لهؤلاء الذين لا يعيشون فى ظروف قمع ، الذين يجندون الآن فى الجيش كانوا آنذاك فى سن السابعة أو الثامنة من العمر) " وأريد أن أضمن له أن هذا المقطع ليس غريبًا ، فالحالة النفسية والمزاج الذى ينعكس فى هذه الوثيقة مميز لـ " اليسار الصهيونى " ! فهو متفائل لا يكل ، وهو منتصر دائم ، ومايزال يعيش فى أمل أن قريبًا سيأتى " الاتفاق الحاسم " فى الصراع وفى النزاع الذى سينتهى بخير ، من ناحيتنا. هناك مئات من مثل هذه التعبيرات فى وسائل الإعلام . تغييرات وتباينات لانهائية حول الموضوع " دولة فلسطينية حتمًا ستقوم " ويأتي مخلص إلى صهيون .

لقد وقع اختيارى على هذه الوثيقة لأنها تمثل إلى حد كبير فى التفاؤل وأيضًا فى البلاهة (التى وضع لها تعريفًا بأنها " فجوة كبيرة من المعقول بين خريطة المفاهيم وبين الواقع ") التى لا حدود لها فيها ، وتورد هذه الصفات بشكل مركز على لسان أبرز شخصية فى "اليسار الصهيونى " .

" على الرغم من كل الكلاب التى تنبح " : التشبيه المعيارى هو أن القافلة التى تمر هى الحكومة التى تسير فى طريقها فى حين أن الكلاب التى تنبح هى كلاب المعارضة . الكلاب التى تنبح هنا ضد الذهاب إلى واشنطون والمحادثات مع م . ت . ف هى الحكومة ورئيس الحكومة أما المعارضة - يوسى ساريد - فهى القافلة التى تمر . إلى هذه الدرجة كانت الحدود بين القوى العاملة فى ساحة النزاع مطموسة المعالم لديه ، ماذا كانت تلك النبحات التى تحدث عنها يوسى ساريد باستخفاف ؟ على سبيل المثال أقوال رئيس حكومة إسرائيل المنتخب يتسحاق شامير الذى أدار " مسيرة السلام " ، قبل ذلك بضعة أشهر من مركز حزب الليكود عندما بعث بـ " تحية قلبية وحارة للمستوطنين فى الضفة الغربية وقطاع غزة " ، وأكد أن الاستيطان سيستمر وأعلن بأن أرض إسرائيل الغربية لن تقسم بعد الآن ولن تكون فيها سيادة

أجنبيـة " . وفى نفس اليـوم ، إننى أذكـر واعـترف ، كـان يراودنى الأمـل فى أن يفـهم ويدرك واحد من زعمـاء اليسـار أن هذا هو " يوم الحسم " لأن رئيس الحكومة يعلن صراحة وعلنًا عن الضم ، ويتضح أنه بالنسبة ليوسى ساريد لم يكن هذا سوى نباح واهن على قافلة السلام التى تمر .

لقد نظر " اليسار الصهيونى " إلى هذا باعتبـاره مثل مخاض المسيح(*) وأحس بأنه على الرغم من أن مقود السفينة ليس فى يده فإنها تبحر فوق أمواج الأحداث إلى النصر . والرياح التى تهب على شراع سفينتنا كانت فى نظره هى " واشنطون " زعامـة يهـودية " فى العـالم الغربى ، وبالطبع " مسارات تاريخية " ، وليس هذا فحسب بل بشكل " ساحق وجارف " .

" لقد حسم الأمر " ، لا يجب أن نتحدث مع م . ت . ف ، هذا أصبحت المعركة الأخيرة.." هذا مسار جارف : مظاهر كلاسيكية لتفكير ، إذا كان مسموحًا أن نسمى هذا Wishful thinking التفكير المرغوب ، شرود ذهنى مسيحانى مثل " العالم البورجوازى يتقوض " "الإمبريالية تخوض معركتها الأخيرة " ، " لايمكن أن نوقف مسارات تاريخية " ، " المسيح المخلص هنا فعلاً " ، " الوضع يهتز من النضوج " (هذا أيضًا كلام يوسى ساريد) وماشابه ذلك . استميحكم عذراً ، إن الكلام الفارغ المتمثل فى نموذج خريطة - مساحة هو تحليق فى سحاب . وبهذه المناسبة فإن المعركة الأخيرة (لا يجب أن نتحدث مع م . ت . ف . فى روايتها الأصلية استمرت ثلاث سنوات ونصف حتى اتفاق أوسلو وفي روايتها التى جُعلت معتدلة ، لا يجب أن نتحدث مع م . ت . ف (أو مع شعبنا) عن دولة فلسطينية ، سلام عادل ومصالحة ، ماتزال مستمرة ولا تبدو نهايتها فى الأفق .

ولكى نقدر أهمية الأمل الجيد والتحليق على أمواج المسيرات ، ونشوه أشخاصًا مثل يوسى ساريد ومن يضعون ثقتهم فيه ، يجب أن نتذكر فى أى واقع كانوا يعيشون . فقد اندلعت الانتفاضة منذ أكثر من سنتين ... وأصبحت الكراهية والبهيمية والوحشية من كل الأطراف أكثر فأكثر وفى المقابل تضاءلت الحساسية . وكان هنا انحراف دائم ، فى الرأى العام إلي اليمين المتطرف ، خاصة فى أوساط الشباب ، وتحولت أعمال قتل مدنيين غير

* - تسمية للمشاكل والبلايا والعقاب السماوى الذى يحل بالعالم قبل قدوم المسيح المخلص

مسلحين وأطفال فى المناطق الفلسطينية إلى روتين اعتادته وسائل الإعلام والجمهور . منذ أكثر من سنة لم يعتادوا على إضافة عبارة - الجيش الإسرائيلى يحقق فى ظروف الحادث- ، إلى تقارير وسائل الإعلام . لم يكن هناك ما يجرى التحقيق فيه ، وأصبحت الانتفاضة وأعمال القمع التى صاحبتها إلى أمور مخزية وقذرة أكثر فأكثر ، وأصبحت تواكب أعمال إرهاب كبيرة وصغيرة أعمال شغب ومذابح من جانب يهود ، ويتحول هذا إلى نمط الرد العادى والمتوقع . وباختصار ، كان هذا وضعًا جديداً ، اختبار أخلاقى يومى لم تجتازه الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل أبداً قبل ذلك .

كل هذا كان يمكن أن يكون محتملاً ، مثل موسيقى خلفية بعيدة ، لأن الجمهور اليسارى كان ملازمًا لساحة " مسيرة السلام " ومولهًا بنتائجها المتوقعة . وكان هذا مريحًا أيضًا ليوسى ساريد ، الذى كان يستطيع أن يشعر فى هذه الساحة بأنه المايسترو الذى يقود شامير وخارج هذه الساحة لم ينتبه أحد إلى أن حزبه لم يقدم ولا حتى اقتراحًا واحداً لجدول أعمال الكنيست أو مشروع قانون أو شيئًا ما فيما يتعلق بتصرف قوات الأمن فى المناطق (الفلسطينية) فى حين أن إحصائية المدنيين والأطفال الذين أطلق عليهم الجيش النار وقتلوا آخذة فى التضخم .

وكما أوضحت بتوسع فى الجزء الأول ، فلكى تقوم مسيرة السلام مطلوب على الأقل ثلاثة شروط خارجية : أن يكون كل طرف مستعد للتحدث مع الطرف الثانى ، أن يكون كل طرف مستعد للتنازل عن شىء ما ، وأن يتفق الطرفان فى خطوط عامة على ماهو الوضع الذى يريدون الوصول إليه من أجل أن يعيشوا فى سلام . وكما قلنا فإن الأمر المذهل هو أن " اليسار الصهيونى " اعتقد بشدة أن إسرائيل تشترك فى مسيرة السلام على الرغم من أن الحكومات (والمعارضة الرئيسية !) فى الفترة من ١٩٧٧ إلى ١٩٩٣ لم تكن مستعدة أبداً للتحدث مع الطرف الثانى . وكان الموقف الصريح والمبدئى لليمين الحاكم (أو الذى يضع قيوداً وسيطر فى فترة حكومات الوحدة الوطنية) أنه غير مستعد للتنازل عن أى شبر ، وكان رد فعله على مبادرات الوساطة الأمريكية وضع عقبات فى الطريق وكسب الوقت الذى استغله بفاعلية من أجل أن يبنى مستوطنات تحبط أى احتمال لانسحاب من المناطق ، أى طبقًا لمفاهيم اليسار أى احتمال سلام . وقد اعترف شامير نفسه بذلك بتفاخر بعد أن فقد رئاسة الحكومة لصالح رابين .

فلتفحصوا أية صحيفة قديمة تعود إلى العشرين سنة الأخيرة ولن تجدوا صحيفة واحدة لم تتحدث عن خطوات فى مسيرة السلام (ميرون بنبنيشتى قارن حركة الدبلوماسيين الذين يسافرون جواً مثل أقمار صناعية فوقنا بحركة طاووس فوق خرائب) .

لقد تحول اليسار الصهيونى مع كل القطيع ليصبح جمهور مشاهد متحمس فى لعبة لم تبدأ أصلاً . وقد تظاهرت حركة " سلام الآن " لكى تؤيد جهود شامير السلمية : " لا تضيعوا فرصة السلام " . واستخدم اليسار الصهيونى هذه اللعبة بديلاً رائعًا لضرورة الاعتراف بالواقع ومواجهته . فقد ساعدته فى أن يكون مع (ضم) وأن يشعر بأنه حر وسعيد وديمقراطى و "نحن " .

وفى عيد البوريم ، بعده بضعة أيام من طرح يوسى ساريد توقعه الجلى والواعد ظهرا معًا عضوى كنيست روفى ريفلين (من الليكود) ودان كوهين (من حركة ميرتس) وهما يرتديان ملابس تنكرية لأمراء على الغلاف الملون لإحدى الصحف الكبيرة .

كانت رؤيا مسيرة السلام مسرحية سخيفة من حقيقة جوهر القوى فى ساحة النزاع ، التى أصبح فيها الفلسطينيون طرفًا مهزومًا ومحتلاً وليس طرفًا مقاتلاً . وقد اعتقد " اليسار الصهيونى " والباقون فى هذا السخف المنافى للعقل بسبب أن فهم القوى على الأرض ، وخطوط الجبهة ، والحدود بينها كانت غامضة مشوهة على خرائط مفاهيمهم . السلام (اليوم) مطلوب مع سوريا أو مع حزب الله ، ولكن السلام مع سكان المناطق كان مطلوبًا مثلما كان السلام مطلوبًا للبيض فى جنوب أفريقيا التمييز العنصرى مع السود . وما كان مطلوبًا على ضوء الوضع الذى كنا موجودين فيه ، هو ضبط النظام والمحافظة على الأمن بشكل ناجح ومحاربة الإرهاب بدون أن نفقد الطابع الإنسانى وبدون أن نتدهور إلى الجريمة بأنفسنا . أما ما كان مطلوبًا لإيجاد مخرج من النزاع فهو فقط قرار من جانبنا بأننا نريد أن نتركهم وشأنهم. كان هذا هو الأمر الحقيقى ، وعلى هذا كان يجب أن يجرى النضال الحقيقى .

وعندما حانت لحظة الحقيقة كان هذا هزليًا فعلاً ، كان كل الجمهور الكبير مشدوداً إلى المسرحية التى عرضت فى واشنطون وكان الياكيم روبنشتاين المتجهم هو الممثل الرئيسى على خشبة المشرح ممثلاً ليتسحاق شامير ، والذى أبقاه رابين أيضًا فى منصبه . وقد أجرى روبنشتاين فى واشنطون مفاوضات مع ممثلى السكان فى المناطق " ، وليس معاذ الله مع

زعامتهم م . ت . ف وقد فوجىء روبنشتاين نفسه وشعر بالإهانة عندما علم أن السلام بزغ عمومًا فى مكان آخر ، فى أوسلو ، من وراء ظهره ، وأنه قد تم الاتفاق على أمور كان من المفترض ألا يوافق عليها هو . وآنذاك كما قلنا ، تحول السلام ليصبح حربًا جدية ، على الأقل من ناحية . قوى أرض إسرائيل الكاملة . فعلى النقيض التام من " اليسار الصهيونى " لم تعان هذه القوى أبداً من غموض وعدم وضوح الحدود ، ومن مشاكل تحديد هوية من هو العدو ، أو عدم القدرة على ترسيم خطوط حمراء على خرائط مفاهيمهم .

وكان لـ " مسيرة السلام " الأزلية أيضًا جانب مشترك مع كوميديا صالات على حلقات ، بحيث أن كل ممثل لعب دوراً ثابتًا وكرر نفس المقولات : قد أدار شامير المسيرة وانتهت هذه الإدارة إلى استراتيجية إمساك حتى النهاية ويعيش " اليسار الصهيونى " الأمل ، وأدار عبادة " السلام " (ليس معاذ الله " سلام مقابل أراضى " ولا حتى " سلام عادل " واللذين من شأنهما أن يشيران ويلمحان إلى نوايا صراع جديدة " واحتفل بانتصاراته المحتملة . وقبيل مؤتمر مدريد (اكتوبر ١٩٩١) صرح بيرس " أنه سعيد لأن الليكود سيقود المسيرة بدلاً من أن يعرقل الأمر " (وأثبت القدر أنه ليست لديه حاسة الدعابة فى هذه الحالة لأنه بعد مرور أربع سنوات ومقتل رابين ، سمح لبيرس ، الذى كان لديه تفوق ضخم ، بأن يخسر الانتخابات لصالح نتنياهو الذى وعد بـ " سلام مضمون " ، ولم يسجل بيان لبيرس ، بأنه سعيد لأن نتنياهو سيقود المسيرة بدلاً من أن يعرقلها) . وأعربت منظمات اليسار قبيل مؤتمر مدريد عن ارتياح عميق من هزيمة رافضى السلام " (قبل حكومة رابين ، قبل أوسلو ، فى الوقت الذى كان فيه الاتصال مع م . ت . ف يعتبر جريمة قومية ، كانت إقامة المستوطنات فى زخم واتجه الرأى العام ناحية اليمين وزاد بهيمية بوتيرة متزايدة ، أمريكا لم تفعل شيئًا مجدداً !) وأخذ المستوطنون ومؤيدوهم يطلقون الصرخات وتنبؤوا بحرب أهلية وخراب ودمار . ولكن " اليسار الصهيونى لم يتأثر ولم ينقص هذا من سكونه المتفائل .

وقد نظر اليمين إلى " مسيرة السلام " بجدية لاتقل ، ولكن على خلاف اليسار لم يثق فى حكومة اليمين . وفى بداية الثمانينات توجه جورج شولتس وزير الخارجية فى إدارة ريجان للقيام بجولة مكوكية من أجل دفع " مسيرة السلام " إلى الأمام . وأقام فى فندق هيلتون فى القدس ، ووضع المستوطنون فى مواجهة نافذته مسخًا لعرفات . وطبقًا لمقاييس المستوطن الذى لا يصل حتى لارتفاع حد بلطته ، كان هذا مسخًا فى حجم بيت مكون من خمسة طوابق على الأقل

وعندما حان بعد مرور ٨ - ٩ سنوات ، دور وزير خارجية الرئيس بوش ، جيمس بيكر للقيام بجولاته المكوكية ، أخرج المستوطنون مجدداً نفس تمثال عرفات وغرسوا علم الولايات المتحدة في يده . وقد منع رئيس بلدية القدس آنذاك تيدي كوليك وضع العلم بدعوى أن هذا يعتبر إهانة لكرامة الضيف الرسمي ، ولكنه خسر الدعوى في محكمة العدل العليا ، وهكذا استطاع بيكر أيضًا أن يتمتع بهذا المسخ المخيف بما في ذلك العلم الأمريكي .

وفي سنة ١٩٨٥ (قبل ثماني سنوات من اتفاق أوسلو) كان شمعون بيرس رئيس الحكومة في التناوب على رئاسة الحكومة بين حزب العمل والليكود ويتسحاق شامير نائبه . وقد أجرى بيرس اتصالات مع الأردن طبقًا لسيناريو مسرحية " الخيار الأردني " . وقال إلياكيم هاعتسني ، أحد الزعماء البارزين للمستوطنين ، وإيديولوجي ورجل قانون ، قال (حسبما نشرته صحيفة يديعوت أحرونوت ١٩٨٥/١١/٢٢) :

" إذا وصل هذا إلى حد أن تسقط يهودا والسامرة (الضفة الغربية) فإنني أعرف أن هذه هي نهايتنا قبل أن يدخل عرفات إليها ، هذه ستكون نهاية روحية - معنوية . وإنني أقدر أن مئات الآلاف سيشعرون بأنه ليس لديهم ما يعيشون من أجله في هذه البلاد وسيتركونها ... إنني لن أهاجم أحداً ، ولكنني سأفعل مثل هذا العمل ، ولتضعني في السجن الأغلبية التي قررت الانتحار "

وتذكر نفس الصحيفة أن إلياكيم هاعتسني قدم ، باعتباره ممثل مجلس المستوطنات في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وثيقة لكتلة الليكود في الكنيست مفادها : " إن قراراً تصدره الحكومة عن تسليم مناطق سيكون غير قانوني ، لكونه خرقًا للدستور الأساسي غير المكتوب للدولة التي محفور على ألواحها استيطان وسيادة علي أجزاء أرض إسرائيل " ، ويبرز في كل هذه الصياغات نفس الشيء الذي برز جداً في غيابه لدى " اليسار " : "إحساس بالحدود ، بأن شيئًا ما واضح على الأرض إذا ما حدث سيشكل تعدى " خط أحمر " وكان إلياكيم هاعتسني أكثر صراحة فيما جاء في صحيفة المستوطنين ("نيكودا " العدد ٨٥) في اختيار الكلمات لترسيم حدود واضحة إذا ما تغيرت سياسة الضم معاذ الله وتحدث عن ذريعة للحرب سبب كاف للحرب " في اللحظة التي تقوم فيها إسرائيل بخطوة حاسمة ومصيرية وتجرى

محادثات مع م . ت . ف ، وسيكون هذا هو اليوم الذى يجب البدء فيه بنضال لا يقبل حلول وسط " ، " مسألة حياة أو موت " ، " وكما هو الحال فى ردع نووى - إذا ظهرنا متكتلين وعاقدين العزم ومصممون فى قرارنا - ربما لا نحتاج إلى تنفيذه " كما أن صحيفة مستوطنين خاصة " أليف يود " والتى تطبع فى مستوطنة أريئيل حظيت حتى بأن المستشار القانونى للحكومة درس مسألة تقديم مذكرة اتهام ضد رئيس تحريرها (هارتس ١٩٨٥/١١/٦) . حيث كتبوا فيها : فى الوقت الذى يصاب فيه قادة الدولة بالعمى والجنون ... فإن كل واحد سيعد نفسه نفسيًا للوقوف فى يهودا والسامرة وقطاع غزة وأن يرفع يده وسلاحه ضد أخيه " ، وما شابه ذلك .

وقد نفذ الرأى القائل بأن المستوطنين سيحاربون " مسيرة السلام ، إذا تحققت " حياة أو موت " نفذ إلى وعى الجمهور آنذاك فعلاً وأرعب كل من تصور مثل هذا الاحتمال ، وقد أجرى الصحفى حاييم شيفى فى نفس العرض الصحفى (يديعوت أحرونوت ١٩٨٥/١١/٢٢) حديثًا مع شخص جعله منصبه يحظى بمكانة خبير خاص فى الموضوع ، وهو الذى كان قائد " يهودا والسامرة ثم تولى بعد ذلك مهمة شرح مواقف وسياسة رابين على شاشة التلفزيون ، وكان آنذاك يتولي منصب وزير الإسكان فى حكومة رابين . وحاليًا (فى وقت صدور الكتاب) وزير الاتصالات فى حكومة إهود باراك ، اللواء (احتياط) بنامين (فؤاد) بن اليعيزر . وهكذا قال هذا الخبير :

" عن ماذا سيحدث فى مثل هذا اليوم استطيع أن أجيبك بكلمتين " حرب أهلية . فلن تكون هذه مثل قضيةياميت فى طبعة جديدة ، سيكون هذا صراع الحشمونائيم ، معركة هذا الأمر لايمكن أن يمر بأى شكل من الأشكال " .

" لكى لا يخدع أحد نفسه ، إننى أعرف هؤلاء السكان صحيح أنه يمكن أن نقول اليوم أن التصريحات التى سمعناها مؤخراً لا تمثل رأى الأغلبية ، ولكننا بعيدون اليوم عن إخلاء مستوطنات ، وإذا وصلنا إلي هذا سيحدث عصيان وليس من جانب مجموعة أقلية فقط " .

" ... لكن اعتقد أننا لن نصل إلي مثل هذا السيناريو . فالواقع فى يهودا والسامرة غير قابل للتغيير ، فحتى فى أكثر مشروعات المعراخ تطرفًا (لم يكن بنيامين بن إليعيزر

وآنذاك عضو فى المعراخ) لم ترد مسألة تحريك ٦٠ ألف يهود من مكانهم ؟ لايوجد مثل هذا السيناريو " .

هكذا ، إذا بدت وارتسمت صورة " مسيرة السلام " فى نظر القوى العاملة فى الساحة ، فعلى النقيض تمامًا مع " اليسار " ، كانت للمستوطنين ومؤيديهم استراتيجية ناجحة حول كيف يمكن منع تحقق أمل " اليسار " - الترويع بالكلمات - ، بإجراء عروض رعب وإرهاب بملابس تنكرية تمثل م . ت . ف ، وبأفعال ، وقد ساعدت وسائل الإعلام جداً فى هذا ، لأنها تحب المشاهد الدرامية المثيرة بل وساعدت فى إنتاجها . وحتى فى هذه الأيام أيضًا بعد مرور ١٥ سنة من " مسيرة سلام " متواصلة بمواكبة استيطان وضم وقمع وقتل وأعمال شغب وإخلال بالأمن وإرهاب ، " تحصن " أولاد مستوطنين من " جيل الاستمرار " فى أى " مركز استيطانى " بالقرب من مستوطنة " يتسهار " ولم يستحوذوا تمامًا على العناوين الرئيسية فقط ، بل وفى خلال أسبوع بعد هذا ظهرت فى صحيفة " هارتس " كل يوم صورة ملونة كبيرة لأية شخصية فوق سطح إحدى الكرافانات (البيوت سابقة التجهيز) .

وكانت هذه ومازال هى الديناميكية الجماهيرية من حول " مسيرة السلام " . فقد شلت وحيدت " جهة اليسار " كجهة ما فى الساحة ، وفى مقابل هذا شحذت دوافع وبواعث وتصميم اليمين . وكان لمؤيدى الضم إدراك واقعى لما سيحدث فى حالة ما إذا جاء ، معاذ الله اليوم الذى تصبح فيه حمامة السلام قريبة حقًامن إيجاد مواطىء لقدمها فى المناطق ، وكانت لديهم استراتيجية ناجحة لكيفية منع هذا . وقد نفذوها بتصميم وعزم لم يحلم أحد فى اليسار بشىء مثله ، مثل الإضراب عن الطعام الذى نفذه رؤساء المستوطنات فى الضفة الغربية وقطاع غزة فى خيمة فى مواجهة ديوان رئيس الحكومة (شامير !!) فى نياير ١٩٨٩ والذى استمر ٣٨ يومًا ! .

واجتمعت الهيئة التى تمثل المستوطنين من كل المجموعات ، أعضاء مجلس المستوطنات وعددهم ٥٠ عضواً وقرروا بأغلبية مطلقة (صحيفة حداشوت ٥/١/١٩٨٥) :

" أن المشاريع المنسوبة إلى رئيس الحكومة ، والتى ترغب فى تسليم السلطة فى يهودا والسامرة إلي جهة أجنبية ، هى غير قانونية لكونها تشكل خرقًا شديداً لقانون العودة ، وإن هذه الاقتراحات والمشاريع سالفة الذكر مثلها مثل إلغاء دولة إسرائيل ، كدولة صهيونية يهودية هدفها جلب يهود إلى أرض إسرائيل

" إن أى حكم فى إسرائيل يسلم سيادته إلى العدو سيعتبر غير قانونى ، حكم لايجب طاعته والانصياع له . إن تقديم اقتراح تقسيم أرض إسرائيل سيتسبب بالضرورة فى تقسيم الشعب .

وفى اللحظة التى اتخذت فيه حكومة رابين قراراً حاسمًا عن طريق إجراء المفاوضات مع م. ت . ف ودخلت فى مسيرة أوسلو فإنها بذلك قد انتهجت سياسة " غير قانونية " مثلها مثل "إلغاء لدولة إسرائيل كدولة صهيونية يهودية " ، " وتسلم سيادة للعدو " حكم لا يجب طاعته والانصياع له . كان هذا هو الرأى القاطع للمتطرفين من بين المستوطنين ، بل وفى نظر مجموع المستوطنين بواسطة مؤسساتهم المنتجة و " المعسكر القوى " كله . وعلى ذلك فإن المسرح والأدوات كانت معدة فعلاً منذ ١٩٨٥ لمسرحية الرعب التى عرضت بعد أن عُلم باتفاق أوسلو. وكان " اليسار الصهيونى " يمكن أن تتملكه الغيرة من المستوطنين . ذلك أن أحداً لديه لم يتصور أو يخطر على باله أن يقول الحقيقة ، بأن سياسة الضم مثلها " مثل إلغاء دولة إسرائيل " كدولة صهيونية ويهودية وديمقراطية هدفها إحلال سلام عادل فى هذه البلاد ، ولم يقل زعماء اليسار أن الاستيطان سيتسبب فى " انقسام الشعب " وبالفعل لم يتسبب في ذلك. فقد سار اليسار مع التيار .

٢ - حدود النضال ضد الضم :

لقد ذكرت من قبل أهم حقيقة بالنسبة لحدود النضال ضد الضم : لم تبحث أية جهة سياسة منظمة من " اليسار الصهيونى " مسألة ماذا سيعتبر فى نظره الخط الأحمر فى سياسة الحكومة وقوات الأمن فى المناطق وماذا سيفعل عند ذلك . لم يبحثوا أيضًا أبداً المسائل الحقيقية التى روعت كل من خطر على باله أو تصور تنازلاً عن مناطق ، على سبيل المثال ، كيف يمكن التعامل مع المستوطنين الذين سيرفضون إخلاء المستوطنات .

أ - نضال سياسى :

لم تقترح أحزاب " اليسار الصهيونى " على امتداد سنوات الضم بدائل عملية لسياسة الحكومة تجاه السكان فى المناطق ولم تؤثر مطلقًا على اتخاذ القرارات السياسية فطوال الفترة التى كانت فيها الحكومة حكومة يمين أو حكومة وحدة وطنية كان يمكن الربط بين هذا الوضع وبين حقيقة أن أحزاب " اليسار الصهيونى " كانت فى المعارضة . ولكن قبل انتخابات ١٩٩٢

اتحدت حركة راتس (حركة حقوق المواطن) ومبام وشينوى فى قائمة " ميرتس " ، ودخل هذا الحزب الموحد مع أعضاء الكنيست الإثنى عشر الذين يمثلونه فى إئتلاف مع رابين . وأصبح " اليسار الصهيونى " فى وضع تأثير حاسم وأصبحت مسألة النضال السياسى من أجل انفصال عن سياسة الضم فى محك الاختبار . وكانت النتيجة أن أصبح عدم النضال السياسى وعدم الانفصال عن سياسة الضم مكشوفين وحادين وبارزين بشكل خاص ، وذكر حقًا إن " ميرتس " كررت فى الحكومة اقتراحها بإخلاء قطاع غزة ونقله إلى م . ت . ف ، ولكن إذا كان قد جرى نقاش حول ذلك فى الموضوع فى الحكومة فلم يعلم به الجمهور . ولم تخض " ميرتس " أى نضال جماهيرى فى أى موضوع سياسى ، بل أذاعت أن هناك مسيرة سياسية يديرها رابين وهى تؤيدها . وكان الرد الذى تردد مرة تلو أخرى هو " يوجد فقط حل سياسى " .

ومع تولى رابين الحكم لم يظهر أى انحراف عن سياسة شامير الذى سبقه فى رئاسة الحكومة. واستمرت المفاوضات مع " ممثلى السكان " ، والذين كانت أبرز شخصية من بينهم هى حنان عشراوى ، حول " حكم ذاتى " ، استمرت تجرى بالضبط كما لو أنها سابقة لأوانها ، كما أن رابين لم يستبدل حتى رئيس الوفد الإسرائيلى فى المفاوضات ، ممثل شامير إلياكيم روبنشتاين ، وقد برز بشكل خاص عدم التغيير فى سياسة الأمن فى المناطق ، التى أصبحت حتى ذلك الوقت مطلقة العنان أكثر وحصدت المزيد من الضحايا المدنيين مع تضاؤل الاهتمام فى الرأى العام الإسرائيلى ، واستمرت أعمال البناء فى المستوطنات .

هكذا فى الأفعال . أما فيما يتعلق بالأقوال وتعبيرات الوجوه ، أو اختيار كلمات وصياغات تنطوى على ما يدل على نوايا وعن جو وعن دفء أو تحلحل الأمور أو " خطوات لبناء الثقة " أيًا كانت فلم يكن هناك أيضًا تغيير ، وإننى أقصد ردود الفعل التى لقيت تغطية إعلامية والتى يستقبلها الجمهور باعتبارها إشارة وتلميحًا إلى مزاج أو اتجاه ، مثل صورة رابين وهو يرتدى طاقية سوداء كبيرة ويمارس نفس شعائر المتدينين والتى نشرت فى عيد المظال بعد انتخابه . ولم يبتسم رابين ولم ينطق بكلمة مصالحة واحدة ، ولا أى وعد أو بادرة حسن نية ولم يظهر أى حسن نية تجاه الفلسطينيين ، أى شىء من هذا لم يحدث ولم يسجل . ولم تكن هناك أية وسيلة لمعرفة ما إذا كانت لدى رابين خطط أخرى من تلك الخطط التى كانت لدى شامير . وقد قال هو نفسه " يجب عدم كشف الأوراق " فى المفاوضات ، أى كشف عن

أنه يدير مسيرة " الحكم الذاتى " ضد الفلسطينيين وليس نحوهم، باعتبارها " لعبة إجمالى خطواتها صفر " ، فكل مكسب للطرف الثانى هو خسارة لنا والعكس . ولم يكن هناك أى تلميح إلى أن رابين يعتقد أنه من مصلحتنا التخلى عن السيطرة الكاملة فى المناطق ، وأنه يتعين عليه أن يحقق مثل هذه السياسة . وقد كتب الصحفى يوئيل ماركوس ، الذى يعتبر وثيق الصلة جداً بدوائر النخبة الحاكمة ولا يعتبر من الحمائم أو من رجال اليسار - كتب بعد ستة أشهر من حكم رابين :

" لا توجد للحكومة خطة عمل ... فبماذا خطت الحكومة نحو الفلسطينيين واستجابت لهم أكثر من حكومة شامير ؟ ... لم نر ولا حتى طرف بداية تسوية " (هارتس ١٩٩٣/٣/٥) .

وكان يمكن تسجيل رد فعل " اليسار الصهيونى " من أحاديث جرت مصادفة مع الأشخاص الكثيرين الذين أسعدهم التغيير فى الحكم وأيدوا رابين ، ومن تصرف رجال وسائل الإعلام والسياسيين . فقد بقوا جميعهم مثلما كانوا من قبل ، يعتقدون أن هناك مسيرة وهى (الله ، شامير ، رابين ، بوش ، كلينتون لايهم) ستجلب لنا السلام ... على افتراض أنه يُوجد في جمهور وسائل الإعلام تمثيل محترم " لليسار الصهيونى " ، يمكن أن نكتشف الحقيقة الآتية : فى السنتين الأوليين (سنتين) من حكم رابين لم يهتم أحد من الصحفيين مطلقًا ، بما فى ذلك فى الإذاعة وفى التلفزيون هل كانت لدى رابين خطط عملية للتراجع عن سياسة الضم ، والانتقال إلي سياسة " أراضى مقابل سلام " ، والتحدث أخيراً مع م . ت. ف، وإخلاء مستوطنات - أو عمل أى شىء فى خط التوقعات منه من جانب " اليسار الصهيونى".

إن السياسة فى المناطق ، التى كانت مرتبطة بالانتفاضة وبالإصابات والقتل من ناحية وبالبناء من ناحية أخرى ، جرت كما كان عليه الحال من قبل . فقد أخذ المستوطنون يتجولون فى المناطق مثلما كان يفعلون من قبل ، وقاموا بأعمال انتقامية ، هدم وقتل ضد السكان ، بدون معارضة فعالة من جانب السلطات العسكرية . " الخط الأخضر " وكل خط آخر كان مخترقًا وممحواً مثلما كان من قبل . وعمل رجال حركة " كاخ واستحوذوا على عناوين الأخبار مثلما حدث من قبل . وفى شهر نوفمبر التقطت صورة لأحد رجال كهانا وهو طيران فولك يهدد برشاشه العوزى حنان عشراوى فى القدس .

ويتضح أن رخصة حمل سلاح أوتوماتيكى اعطيت له أيضًا فى فترة حكم رابين . وقام اثنان من الشبان من محبى مئير كهانا بإلقاء قنبلة يدوية وقتلوا بائعًا متجولاً فى السوق فى القدس القديمة ومجدداً سكتت وسائل الإعلام عن كهانا الابن . ويقول هو وزملاؤه " لقد جئنا هنا لنفتح زجاجة شمبانيا بمناسبة الانتقام من العرب وأن نرقص رقصة الهوراه (رقصة شعبية يهودية ذات إيقاع سريع وصاخب) على دمهم " . ويدل مثل هذا الكلام على الجو الذى كان سائداً على الرغم من أنه فى نفس الوقت كان " اليسار الصهيونى " فى الحكم فعلاً .

وكانت لدى أشخاص كثيرين ممن أعطوا أصواتهم لرابين رغبة فى أن يحدث تغيير فى كل هذه الأمور ، ومع كل هذا ، لم يقم أحد بالتحقيق ولم يسأل لماذا يحدث هذا . وأسئلة مثل هذه الأسئلة . الآتية لم تسئل ولم تجد طريقها للنشر فى وسائل الإعلام :

* هل توجد لدى رابين أية خطط عملية لتغيير سياسة الأمن فى المناطق الفلسطينية ؟

* هل يحتمل أن تلك السياسة التى كانت موجهة لضمان حكم إسرائيل إلى الأبد تتناسب مع السياسة الموجهة للحفاظ على الهدوء هناك حتى التوصل مع السكان إلي تسوية تمكن من خروج إسرائيل من هناك ؟ .

* هل يوجد خطط لتقليص التجاوزات وتحسين وضع الحفاظ على القانون وعلى حقوق الإنسان فى المناطق الفلسطينية ؟

* هل توجد لدى رابين أطقم تقديرات أو مجموعة عمل تعمل على ذلك ؟

* هل توجد فى الحكومة أطقم تقوم بالتخطيط في مسألة كيف يمكن أن تسهل على المستوطنين الانتقال إلى السياسة الجديد ؟

* هل توجد لدى الحكومة خطط لكيفية الإعداد لجعل الاتفاقية مقبولة فى نظر السكان الفلسطينيين ؟ .

* لماذا لايدلى رابين بتصريحات تدل على تحسين نيته الطيبة على سبيل المثال ، فى أننا لانريد أن نحكم الفلسطينيين ؟ ولماذا لا ينطق بكلمات مثل مصالحة ، اعتراف بمعاناة الفلسطينيين ، خطر أخلاقى بسبب كوننا نحكم شعبًا آخر ؟ .

كما لن توجه أية أسئلة إلى أعضاء الكنيست الجدد فى حركة ميرتس ، وثيقة الصلة بالموضوع فيما يتعلق بدورهم فى العمل على دفع " مسيرة السلام " إلى الأمام . وما هى

حدود تأييدهم لرابين ؟ وما هى طلباتهم العملية ، خاصة الشئون الملحة والدامية للسياسة فى المناطق والإرهاب ؟ وما هى الطلبات التى تمت الاستجابة لهم وما هى الطلبات التى لم تتم الاستجابة لها من بين طلباتهم ؟ وفى ماذا بالضبط يحاولون وينجحون فى التأثير ، وفى ماذا كانت سياسة الحكومة ستصبح مختلفة لولا وجودهم فيها ؟ وقد قالت شولاميت ألونى عندما كانت تتولى منصب وزيرة التعليم ، - قالت بعد ثلاثة أشهر من حكم رابين ، الذى لم تبدو فيه أية تغييرات فى أى موضوع : " إننى أعرف أن رابين يريد أن يدخل التاريخ باعتباره دفع السلام إلى الأمام " . ولكن من قامت بإجراء الحديث معها لم تسألها حتى كيف تعرف ذلك . وبعد مرور سنة ، لم تعد شولاميت ألونى متأكدة من أنها قالت بأنه لم يحدث خلال سنة تغيير فإنها ستؤيد انسحاب ميرتس من الحكومة . وطبقًا لما تعكسه وسائل الإعلام ، لم تكن لدى " اليسار الصهيونى " ولدى كل مؤيدى رابين فى الانتخابات أية توقعات حقيقية ومحددة منه فى الطريق إلى ذلك " السلام " المستقبلى فى كل فترة حكمه ، قبل وحتى بعد أوسلو .

من المهم أن نذكر أن إئتلاف رابين لم يكن يشكل أغلبية . وكانت هذه حكومة أقلية ، وكانت لديه " أغلبية مانعة " بصوت واحد ، أى مع عدد كل أعضاء الكنيست العرب الذين أيدوا الحكومة من الخارج فى عمليات التصويت على حجب الثقة عن الحكومة . وكل فوز رابين فى الانتخابات ، باستثناء التصويت الشخصى ، جاء لأن اليمين ، مجدداً بفضل العرب، لم يكن قادراً على تشكيل الحكومة . وكانت هذه الأغلبية المانعة ضد " أرض إسرائيل الكاملة" قد أعاقت بنجاح اليمين البرلمانى طوال فترة رابين ، وقد ثبت لأول مرة وظهر للجميع أية أغلبية وأى موضوع هى التى تقرر الأمور فى الحقيقة .

وكانت حركة ميرتس فى موقع ضغط جيد جداً على رابين ولكنها لم تستغل هذا مطلقًا . وعندما لم يتحرك رابين كان شعار " اليسار الصهيونى " وراءك " وتأييده ، أى أن يطلبوا أيضًا من نفس الشىء . هذا في الوقت الذى كان واضحًا أن رابين يريد أن يغير ولكنه لا يجرؤ على القيام بذلك ، لأن كل الضغط عليه يأتى من اليمين ، وكان بمقدور ميرتس أن تضغط عليه بدورها وتوازن قليلاً هذا الضغط من جانب اليمين ولكنها لم تفعل هذا . وكانت نضالاتها فى الموضوعات المهمة مثل منازعات مع حركة " شاس " حول منصب وزير التعليم. فقد أصرت شولاميت أولونى على أن تبقى وزيرة للتعليم وعندها أصدر رابين بيانًا يحمل فيه ميرتس المسئولية فى حالة توقف " مسيرة السلام " . وقد استطاعات شولاميت أولونى ، التى

عرفت بالطبع أن المسئولية الحقيقية هى مسئولية رابين وليست مسئوليتها . واستطاعات أن تستجيب بسرور لطلب أن تترك منصب وزير التعليم (وقد اضطرت للتخلى عنه على أية حال) بشرط أن يوافق رابين ، لنفترض ، على إجراء مفاوضات مع م . ت . ف (وقد وافق على ذلك بعد مرور وقت على أية حال) ، أو أن يوافق على إعادة الـ ٥١٤ المطرودين من حركة حماس من لبنان ، أو يصدر تعليمات قاطعة ولا لبس فيها لقوات الأمن بأنه يتعين عليها أن تتعامل مع العرب غير المسلحين فى المناطق وكأنها رجال شرطة تقف فى مواجهة يهود يقومون بأعمال شغب . ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث ، وطبقًا للجو فى تلك الفترة ، ما كان يمكن أن يحدث . وسار " اليسار الصهيونى " وراء رابين بدلاً من أن يساعده على مواجهة اليمين عن طريق ضغط مضاد.

لقد كان يمكن التأثير على رابين مثلما أثبت التحول الذى كان مع اتفاق أوسلو . وليست هناك أية شهادة أو دليل على أن الاستعداد للاعتراف بـ م.ت.ف على أنها ممثل الفلسطنيين فى المناطق والاستعداد لتسليمها مناطق فى قطاع غزة وفى الضفة الغربية قد جاء بواسطة أو بالضغط أو بالتأثير السياسى من جانب ميرتس فى الحكومة ، ولم يسجل يوسى ساريد لنفسه أى فضل فى ذلك ، حتى بعد مقتل يتسحاق رابين . كما أن أول تحول جوهرى ، سياسة الانفصال ، تم أيضًا عندما تعرض رابين لضغط من جراء أعمال الإرهاب ومن جانب اليمين الذى اتهمه بذلك ، وبالقدر الذى يعرف فيه شيء ما عن دور " اليسار الصهيونى " فى ذلك التحول نحو الانفصال بين الشعبين ، فإنه لم يؤيد ذلك ، وإن كان يوسى ساريد قد أعرب عن تأييد لذلك بعد حدوث هذا .

وبالمدى الذى تشهد فيه وسائل الإعلام بشيء ما عن جمهور مؤيدى رابين ، فإن أحداً لم يسأل نفسه كيف ينوى مواجهة " الإحباط والغضب " لدى ملايين السكان الفلسطينيين بسبب القمع والاستيطان والاحتلال . ولم يكن إحباطهم وغضبهم سوى "كراهية إسرائيل" ، ولم يثر هذا اهتمام وسائل الإعلام الرسمية ، ولكن مع الفصل ، سأل ميخا فريدمان على الفور رابين فى إذاعة الجيش الإسرائيلى " جاليى تساهل " ماذا سيحدث مع إحباط وغضب ١٥٠ ألف عامل من المناطق لا يستطيعون الوصول للعمل فى إسرائيل .

وقد كتب أحد متغطرسى "اليسار الصهيونى" البارزين فى تلك الفترة وهو الصحفى فى صحيفة هارتس ، جدعون سامت ، الذى كان يتولى أيضًا منصب رئيس تحرير مجلة حركة

راتس " بوليتيكا " - كتب فى بداية حكم رابين : " إن رجل الشارع لا يسير فقط وراء رابين، بل يبدو أنه يسبقه فى الاستعداد لتقديم تنازلات " . وقد قيل هذا بالنسبة للجولان ، وكان يتعارض آنذاك مع كل المعطيات الحقيقية من استطلاعات الرأى ومن الأبحاث ، التى أظهرت أن نصف الجمهور كان ضد أى تنازل فى الجولان ، وكان هناك ٨٠٪ ضد أى تنازل جوهرى . وبدأ كل موضوع " الاتفاقية مع سوريا " كإشارة تبشر بشر في واقع انعدام تحرك نحو انسحاب من المناطق الفلسطينية ، وكصرف للأنظار عن الـ " نضال من أجل أرض إسرائيل " . وبحسب تقديرى ، آنذاك واليوم أيضًا ، كان شامير أيضًا قادراً على التنازل عن مرتفعات الجولان لكى يضمن سيطرتنا على كل أرض إسرائيل مثلما كان بيجن قادراً على التنازل عن كل سيناء لهذا الهدف . ولكن " اليسار الصهيونى " احتفل بـ " المسيرة السياسية " أيضًا مع سوريا . وعلى الرغم من ذلك ، فإن جدعون سامت هذا نفسه قد اضطر ، بعد مرور سنة على حكم رابين ، أن يعطى مقاله العنوان الآتي " تمزيق الشعر " وأكد ديناميكية الحكم الإئتلافى التى أشرت إليها من قبل : " رابين خائف ويفرض خوفه على الحكومة . ميرتس تخاف أكثر من الجميع وتتلقى الضربات من كل الأطراف " .

وفى وقت قريب جداً من تفجر النبأ عن اتفاق أوسلو كان هناك ضغط معين على ميرتس لكى تفعل شيئًا ما . وقال يوسى ساريد آنذاك : " نحن أسرى للسلام " وأوضح فى مقابلة قائلاً : " الأمر غير الأخلاقى أبداً فى نظرى هو أن نتخلى عن فرصة السلام ... فلتتصور أننا كنا ننسحب من الحكومة ولا نستطيع أن نضغط لاتخاذ قرارات . هذا فى نظرى قمة اللاأخلاقية " - هل علم يوسى ساريد باتفاق أوسلو الذى يجري إعداده ؟ ، إذا كان قد علم ، فإنه لم يذكر ذلك لرئيسة حزبه شولاميت ألونى التى قالت فى ذلك الوقت إنه إذا لم يحدث تقدم فى خلال سنة فإنها ستقترح انسحاب ميرتس من الحكومة . على أية حال من الواضح أن ميرتس استطاعت تأييد حكومة الأقلية برئاسة رابين من خارج الإئتلاف فى الفترة التى سبقت اتفاق أوسلو وليس من الواضح هل نجحت فى " الضغط لاتخاذ قرارات " . وطبقًا لكل الدلائل، فإنها لم تنجح وحتى لم تحاول ، لا فى القرارات السياسية ولا فى قرارات تهيئة مناخ، مفاهيم ، وكل ما يمكن أن يؤثر على الرأى العام . ذلك أن الرأى العام فى تلك الفترة أخذ يتحجر فى فهمه أن " مسيرة السلام " مثل حرب ، هى شيء ما يفعلونه كنضال ضد الفلسطينيين على كل شبر ، وليس مسيرة عودة لأنفسنا وتحرر من القمع فى المناطق . ولم

يسمع الجمهور مطلقًا عن أننا نحتاج إلى تنازل عن ضم المناطق من أجل أنفسنا ونحن مضطرون لأن نتصارع من أجل السلام ضد اليمين . وقد عمل رابين فى منظومة المفاهيم تلك التى ليس فقط أنها لم تتغير فى مسيرة أوسلو ، بل أحاطت بها أيضًا وتجذرت فيها حتى يومنا هذا .

وبالقدر الذى قال فيه رابين هنا وهناك كلامًا يتمشى مع روح " اليسار الصهيونى " فإن اليسار لم ينتبه لأنه كان بإمكان رابين أن يأخذ انطباعًا مؤداه أنه ليس لديه أى تأييد من هذا الاتجاه . فعلى سبيل المثال ، قبل ثلاثة أشهر من العلم باتفاق أوسلو قال رابين فى الإذاعة أنه" يأمل فى أن يعود الجيش الإسرائيلى ليصبح جيش دفاع وليس جيش سيطرة على شعب آخر " . وفى حالة أخرى فى نفس الوقت صرح " ليس هناك كذب أكبر من الادعاء بأن الضحايا هم ضحايا سلام ، مثلما يدعى اليمين المتطرف ، لأن هؤلاء هم ضحايا سيطرة على شعب آخر يثور وينتفض ضد سيطرتنا " . وكلما كان هذا يتعلق بالنقاش الجماهيرى العلنى فإن أحداً لم يعلق ولم يشجعه أحد على ذلك . وقال رابين فى خطابه أمام خريجى أكاديمية الأمن القومى فى تلك السنة – قال إن السلام يستوجب " أنماط تفكير " مختلفة و " خرائط مفاهيم " جديدة تماما ... كان هذا قبل أوسلو ، ولكن أحداً لم يسأله ماذا يقصد بالضبط (وبالمناسبة عندما قرأت كلامه سمحت لنفسى أن أخمن أنه ربما يكون من يقوم بكتابة خطب رابين قد قرأ مقالاتى فى صحيفة " دافار " وتكون لديه انطباع ، بأننى لم أصادف أحداً ما فى وسائل الإعلام باستثنائى أكثر من استخدم هذه التعبيرات : " أنماط تفكير " و " خرائط مفاهيم"...

ب – عصيان مدنى :

إن حركة يش جفول – يُوجد حد " هى النموذج الوحيد لتنظيم على امتداد " خط أحمر " لمعارضة الضم فقد قامت بهذا مصطلحات المعارضة الوحيدة المفهومة لـ " اليسار الصهيونى" : رفض الخدمة فى الجيش . وكان فيها بضع عشرات الأعضاء الذين رفضوا الخدمة العسكرية فى المناطق الفلسطينية وسجنوا بسبب هذا لفترات قصيرة . وقد حاربهم " اليسار الضهيونى " بشدة وإصرار لم يبديه أبداً فى نضاله ضد اليمين . وقال يوسى ساريد فى مؤتمر حركة " راتس" أنه يمكن تقسيم حركة من أجل مثل هذا الأمر " (هارتس ١٩٩٠/٨/٩).

ومن بداية الانتفاضة دعا الجنود مؤيدى حركة راتس إلى الذهاب إلى المناطق و" أداء مهمتهم على أفضل وجه " كما نشرت سكرتارية الكيبوتس القطرى ، هاشومير هاتسعير والحركة الكيبوتسية الموحدة هى أيضًا قرارات وبيانات ضد رفض الخدمة العسكرية فى المناطق (الفلسطينية) .

وهناك علاقة بين رفض الخدمة العسكرية فى المناطق وبين عدد من الظواهر التى لها دور فى تقوية الأفكار التى طرحت حتى الآن خاصة الفكرة المركزية التى تقول أن الجذور الحقيقية لتصرف " اليسار الصهيونى " هى عدم وجود حدود أو تعدى الحدود القيمية الموسومة فوق خرائط مفاهيمه هو نفسه . أولاً : حركة " سلام الآن " وأيضًا حركة " يش جيڤول " يُجد حد " تأسستا فى حرب لبنان . فبداية الرفض كانت الخدمة العسكرية هناك . وهذا يدعم الفرضية القائلة بأن الأشخاص يرون الواقع والحدود بشكل أفضل بكثير عندما يمرون بتجربة النزاع ويؤلمهم جسديًا وهم أنفسهم يمرون بالمعاناة والخوف وليس شخص آخر . والفرق بين حرب لبنان وبين الحرب فى المناطق هو أنه فى لبنان كلما كان هذا يمس مفاهيم الجمهور ، سقط جنود و " أرقنا دمًا " ولكن ليس الأمر كذلك فى المناطق . والأزمة فى لبنان وقعت على المشتركين فيها بكل ثقلها ، فى حين أن الأزمة فى المناطق تلائم نموذج الأزمة التى تتطور بالتدريج .

ثانيًا ، حقًا إن حركة " سلام الآن " هى مصطلح مصدره فى حرب فيتنام وتمت ترجمته من الأمريكية ، ولكن هناك وهنا أيضًا فى مصطلح " يش جيڤول - تُوجد حدود " كان مفهوما "الآن " و " حدود " ملموسين فى حدود الزمن والمكان وليس مجرد شعارات . وكان يجب أن يكون ترجمتها السياسية الخروج من لبنان " الآن " و " توجد حدود " بين إسرائيل وبين لبنان.

وقد نقل تنظيم " يش جيڤول " المفهوم من لبنان إلى حدود " الخط الأخضر " فى حين أن حركة " سلام الآن " قالت سلام للآن . وأصبح الشعار غير ملموس أبداً ، بدون أى سند أو ركيزة أو خطة عمل مستقلة فى الواقع وفى الزمان ، وظل على هذا النحو منذ أكثر من ١٨ سنة .

إن مفهوم الحدود لدى حركة " يش جيڤول " هو جوهرى أيضًا فمن ناحية هم مثل شولاميت ألونى ، عبروا صراحة عن فكرة أن لدولة إسرائيل حدوداً ، وهذه الحدود هى "الخط الأخضر "

وعلى خلاف حركة " راتس " فإن حركة " يش جيڤول " أظهرت أن هذه الحدود مهمة لها . فقد نظمت عدة مرات أعمال استعراضية تمثلت فى ترسيم الخط الأخضر ، بمساعدة فاصل بلاستيك أخضر اللون جرى مده بحيث يرى من الطريق إلى القدس بالقرب من اللطرون . ولكن حركة " يش جيڤول " مثل " اليسار الصهيونى " لم تعترف بأن الحكومة ألغت هذه الحدود وبذلك تعدت الدولة حدود النظام الديمقراطى . وإن رفض الخدمة العسكرية فى المناطق الفلسطينية هو فى حد ذاته اعتراف بأن الدولة علي مايرام . والاحتلال فقط هو الذى ليس على مايرام . وكان إدراك التغيير فى نظام الحكم يجب بالطبع ، أن يؤدى بأولئك الذين يرفضون خدمته إلى أن يرفضوا الخدمة فى أى مكان حتى نهاية سياسة الضم ، ولكنهم لم يصلوا إلى حد هذا الإدراك ولكن ، مع كل هذا ، فإن حالة حركة " يش جيڤول " تدعم القول بأن من يرى أن هناك حدوداً يراها أيضًا مادية على الأرض وكذلك قيمية - أخلاقية ، الحدود التى يمليها عليه ضميره .

ويمكن أن يأخذ عدم التعاون مع الحكم وأعمال عصيان مدنى صوراً كثيرة لا تنطوى على خرق للقانون إلا أنه فى وعى الجمهور فى إسرائيل يعتبر " عصيان مدنى " ، أو أية معارضة لسياسة الحكومة (" معارضة " خلافًا لتعبير عن معارضة ، مثل مظاهرة قانونية) - يعتبر رفضًا وخرقًا للقانون . وسأعرض أيضًا نموذجًا واحداً لمحاولة " اليسار الصهيونى " ترسيم " خط أحمر " لكى لا يتسبب معاذ الله فى وضع عقبات أمام مؤرخ المستقبل الذى من شأنه أن يعتقد أن هذا كان عمله وليس تقصيراً ارتكبه كما هى العادة .

وقد نشرت عناوين الصحف التى ترونها فى الصفحة الآتية بعد سنتين للانتفاضة . وهى تثبت ، أولا وقبل كل شيء ، أن من أراد أن يقوم بعمل معارضة للحكم لم تكن لديه أية صعوبة فى أن يجند وسائل الإعلام لكى تجعل عمله يصل إلى وعى الجمهور بل وحتى تعمل على تضخيمه . ولم تكن هناك أيضًا صعوبة لإثارة اهتمام السلطات ، مثلما حدث فى حالة تنظيم " هوريم نيجد شحيقا - آباء ضد تآكل " الذى كان فى ذلك الوقت . ثانيًا ، تثبت هذه العناوين أن كثيرين جداً فى " اليسار الصهيونى " كانوا يؤيدون بكل سرور ، وإن كان بالسلبية العادية ، كل من كان يقودهم نحو إصرار على " الخط الأحمر " لضم المناطق . إلا أن الحقيقة من وراء هذه العناوين هى أن جماهير الأعضاء فى الكيبوتسيم لم يتيقظوا مطلقًا ، وقام بكل شيء شخص واحد فقط هو أنا . فقد مررت على ستة كيبوتسيم ، ووقفت فى

المدخل إلى غرفة الطعام ، وتحدثت مع كل من يدخل هناك وجمعت توقيعات الأعضاء . وقد وافقوا جميعًا على التوقيع . ولم تكن هذه دعوة لـ " عصيان مدنى " ، بل نداء حسب الأصول إلى زعامة الحركات الكيبوتسية لكى تصر على قواعد سلوك قانونية وإنسانية لقوات الأمن فى المناطق الفلسطينية ، وأن تُقرر خطًا أحمراً مبدئيًا ما فيما يتعلق بالمستوطنات التى تكاثرت من خلال " مسيرة السلام " التى آمنت بها جداً الكيبوتسيم ، وأن تطلب من الحكومة ألا تتعدى هذا الخط ، وإلا فإنها " ستدرس " وسائل معارضة ومن المعروف أن الحركات الكيبوتسية لم تفعل شيئًا وسارعت فقط للتملص من التهديد المحتمل المتمثل في الرفض . كما أن أحداً من ١٣٥ عضواً وقعوا على النداء لم يفعل شيئًا بعد أن لم تفعل الحركة شيئًا ، وبذلك انتهى الموضوع .

*** ٥٠٠ من أعضاء الكيبوتس يدعون إلى البدء بعصيان مدنى**

*** يدرسون " عصيان مدنى غير عنيف " بسبب سياسة الحكومة فى المناطق**

فلنعد إلى الخطوط الحمراء

هذا الأمر حدث من قبل :

" ... كيف يتأتى مثل هذا الأمر ... بالأمس أيضًا عندما كان الجميع تتخللهم مشاعر القتال والحرب كانت الفردية واحة ، لا حياة حرية الروح : هنا تسكن حرية التفكير عن ينبوعها الحى ... والآن لم ينضب الينبوع وديس بالقدمين ... الصحراء الجرداء بلعت كل شيء تقريبًا ، لم تترك أى شيء

" تعالوا نتحدث بصراحة ؛ إنه لشرف أكبر مما ينبغى هو لهؤلاء الجبناء أن يغلفوا بكلام لطيف أمر خضوعهم بخزى ... " الفردية ، حرية التفكير ، تظاهر بالحكمة ليُمنى سراً بهزيمة تلو هزيمة ، وخضعت . ماذا بقى منها الآن ؟ بعض قطع من راية ، خرق مخبأة فى الجيب تخرجها لغرض الاستعراض فى جلسات لجان ومناقشات مطولة ، أو فى الاجتماع معًا والتناقش فى اجتماع لا يشكل خطراً . من الشخص الذى يجد في نفسه الجرأة لكى يعارض ويقف ضد الدولة وكلاب حكمها - الرأى العام والصحافة ؟ يعتبرون أنفسهم أحراراً ، فى حين أنهم فى حقيقة الأمر ليسوا سوى أكلة صدقات : طعام الحاكم ، حلف السكوت عقد بين هؤلاء المثقفين العباقرة ، رجال الفكر والحكمة وبين الحاكم (الحاكم يمكن أن يتبدل ولكن الخدم لا يتبدلون) - مثل الحلف بين صاحب البيت وحيوانات البيت : كل الحرية التى تريدها فى مكانتك ووضعك وفى عملك فى مجال التدبير المنزلى والمتاعى ! ولكن محظور الخروج خارج هذا المجال ! .

" لقد حدث هذا الأمر من قبل فى كل الأزمنة والأجيال ولكن ما يميز عصرنا هو أن مثقفينا ، رجال الفكر والفطنة مع كل أدواتهم ، مع خزانة ألوانهم ومقدسات إيديولوجيتهم وديمقراطيتهم ، أخذوا على عاتقهم القيام بدور عاهرات رجال البلاط " .

" ... من يريد أن يكون حراً يحتاج إلى نقود ، ومن يريد نقوداً مضطر إلى أن يبيع حريته. وهل يؤنبهم ضميرهم ؟ معاذ الله ! فالضمير فى أيامنا - قلبه ضعيف ، ولايمكنه أن يسبب لنفسه مثل هذه الإزعاجات ، التى من شأنها أن تضر بصحته : ها هو يثبت لنفسه ببراهين رياضية ، بما أنه حر ، فإنه حر أيضًا فى أن يبيع نفسه - هذا حقه ... "

رومان رولان : النفس المسلوبة اللب

جـ - معارضة :

لم تكن هناك معارضة . بعد أن عُلم باتفاق أوسلو - قام المستوطنون ومؤيديوهم بأعمال معارضة فعالة ، معروفة وقانونية تمامًا بالضبط مثل تلك الأعمال التى لم يقم بها " اليسار الصهيونى " علي طول الطريق . فقد خاطبوا عن طريق أعلانات كبيرة ضمير الجنود فى المناطق الفلسطينية وقالوا لهم ماذا يحظر عليهم القيام به ، لكن " اليسار " لم يفعل هذا . وقد توجهوا أيضًا (يتسحاق شامير ، على سبيل المثال) إلى يهود الولايات المتحدة واقترحوا عليهم بأن يرسلوا الأموال إلى المستوطنات مباشرة وليس إلى الحكومة - ولم يتوجه اليسار الصهيونى إلى يهود الولايات المتحدة أو الولايات المتحدة لكى يوقفوا تأييدهم لحومة الضم طالما أعلامهم القومية مزينة بشريط أسود - واستمر اليسار الصهيونى يلوح طوال السنوات بأعلام دولة الضم وكأنها ماتزال له ومثار فخره . ولم يعلق أحد على ملابسه شارة احتجاج ضد الضم وشارة حزن وحداد على ضحاياه مثل شريط أسود أو قطعة من كيس . ولم يضرب أحد عن الطعام . ولم يجر أى إضراب عام أو جزئى ولم تدع أية منظمة أو حزب لإضراب احتجاجى ، تحذيرى أو تضامن مع ضحايا الضم . ولم تدع أية جهة صهيونية إلي مقاطعة منتجات المستوطنات أو المستوطنين . وقام اليسار بين الحين والآخر بأعمال تظاهرية والتى كأنها تهدف إلى إثبات أن كل شىء على مايرام ، لإثبات أن مسيرة السلام هى شىء ما حقيقى ، ولإثبات إلى أى مدى نحن دولة حرة وديمقراطية .

وكانت قمة السخرية فى نظرى عندما انطلقت فى أحد أيام صيف ١٩٩١ " الحركة القومية للسلام " ... حيث نشر نبأ مفاده أن " كل حركات السلام " قد اتحدت فى حملة هائلة : حيث سيجمعون توقيعات ويرسلون ٥٠٠ ألف بطاقة إلي رئيس حكومتنا يتسحاق شامير تدعوه إلى أن يحقق السلام .. لا سلام فى مقابل مناطق ، بل " سلام صاف ، حملة إيجابية " من الصعب أن نقرر ماذا كان أكثر حماقة وتخريبًا من ناحية معارضة الضم - الفكرة أو عدم وجود جهد لتحقيقها - وكان المبادر بهذه الفكرة - انتبهوا أيها المؤرخون هواة ومحترفون - عميت سيلع من مركز دار الإعلان "تسرفتى - شتراوس " . فلتذكروا هذا الاسم ، فربما يظهر فى مسابقة مبتذلة لألغاز . فلقد كان هو رجل الإعلان الذى أقنع المعنيين بالأمر بأنه سيبيع " السلام " صافى ، مثل الكوكاكولا ، وكان كل ما أراده بالتأكيد هو الوصول إلى البنك بسلام. على هذا النحو أصبحت الروح الحية التى هبت فى عظام اليسار الصهيونى اليابسة .

د - النظرة إلى الخصم :

لقد أوردت وسائل الإعلام الإسرائيلية الكثير من الأوصاف خاصة على لسان ضباط وجنود احتياط ، عن تصرفات المستوطنين بصفتهم متعصبين عنيفين يقومون بأعمال خارجة على القانون ووحشية ومطلقة العنان بدون أى رادع أخلاقى وقانونى تجاه السكان العرب ويتعاملون باستهانة وصلافة مع الجنود ورجال قوات الأمن إذا وقفوا فى طريقهم . ويمكن إذاً أن نعمم بأن " اليسار الصهيونى " نظر إلى المستوطنين باعتبارهم متعصبين ومتطرفين ، عندما فكر فيهم أو تحدث عنهم بينه وبين نفسه . ولم تنتقل هذه النظرة أبداً إلى مجال أية اقتراحات فى النظرة إليهم .

« فلتفهموهم » :

عندما تحدث " اليسار الصهيونى ، " بتعميم واسع ولكن دقيق جداً طبقًا لكل ما لدى من معلومات ، إلى المستوطنين فى سياق أية خطوط لسياسة فى المناطق (الفلسطينية) أو اتصال معهم أو فى كل موضوع يمكن أن يؤثر على مصيرهم ومصيرنا ، كانت نظرته إنسانية، تكافؤية وجميلة . ولم تصدر كلمة سيئة من أية شخصية سياسية ولقد سبق أن رأينا عندما ظهر اتفاق أوسلو ، أسرع عاموس عوز لتذكير اليسار أن " المعارضين لهذا الحل الوسط ليسوا فقط غوغائيين ومثيرين للعواطف : إنهم باديء ذى بدء يشعرون الآن أن عالمهم قد حل به الخراب تقريبًا ، وأن بيتهم وبلدهم فى خطر . ينبغى أن ننظر إلى هذه المشاعر بتفهم واحترام ... " إلى درجة " موقف صقرى حاد " . ولقد رأينا أنهم كانوا فى نظر اليسار الصهيونى صهيونيين ولم تخرجهم أية حركة أو حتى أية مجموعة يسارية إلى " خارج المعسكر " . ولقد كان هذا حقًا هو النمط الأساسى الذى عاد فى تصريحات عن النظرة التى ينبغى النظر بها إلى المستوطنين . وكان المعبر عنه الموثوق والأكثر تأثيراً هو البروفيسور يائير شبرينتسيك الذى تناول بحثه " المتطرفون اليهود : كان موقفه ، هو أنه ينبغى أن نثبت للمستوطنين مدى تأييدنا لهم ، وأننا نضرب العرب بشدة (صحيفة هارتس٢٨/١١/١٩٩٣). وقد قدم البروفيسور شبرنينتيسك النصح ليتسحاق رابين فى هذا الموضوع .

وكان النمط الأساسى لمعارضى الضم فى نظرتهم إلى المستوطنين " فلتفهموهم ! .. " - وفهم "التعصب" و"المتعصبون" هو الموضوع الرئيسى لبحثى ولهذا الكتاب . وبما أننى اعتبر

نفسى فى هذه الحالة خبيراً واعتقد أننى أفهمهم حقيقة فسأحلل هذا النمط باختصار . ليست هناك أية علاقة بين الحالة النفسية " فلتفهموهم " وبين الفهم . والمقصود بـ " فلتفهموهم " هى أن تفهموا وتقبلوا وجهة نظرهم ، ولا تعارضونهم . وبما أن وجهة نظر المتعصبين مصابة، مثلما رأينا ، بمجالات عمى فى كل ما هو إنسانى فى النظرة إلى " أعداؤنا " ولأنفسنا فى النزاع مع " أعداؤنا " فإن الدعوة إلى " أن نفهمهم " مقصود بها فقط " فهم " ما هو ظاهر ومفهوم تلقائيًا : كيف ينظرون إلى أنفسهم وإلى الواقع ، ولبس لفهم سيكولوجيتهم أو عقليتهم .

إن رجال " اليسار " لايفهمون المستوطنين بصورة تثير دهشتى واستغرابى أحيانًا ، على الرغم من أننى أعرف جيداً آلية الاسقاط (Projection) التى تعمل علينا والتى تتسبب فى أن ننسب ردود أفعالنا ومشاعرنا الإنسانية إلى الغير . وأكثر نموذج يمس شغاف القلب متوفر لدىَّ هو نموذج يائير جربوز الذى قام مع مجموعة من فنانين وصحفيين بزيارة قطاع غزة المشتعل والذى يخنقه التلوث والدخان مع نشوب الانتفاضة . وقد تصور هو أيضًا ، مثل عاموس عوز ، عالمًا فكريًا قد جرى تخريبه ، وكتب : " لو كنت يمينيًا ليس لدى شك فى أنه بعد زيارة لقطاع غزة كان عالمى ينهار فوقى مثل مبنى ورقى عند رؤيتى نتائج تطلعاتى الأصيلة وما فعلته بى أرض إسرائيل الكاملة " (دافار ١٩٨٨/١/١٥) . لا يجب أن نتوجه إلى رجل اليسار لكى يفهم التطلعات الأصيلة للمستوطنين ، إنه يفهم هذا . ولكن إذا كان يعتقد أن تجربة واقع القمع كانت ستغير شيئًا ما لدى الشخص اليمينى ، فإنه لايفهم ، مثل طفل ساذج " عقليته " .

وبما أن هذا لا يحدث فى الواقع ، ورجال اليمين لا يتأثرون مطلقًا ، مثلما يتأثر يائير جربوز ، من نتائج " تطلعاتهم الأصيلة " فإن تأثير مشاعرنا الإنسانية عليهم مباشرة بدون أن نفهم كيف تعمل هذه الآلية لديهم ، من شأنها أن تؤدى - تؤدى فعلاً بشكل عام - إلى لا إنسانيتهم . وقد قال يائير جربوز أيضًا فى نفس المناسبة : " إن من يعود من زيارة لهذه المخيمات ولايطالب بمفاوضات سلام عادل وحقيقى هو فى نظرى بغيض ، مسخ لاكابح له " ويمكن أن تكون النتيجة العملية لمثل هذا الاستنتاج إما محاربة تلك البشاعات أو مثلما حدث لنا ، قطيعة وغربة وعجز ويأس وتكيُّف تدريجى . وأملى أن يكون القارىء قد أصبح بعد أن قرأ الباب الأول ، يفهم الوضع أكثر ويعرف كيف تعمل العقلية والقلب والأخلاق المتعصبة . إنهم ليسوا بشاعات بل بشر متعصبين ، قيميين وأخلاقيين جداً ولكن المشكلة هى ، مثلما

أوضحنا ، أن آليات الكبت والإبعاد إلي مجالات العمى لديهم ، إلى جانب آليات إعداد المعطيات لأنماط التفكير التعصبية تنجح دائمًا فى تفسير الدافع بحيث تتلائم مع خريطة المفاهيم . فى ظروف اللاإنسانية فإن معاناة " أعداؤنا " لا توضع فى الاعتبار ولا تؤثر .

وقد أدرك عاموس عوز ، في نفس المقال الاحتفالى تكريمًا لاتفاق أوسلو ، والذى فهم فيه كيف أن عالم المستوطنين " قد أصبح خربًا عليهم تقريبًا " - أدرك أيضًا أن معظمهم يريدون فقط أن يعيشوا فى بيوتهم وفى بلدهم ، ولذلك طالب م . ت . ف بأن توافق على أن يبقى أولئك المستوطنون الذين يرغبون تحت حكم فلسطينى . وهذه الإمكانية - بافتراض أن عاموس عوز آمن بها فى الحقيقة ، على الرغم من أن هذا لا يغير من الأمر شيئًا بالنسبة لموضوعنا) - هى أيضًا نتيجة عدم فهم تام للمتعصبين . إنهم موجودون هناك لأن هذه هى الحرب على أرض إسرائيل ، لكى يكونوا المنتصرين المسيطرين على " قتلة م . ت . ف " ومؤيديهم وليس العيش معهم فى سلام أو العيش كأقلية تحت حكمهم . ويمكن أن نرى ردهم على فكرة العيش تحت حكم م . ت . ف ، فى " خطاب ضباط الاحتياط " التى يرد لاحقًا ، والذى نشر فى الصحف تقريبًا فى نفس الوقت ، بعد وقت قصير من العلم باتفاق أوسلو . ويمكن أن نعتبره أيضًا رداً على رأى يائير جربوز القائل إن من لا يطالب بمفاوضات حول سلام عادل وحقيقى هو شخص بغيض ، مسخ لا كابح له " : ليس فقط أن هذا الشخص ليس " مسخًا " بل إنه يعى جداً جداً واجبه الأخلاقى - فلتفهموه ! .

والحقيقة القاطعة والمحسومة هى أن " اليسار الصهيونى " قد هرب فى معركته الإعلامية كل تلك الفترة من مواجهة أخلاقية حول روح الشعب . فبحسب رأيه - لم يكن هذا يجلب له أصواتًا انتخابية . وفى برامج الدعاية الانتخابية لحركة ميرتس فى ١٩٩٢ وعدوا بمستقبل مزهر وبراق نستطيع فيه أن نستقل فيه يوم السبت المواصلات العامة إلى اليركون (المقصود شارع اليركون على شاطىء البحر فى تل أبيب) ، ولم يشيروا إلى ما إذا كنا قد تخلصنا من الاحتلال فى هذا المستقبل الرائع ! أما المستوطنون ، فى مقابل هذا ، فقد أبرزوا الجانب الإنسانى ، الأمر الذى أثر لصالحهم فى النضال من أجل اكتساب تعاطف الشعب وأعطاهم الكثير من القوة . انتبهوا ، بأى حماس أخلاقى يدافعون عن "موقف دولة إسرائيل الأخلاقى العادل " ويستنكرون " خسارة كل القيم الأخلاقية " ، الخطاب المفتوح موجه ليتسحاق رابين:

" الآن ، بتسليمك أجزاء من الوطن لقتلة نساء وأطفال وبمصافحة أيدى ملطخة بالدم ، فإنك تضر بطهارة السلام التى لا تقل قوتها وربما أقوى من طهارة السلاح ، وتخسر الموقف الأخلاقى العادل لدولة إسرائيل . إننا نعارض هذا المسار الذى يقود إلى التخلى عن الأمن وخسارة كل القيم الأخلاقية ... " إن حكم عرفات مثل حكم كل مجرم حرب ، لايجب إعطاء جائزة للإرهاب "

بدون هذا المفهوم الذى يستوجب شن حرب لا هوادة فيها وسيطرتهم على الفلسطينيين ، ليس هناك مغزى لوجودهم حتى ليوم واحد ذلك أن الشخص الذى ليس مستعداً لأن يعيش بصفته قامعًا للشعب الآخر ما كان يذهب إلى هناك مثلما أن عاموس عوز لم يذهب إلى هناك (الحاخام فرومان معروف لى بأنه استثناء واحد يدل على القاعدة . والقاعدة أدانته) .

إن رد فعلهم على اتفاق أوسلو ، أى فى اللحظة التى واجهت فيها سيطرتهم خطراً ، أثبت هذا بوسائل كثيرة . ذلك أن السيطرة الفعلية هى فى يد من يحمل السلام ولذلك كان الشعار " لا تعطوهم بنادق " . ولم يكن أهرون دوميف شخصًا ما " متطرف " بل متعصب من الصف المركزى ، متحدث باسم مجلس المستوطنات فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، أعلن فيما يتعلق بالشرطة الفلسطينية " إننى سأصوب طلقة إلى رأس من يقوم باعتقالى ، من خلال افتراض بأنه مخرب " ، نهاية اقتباس من التلفزيون . فلتفهموه ، إنه لن يعيش تحت حكمهم، يمكنه أن يعيش بينهم فقط إذا استطاع أن يصوب طلقة إلي رأسهم فى حالة الضرورة وأن يعرف أنهم ليس لديهم سلاح ليضربوه به . ولتفهموا المرأة الشابة والجميلة في الصورة التى أمامى ، التى تقوم من خلال ابتسامة سعادة بنشر وقطع شجرة الزيتون فى أرض إسرائيل ، فلتفهموها ، ولتفهموا مجموعة الشبان الذين يرقصون واضعًا كل واحد منهم يده على كتف رفيقه لأن رفيقهم الذى قتل طفلة أمام أعينهم أفرج عنه من الاعتقال وهم يأملون فى ألا توجه إليه تهمة (إنه شمعون يفراح من ناقيه دقاليم ، وقد وجهت إليه تهمة وأدين) . فلتفهموهم، فلتفهموا المستوطنين الغاضبين المتحدثون بإسمهم وزعمائهم الذين يطلبون تخريب قرية كاملة ، هى قرية بيتا ، لأن فتيانًا رشقوا منها بالحجارة أولاد المستوطنين وكنتيجة لهذا أطلق الحارس الذى يقوم بتأمينهم النار بدون تمييز فقتل طفلتنا خطأ - كل هذه التجربة الحياتية ليست ممكنة إلا فى ظروف الحكم فيها حكم قمع وهو حكمهم ، بدافع منهم ويؤمنهم .

وإننى آمل أن يكون كل ما شرحناه وفصلناه هنا عن عرض اللاإنسانية قد ساهم فى قدرة القارىء على فهمهم فى الحقيقة .

" لايجوز التعميم " :

لدى معارضى الضم يصاحب نمط " فلتفهموهم " التفسير القائل لايجوز إجراء تعميمات بالنسبة إليهم ، فليسوا جميعهم متطرفين أو بحسب كلام عاموس عوز " ديماجوجيون مثيرون للعواطف " وهذا الطلب صحيح فى حد ذاته : فمن الأفضل دائمًا الحذر من التعميمات ، ولايحب إجراء تعميمات غير مسئولة . وعلى الرغم من ذلك فإن هذه التذكرة تنطوى على عدم صدق وصراحة ، ربما بغير وعى . أولاً : لم يقترح أحد أبداً المساس بالمستوطنين ، كلهم أو بقسم منهم أو حتى بأحد منهم ، فى كل ما يتعلق بأمنهم وبحقوقهم الشخصية والمدنية والقانونية والاقتصادية أو الأخرى . ثانيًا : لم تصدر عن أحد تصريحات بعدم القيام بتعميمات بالنسبة لليساريين ، أو الحريديم أو العرب ، أو شاس ، أو الليكود ، أو م . ت . ف أو قتلة زوجاتهم وما شابه ذلك . ثالثًا : التعميم بأن فكرة السيطرة على مليون وربع مليون عربى فى حد ذاتها مثلما قال يعقوب طالمون ستؤدى إلى " إفساد يجعل أجمل أحلامنا عن الإحياء القومى والروحى مثار سخرية وازدراء " ، هو تعميم مشروع من ناحية " اليسار " ولا يفرق بين أى مستوطن وآخر .

رابعًا : طبقًا للحلم الإنسانى الذى كان يراود مارتن لوثر كينج ، بألا يتم الحكم على الأشخاص حسب لونهم أو أصلهم بل طبقًا لطباعهم - الاستيطان هو طابع ، والشريحة السكانية من المستوطنين الكبار هى شريحة سكانية يوجد فيها كل شخص طبقًا لاختياره ووفقًا لوجهة نظره وعلى ذلك فإنهم يدرجون فى هذه المقولة ، ليس بسبب الأصل ، الطائفة والسن والجنس ، أو أى انتماء فرض عليهم .

والاستنتاج هو أن نداء " لايجوز إجراء تعميمات " بالنسبة للمستوطنين لم يأت لأنه كانت هناك حاجة له ، لأن شخصًا ما أجرى تعميمات غير مسئولة بالنسبة إليهم . كما أنه لم يكن سوى ادعاء دعائى قال بأنه ينبغى قبولهم كشرعيين من ناحية قيمية ، رفاق طيبون " نحن " . والتعميم الذى أعممه هنا ، هو أن جمهور الأشخاص والجهات السياسية التى تؤيد الضم هو جمهور متعصبين ، هو تعميم بالطبع ، ولكنه مدروس ومسئول ومُثبت ومُبرهن (لا يشمل

الحاخام فرومان ، الله يباركه ، الذى التقى مع رجال م . ت . ف عندما كان ذلك محظوراً واستنكرته حركة الاستيطان حتى اضطر ذلك اليهودى فى الحقيقة إلى أن يهجر " أرضه " وانتقل إلى مستوطنة أخري ، وإننى أخمن أن هناك بعض أشخاص مثله) ، كلمة " مستوطنون " هى تعميم دقيق جداً جداً فى نظرى ، وقد دعمته هنا بشكل كبير جداً بنماذج وأمثلة من أقوال تمثل مواقف وآراء مجلس المستوطنات فى الضفة الغربية وقطاع غزة وزعمائه.

إننى اعتقد أن الحاجة للدفاع عن النفس ضد الاتهام بأننا نمارس التعميم والحاجة إلى إقناع من يعارض الضم بأن التعميم " المستوطنون " ليس صحيحًا - هى فى حد ذاتها لا لزوم لها . وكانت يمكن أن تكون ، فى رأى ، نتيجة فقط لخضوع لعالم مفاهيمهم الذى يتمثل حتى فى دعاية فظيعة إذا فكرنا فى يتسحاق رابين ، كذب تام لن يجد مؤرخ المستقبل صعوبة فى اكتشاف : نرتكب ظلمًا بحقهم ... فلقد قدموا أنفسهم دائمًا على أنهم قربان صديق ، وحتى قربان رابين الذى سبب لهم " لا مشروعية حسب ادعائهم . إن التسبب فى " اللا مشروعية " لمن لا يجدر أن يعتبر فى نظرنا شرعيًا ليس مخالفة ، بل العكس ، ولكن " اليسار " قبل هذا الادعاء الكاذب ومدلوله وكأن القول بلا مشروعية الضم هو شر . وقد عمل " اليسار " عمومًا ، كثيراً من خلال موقف ، هو نتيجة لعدم فهم تام وليس فهم المتعصبين.

مـاذا نفـعل مـعكم ، جوش إيمونيم / يزهار سـمـينيلسكى (صحـيـفـة دافـار ١٩٨٨/٢/١٩)

أنتم تريدون أن تقرروا من أجلى ، أنتم تريدون تقرير حقائق لنا جـميعًا ، أنتم تريدون ، إقامـة واقع ، لا أستطيع أن أكون فيـه ، ولن يكون هناك مكان لكم ولى معًا ، لا فى عمل مشترك ، ولا فى أمل مشترك ...

المطروح على بساط البحث ليس فقط حدود البلاد ، حرب أم سلام ، المطروح أيضًا هو حقيقة وجودى كإنسان ، كيهودى إسرائيلى .... لأنكم إذا كنتم تأتون باسم اليهـودية - فـإن اليهـودية عـار ، وإذا كنتم باسم الصهـيـونيـة - فـإن الصهيونية عار ، وإذا كنتم بإسم الإسرائيلى - فإن يكون المرء إسرائيليًا فـهذا عـار ، أنتم الذين تأخذون كل شىء بالقـوة ، وتدوسـون بقسـاوة ، وشـر العدالة الطبيعية ، وبشكل خاص ذلك المطلب العادل الذى يجعل اليهودى يهوديًا .

فى الفترة التى كانت قريبة جداً من لحظة الحقيقة فى النضال ضد الضم ، فترة رابين ما بعد اتفاق أوسلو ، لم يستخدم مراسل صحيفة " هارتس " فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، نداف شرجاى ، تعميمـات ، بل تحدث عن عمليـات تفريق واحدة فى أوساط المستوطنين ، عن متطرفين ومعتدلين (هارتس ١٩٩٣/١٢/١٠) :

كان أحد افـتراضات العمل لدى مجلس المستوطنات فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، فى مناقشاته فى الأشهر الأخيرة ، أن الحكومة ستفعل كل شىء لزرع خلاف وانشقاق وفرقة بين المستوطنين ، وستعمل بطريقة فرق تسد على أن تقلل بالتدريج السكان اليهود فى الضفة الغربية وقطاع غزة وستتطلع أيضًا فى المدى الأبعد إلى إزالة مستوطنات صغيرة وتنطوى على مشاكل فى عمق المنطقة"

" وعمليًا ، وحدت الحكومة بأعمالها الجمهور اليهودى الذى يعيش فى المناطق (الفلسطينية) ، ويبدو أنها بالتدريج تعزل نفسها وليس المستوطنين... " .

" وقد حدث فى داخل الضفة الغربية وقطاع غزة فى الأشهر الأخيرة تطور تدريجى ذو دلالة كبيرة ، تسارع جداً فى الأسابيع الأخيرة بتأثير موجة الهجمات اليومية وتصريحات غير مدروسة وغير متزنة من جانب المستشار القانونى للحكومة والوزير يوسى ساريد (يجب الدخول فيما بينهم إثارة الفرقة بينهم) أو تصريحات رابين نفسه الذى يُكثر من عبارات السخرية والاستنكار تجاه المستوطنين . ونتيجة لكل هذه الأشياء اتجهت إلى العمل السرى تقريبًا العناصر المعتدلة فى مجلس المستوطنات فى الضفة الغربية وقطاع غزة . وقد صاح شيلو جال فى جنازة يتسحاق فاينشتوك " " نحن نحتاج للانتقام " وكان شيلو جال وهو رئيس المجلس الإقليمى جوش عتسيون ، طوال سنوات رمزاً للاعتدال والنزوع إلى التوصل إلى حل وسط فى مجلس المستوطنات ويتحدث الحاخام يوئيل بن نون فى مجلة " نقودا " عن نضال بواسطة القوة وفى شوارع الخليل يطلق يهود النار ، وقد كانوا قبل بضعة أشهر فقط يتحفظون بشدة من نشاط لجنة الأمن فى الطرق " .

وبهذه المناسبة فإن الانتقام جاء على الفور . فقد قُتل ثلاثة فلسطينيين أبرياء على أيدى مستوطنين فى قرية توركميا . وقدم ممثلوهم " كما هو الحال " دائمًا أنفسهم بأنهم ضحية واتهموا الحكومة (انظر الفصل الذى يتناول أعراض اللاإنسانية ، ١٠) .

التعنت وضيق الأفق :

سأورد بعض نماذج أخرى ، واحد منها مميز ويمثل نماذج أخرى كثيرة .

فى نفس الاجتماع الذى عقد فى الجامعة العبرية فى القدس فى أكتوبر ١٩٩٤ ، الذى قال فيه البروفيسور شلومو افنيرى أن " عصيان مدنى هو الملاذ الأخير لهنيبال " وألقى أريئيل شارون خطابًا أيضًا . وفى نفس اليوم تحدث أيضًا يتسحاق رابين أمام لجنة رؤساء تحرير الصحف فى بيت سكولوف فى تل أبيب وقال :

" أعرف أن هناك حساسية كبيرة فى أوساط الجمهور . ومن الطبيعى أن تكون هناك مثل هذه الحساسية أيضًا بين المستوطنين ، بدون أن يكون لذلك علاقة بمسألة ما إذا كنا قد وافقنا على إقامة المستوطنات " (هارتس ٢١/١٠/١٩٩٤) .

وقال إيرل شارون :

" إن الحكومة ، بدون قصد ، وأؤكد بدون قصد ، ولكن بعلم ، تشعل حربًا أهلية . ويجب عليها أن تحذر هذا . ويتم إشعال هذه الحرب بواسطة اللاشرعية التى يضفيها وزراء فى الحكومة وأعضاء كنيست علي المستوطنين إلى درجة التخلى عنهم وإهمالهم " (يجب على الحكومة) " أن توقف التحريض ضد طلائع هذا الجيل " .

يوضح هذا النموذج ما هو التحريض واللاشرعية فى مفهوم المتعصبين . القول بأن المستوطنين ليسوا طلائع هذا الجيل يعتبر هذا تحريضًا ولاشرعية . وعندما قال رابين قبل ذلك ببضعة أشهر أن مستوطنة ".ألون موريه " لا تدافع عن عفولا ، كتب إيريل شارون : " لم أصدق أن يأتى يومًا وأن تمارس حكومة يهودية (يهودية؟) فى القدس إنتقائية بين يهود وتحدد من الذى يتم تأمينه ومن يكون دمًا مباحًا " (يديعوت أحرونوت ١٩٩٤/٤/١٥) . هذا ، بالمناسبة إذا لم تكونوا قد انتبهتم للاشرعية من الدرجة العليا : إخراج من المعسكر اليهودى وأيضًا تلميح إلى ممارسة انتقائية ، أى لا شرعية من درجة كارثة . لا مكان فى المفهوم التعصبى لتوجيه انتقادات مشروعة إليهم ، هناك مكان فقط لـ " التحريض " و "اللاشرعية " مثلما أنه ليس هناك مكان لمعارضة بل فقط لـ " خيانة " وليس هناك مكان لرفض القيام بالضبط ما يريدون إنه ليس " إباحة دم " . عندما انتهى تحقيق للشرطة باستنتاج مفاده أن مستوطنًا قتل فى حادث طريق وليس فى هجوم – هاجم رؤساء المستوطنين فى المنطقة الشرطة ، وعندما لم توافق لجنة التحقيق التى عينها الجيش على روايتهم عن حادث قرية بيتا قالوا إن رئيس الأركان دان شومرون " يُسفك دمهم " .

وبهذه المناسبة ، فإن رابين قد كشف آنذاك لرؤساء تحرير الصحف " أن ١٢٠ سرية من الجيش الإسرائيلى تقوم بتأمين المستوطنات ، أربعة أضعاف العدد الموجود فى لبنان وهو تصريح يعتبر فى نظرهم بدون شك لا شرعية (أى حسابات صغائرية يجرونها مع طلائع هذا الجيل " ...) . فى رأى رابين يلوى الحقيقة فعلاً من أجلهم عندما صرح فى الكنيست فى ذروة المظاهرات العنيفة أمام ديوان رئيس الحكومة (هارتس ١٩٩٣/١١/٩) " إننى أعرف أن إثارة العواطف مقصور على أقلية بين المستوطنين فى الضفة الغربية وقطاع غزة ، والأغلبية الساحقة تريد العيش فى سلام ، أمن وحسن جوار " . والتحدث عن التعنت وضيق الأفق

تواجه أيضًا بتعنت وضيق أفق أو كما قال شارون وكثيرون يكررون هذا الكلام : "يُشعل حربًا أهلية " .

ولقد نجح المستوطنون فى جعل المؤسسة الحاكمة ووسائل الإعلام ومعارضى الضم يعتادون على النظر إليهم باعتبارهم ضحية وكذلك النظر إليهم كالولد المرعب الذى لايجوز إثارة أعصابه ، بل ينبغى ملاطفته طوال الوقت . إذ فحصتم فستجدون نمطًا ثابتًا فى التلفزيون ، فى الإذاعة وفى كل الصحف ، يتكرر مئات المرات " فى كل حالة يُوجد فيها عمل أو أى تفوه من جانب المستوطنين ضد شخص ما أو شىء ما - تورد وسائل الإعلام هذا مصحوبًا باشتقاقات حروف كلمة غضب ، غاضبون ، غضبوا ، أغضبوا . وكان باروخ جولدشتاين " شاذاً " وأجروا له لا شرعية على الأقل من خارج المستوطنة اليهودية فى الخليل. وسبق أن ذكرت أنه قبل المذبحة التى ارتكبها ، التقى رؤساء المستوطنات مع قائد المنطقة نحمايا تمارى وذكر تسفى كتسوفر - رئيس مجلس كريات أربع - فى هذا اللقاء " نهض يهودى مهم وقال إنه لا يستغرب إذا ما قام مستوطن وحيد بالدخول إلى قرية عربية ما ويحصد ٣٠ - ٤٠ شخصًا ، وإنه لا يستغرب إذا ما حدث هجوم قاتل يقوم به زميل من المستوطنين ضاق ذرعًا ولم يعد يستطيع ضبط النفس" (١٩٩٣/١١/٨) .

يوجد هنا ، أولاً ، بيان من الداخل عن نوعية الجوهر الإنسانى فى المستوطنات . ثانيًا ، يوجد هنا افتراض أن نفاذ صبر أحد المستوطنين وعدم قدرته على ضبط النفس يمكن أن يستخدم تفسيراً ، إن لم يكن تبريراً لحصد أرواح ٣٠ - ٤٠ شخصًا فى قرية عربية . ولكن النقطة التى تتعلق بموضوعنا ، هى أنه كان من الواضح للمتحدث ولزملائه ، وكذلك أيضًا لرجال المؤسسة العسكرية أن هذا تهديداً وطلبًا بأن نفعل للعرب ما يطلبه المستوطنون ، وليس هذا طلب مساعدة من خلال الكشف عن " أحد الزملاء هؤلاء " لإحباط خطته المحتملة (رئيس الأركان إهود براك قال فى لجنة التحقيق بعد المذبحة التى ارتكبها " جولدشتاين " أن هذا الأمر نزل عليه " كالصاعقة فى يوم صحو "..) وقد تكرر هذا النمط بالضبط مرات كثيرة ويتكرر حتى اليوم ، فى الأيام التى يتوقع أن تتم فيها مرحلة من مراحل الانسحاب من المناطق الفلسطينية . وقال رئيس المجلس الإقليمى جوش عتسيون إن " الجمهور فى جوش عتسيون قريب من الانفجار وهناك خوف من أنه إذا لم تقم السلطات المسئولة بتنفيذ ما هو ملقى على عاتقها فإن الأشخاص سيأخذون القانون بأيديهم " (هارتس ١٩٩٩/١١/١٨).

المقصود البناء غير القانونى من جانب الفلسطينيين (ولا تنسوا أن تفهموا " الجمهور فى جوش عنسيون " . فلتفهموهم ، ولكن حقيقة) .

وثيقة هاعيتسنى - نجفى

وثيقة هاعيتسنى - نجفى هى حالة نادرة للقاء حوار بين شخصية من اليسار وشخصية من المستوطنين . وهى نموذج على ديناميكية " التعنت وضيق الأفق " . ولم يظهر لى فى الوثائق ممثلى مستوطنين أو مؤيديهم لا يستخدمون القوة الغاشمة " الحذاء " بدلاً من وسائل الإعلام مع خصومهم ، الأمر الذى يتلائم بالطبع ويترتب على المفهوم التعصبى . فالمقصود مواجهة بين رجالى قانون فى موضوع الصحافة فى المناطق الفلسطينية ، من اليمين الياكيم هاعيتسنى ومن اليسار موشيه نجفى .

الزمن : بعد سنة ونصف من نشوب الانتفاضة ، أربع سنوات قبل اتفاق أوسلو (هارتس ١٩٨٩/٥/٥) . وقد نجح هاعيتسنى فى أن يستحوذ " يستوطن " على ٦٣٪ من زمن البث والمساحة فى الصحيفة .

وقد استخدم هاعيتسنى ١٤ تعبيراً قانونيًا سلبيًا ، أى تعبيرات عدوانية ، لوصف الخصم. على سبيل المثال : صخب اليسار ، الانقسام الذى أدخلوه فى الجيش الإسرائيلى ، ضعف ، ضلال ، فقدان الطريق ، هشاشة ، عدم تماسك ، مخبرين لـ (م.ت.ف) .

ولم يستخدم نجفى أى تعبير عدوانى أو غير موضوعى . " ركلات بوت " هى تعبيرات استنكار عدوانية وبخاصة عنف لفظى موجه ضد الخصم . قال هاعيتسنى لموشيه نجفى : "أنت تهددنى فعلاً . تشى هذا ما تفعلونه طوال الوقت . جميعكم وشاة تخونون ليلاً ونهاراً" (انتبهوا لتعبيرات عدوانية مميزة استفزاز من خلال استخفاف ، توجيه شتائم ، كلكلة (كل الوقت كلكم نهاراً وليلاً) .

لا شرعية : موشيه نيجفى فعل لا شرعية لهاعيتسنى ، له شخصيًا فقط وليس للمستوطنين ، وأعلن عليه حربًا قانونية بسبب تصرفه وسلوكه المحدد . وقال " فى نظرى هذه التفوهات والتعبيرات هى تحريض على عنصرية جنائية . ويجب على المستشار القاونى أن يرد عليها " (وعلى ذلك رد هاعيتسنى ، " أنت تهددنى فعلاً ، تشى بى ... إلخ) هاعيتسنى فعل لا شرعية أخلاقية وأعلن حربًا ضد اليسار كله : " اليسار تعدى الخطوط . انتهينا . فى

اللحظة التى انتقل فيها اليسار إلى م . ت . ف هم فى الحقيقة مخبرين لـ م.ت.ف .... " عندما يذهبون للتضامن مع قتلة قرية بيتا ، عندما ينضمون إلى قتلة إفيفيم ضد أخوتهم ، فإننا بذلك لأسفى قد عبرنا هذه المرحلة ... ليس لى أى شيء مشترك مع من تخطى الحدود وذهب إلى م . ت . ف " . الحركة الجماهيرية التى مهمتها جميع قصص هنا للإساءة ، ولكى تثير خلافًا ، وإشعال حرائق فى داخل المعسكر ... ولتعمل من هذا منظومة وشاية ضد الجيش الإسرائيلى ، عن قصد " ... وهو يعلن حربًا أيضًا بواسطة القانون : "عندما يقدم يهود على نقل رسالة أن م . ت . ف هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى - فهذه حرب نفسية. ينبغى منع هذا بمقتضى أمر منع الإرهاب " .

فلتفهموه :

لقد كان جُرم معارضى الضم فى نظر قوى المتعصبين ، إذا ، كبير جداً : حقيقة وجودهم بصفتهم يقفون فى طريقهم . وكان هذا واضحًا لى منذ فترة طويلة قبل مقتل رابين . ولا تعمموا ، ولكن يسرائيل هريئيل ، رئيس تحرير مجلة " نقودا " فى الماضى ومشارك دائم فى صحيفة هارتس حتى اليوم ، وذو شخصية معدلة ومتزنة ، أدخل بتصريحاته رابين إلى السجن بعد أن تتشكل " لجنة تحقيق تقوم بالتحقيق فى جرائم اتفاق أوسلو ، مثل اللجنة التى تشكلت بعد مذبحة صبرا وشاتيلا " يجب أن نفهم أنه لم تكن لتصريحات رابين أو الـ " يسار" أى علاقة جوهرية بنظرة المستوطنين إليه . فقد كانت هذه النظرة موجودة سلفًا .

اختبار لفحص ذاتى : استقامة ضميرية وثقافية :

تفسير : هناك وجهان لكارثة ينطوى عليهما الوضع الافتراضى الذى سيجرى فيه إخلاء مستوطنات يستوجبان فهمًا وتقمصًا عاطفيًا مع المستوطنين : الوجه الخاص ، الإنسانى ، والوجه السياسى - أيديولوجى . وقد تم التعبير عن الوجه السياسى - إيديولوجى ، على سبيل المثال ، فى كلمات حايا شيخنر ، مديرة قسم الرفاه الاجتماعى في شومرون (شمال الضفة الغربية) : " إناس مُهددون أيضًا لأن الحكم المركزى يزمع التسبب فى انهيار معتقداتهم وأفكارهم " (هارتس ١٩٩٣/١٢/١٠) .

حقيقة أن وجود دولتهم يتسبب فى انهيار معتقداتنا وآرائنا عن الحياة فى دولة ديمقراطية إنسانية وعادلة ، لا يجب أن تكون سببًا يقلل من الواجب الأخلاقى لفهمهم ، فى حالة ما إذا كان عالمهم الفكرى ينهار .

ولكن لإخلاء المستوطنين هناك ، وجه كارثة شخصية أسرية ، اقتلاع كبار وأولاد من مشهد وطبيعة وطنهم وبيتهم ، وهم يبرزونه فى دعايتهم . والاختيار بالنسبة لنا يتعامل فقط مع هذا الوجه . وأمامكم قطعتان من الصحيفة عن إخلاء يهود فى مجال حكم إسرائيل من بيوتهم . اقرأوهم بتمعن وقارنوا . فإذا لم تكن نظرتكم إلى الكارثة الشخصية - الأسرية لأشخاص وأولادهم فى الحالتين متساوية - عندها لم تجتازوا الاختبار " .

أسر فى حى كريات ناحوم تسكن بالقرب من مرفق أنابيب غاز فى كريان أنا ، سيتم إجلاؤهم من بيوتهم ، بسبب المخاطر الكبيرة التى يوجدون فيها، فقد نشب فى مرفق الغاز حريقان كبيران فى الماضى.

بدأ طاقم مثمنين من " إدارة أراضى إسرائيل " فى وضع تقديرات لقيمة الأرض فى المنطقة المحيطة، بهدف تعويض الأسر التى سيتم إخلاؤها عن الحى . وسيبحث وزيرا المالية والإسكان فى الأيام القريبة القادمة خطة الإخلاء ، المفترض أن تكون منتهية فى خلال شهر . وقد تم تحويل الموضوع للمناقشة فى لجنة الداخلية فى الكنيست.

بحسب كلام وزير الطاقة ، موشيه شاحل ، تم رصد ثلاثة ملايين شيكل فى وزارة الإسكان لتمويل عملية الإخلاء ، من بين ميزانية شاملة بمبلغ ١٩,٥ مليو شيكل ، مطلوبة لاستكمال نقل السكان ، وتمتد كريات ناحوم على مساحة ٢٠ دونمًا . وقد تم قبل نحو شهر إخلاء ٢٠ أسرة من حى آخر فى منطقة ، إسكان الجنود .

ذات يوم قد تستدعى لإخلاء المستوطنات . بالعبرية : لاقتلاع وطرد يهود من أبناء شعبك ، انتبه ، لو صدر إليك أمراً لإخراج كل سكان قرية عربية فى شومرون ولطردهم ولهدم بيوتهم ، كنت ستفكر مرتين : " أليس هذا أمر غير قانونى بشكل جلى ؟ "

أليس من المتوقع أن أحاكم على تنفيذ مثل هذا الأمر ؟ أجب : أليست قرية يهودية وقرية عربية متساويتين أما القانون ؟ .

إننا نتوجه إلى ضميرك الإنسانى ، إلى ضميرك القومى ، إلى ضميرك اليهودى لا تكون شريكًا فى اقتلاع مستوطنات يهودية .

هذا أمر غير قانونى بجلاء (نداء ضباط احتياط وأكاديميين " صحيفة هارتس ١/١/١٩٩٣) .

حدود الكارثة :

أ - الكارثة فى خدمة السياسة :

فى أثناء النقاش فى الكنيست حول المصادقة على اتفاق أوسلو (سبتمبر ١٩٩٣) ، سحب رحبعام زئيفى وأعضاء كتلة " موليدت " مظلات وفتحوها فى مقابل وجه يتسحاق رابين . وبذلك أظهروا رأيهم فى أن هذا الاتفاق كان مثل اتفاق السلام مع هتلر الذى حمله من ميونيخ صاحب المظلة ، رئيس حكومة بريطانيا نويل تشمبرلين . وأصبحت مظلته رمزاً للأمل الأحمق فى سلام مع عدو مخادع ومتعنت لاينزع إلى الحل الوسط وتحول اتفاق ميونيخ إلى عملة دعائية استخدمها بكثرة معارضو الاتفاقيات مع مصر وبعد ذلك مع الفلسطينيين ، بما فى ذلك فيلم دعائى قصير كامل لليكود فى انتخابات ١٩٩٢ . ويستخدم المتعصبون فى الأعم الأغلب مفاهيم من الكارثة النازية ، عندما يعقدون مقارنات مع الوضع فى إسرائيل : وقد ظهرت مفاهيم مثل ميونيخ ، نازيون ، أوشفيتس ، يودنيراين ، يودنيرات (مجلس اليهود مؤسسة أسسها النازيون فى الجيتوهات اليهودية) كويز لينجين (محاكم التفتيش) - ظهرت كثيراً ودائمًا فى سياق معارضة أية فكرة أو نية لتقديم تنازل ما لأعدائنا نحو "السلام " (كما تذكرون ، من المؤكد ، أيضًا فكرة أن العالم كله يرتب لنا كارثة أكبر بكثير و " عاصفة " خطرت على بال الدكتور هيرتسل روزنبلوم بسبب الاقتراح لعقد مؤتمر سلام) . وفى حالات متطرفة ظهرت أيضًا رموز مثل الصليب المعقوف ، وزى جهاز الـ إس . إس ظهرت فى الصحافة الحريدية أيضًا تعبيرات إضافية مثل " محارق وسائل الإعلام " ، ولكن الثقافة الحريدية لاتدرج فى الثقافة الإسرائيلية لغرض هذا النقاش) وتحولت هذه المفاهيم إلى رموز مطبوعة فى الوعى القومى لكل طفل يهودى فى إسرائيل . وأصبحت الكارثة فى الجيل الأخير شعيرة قومية تؤيد تبرير موقف إسرائيل فى النزاع . ويُؤخذ كل زعيم من " أمم العالم " يزور إسرائيل يؤخذ فوراً إلى " يادفشيم (النصب التذكارى لضحايا النازية) وتشمل الشعيرة أيضًا جزءاً من مراسم الانتقال لنضوج الشبان الذين يتوجهون لزيارة معسكرات الإبادة فى بولندا .

إن الكارثة النازية هى المعيار النهائى لإدانة الشر السياسى أو الشر عمومًا على خريطة مفاهيم الإسرائيليين ، وكذلك خريطة مفاهيم أشخاص كثيرين جداً فى العالم . وقدتحولت أيضًا . إلى أكثر تعبير غريزى تطرفًا لنزعة السوء السشيطانية والسيكوباتية لكراهية مطلقة

العنان ، مثل سُبة " نازيون " " الحزب النازى فى الولايات المتحدة " ، " حليقو الرؤوس " فى أوروبا أو رسم صليب معقوف على حائط ، وأدرجت فى سنوات النضال على أرض إسرائيل الكاملة فى حدود نضال اليمين واحتلت فيه مكانًا مركزيًا . " أعداؤنا " قورنوا بالنازيين والذين يعارضون الاستيطان والضم قورنوا بتشيمبرلين يودانيرات ، أو مؤيدى فكرة أن تصبح يهودا وشومرون (الضفة الغربية) " يودنيراين " ... وخلافًا لذلك ، فإن اليسار الصهيونى لم يتعد حدود الكارثة فى النضال ضد اليمين والضم ، خاصة بسبب أنه قبل الادعاء القائل "محظور مقارنة أفعال اليهود بأفعال النازيين " . وكانت هناك حالات قليلة تعدى فيها أشخاص قلائل ليس أحزاب وليس مجموعات أو هيئات ، هذه الحدود فى نضالهم ضد اليمين. وأصبحوا مشهورين بالذات لأن اليمين قام على الفور بترسيم حدود الشرعية بينهم وبين المجتمع واستبعدهم خارج المعسكر (أى معسكر اليمين أو ما يسمى بالمعسكر القومى) . وهكذا أصبح تصريح البروفيسور يشعياهو لايفوفيتس ، بأن إسرائيل تمارس فى لبنان سياسة يهودية نازية " إلى ما يعتبر بمثابة إشارة تحذير لـ " اليسار الصهيونى " . وقد أخرجه اليمين، الذى حافظ طوال الوقت على خدوده القيمية ، إلى خارج الحدود الشرعية ، وقال يتسحاق شامير عن فكرة منح لايفوفيتس جائزة إسرائيل " شيء مقزز يثير الاشمئزاز لكل شيء حدود " وعندما قارن البروفيسور موشيه تسيمرمان رئيس كرسى الدراسات الألمانية فى الجامعة العبرية، بين التعليم الذى يتلقاه أولاد المستوطنين وبين التعليم الذى تلقوه فى هتلريوجند «شباب هتلر » ، توجه أعضاء حزب المفدال فى الكنيست على الفور إلى المستشار القانونى للحكومة لكى يطلب تقديمه إلى المحاكمة . وقرأت مجموعة من أساتذة الجامعات كلامه "باشمئزاز وذهول " وطالبت إبعاده فوراً من منصبه فى الجامعة وأعلنت " إننا نعتبر الرفض المطلق لافتراءات البروفيسور تسيمرمان موضوعًا تعليميًا من الدرجة الأولى " (صحيفة هارتس ١٩٩٥/٥/٢) .

فالعبارة الأخيرة " موضعًا تعليميًا من الدرجة الأولى " لها مقابل مباشر فى استخدام أحد المتحدثين باسم المستوطنين للكارثة النازية لغرض مقارنة مجموعات سياسية من الخصوم فى إسرائيل . ويجسد هذا النموذج الاستعداد للتعميم ، ففى حين أن اليمين قارن يهوداً من معارضيه بشخصيات من الكارثة النازية . اعتقد " اليسار " أنه لا يجوز عقد مثل هذه المقارنات . وكان رد الفعل الجماهيرى على مقتل رابين ، الذى هزنى شخصيًا جداً (بسبب

المفاجأة التى تمثل فيه بالنسبة لى) ، كان رد فعل رئيس جامعة بار إيلان الذى أعرب عن دهشته التامة من أن ظاهرة مثل يجئال عامير القاتل خرجت من جامعة بار إيلان . وإننى الذى تابعت ما أوردته وسائل الإعلام ، عرفت ، أولاً ، أن الحالة الواحدة والوحيدة فى إسرائيل التى حكم وأدين فيها كاتب مقال فى مجلة على تحريض عنصرى كانت حالة حاخام فى جامعة بارإيلان ، الذى نشر فى مجلة طلاب الجامعة فتاويه عن " أوامر الإبادة الجماعية فى التوراة". كذلك عرفت جيداً التفوهات العلنية لأستاذ الأدب هيلل ڤايس من نفس الجامعة ، مثل قوله : " نحن المستوطنون ، نشكل جبهة رفض لهذا النوع من السلام ، الذى يتوج ، فيه فى المرحلة الأولى ، يهود على أيدى إخوتهم ضحايا للسلام . فى كل جيتو وفى كل طائفة هدد الألمان ، " إذا لم تسلموا قوات المقاومة حتى الصباح سنقتل الرهائن ، وشكل المستوطنون حاجزاً للتكفير الأخلاقى المطلق لمُسَلِميهم اليهود (المقصود من يقومون بتسليمهم من اليهود) (صحيفة حداشوت ١٩٩٣/١١/١٠) . (أفهمتموه ؟ - فلتفهموه!) وكتب أيضًا نفس أستاذ الأدب عن يزهار سيميلينسكى بكلمات " أبو كل بارع فى العزف على الكمان والمراودة والتشبيب (صحيفة حداشوت ١٩٩٣/٤/١٤) . واتضح بأن " كل كارهى صهيون ... هم والمتأنقين مرتدوا البليزر تكتلوا لكى يمحوا الدولة اليهودية ويقتلوا الكيان الصهيونى " ، ولم يتهمه أحد بالتحريض على القتل (عضو الكنيست يوسى بيلين كان معروفًا فى وسائل الإعلام بأنه ينتمى إلى من يطلق عليهم مرتدوا البليزر) ولم يقرأ أحد من زملائه فى الجامعة كلامه باشمئزاز ونفور ، ولم يدعى بأن تفوهاته هى أمر غير تربوى من الدرجة الأولى . وكطرفة تاريخية : " وابطة المعلمين من أجل تطوير التعليم والتدريس التابعة لاتحاد المعلمين دعت البروفيسور فايس بعد ذلك بشهر لكى يكون أحد المتحدثين فى اجتماع فى عيد الفصح فى حيفا حول موضوع : " السلام - تحدى للتعليم " .

إن الكارثة النازية - أكثر الرموز موسوقية فى الوعى القومى - علاقة مباشرة وحميمية بعرض اللاإنسانية . فالكارثة هى أبرز نتيجة للاإنسانية فى القرن العشرين . وإننى أرغب إذاً فى عمل الربط الضرورى بين الكارثة وبين اللاإنسانية وتاريخنا فى العشرين سنة الأخيرة . وإننى اعتقد بأن هذا الربط مطلوب لنا نحن معارضو التعصب من أجل فهم المتعصبين ولكى نستطيع مواجهة المقارنات التاريخية التى تستخدم أساسًا للنضال الحالى .

ب - سيكولوجية الكارثة النازية :

* " معسكرات الإبادة التى أقامها الألمان ستعتبر كدور نقاهة تابعة لكوبات حوليم (مؤسسة للعلاج الطبى تابعة لاتحاد العمال فى إسرائيل " الهستدروت) فى مقابل ما سيفعله العب بنا هنا إذا ضعفنا " - رفائيل إيتان (هارتس ١٩٨٣/٨/٢٨) .

* " أبشع قاتل للشعب اليهودى منذ هتلر وصل إلى إسرائيل ، ومجموعة من " يودينرات «المجلس اليهودى » " تقف انتباهًا تشريفًا له " - رفائيل إيتان (رافول) ، مع وصول ياسر عرفات إلى غزة ، يوليو ١٩٩٤) .

* " حكومة فيشى " - عضو الكنيست رحعبام زئيفى (يديعوت أحرونوت ٩/ ١١/ ١٩٩٣) .

* " فى كل مرة أسمع فيها العرض المخيف الذى قدمه إيخمان إلى كاستنر ويؤيل براند ، وهو " دم يهود فى مقابل شاحنات " يرتفع دمى إلى رأسى ، وأرتعد من التفكير فى كيف تحولت حياة يهود إلى بضاعة رخيصة متداولة . وعندما أرى اليوم الصفقات التى تنفذها هذه الحكومة مع رؤوس الإرهاب فى م.ت.ف من خلال اعتقاد أحمق بأن هذا سينقذ حياة يهود ارتعد بنفس المدى " " أرئيل شارون ، نوفمبر ١٩٩٤) .

إن المقارنة هى عمل عقلى طبيعى وضرورى . لايمكن الامتناع عن المقارنات أو منعها عندما تحدث فى رأينا . " لايجوز مقارنة أفعال اليهود بأفعال النازيين " - هذه مطالبة ممكنة فقط بالنسبة للتعبير الصريح لهذه المقارنة ، وليس بالنسبة للمقارنة ذاتها ، التى تنتمى لمجال التفكير والعاطفة ، يمكن أن نحظر على إنسان التعبير عن رأيه إذا كان يقول أن آراء رحبعام زئيفى أو رفائيل إيتان بالنسبة للعرب تماثل أنماط تعبير مميزة للفاشيين والنازيين بالنسبة لليهودى يمكن أن نحاول وأن نقنع إنسانًا بأن مثل هذه المقارنات غير مفيدة ، وضررها أكبر من فائدتها . ولايمكن الامتناع عن مقارنات عندما تقول لنا خريطة مفاهيمنا أن حدثًا أو تعبيراً معينًا نصطدم به ونصادفه فى الحاضر موسوم كحدث سبق أن وقع فى الماضى .

الذاكرة هى مقارنة وإلا ماذا ؟ المقارنة هى الحدث المحفوظ فى الذاكرة مع الحدث الذى أثاره. وأمر تذكر " الكارثة النازية " هو أمر لكى نتذكر لماذا وكيف قُتل الضحايا ولماذا وكيف

ارتكب القتلة ذلك القتل ، وأن نقارن أنفسنا هنا والآن بالأشخاص الذين قتلوا ، عاشوا ، تعلموا ، حاربوا ، عانوا ، ضحوا بأنفسهم ، فسروا الأحداث وآمنوا بما آمنوا به وبمن آمنوا آنذاك وهناك . ويفهم أولئك من بيننا ذو وجهة النظر الإنسانية أن هذا الأمر يستوجب أن نقارن أنفسنا ونقارن آخرين بكل المتورطين فى الكارثة النازية ، الأخيار والأشرار الأبرياء وغير المكترثين ، الضحايا العُزّل ، وأولئك الذين كانوا مسئولين ذوى القوة وسطوة الحكم . ويفهم المتعصبون أننا مُكلفون بأن نقارن أنفسنا باليهود فقط ، بالضحايا أو بالأخيار ، وأنه محظور علينا أن نقارن أنفسنا بالأشرار .

وبمصطلحات نموذجنا ، فإن المقارنة التى تؤدى إلى استخلاص دروس مثل مصادفة لافتة أو إشارة مرور . عندما نوجه طريقنا على الأرض . إشارة المرور تقول : انتبه هنا وقعت فى الماضى حادثة أو كارثة بهذا الشكل أو ذاك ، احذروا ألا يحدث هذا لكم ، لايمكن أن يتجنب المرء مصادفة مثل هذه الإشارات . فالأشخاص غير المتعصبين يفهمون أن إشارات التوجيه والتحذير التاريخية موجهة لكل إنسان يوجه طريقه على أرض مشابهة وفى ظروف مماثلة . ويفهم المتعصبون أن هناك إشارات وعلامات تحذير ليست مخصصة لليهود .

وبدون أن أقصد ذلك مسبقًا ، توجهت لكى أشرح هذا العمل الفكرى ، مقارنة ، بمصطلحات " نموذجنا " - نموذج التوجيه فى المجال السياسى على ضوء خريطة المفاهيم . وبذلك عقدت مقارنة ، بالطبع مقارنة بالنموذج الذى خطر فى ذهنى على الفور بسبب حاجتى لكى أشرح شيئًا ما للقراء ، وبسبب افتراضى أن النموذج الذى نستخدمه معروف ومقبول لديهم " أن أشرح " هو عمل فكرى والذى هو أيضًا مقارنة بين ما نفترض أنه معروف ومقبول لدى الآخر ، وبين ما نحاول نحن أن نوضحه له هنا والآن . هذا عمل عقلى لايمكن تجنبه عندما نوجه طريقنا ونحاول التضلع فى أرض الواقع ، وبشكل أقوى عندما نريد أن نوضح هذا للآخرين . إن المشكلة كلها ليست ، إذاً ، هل نعقد مقارنات بالكارثة النازية : فالجميع يفعلون هذا . ولايمكن تجنب ذلك والامتناع عنه . المشكلة هى كيف نعقد مقارنات صحيحة ، كتلك التى يُوجد فيها فى الحقيقة تشابه فى وضع الشخصيات التى نقارن بينها .

إننى أومن بأن القدرة على مقارنة أنفسنا والآخرين بشخصيات عملت فى الكارثة النازية هى ذخر روحى لايجوز لأى إنسان فى العالم أن يتنازل عنه ، فى حين أنه بالنسبة لنا فى

إسرائيل له أهمية خاصة باعتباره إشارة تحذير ومرشد اتجاه وطريق ، والسبب فى ذلك هو أنه، يوجد بيننا جميعًا ، متعصبون وغير متعصبين ، يمين ويسار ، اتفاق نادر وتام فى الأراء بالنسبة للكارثة النازية (لكن ليس دروسها !) فى مستوى الوعى وأيضًا العاطفة . جميعنا فى إسرائيل متفقون على أن الكارثة النازية قد حدثت حقًا ، وأنها كانت أشنع فظاعة على الرغم من أنها حدثت فى العالم الحديث ، وأن الجريمة والشر الذى تسبب فى الكارثة هو أفظع من كل ما يخطر على البال ، وأن النازيين ومساعديهم كانوا هم الجلاديين ، الذين عملوا من مركز حكم مطلق وقوة سياسية وعسكرية هائلة ، وأن اليهود كانوا ضحايا عزل ليست لديهم قوة سياسية - عسكرية ، وأن باقى العالم كله كان غير مبال . وإننى ، أنتم ، رفائيل إيتان، رحبعام زئيفى ، الحريديم وكل الباقون . متفقون تمامًا على أنه هكذا كانت الكارثة النازية ، فى حين أن كثيرين فى العالم لايشاركون فى مثل هذا المفهوم . ومن هنا يأتى التأثير الهائل للكارثة بيننا . لدينا فى إسرائيل معيار موحد إنذارى لتعريف الشر والجور المنظم بمصطلحات سياسية : " كارثة " .

على سبيل المثال ، حكت لى إحدى المعلمات أنه فى أعقاب أحد الهجمات قال تلميذ من الصف الثامن : " إذا كانوا يفعلون فينا مثل هذه الأمور فيجب أن نقتل حتى ٢ مليون عربى ! " . وقد ردت التلميذة التى سمعت هذا على الفور ، وكأن هذا شىء غريزى : " ماذا دهاك ؟ أتريد أن تكون مثل النازيون ؟ ... والآن فلتتصور أن الأولاد لم يكونوا يعرفون مصطلح الكارثة النازية ، أو أن التلميذة استوعبت خطر مقارنة أنفسنا بالنازيين . ماذا يمكن أن نقول عن فكرة أن نقتل ٢ مليون عربى ؟ لولا أنه كان لديها الرد الذى يقارن أعمال قتل جماعية بالكارثة النازية ، مع كل ما تنطوى عليه هذه المقارنة من القوة الوجدانية والأخلاقية، ربما لم تكن لديها أدوات ووسائل للإحساس بالفزع والهزة واستنكار اقتراح هذا التلميذ ، ومن هذه الناحية ، فإن المقارنة هى ذخيرة روحية وتربوية تعليمية متيسرة وفى متناول اليد لتمييز حاد للشر المطلق . لايجب أن نتخلى عنها ، فى رأى . خسارة أن نضيعها ونبددها .

إن المقارنة هى العمل الطبيعى الذى نفعله من أجل أن نتوصل إلى مدلول أحداث وأفكار، خاصة لكى نبرر وندعم مواقفنا الأخلاقية . وهى جزء لا يتجزأ عن منظومة توجهنا فى العالم، وهى مسئولة بمدى متساو أيضًا عن توجه جيد وأيضًا عن أخطاء بشعة ، مثل المقارنة التى عقدها رفائيل إيتان بين دور النقاهة التابعة لكوبات حوليم وبين معسكرات الإبادة التى

أقامها النازيون . ولكى تكون المقارنة معقولة بالنسبة للواقع ينبغى أن نذكر ، أولاً ، العلاقة الأساسية بين الخريطة وأرض الواقع : فمن ناحية ليس هناك شىء يماثل فى كل الجوانب أى شىء آخر ، فالأشياء تتغير والظروف تتغير . فعلى سبيل المثال ، أحد الأشياء المبدئية التى تغيرت فى وضعنا ، فى مقابل وضع الشخوص العاملة فى الكارثة النازية ، هو أن لدينا الدروس المستفادة من الكارثة ، ولم تتوفر لهم ولم تكن لديهم .

وعلى ذلك فبما أن الأزمنة والظروف مختلفة دائمًا بين الأوضاع التى نقارن بينها ، فينبغى أن نتوخى الحذر فى المقارنات ونتذكر أن ليس هناك اليوم أى شىء متماثل ومتطابق " ليس هو نفس الشىء بالضبط " مثل الواقع فى الماضى أو مكان آخر . إن أنماط التعبير على غرار " لايوجد أى فرق " لا يمكن أن تكون صحيحة .

ثانيًا ، الاستنتاج هو أن أنماط التعبير " لا يوجد أى تشابه " أو " لايمكن أن نقارن " لا يمكن أن تكون صحيحة ، لأن طبيعة منظومة التفكير هى التجريد والتبسيط وقدرة غير محدودة لإيجاد جوانب وصفات مماثلة بين كل شىء وبين كل شىء آخر . على سبيل المثال ، إننى أيضًا نباتى مثل هتلر ، وكنت طفلاً وكانت لى أم ، وإننى أيضًا أحب شعبى ، أؤمن بالقانون والنظام ، ورجل ، وتوجد بيننا صفات مشتركة لا نهاية لها لأن قدرة من يريد اكتشافها وإحصائها هى فى الواقع غير محدودة .

إن المقارنة هى أيضًا الطريق السوى للتوصل إلى استنتاج قيمى مفند وكاذب ، أى أن السوء والشر الذى يستحوذ على البشر يعرف كيف يعقد مقارنة لأغراضه. من هنا فصاعداً ، فإن مشكلة المقارنة الأخلاقية الصحيحة مرتبطة بالاستقامة والنزاهة ، وهو عامل من الصعب تحديد علاماته ودلالاته بصورة موضوعية . ولكن بما أننا جميعًا بشر فإن النزاهة تستوجب أن نقارن أنفسنا أيضًا بالبشر الذين ارتكبوا أخطاء ، تقصيرات ، أعمال سوء وشر . كما أن النزاهة والمعقولية يستوجبان ، أنه لكى تكون النتيجة الأخلاقية أو الموضوعية معقولة يجب أن نقارن بين أشخاص آخرين وبيننا فى الجوانب والصفات ، والتى هى وثيقة الصلة بالاستنتاج الذى توصلنا إليه ، وليس صفات أخرى . إن كون هتلر نباتيًا ليس وثيق الصلة بشخصيته الأخلاقية ولا يجوز ، بالطبع ، أن نسقط التشابه غير الوثيق الصلة بالموضوع على شخصية مَنْ مقارنة بهتلر . كذلك ، فعندما نقارن أنفسنا بالآخرين ، يجب علينا أن نقارن أكثر عنه من النتيجة النهائية بمصطلحات خير وشر ، نجاح وفشل . يجب أن نقارن أيضًا الظروف . وما مر

بهم . وما عرفوه وما لم يعرفوه . أرادوا أن يعرفوا أو لم يريدوا أن يعرفوه استطاعوا أم لم يستطيعوا أن يفعلوه وغير ذلك وطبقًا لمقولة " لا تحكم على أحد قبل أن تصبح فى مكانه - فإن المقارنة المعقولة تستوجب أن نحكم على غيرنا بعد أن نصبح فى مكانه . ليس في الواقع معاذ الله فى التخيل . ونفكر كيف كنا سنتصرف لو كنا فى وضعه

والمشكلة العامة (الكلية) هى أن المتعصبين غير قادرين على أن يعتبروا أعداؤنا " بشراً مثلهم . لذلك فمن المتوقع أن تكون المقارنات التى يجرونها معيبة وتعوزها النزاهة . كما أن نتائج المقارنة التى يجريها المتعصبون مع أى وضع تاريخى أو واقع آخر موجودة مسبقًا فى منظومة المفاهيم : " نحن الأخيار والعادلون " . وعندما يجرى يهودى متعصب مقارنة أخلاقية مع الكارثة النازية فإن الأمر الوثيق الصلة بالموضوع ليس كذلك فى نظره : كونه يهودى . وبما أننا نحن اليهود موسومون فى خرائط مفاهيمهم باعتبارنا أخيار وضحايا شر من جانب الآخرين . فإن المقارنات التى من شأنها أن توضح وتنير الجوانب المشتركة لنا ولـ " الأشرار " لايمكن أن تظهر أو أن تقبل . ولذلك لا يجرونها مسبقًا ، وليس هناك شىء من هذا القبيل أن يخطر على بال شخص مثل رفائيل إيتان أو رحبعام زئيفى أن يقارن مواقفه فى النزاع بكل أنواع الحكام والجنرالات القساة والمطلقى العنان الذين لا يردعهم رادع الذين قادوا شعوبهم وأنفسهم إلى ضياع . " كيف يمكنك أن تُقارن " " محظور أن تقارن أعمال يهود بأعمال النازيين " وما إلى ذلك .

ومنذ أن أصبح لى رأيى المستقل فإننى أقارن نفسى ونحن بالأشخاص فى الكارثة النازية التى مررت بها عندما كنت طفلاً . وأفكر كيف كنت سأتصرف لو كنت رجلاً ، امرأة أو فتى ألمانى ، لو كنت سجينًا فى معسكر أوشفيتس، لو كنت يهوديًا فى أرض إسرائيل وما إلى ذلك عندما يتحدثون بتبجيل زعيم سياسى يقوم بتنفيذ مشروعات هائلة فى البناء ، الطرق، الصناعة ، ونجح فى خفض البطالة أتذكر هتلر إننى أعرف أن هذا غير وثيق الصلة بالمقارنة ولست أقارنه بهتلر ، ولكننى أتذكر دروس الكارثة النازية وترد المقارنة على الفور فى ذهنى عندما يبدو من يبجل ذلك الزعيم فى أيامنا وكأنه ينسى أن الأمر المهم فى تقييم شخصية كل زعيم هو " سجله " فى الحفاظ على حقوق الأقليات والضعفاء عندما تتأثر مشاعرنا من عروض جماهيرية ، مهرجانات ضخمة . إنجازات رياضية . أتذكر النازيين وعندما قرأت كلام ذلك العالم النفسى من " اليسار الصهيونى " عن تقديم مساعدة نفسية للجنود فى

الانتفاضة بواسطة " بلورة معايير جماعية تُحدد بصورة مطلقة ما الذى من المعقول عمله ... تخفف جداً على ضمير الفرد ... عندما يكون الهدف بصراحة التخلى عن مسئولية شخصية ، وتنمية معيار جماعى واقى " - رأيت على الفور أن الشخص ، عضو كيبوتس المسمى على اسم قائد تمرد جيتو وارسو ، يقترح تطعيم جنودنا ضد صوت الضمير مثلما نتحدث عن ضرورة رص الصفوف ، وتعزيز الانضباط ، وعندما نتوق ونَحِنُ إلى زعيم قومى ليس فاسداً بل مثاليًا نظيف الكف ونزيهًا ويعرف كيف يستحوذ على مشاعر الشعب - أتذكر مجدداً تلك المشاهد وأسمع تلك الأصوات . عندما أسمع جزءاً من خطاب سياسى نارى أتذكر جوبلز ، أو تشارلى تشيبلين فى دور الديكتاتور الكبير ، إننى بالتأكيد مع الأولاد الرياضيين متوردى الوجنات ، مشروعات البناء ، الأوتوستراداات ، العمالة الكاملة ، الاجتهاد الكدح ، النجاح ، الانضباط، البطولة والتضحية . إذا ما دعت الحاجة ، جيش كبير وقوى وما إلى ذلك ، ولكن فى منامى وصحوى واضحة لى جداً دروس الكارثة النازية : كل هذا ليس مهمًا ، حقيقة ليس مهمًا ، فى مقابل شىء واحد الذى هو الاختبار الأخلاقى بالنسبة لى ، بالنسبة لى أولاً وقبل كل شىء ، وبالنسبة لكل زعيم ، دولة ، نظام حكم . ومواطن حرة الحفاظ على حقوق كل إنسان ، نظرة إنسانية لكل إنسان وواجب حماية الأقلية ، الإنسان الضعيف والواقع تحت الاحتلال ، عندما تصبح النظرة تجاهه غير إنسانية ، قاتلة ، تنطوى على تمييز وتفرقة أو قمعية . ولدى المتعصبين ، مثل هذه الحالة من الوعى مستحيلة .

ومثل البروفيسور شاؤول فريدليندر (الذى تماثل سيرته الشخصية سيرتى) ، فإننى أكثر من مقارنة نفسى ونحن بأولئك الليبراليين الألمان معارضى النازيين ، لأن وضعنا مماثل . فأنا مثلهم ابن الشعب الحاكم وليس إحدى الأقليات المضطهدة ، ولدى حكومتى ودولتى القوة والسلطة والطول ، ولا يمسون حقوق أشخاص مثلى . مفهوم " لايجوز " ليس صحيحًا مقارنة سياسة وأعمال اليهود تجاه العرب بالكارثة النازية ، التى هى إبادة شعب مخططه باعتبارها " حل نهائى " . ولكن من المناسب جداً أن نقارن أنفسنا بالألمان وباقى الأشخاص فى العالم ، الذين لم يعرفوا بخطة الإبادة التى يجرى تنفيذها ، بل عرفوا وجهات النظر والسياسة الصريحة لهتلر قبل فترة طويلة من نضوج خطة الإبادة وقبل أن يبدأوا فى تنفيذها . ألم يعرفوا فى الحقيقة أكثر من ذلك ؟ هل استطاعوا أن يعرفوا هل اجتهدوا لكى يعرفوا ؟ وهل كان يهمهم هذا بقدر كاف ؟ تلك أسئلة وثيقة الصلة أيضًا بموضوعنا .

٣ - المقارنة بالكارثة النازية فى التفكير المتعصب :

أولاً ، سنورد عدة نماذج وأمثلة على استخدام الكارثة النازية فى الحديث السياسى الوثيق الصلة بالموضوع ، جزء منها ظهر فعلاً فى الباب الأول كنماذج لعَرَضْ اللاإنسانية :

١ - " لو عرفت أن هتلر يختفى فى مبنى إلى جانب ٤٠ طفلاً ألم تكن ستفجره ؟ " .

- مناحيم بيجن يرد على ادعاءات فيما يتعلق بقصف سكان مدنيين فى لبنان (١٩٨٢) .

٢ - " بما أنهم خونة فإنهم لم يخلقوا فى صورة أسمى من طبيعة البشر ... " الحاخام جورين (الحاخام العسكرى الأكبر والحاخام الأكبر لإسرائيل سابقًا) عن رجال منظمة الحفاظ على حقوق الإنسان فى المناطق " بتسيليم " (ملحق صحيفة هارتس ١٩٩١/٥/١٠) . " ما الذى استطيع أن أفعله ؟ هناك أشخاص جردوا أنفسهم من صفة البشر هل يمكن أن نقول عن النازيين أنهم خلقوا كبشر ؟ " .

٣ - " فى تقديرى اثنين أو اثنين مليون ونصف يهودى سيقتلون ويعذبون حتى الموت . ولكن الكارثة القادمة ستكون مروعة أكثر بمفهوم أساسى واحد : يهود ساعدوا وبذلوا جهداً وسعوا واتخذوا شتى الوسائل لجلبها " . (مئير عوزيئيل ، معاريف مارس ١٩٨٩) .

٤ - " يريد ريجان أن تكون يهودا والسامرة (الضفة الغربية) " يود نيراين " «يهودية خالصة » ... هل أسأل إلى أى مدى أثر ما حدث فى أوربا على رأى ؟ انظر ، إن من كتب " الزمن الأصفر " ليس لديه ، كيف أقول هذا ، منظور صحيح عن الشر . إنه لا يرى ما يمكن أن يحدث لنا ، والخطر الذى يتهدد وجودنا ، إما بالنسبة لى فقد بقى لدى هذا من تلك الفترة هناك " (نائب وزير الزراعة ميخائيل ديكل رجل التنفيذ الكبير لسياسة الاستيطان ، فى مقابلة فى أعقاب تصريحاته المؤيدة للترانسفير ، أكتوبر ١٩٨٧م . الأديب دافيد جروسمان هو مؤلف رواية " كتاب النحو الداخلى " عن واقع فتيات فى القدس فى ظل والدين من لاجئى الكارثة النازية ومؤلف رواية " الزمن الأصفر " (كوتيرت راشيت ١٩٨٧/٤/٢٧) ، وهو أشمل وأعمق مؤلف عن واقع الضم ، بما فى ذلك الكثير جداً من التطرق إلى التعصب . والرذيلة والشر ، من زاوية معارضيه المقربين لـ " اليسار الصهيونى "

٥ - " لا يتحدث رابين باسم شهداء الكارثة النازية فى الوقت الذى يحصل فيه على جائزة نوبل مع من يواصل نهج النازيين (يقصد ياسر عرفات) (بيان حزب الليكود ١٩٩٤/٢/١١).

٦ - " محظور أن يأتى مستشار ألمانى فى أبواب المدينة المقدسة ويدنسها " - أعضاء حركة الشباب " بيتار " فى مظاهرة ضد زيارة المستشار هيلموت كول لإسرائيل .

٧ - كتبت جيئولا كوهين أن الأموال التى تعرضها الولايات المتحدة على إسرائيل فيما يتعلق بمؤتمر السلام الدولى فى مدريد هى فخ لليهود ، مثل غرفة خلع الملابس فى المدخل إلى غرف الغاز فى تربلينكا (صحيفة يديعوت أحرونوت أبريل ١٩٩١) .

تحليل أولى :

١ - تأتى كل هذه المقدمات لرفض أعمال أو نوايا سلام ، ضبط نفس ، الحرص على حقوق الإنسان المدنيين ، أو مصالحة مع " أعداؤنا " عن طريق مقارنة أعدائنا بالنازيين ومقارنة " رقيقى المشاعر ومرهفى الأحاسيس " بالمتعاونيون أو أولئك الذين خضعوا أو سمحوا بأن يخدعوهم .

٢ - لا تشمل كل المقدمات نظرة إلى أنفسنا باعتبار الطرف الحاكم ، المسيطر ، الذى يملك القوة السياسية والعسكرية ، الطرف الذى يجب أن يقف فى المقارنة من ناحية قوته المادية ، ميزان القوى فى الساحة ، إمكانيات العمل والمسئولية الأخلاقية - أن يقف فى المكان الذى كان فيه النازيون وليس اليهود الذين كانوا تحت الاحتلال وكانوا عُزلاً لا حول لهم.

إن البروفيسور يهودا ألكنا ، رئيس معهد تاريخ العلوم والأفكار فى جامعة تل أبيب ومدير معهد فان لير فى القدس ، قد رأى وخُبِر مثلى كيف يستخدمون لدينا الكارثة النازية وكتب الكلام الآتى ، ليس قبل أن يكتسب لنفسه الحق " فى أن يبدى عمومًا رأيه فى هذا الموضوع الذى أصبحت الآراء المأسسة بشأنه بمثابة أحد المحرمات وقد فعل هذا عن طريق أنه أسبق ذلك بتوضيح مؤداه ، أنه شخصيًا قد مر بما جرى فى معسكر أوشفيتس وكابد وتأثر بالفظائع (صحيفة هارتس أكتوبر ١٩٨٨) .

إننى أقتنع فى الفترة الأخيرة . بأن الإحباط الشخصى كعامل سياسى اجتماعى ليس هو الذى يحرك المجتمع الإسرائيلى فى نظرته إلى الفلسطينيين بل خوف وجودى عميق يغذيه تفسير معين لدروس الكارثة النازية والاستعداد لتصديق أن العالم كله ضدنا ونحن الضحية الأزلية . إننى اعتبر هذا الاعتقاد العتيق ، الذى يشارك فيه كثيرون حاليًا ، هو انتصار هتلر التراجيدى والذى ينطوى على تناقض .

فمن أورشفيتس خرج ، بصياغة رمزية ، شعبان ، أقلية تدعى " هذا لن يحدث أبداً مرة أخرى " ، وأغلبية مضطربة وخائفة تدعى " هذا لن يحدث لنا أبداً مرة أخرى "

أولاً وجدت فى كلام البروفيسور ألكنا تأكيداً للادعاء الذى أوضحته وبررته قبل ذلك بالنسبة للإرهاب . يدعون أن واقع الإرهاب يجب أن يؤدى إلى تقوية الخط السياسى لليمين وأنه " ليس هناك ما يمكن عمله ضد هذا " فى حين البروفيسور ألكنا أيضًا يقول . أن الانطباع العميق والخبرة المعاشة ، الحدث فى الواقع نفسه ، وليكن رهيبًا ومخيفًا مثل الإرهاب أو حتى مثل الكارثة النازية ، لا تحدد مطلقًا الاستنتاجات التى يتوصل إليها الأشخاص فى أعقابه والحقيقة هى ، بالضبط مثلما كتب ألكنا ، أن " الخوف الوجودى العميق لدى الإسرائيليين فى عصرنا . لا يغذيه مباشرة واقع الكارثة النازية بل " تفسير معين لدروس الكارثة النازية " . فى حين أن هناك تفسيراً آخر ممكنًا فى الواقع . ويرى ألكنا أن التفسير المقبول والتفسير الآخر مختلفان جداً ومتعارضان ، إلى درجة أنهما يجعلان منا كما لو كنا « شعبين » . وهذا التقسيم مقابل بالضبط للتقسيم الأساسى القائم بين متعصبين وغير متعصبين ، ويميز ألكنا دروس الكارثة النازية لدى أشخاص مثله ومثلى . الذين هم الأغلبية ، بأنهم يقولون : " هذا . لن يحدث أبداً مرة أخرى " فى حين أن الأغلبية هم الذين يقولون : " هذا لن يحدث لنا أبداً مرة أخرى " ويقصدون لن يحدث لنا أبداً أن نكون الضحية.

الفرق بين المتعصبين وغير المتعصبين هو فى الشخصية قبل بضع سنوات شاهدت فى التلفزيون فيلمًا عن زيارة تلاميذ ثانويين من إسرائيل لمعسكر أوشفيتس . وعندما خرجوا هم ومرافقوهم من هناك أجروا معهم مقابلات مصورة وكأنهم تلقوا عن قصد بيانين . بيانًا من كل « شعب » . وسألوا الفتاة التى خرجت تبكى حقًا وهى تستند إلى زميلتها ، لماذا تبكى ، فقالت : " لم أتصور ولم يخطر على بالى أننا قادرون على أن نفعل مثل هذه الأشياء لبشر مثلنا " ... شخصيتها شملت كل الإنسانية التى أوجدت فظائع أوشفيتس وطبقًا لنظرية اللاإنسانية يمكن أن نفترض أنها محصنة ضدها ثم أجروا بعد ذلك مقابلة مع أحد المرافقين

الذى هو نفسه من الناجين من الكارثة النازية وشخص أكثر من استخدام المقارنات مع الكارثة النازية فى النقاش حول وضعنا فى إسرائيل ، وهو عضو الكنيست دوف شيلانسكى . وقد تحدث هو بالطبع ، من خلال الشخصية اليهودية . وإننى أتذكر العبارة : " هل يجب علينا نحن أن نخجل ؟ هم الذين يجب عليهم أن يخجلوا ! " .

وأكثر نموذج حى فى حوزتى على نمط " هذا لن يحدث لنا أبداً مرة أخرى " (أن نكون الضحية) مرتبط بمؤتمر دولى عقد فى يوليو ١٩٩٣ فى القدس . والذى استطعت أن اشترك فيه طبقًا لاعتبارى من الناجين من الكارثة النازية ، مؤتمر " الأولاد المختبئون " . وكان الرئيس الإسرائيلى للمؤتمر اللواء (إحتياط) يوسى بيليد ، الذى كتب فى الدعوة :

" وإنه من الطبيعى أن يعقد المؤتمر فى القدس فهنا لن يضطر أبداً أى ولد يهودى أن يخفى هويته الحقيقية ... هنا هم يعيشون علانية ، بينما هم يتمتعون بحماية من كل عمل من أعمال الفظائع ، فى الحاضر وفى المستقبل " .

إذا فى القدس لن يضطر أبداً أى ولد يهودى أن يخفى هويته وهنا هم محميون من كل فعل من أفعال الفظائع ، فى الحاضر وفى المستقبل ، أن يرتكب ضدهم . وحقيقة أنه حدثت فى القدس ويمكن أن تحدث أعمال فظائع وحتى مذابح على أيدى يهود ضد الأقلية التى تعيش فى داخلهم بهذا المفهوم مجال عمى . والدرس الذى يقول أنه يجب السعى وبذل الجهد والعمل من أجل أن يكون أولاد يهود فى القدس محميين من أعمال وحشية واضطهادات التى قد يحدثونها فى الحاضر وفى المستقبل ، وأن إنسانيتهم ومكانتهم الأخلاقية ليستا مُؤمَنتين مضمونتين على الرغم من دروس الكارثة النازية ، هو مجال عمى . وحقيقة أن القوة المادية فقط ، حقيقة أن رجال الشرطة والجيش والمحققين فى غرف التحقيقات فى القدس هم يهود تحمى أولاء اليهود ، وليس أي نجاح تربوى ، روحى دينى أو غيره ، هى فقط التى غيرت المناخ النفسى الذى يتسبب أو من شأنه أن يتسبب فى المستقبل فى المساس بأشخاص وأولاد عُزل ، هى أيضًا مجال عمى ، إذا كان الدرس المستفاد من الكارثة النازية هو " يتعين علينا أن نكون أقوياء" وهذا هو كل شيء ، يمكن ، إذا شئنا أن نشير إلى حقيقة أن المتعاطفين مع النازيين قد تبنوا هم أيضًا هذا الدرس ، وبذلك تدعيم القول المناقض ، الخاطىء الذى لا لزوم لها فى رأى البروفيسور ألكنا ، الذى اعتبر ذلك انتصار هتلر ، التراجيدى والذى ينطوى على مفارقة ... ولكن نظرية اللاإنسانية تدعم استنتاجه بأن كارثة فى خدمة التعصب تتحول من ذخر تربوى إلى عبء ينطوى على كارثة .

٤ - خلاصة : ماذا نفعل مع الكارثة النازية :

أ - يهودا ألكنا اقترح ما الذى لا تفعله :

لست أرى خطراً أكبر على مستقبل دولة إسرائيل من حقيقة أن الكارثة قد غرست بمنهجية وبقوة فى وعى كل الجمهور الإسرائيلى ، حتى فى وعى القسم الكبير الذى لم يمر بالكارثة النازية ، وكذلك لجيل الأبناء الذين ولدوا وتربوا هنا . وللمرة الأولى أفهم خطورة عملنا ، عندما أرسلنا طوال عشرات السنين كل ولد فى إسرائيل لكى يزور مرة تلو أخرى " يادڤاشيم " (النصب التذكارى لضحايا النازية) . ماذا أردنا أن يفعل هؤلاء الأولاد الصغار بهذا الانطباع العميق الذين سيخرجون به من هذه الزيارة ؟ تلونا بانغلاق عقلى وأيضًا بقسوة قلبية، وبدون أن نشرح ونفسر صلاة " إزكور " (صلاة على أرواح المتوفين) من أجل ماذا؟ ما الذى من المفترض أن يفعل الولد بهذه الذكريات ؟ بالنسبة لكثيرين جداً من شأن صور الفظائع أن تفسر على أنها دعوة للكراهية . وصلاة " إزكور " يمكن أن تفسر على أنها دعوة لكراهية مستمرة وعمياء .

ب - التخلى عن العُقد :

إن العقدة فى تعريف التحليل النفسى الكلاسيكى ، هو حدث ينطوى على صدمة جرى كبتها ثم تنفجر إذا ظهر فجأة شىء ما كان مرتبطًا بنفس الحدث . لنفترض ، أن الولد كان مع أبيه عندما أصيب أبوه بنوبة قلبية وتوفى فى الغرفة التى كانت بها زهور عباد الشمس . إنه لايذكر الحدث ، ولكن منذ ذلك الوقت ، عندما يرى زهور عباد الشمس يكون رد فعله صدموى . وعقدنا القومية المرتبطة بالكارثة النازية ليست ذكرى انطباعية ، بل ذكرى مكتسبة ودُرست ، وعلى ذلك فهى مشتركة وليست مكبوتة . فالشخصية القومية الجماعية تُنمى العقدة بدلاً من التطلع إلى التغلب عليها . والنموذج الذى أورده مناحيم بيجن كتبرير لقصف مدنيين فى لبنان ، أى القول بأنه له ما يبرره مثلما كان له ما يبرره لو كان هتلر مختبأ هناك . هى ذريعة مبنية على منطق عقدة كما لو كان قد تجمد فى الزمن .

وقد رد عاموس عوز على بيجن فى تلك الحالة بمقال كان عنوانه " لقد مات هتلر . باسيدى رئيس الحكومة » . غير أن الحالة التى تعتبر خاصية وصفة العقدة فيها هى الأوضح من بين الحالات المعروفة لى ترتبط بـ " فترة التكديرات " التى سبقت الانتفاضة . ففى الحادث

المقصود ، فرض الجيش حظر تجول فى إحدى القرى وكالعادة جمعوا كل الرجال فى مكان واحد وحققوا معهم . ولم يتم إخلاء سبيل هؤلاء الذين جرى التحقيق معهم بل أبقوا مع الآخرين فى مكان منفصل ، من أجل أن يستطيع المحققون أن يتأكدوا من الذى جرى التحقيق معه ومن لا ، لأنه من المعروف أن لدى اليهود مشاكل فى تحديد هويات العرب طبقًا لأسمائهم وملامحهم . وكانت لدى شخص ما آنذاك فكرة لتوسيم أولئك الذى أجرى معهم تحقيق أولى عن طريق كتابة اسمهم وعلامة مميزة على اليد . وكان هذا يقصر جداً عملية تحديد الشخصية . وعلم هذا الأمر على الملأ وحدثت فضيحة إعلامية قصيرة ولكن شديدة : يكتبون للأشخاص على اليد ، كيف لم يشعروا بالفزع من علاقة ذلك بالكارثة النازية ؟ ! وبالنسبة للعرب كانت الكتابة على اليد شيئًا توقعوه فى مقابل " التكديرات " الأخرى وقضوا كل الليلة الباردة فى إنحناء والكتابة على اليد ، مثل خاتم التصديق ، المأمول من الموظف الحكومى ، كانت ستقصر عملية التحقيق وتؤدى إلى إخلاء سبيلهم ليعودوا إلى بيوتهم مبكراً ، ولكن عقدة الكارثة النازية لدى اليهود حالت دون ذلك .

وفى حالة أخرى ، وقف رجال حركة " راتس " ومجموعات أخرى من اليسار لمنع إقامة مكان منظم فى بيتح تكفا للعمال القادمين من المناطق الفلسطينية . أرادوا أن يقيموا لهم مظلة ودورات مياه وصنابير مياه فى داخل ساحة مسيجة ، لكى لا يستمرون فى انتظار من يقومون بتشغيلهم معرضون للشمس بجانب الطريق وبدون ظروف للصحة العامة . وقال المعارضون لذلك ، لن تكون لدينا حظائر وكتبوا على اللافتات " اليوم حظائر ، غداً معسكرات اعتقال " وأضافوا نجمة داود وفى داخلها كلمتى " عامل أجنبى " ، بحيث يذكر نجمة داود صفراء . وقد ذكّر هذا بالكارثة النازية وبقى العمال معرضون للشمس وبدون دورات مياه ؛ على الطريق . وبالمناسبة فإن " معسكرات اعتقال " ، إذا كنا نريد أن نسمى كل منشآت اعتقال من مبان وخيام مثل " معسكرات أنصار " ، كانت موجودة قبل ذلك بفترة طويلة وبعد ذلك أيضًا . " ميونخ " : إن قيام أعضاء كتلة حزب " موليدت " بفتح المظلات فى الكنيست ودرس ميونخ ، كما يعرضه " المعسكر القومى " يجب أن يعتبر رد فعل عقده : لقد اعتقد شخص ما ذات مرة أن العدو لن يشن حربًا ، ثم اتضح بعد ذلك أن نفس العدو قد خرق الاتفاقية وشن حربًا . ومنذ ذلك الوقت ، فى كل مرة يتحدثون فيها عن سلام مع عدو أيًا كان فإن هؤلاء الأشخاص يصابون بصدمة : هم يعرفون مسبقًا أن العدو سيخرق الإتفاق وسيشن

حربًا . فى الواقع ، لكى يكون هذا الخطر حقيقيًا - العدو مضطر لأن يكون قويًا بما فيه الكفاية ويجب على طرفنا أن يمنحه ثقة أكثر مما يستحق . وألا يهتم بضمانات قوة تمنعه من خرق الاتفاقية . وفى رأيى ، هذان الشرطان غير موجودين فى الاتفاق مع م.ت.ف ، فالفلسطينيون ضعفاء جداً فى مقابل إسرائيل ، وإسرائيل حذرة جداً وتنزع إلى الشك والارتياب وتهتم بوجود ضمانات لأمتها : ولكن من يعتقد غير ذلك أيضًا ، فهذا موضوع لنقاش حول ميزان القوى وحول ضمانات وضمانات ضد أخطار محتملة . ليس " درس ميونيخ" عن طريق مقارنة أوتوماتيكية لأى اتفاق مع عدو بالاتفاق مع هتلر .

إن الفلسطينيين هم عدو متعصب وقاسى لإسرائيل وكل يوم إضافى فى سياسة الضم يوفر لهم أسبابًا وجيهة للكراهية والرغبة فى الانتقام . من المؤكد أن هناك الكثير من الأشياء المشتركة فى كراهية العرب والنازيين لإسرائيل ، ولكنهم بشر فى الواقع وليس كما يراهم المتعصبون ، وهم ضعفاء ومحكومين ومرتبطون برغبتنا فى تركهم لحال سبيلهم . وعلى الرغم من أن المتعصبين لايحبون أن يعترفوا بذلك فى سياق تقديم تنازلات للعدو ، فإن الصهيونية " قد أخرجتنا نهائيًا من زاوية الضحية التقليدية للشعب اليهودى باعتباره أقلية مضطهدة .

إذا كان هناك درس حقيقى من اتفاقية ميونيخ ومن الخطأ المنسوب إلى تشيمبرلين ، فإنه لا يمكن الثقة فى المتعصبين ، مثل هؤلاء الذين تدل أنماط تعبيرهم وسلوكهم تجاه أعدائهم وأعدائهم المهزومين على لا إنسانية . ولم يتعلم " اليسار الصهيونى " درس ميونيخ بالنسبة للضعف الذى أظهره تجاه المتعصبين من بيننا الذين استغلوا ويواصلون استغلال موقفه "التهديد باستخدام القوة واستخدامها من كثرة ترديد هذه العبارة" . إن التعصب من أى جانب كان مبنيًا على رؤية الجانب الآخر كمصدر للشر والخطر فقط (" عرفات أفظع عدو بعد هتلر"، " حكومة " بودنيرات " ، " حكومة فيشى " إلخ) . وعلى ذلك يستوجب وسائل قتال وليس سلامًا .

إن السلام ينطوى على ثقة بأن العدو لن يسيىء استغلال التخلى عن استخدام القوة من جانبنا . ودرس ميونيخ الذى اقترحه هو ، أنه من المفيد بالنسبة للجميع أن يتعلموا كيف يحددون ويشخصون سمات التعصب اللاإنسانية (من السهل تحديد وتشخيص هذه السمات طبقًا للوحشية ، وعندما نحدد ونتبين أن لنا شأنًا مع متعصبين ، يجب أن نعرف أنه طالما أنهم

يشعرون بأنهم أقوياء ولايخشون من نتائج حرب ضدنا فسيحاربوننا . وقد أثبت تشيمبرلين أيضًا أنه ليس هناك احتمال فى أن يتوقف متعصبون منظمون فى أطر لديها قوة عن محاربتنا إذا قدمنا لهم تنازلات ، كما أنه ليس هناك احتمال فى أن يتأثروا من نظرتنا الطيبة إليهم . فإذا شعروا بأننا ضعفاء فإنهم سيفسرون بوادر حسن النية لمهاجمتنا بكل شدة. إن درس ميونيخ لا يلزم أبداً بأن نقدم تنازلات للعدو ، بل أن نهتم بأنه إذا كان العدو متعصبًا فى النظرة إلينا فإنه لن يستطيع ، على الرغم من أنه كان يريد ، استغلال التنازل لكى يهاجمنا . وفى المقابل وأيضًا بعد ذلك ، فى الطريق إلى اتفاق وفى ظروف سلام يمكن أن تتطور مسيرة مصالحة وإنسانية بيننا .

من بين الاقتباسات التى أوردتها (ص٣١٢) اقتباس رقم ٦ ، الاقتباس الذى يقول فيه أحد أعضاء حركة بيتار " لايجوز أن يأتى مستشار ألمانى فى أبواب المدينة المقدسة القدس ويدنسها " . يبدو كأوضح نمط " نازى " عنصرى ، " نقاء عرقى " حقيقة . ويمكن أن تكون هذه مجرد عنصرية خالصة وتعصبًا مطلق العنان لارادع له ، ولكن إذا كنا نريد أن ننسب رد الفعل هنا إلى الكارثة النازية يمكن أن نعتبره رد فعل عقدة . وإذا لم تكن هذه عنصرية ، فإن حقيقة أن شخصًا ما هو ألمانى ليست ذنبًا ولايجب استنكار أى إنسان بسبب أصله ، إلا إذا كنا نريد تنمية العقدة .

جـ - نعم فلنقارن : أنماط السلوك فى أرض الملعب المربع جلاد - ضحية - منقذ - مراقب متفرج :

إن حالة البشر المشتركين فى علاقات مثل تلك العلاقات التى كانت إبان الكارثة النازية، الجلاد - الضحية ، المنقذون القلائل والمراقبون الكثيرون المتفرجون ، هى حالة عالمية طالما توجد أقليات ولا إنسانية . والكارثة النازية هى موضوع لمقارنة أخلاقية وفى مثل هذه المقارنة يجب أن نقارن أنماط التفكير والتعبير الوثيقة الصلة بالموضوع لدى أفراد . ويمكن أن تكون الظروف السياسية وميزان القوى مختلفة تمامًا فى الوقت الذى يمكن ألا تتغير مطلقًا موضوعات مقارنتنا . فإذا جئنا لعقد مقارنة بين هؤلاء الذين عاشوا وعملوا فى الكارثة النازية وبيننا ، فإن الاستقامة تستوجب أن نحكم عليهم وعلى أعمالهم ونقارنهم بأنفسنا وبأعمالنا ، وفقًا لمكانهم ومكان كل واحد منا على نفس أرض الملعب المربع للتاريخ. ولقد سبق

أن ذكرت من قبل رد فعل الحاخام شلومو جورين ، الذى تولي منصب الحاخام الأكبر للجيش الإسرائيلى لسنوات كثيرة ، تجاه منظمة " بتسيليم " (رقم ٢) ، باعتباره رد فعل أثار لدىً أكبر تقزز واشمئزاز أخلاقى . وهذه نتيجة مقارنة أيضًا لقصة سدوم التناخية وأيضًا ألمانيا النازية . فلو كانت توجد فى ألمانيا النازية منظمة " بتسيليم " ، وكانت توثق وتنشر الهجمات ضد اليهود وما لحق بهم ، لكان رد فعل أنصار النازيين بنفس أنماط التعبير تجاهها مثلما رد الحاخام جورين تجاه " بتسيليم " : " إنها خائنة ولا تستحق أن تعتبر بشراً " .

إننى افترض أنه لا حاجة بالنسبة للقراء غير المصابين باللاإنسانية ، للإشارة إلى حقيقة أنه كلما كان مكان أشخاص لدينا أقرب إلى تلك الزاوية فى الملعب المربع الذى يقف فيه أيضًا النازيون ، أى فى زاوية الجلاد القومية التعصبية - العنصرية ، فإنهم يكثرون من مقارنة أنفسهم ، تلقائيًا ، بالضحية ، وأعدائنا بالنازيين ومعارضيهم بالخونة ، المتعاونين مع المحتلين، تشمبرلين وما شابه ذلك .

ولدى فى هذا السياق تأكيد واحد ، جوهرى جداً بالنسبة لى ، على أن هذا التعميم يجرى بالطريقة الصحيحة ، وأن مقارنة أنماط التجاهل ، التفكير والتعبير التى تدل على مكان الشخصيات الإنسانية على مقربة من إحدى زوايا الملعب المربع هى المقارنة الصحيحة ، المطلوبة . وقد حدث أحد تعارفاتى الجوهرية فى السنوات الأخيرة فى أعقاب مقال نشرته تحت عنوان " حليقو الرؤوس لدينا " .أوردت وحللت فيه مقاطع نشرت آنذاك فى صحيفة رحبعام زئيفى " موليدت " ، عن مظاهرة سلام اشتركت فيها أيضًا منظمات سلام من الخارج ، وقد تشابكت أيدى المشتركين فيها حول أسوار القدس القديمة . ومن هذه المقاطع على سبيل المثال :

" فى سبت مقدس ، الثامن من عيد الحانوكا ، من خلال استهانة لاذعة بيوم السبت المقدس لدى الشعب اليهودى ومن خلال سخرية حقيقية بعيد الحانوكا ، عيد إزاحة الظلام من أمام النور ، شهدنا المسرحية العبثية لتجمع أبناء الظلام محقرى إسرائيل ، المرضى ، ضعفاء العزيمة المتزلفون والمتذللون الذين فى داخلنا وفى وسطنا . فى تبجحهم وغرورهم وفى ارتباطهم مع خلاصة الوسخ والقذارة ، الشر والنجاسة الموجودة لدى الجوييم ، شهدنا تجمع الفيروسات السامة والجراثيم المسممة إلى درجة خراج صديدى . وأين ؟ حول أسوار القدس مدينتنا المقدسة، وكل هذا بتنظيم من " م . ت . ف . الآن " (على وزن سلام الآن) وبهدف معلن

للتشويش والصخب وللعمل على رؤوس الأشهاد وجهاراً على تحقير يوم السبت والسلام وقدسية الشعب اليهودى " (صحيفة موليدت ، العدد ١٧ مارس ١٩٩٠) .

وقد تعرفت فى أعقاب المقال الذى نشرته عن ذلك على يسرائيل إيلات ، الذى مر جسديًا بأبشع الفظائع التى مر بها إنسان فى الكارثة النازية ومعسكرات الموت ، ورحلات الموت ، كما واجه أيضًا سؤال ما الذى ساعده وأشخاصًا آخرين على الحفاظ على الإنسانية فى داخل كل هذه الأمور . وقال يسرائيل إيلات ، الذى كتب عن ذلك فى كتابه « لم يحدث شىء » - قال إنه ببساطة عرف كل أنماط التفكير والتعبير لدى حزب " موليدت " ، من هناك من المجر الفاشيستية ، وتذكر بالضبط أن هذا قد بدأ علي هذا النحو ، نفس الشخصيات ونفس الأسلوب الذى يدل على نفس العقلية . وهو يعرف إلى أين سيقود هذا إذا لم نُوقفهم . هذا نموذج لمقارنة صحيحة ووثيقة الصلة بالموضوع ، بحسب رأيى .

د - لا لمقارنة أعمال اليهود بأعمال النازيين فى النقاش السياسى :

هذه هى التوصية التى أوصى بها البروفيسور شاؤول فريدلندر لأسباب تتعلق الفاعلية وقدرة التأثير وإننى أنضم إليها . من المسموح والمرغوب فيه ، فى رأيى ، ودرس الكارثة النازية يلزم بذلك ، أن نقوم بتحليل مجالات العمى وأنماط التعبير والتفكير لدي إسرائيليين ونقارنها بأنماط تفكير وتعبير فاشيستية ونازية عندما تبدو على هذا النحو ، ولكن نقوم بهذا فى مناقشات بيننا من أجل أن نفحص أنفسنا ولأهداف بحثية وتعليمية تربوية . حيث يفضل فى المناقشات السياسية ، على الرغم من أنه يصعب أحيانًا ضبط النفس ، أن نقارن المتعصبين المتطرفين بـ " حليقو الرؤوس " المعاصرين ، ونشخص ونُعرف بالضبط ، ونسمى الأشياء بمسمياتها وندين أنماط تعبير عنصرية وفاشيستية فى عصرنا . فحكام الدول الذين هم حثالة الجنس البشرى كانوا ومايزالون أيضًا بعد النازية . ويمكن ، إذا شئنا ، أن نقارن المعنين بالأمر بأصدقائهم من الماضى الأقرب ، مثل الجنرال سالان الفرنسى فى الجزائر ، عيدى أمين «أوغندا» ، شاوشيسكو «رومانيا» نرويجا «بنما» بوتا « جنوب إفريقيا » أو بينوشيه «شيلى» . هذا يجب أن يكفى .

الافتراض ٣ : تضامن مع موقف رابين السلبى تجاه المستوطنين :

صرح رابين مع توقيع اتفاق أوسلو أولاً وقبل كل شىء " بدون المساس بالاستيطان " . والتقى قبل ذلك ، فى نوفمبر ١٩٩٢ ، مع ممثلى مجلس المستوطنات فى الضفة الغربية

وقطاع غزة الذين اشتكوا من أنه يسلبهم الشرعية . ودافع رابين عن نفسه قائلاً " هل تسمى بناء ١١٠٠ وحدة سكنية بأموال الدولة لا شرعية " . ولقد أراد رابين ، كما سبق أن استشهدنا بذلك ، أن يبدو فى صورة سيد الأمن وتبدو حكومته فى صورة " حكومة وسط " وليس حكومة " يسارية " ، الأمر الذى يدل بالطبع على عدم فهمه المطلق للتعصب الذى يتعامل معه . ولم تُفد حقيقة أنه حتى من سبقه فى تولى هذا المنصب وزير الدفاع فى حكومة اليمين ، موشيه أرنس ، لم ينجح فى أن يظهر فى صورة " وسط " فى نظر المستوطنين (فقد طاردته قوة منهم فى مظاهرة فى كل مكان ذهب إليه . وحاولوا فى مستوطنة كريات أربع منع طائرة الهليوكبتر التى كان يستقلها من الهبوط ، وكل هذا قبل أن يحلم شخص ما بالاعتراف بـ م . ت . ف وباتفاق أوسلو ، بل فقط من المحادثات حول الحكم الذاتى !) . ولم يفهم رابين أن كل من يقف فى طريقهم هو فى نظرهم عدو يجب إزاحته من الطريق وكلما حاول إرضاءهم لم يفده هذا بالطبع ، بأى شىء يذكر . وفى رد فورى على اتفاق أوسلو قال أحد حاخامات المستوطنين ، عضو الكنيست حنان بورات (من حزب المفدال) ، أن " تسليم غزة وأريحا لـ م . ت . ف هو عمل خيانة لأرض إسرائيل ولكل مسيرة العودة إلى صهيون ، ولا شرعية لعمل الخيانة " . هذه هى الحقيقة البسيطة فيما يتعلق بمنْ جعل مَنْ غير شرعى .

ما الذى يمكن أن يكون مفهوم أكثر تلقائيًا وأقل سياسية عنه من استنكار أعمال قتل عن عمد وسبق إصرار لأبرياء ؟ ولكن بعد قتل ثلاثة فلسطينيين من تركوميا بالقرب من الخليل بأيدى مستوطنين " على خلفية قومية " كعملية إنتقامية ، أعلن مجلس المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية وقطاع غزة (صحيفة حداشوت ١٩٩٣/١١/١) : " الذى يجب أن يسأل نفسه كيف حدث هذا الأمر هو رئيس الحكومة ، الذى يضغط علينا ويستبعدنا . وفى الواقع يوحى للمستوطنين بأن حياتهم مباحة " . وكان رد رابين فى التلفزيون اعتذاريًا تبريريًا فقد دافع عن نفسه إزاء الاتهامات الموجهة إلى قوات الأمن ! ولم يشتمل رده على أى بعد أخلاقى، أو أى استنكار لهؤلاء الذين يبدون تفهمًا لأعمال إرهاب من جانب يهود ويوجهون إليه الاتهامات . ولم يُماثل رده حتى رد من سبقه فى منصبه ، موشيه أرنس ، الذى قال عن مثل هذا الحادث فى مقابلة إذاعية :

" لا يمكننى أن أغفر السلوك المستهتر وغير القانونى وغير الأخلاقى للمستوطنين الذين أحرقوا سيارات كثيرة بعد مقتل حاييم مزراحى ... هذا مساس وضرر بأبرياء " .

الإيضاح القادم مطلوب ربما لمؤرخ المستقبل ، فى حالة ما إذا كان هناك من ابتعد أو ابتعدت عن فهم مدلول تعبيرات بالعبرية الصبارية المحكية ومن شأنهم أن يفشلوا فى استنتاج

أن رابين قال شيئًا ما رهيبًا ومخيفًا عن المستوطنين ، وجردهم من الشرعية وأظهر كراهيته لهم بأن أطلق عليهم تعبير " بروبلوريم - مراوح دفع " هذا الإيضاح مطلوب ، كما يبدو ، أيضًا لكثيرين من الإسرائيليين الذين يعيشون حاليًا ، وليس لديهم إدراك حاد للغباء والعمى ولتأثير العدوى السريعة للحماقات من النوع المسموم التى يكررونها مرات كثيرة فى وسائل الإعلام .

وعلى ذلك فلكى نسد هذه الثغرة المحتملة فى الاستنتاج بأن رابين نظر بتعاطف كبير ، بفهم ، بأقصى قدر من القلق ، وبمدى كبير جداً من نكران الذات ورغبة فى إرضاء أولئك الذين أسماهم " مستوطنو الضفة الغربية وقطاع غزة " - فإننى أوضح وأكد : البروبلور هو أهم جزء فى الطائرة المروحية ، الجزء المحرك والدافع . وقد قيل هذا التعبير عن شخص منا ، شخص ما يستهلك الكثير من الطاقة بدون نتيجة نهائية ، يدور فى المكان . والمفهوم القريب والمترادف هو ڤانتيلتور - مروحة تهوية " ولكن البروبلور أكثر احترامًا . وليس لهذا المفهوم أية دلالة عداء ، بل فقط استخفاف . ومع هذا فإن أشخاصًا يعتبرون محترمين ومثقفين ويعرضون أيضًا اللغة العبرية المحكية ، مثل واحد من كتاب المقالات الرئيسيين فى صحيفة " هارتس " حاليًا ، يكررون فكرة أن رابين أطلق على المستوطنين تسمية " بروبلوريم " وكأنه قد أضر بهم جداً وجرح مشارهم وحدد عداءه لهم . ولست أعلق أملاً علي أنه بكتابة هذا الكلام هنا قد وضعت حداً لتكرار آلى لهذه الإهانة القبيحة ، ولكننى حاولت . وبهذه المناسبة ، فإن تعبير " ألا يتكاثروا هنا " الذى قاله رابين عن الفلسطينيين من المناطق فى خلال شرحه لسياسة الفصل التى نادى بها ، ليس له أى مدلول جارح للمشاعر أو مهين مثل مدلول تعبير " زواحف " ، مدلول حيوانى " ، مثلما اعتقد أعضاء منتدى المثقفين العرب فى إسرائيل فى بيانهم ، وإننى افترض أن خطأهم كان مرتبطًا بحقيقة أنه على الرغم من معرفتهم الكاملة للغة العبرية ، لم يذكروا العبارة التى وردت فى التوراة وفى حكاية عيد الفصح والتى جاء فيها " وأما بنو إسرائيل أثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيراً جداً .

وكذلك لم يخدموا فى الخدمة الاحتياطية ولم يسمعوا عبارات مثل " كيف كان " - "رائع"، وقعنا على عتاد ونسونا ، ثلاثة أيام تكاثرنا فى القاعدة ومارسنا لعبة الزهر "الشيش بيش " "أى تسكع هذا " .

وكان لدى كثيرين فى " اليسار الصهيونى " أمل فى أنه مع تولى المعراخ الحكم ستزيل الحكومة مستوطنات . على الأقل إذا كان هناك أى مدلول ما فى نظرة للأمل فى أن الدولة

الفلسطينية ستقوم ، أو أنه سيكون هناك سلام ، أو أن المستوطنات هي عقبة في طريق السلام، فمن المعقول أنه كان لدى كثيرين من بيننا توقع واضح بأن رابين سيزيل مستوطنات، خاصة وأن رابين نفسه ، عندما كان في المعارضة قال ذات مرة :

" حكومة الليكود تسخر منا جميعًا . فمبعوثوها يعرضون في واشنطون ، تطلع إلي السلام، ولكن نفس الحكومة تقضي هنا على أي احتمال للسلام ، وحتى للحكم الذاتي . ذلك أن ٢٠ - ٢٥ وحدة سكنية التي تم بناؤها والتي يجري بناؤها في الأيام الحالية فوق قمة كل جبل وتحت كل شجرة باسقة في يهودا والسامرة (الضفة الغربية وقطاع غزة) هي أسمنت مسلح فوق قبر الحكم الذاتي " (صحيفة يديعوت أحرونوت ١٩٩٢/١/١٠) .

ولم يكن لدى المستوطنين ، في الواقع ، شك في أن رابين سيحاول إزالة مستوطنات ، وقد استعدوا بأقصى الجدية لإحباط هذا الاحتمال . ولكن ، بما أن هذا الفصل يتحدث عن أوهام ، ينبغي أن نشير إلى أنه على الرغم من أن رابين قال إن حكومة الليكود " تسخر منا جميعًا " وتدفن احتمالات السلام تحت أسمنت مسلح المستوطنات ، فإن حزبي مبام وراتس في ذلك الوقت أعلنا أنهما لن يصوتوا ضد حكومة اليمين " طالما استمرت مسيرة السلام.."!.

وفي مارس ١٩٩٨ ، في فترة حكومة رابين ، اقترح يوسي ساريد تسليم قطاع غزة لدولة فلسطينية بزعامة م.ت.ف وحتى في الليكود كان هناك تأييد لأن تخلي إسرائيل من جانب واحد قطاع غزة ، وأعرب موشيه أرنس (من الليكود) عن تأييده للفكرة بعد أن ترك منصب وزير الدفاع ، وماذا فعل رابين بعد انتخابه ؟ وماذا كانت رسالة حكومة رابين للجمهور عن نظرتها إلى المستوطنين ؟ قام وزير زراعته ، رجل الكيبوتس يعقوب تسور ، بزيارة لتشجيع مستوطني جوش قطيف ووعد بتزويد مستوطني قطاع غزة بـ ٢٠٠ من العمال الأجانب وقام وزير السياحة ، عوزي برعام ، الذي يعتبر من الحمائم ، بزيارة شاطيء مستوطنة دقاليم ووعد بإقامة متنزه . كما أن وزيرة العمل والرفاه الاجتماعي ، أورانامير ، جاءت إلى المستوطنات في قطاع غزة للاهتمام برفاه السكان (اليهود) . وكان وزير الإسكان بنيامين بن إليعيزر ، قائد الضفة الغربية سابقًا ، الذي استمر في بناء مستوطنات بوتيرة لم تكن حتى لدى المستوطنين كلمة سيئة عنه ، وفي نفس الوقت بالضبط ، مارس ١٩٩٤ ، تشجع حتى بن إليعيزر هذا واقترح إخلاء المستوطنة اليهودية من الخليل ، في أعقاب المذبحة التي ارتكبها باروخ جولدشتاين ، لأن الاحتمال الآخر بدا له فقط " أن توضع عليهم حراسة ملازمة لهم

لتأمينهم ، بحجم لواء " . وماذا عن رابين ؟ ففى بيان سياسى أدلى به فى الكنيست عن مذبحة جولدشتاين ، الذى أسماه " الكريه - المقيت " و " الحقير " قال : " إن عملية القتل الشنيعة لن تزحزحنا عن مواقفنا المبدئية والتى تتعلق بأمن إسرائيل وأمن مواطنيها ، بما فى ذلك المستوطنين اليهود فى يهودا وشومرون (الضفة الغربية وقطاع غزة) (هارتس ، عيد البوريم ١٩٩٤) .

فلتتذكروا ، من فضلكم ، أن رابين قتل بعد ثلاث سنوات وربع من بداية ولايته ، بدون أن يطرح موضوع إخلاء مستوطنات مطلقًا على جدول أعمال الحكومة وبدون أن تجرى إزالة ولا مستوطنة واحدة ، ولاحتى جيب نيتساريم المغروز فى قطاع غزة . والافتراض بأن عبادة رابين فى " اليسار الصهيونى " مرتبطة بموقفه كمعارض للاستيطان والمستوطنين لا يُعد مطروحًا أيضًا إذًا على بساط البحث .

الافتراض ٤ - تقارب إيديولوجى فى النضال من أجل أرض إسرائيل :

بما أنه قد برز فى " عبادة " رابين دور الشباب (" جيل كامل يطلب السلام " ، والذى قام فى أعقاب مقتل رابين تقريبًا كحركة تحمل اسم رابين) . ولنفترض أن هؤلاء الشباب نسوا ولم ينظروا إلى السنتين الأوليين من حكم رابين ، حتى اتفاق أوسلو ، وأن أحاسيسهم بالنسبة إليه كانت متطابقة مع أوسلو ، ومع الشخص الذى شق الطريق لمحادثات مباشرة مع ف . ت . ف

ولقد حدد أول تصريح لرابين ، الذى استوعبه الجمهور بعد أن عُلم باتفاق أوسلو - حدد موقفه ونظرته ونظرة إسرائيل " والتى لم تتغير حتى اليوم " :

خشية شديدة ، خوف ، وكذلك القول " فى كل أية مرحلة نستطيع أن نوقف المسيرة " وكذلك " بدون المساس بالاستيطان " . ثم جاء فوراً بعد ذلك الإيضاح بأن رابين يأمل فى أن يكون الكيان الفلسطينى " أقل من دولة " وكرر رابين أيضًا بعد أوسلو عبارات حزب العمل المعروفة " إننى أؤمن بحق الشعب اليهودى فى كل أرض إسرائيل ، ولكننا قلنا إننا لانريد ضم مليونين عربى وأن نصبح دولة ثنائية القومية " .. إن تسمية " دولة ثنائية القومية " لدولة ضم هو أشد تعبير لذاعة عن تنكر لواقع القمع ، كما هو معروف . كل هذه الأقوال أوحت بشكل واضح جداً بأنه لم يحدث تحول " إيديولوجى " . ولم تكن هناك أية مظاهر إنسانية ، وأى تنفس للصعداء من احتمال التخلص من الاحتلال بالقوة . ولا أى تعبير عن الثقة فى تجدد

أخلاقى أو محاولة لبث روح مصالحة وأمل . كل وقفة رابين كانت موجهة لكى تلائم هؤلاء الذين قالوا إنه يرتكب حماقة وعملاً ينطوى على عدم مسئولية ، أو كما قالوا " خيانة " وانتحار قومى ، وقد طمأنهم قائلاً : ليس هذا مخيفًا إلى هذه الدرجة ، كل الأبقار المقدسة بقيت على قيد الحياة .

وقد عرُض رابين نفسه اتفاق أوسلو على أنه تغير تكتيكى وليس كتحول أوحساب للنفس أو تغيير فى نهج . فقد أوضح أنه مع م.ت.ف. فقط يمكن الاتفاق على شىء ما فى المناطق (الفلسطينية) . إنه لم يفعل أى تغيير " إيديولوجى " مثل أن يوضح أن إسرائيل قوية وليس هناك ما تخاف منه . وبالطريقة التى عرض بها رابين اتفاق أوسلو ونظر إلى أعمال الإرهاب التى عزاها خصومه والجمهور إلى الاتفاق ، فأنه فى حقيقة الأمر ، حجم خوفهم ومعارضتهم . وكما سبق أن أشرت ، اعتقد هو نفسه غير ذلك وقال ذات مرة " ليس هناك كذب أكبر من الادعاء بأن الضحايا هم ضحايا السلام " مثلما يدعى اليمين المتطرف ، وذلك لأن هؤلاء هم ضحايا حكم شعب آخر ينتفض ضد حكمنا " . (صحيفة دافار ١٩٩٤/٥/٢٢) . ولكن هذا لم يتحول إلى خط مُوجه للإعلام ، ولم يبذل رابين أو حزبه أى جهد لكى يُستوعب هذا فى وعى الجمهور باعتباره موقف الحكومة . ويجب أن تشير إلى أنه فى هذه الحالة أيضًا كان رابين سخيًا ورقيقًا مع اليمين كله ، من حيث أنه قال أن هذا الكذب هو من نصيب اليمين المتطرف. إن الكذب الكبير بأن ضحايا الإرهاب هم ضحايا السلام وتجاهل أنهم ضحايا حكمنا لشعب آخر ، أصبحا آنذاك من نصيب الجمهور كله ، إذا حكمنا على الأمور طبقًا لانعكاس الموضوع فى وسائل الإعلام . فحتى رئيس الدولة عيزر فايتسمان ، الذى اضطلع بدور زعيم سلام إيجابى ، متفائل ، يبعث على الثقة والأمل ، مر بانقلاب فى النظرة إلى مسيرة السلام مع م.ت.ف . فقد انضم إلى اليمين وأعلن للجمهور رأيه القائل بأن الهجمات الإرهابية تستوجب وقف مسيرة السلام والتفكير ، لأن هذا لايمكن أن يستمر على هذا النحو.

وادعى رابين أنه لا يؤمن بالإعلام ، هذا قول جلى : إنسان يقول إنه لايؤمن بالإعلام ، بينما هو نفسه غير مؤمن أبداً بالفكرة التى يجب شرحها وتوضيحها . إن ما حدث فى الواقع هو أن منظومة التخويف من الاتفاق أوفت بمتطلبات المتعصبين والذين يميلون إلى المفهوم التعصبى . وإن من يعرف خريطة مفاهيمهم ، لا إنسانية يعرف أنه بدون خوف العدو ليس هناك مطلقًا وجود ولا تبرير لكل وقوفهم فى مواجهة أعدائهم وخصومهم . إن خوفهم الحقيقى هو من إلغاء الخوف كعامل يستوجب ويبرر وجهة نظرهم . فلتتصوروا أن أغلبية هذا الشعب

تدرك ذات يوم أننا أقوياء جداً بالنسبة لـ " أعداؤنا " ، وأنه ليس هناك ما نخشاه من " إبادة" أو حتى من حرب جدية . لقد انتهينا من هذا الموضوع ... كان هذا بذابح البقرة المقدسة التطبيقية والمنتشرة جداً ، الاعتقاد بـ " خطر على وجودنا ذاته " ، الأساس لكل كياننا القومي ، بما فى ذلك الضم ، بالطبع .

ولقد اهتم رابين ، بغير إدراك ، بإبعاد هذا " الخطر " عن أنفسنا ، ولم أجد فى أية وثيقة الأمر بارز أكثر مما وجدته فى تهنئة لقوات الأمن بمناسبة رأس السنة العبرية ، فوراً بعد توقيع الاتفاق فى واشنطون : " أنتم الحاجز المانع الوحيد الذى يقف بيننا وبين إبادة ... " على الرغم من أنه قال أنه ضد الإعلام فإن هذا كان إعلامًا ، بدون شك ، كلام تشجيع وعزاء وسلوى لـ "الأنا " المصاب للشعب الذى اعتاد أن " يدافع عن نفسه " ضد " قتلة يهود " فى خطر "إبادة".. ولكن كانت هذه علاقات عامة سيئة جداً للاتفاق ولـ " سلام " إذا كان قائده قد عبر عن اعتقاده القوى بالإبادة التى تتربص وراء " الحاجز والمانع الوحيد " الذى هو قوتنا. كان هذا خط " إعلام " غير موجه ولكن مُحبط ، إذا كان رابين قد أراد أن يغير الإيديولوجية التى أعطت التبرير لاستمرار احتفاظنا بالمناطق (الفلسطينية). وعلى ذلك فإن احتمال أن رابين قد تحول ليصبح شخصية قدوة لـ " اليسار الصهيونى " بسبب قرب إيديولوجى" ، مرفوض هو أيضًا .

افتراض ٥ : علاج بالصدمة - مقتل رابين كرمز للتحول الذى حدث فى " اليسار الصهيونى" :

لم ألاحظ أى تحول ولم أتلق أنباء عن شخص ما ادعى أنه قد حدث تحول ما فى "اليسار الصهيونى " فى أعقاب الهزة التى أحدثها مقتل رابين . وهذا الافتراض ، فى رأيى لايستحق مطلقًا تناول جدى . فقد أخفى حزب العمل وميرتس مقتل رابين بحملة إنتخابية بعد فترة قريبة من القتل وبالطبع لم يحدث أي تحول ، وخسر بيرس الانتخابات (يجب أن نعترف : رابين خسر على الرغم من أنه قُتل) ، وفاز نتنياهو واليمين على الرغم من أنهم حرضوا ضده (أى ضد رابين) وبدون أن يضطروا إلى خوض معركة الانتخابات مع هذه الوصمة . ولم تكن هناك لهجة جديدة فى مواجهة معارضى الضم بعد مقتل رابين فى نظرتهم إلى المستوطنين ، وإلى الهجمات ضد الفلسطينين وإلى الأحزاب الدينية ، أو إلى اليمين . والشيء الوحيد الذى تغير ، كما يبدو لى هذا بصورة هستيرية ، هو حراسة رجال جهاز الأمن العام " الشباك "

لرئيس الحكومة واستعداد سياسيون للادعاء بأن التحريض من شأنه أن يؤدى إلى قتل . والافتراض بأن عبادة رابين هى محاولة لاستغلال حادث قتل رابين لإحداث تحول فى "اليسار الصهيونى " مرفوض لعدم وجود أى تحول فى " اليسار الصهيونى " .

٦ - افتراض التقصير : رابين بصفته منقذاً لروح " اليسار الصهيونى " :

بما أنه لم يتم العثور على علاقة بين فعل رابين أو فعل " اليسار الصهيونى " بعد مقتل رابين وبين تحويل رابين إلى شخصية قدوة " عبادية " بقى خيار التقصير الذى يقول بأن الظاهرة ليست مرتبطة مطلقًا برابين الحقيقى ، بل بالدور الذى تؤديه شخصيته فى العالم الداخلى لمؤيديه فى أوساط " اليسار الصهيونى " . ولكى نفسر ظاهرة لايوجد لها تفسير فى الواقع الخارجى يجب أن نوجه النظرة وأدوات التحليل إلى الداخل .

إن داخلية اليسار الصهيونى هى داخلية أشخاص أثبت الواقع (الاستيطان والضم) ، خطأهم وأن كل ما خافوا وحذروا منه قد تحقق ، وأنهم أنفسهم لم يفعلوا شيئًا لكى يوقفوه ، بل انزلقوا معه من خلال تكيُّف كامل ، ابتسامة ارتياح ، أمل سلبى فى أن يحدث تحول ، والتغاضى عن الواقع (" يوجد فقط حل سياسى " ، الرواية العلمانية لـ " ليس لدينا من نعتمد عليه سوى الله فقط ") . ،فقدوا فى هذه المسيرة الرغبة الحقيقية فى أن يعارضوا ، والقدرة والأدوات الفكرية والتنظيمية المطلوبة من أجل ذلك ، وحتى معاييرهم الواقعية والأخلاقية ، وطبقًا لأية نظرية سيكولوجية وثيقة الصلة بالموضوع ، فقد أشخاص فى مثل هذا الواقع الكثير أيضًا من كرامتهم واحترامهم الذاتى ، ولذلك فإنهم يحتاجون لمنظومة إيديولوجية لمبررات (عقلنة) تدعم قيمتهم الذاتية وتنفى الواقع غير المطرى والصعب جداً من ناحيتهم . والافتراض بأن عبادة رابين هى نتيجة هذه الحاجة النفسية هو افتراض مقبول جداً ، لأن منظومة المعتقدات المرتبطة به هى حل إيديولوجى لمشاكلهم ، علاج ملائم جيداً للنفس .

من المعروف والمألوف أن الأشخاص الذين فشلوا يخافون ، يخافون جداً من أن يروا صورتهم الحقيقية فى المرآة وأن يعترفوا بأنهم فشلوا وأنه يجب عليهم أن يغيروا رأيهم فى أنفسهم وأن يتغيروا . وها هم ، نفس الأشخاص يحظون بشخصية تضامن تحولت إلى ضحية وإلى منقذ خاص بهم . وهم يستغلون مقتل رابين لكى يحصلوا على مصادقة على حكمتهم وفطنتهم السياسية وكذلك على سلوكهم الأخلاقى . هم - محبو رابين الذين يتضامنون مع مصيره بصفته ضحية - يحظون بتصحيح عام . وحتى وإن كنت لم أعش براحة ولم أتأثر بشكل خاص من أى شىء طوال سنوات الاستيطان والضم ، فإننى استطيع أن أحكى لحفيدى بفخر أننى

كنت فى المهرجان وسمعت رابين ينشد " أنشودة السلام " قبل مقتله بدقائق . أو شاهدت ذلك فى التليفزيون . إن اعتقادى وتوقعى الطفولى بأن السلام قادم لا محالة أنقذ بعد حدوث ما حدث : يمكننى أن اعتقد أنه لولا مقتل رابين لكان السلام قد تحقق لنا . كما أن هناك أيضًا من أنقذ عدم العمل والسلبية من جانبى : لقد أيدت رابين رجل السلام وهذا ينعكس علىَّ ، ويعطينى إمكانية أن أتقاسم معه الشجاعة والبطولة ، وفى التضحية التى قدمها ...

والاختبار العلمى لهذا الافتراض هو فى إثبات تجريبى وحيث أن لنا شأنًا مع الافتراض عن عالمنا الداخلى ، الذى لاتوجد فيه إمكانية لرؤية أشياء بصورة تجريبية ، فإن اختباره هو فى القدرة على تفسير كل الظواهر الوثيقة الصلة بالموضوع بدون التهرب من أى معادلة محتملة، وكلما فرغت من جميع الجوانب ، يبدو لى أن هذا الافتراض يجتاز جيداً مثل هذا الاختبار .

إن كل عبادة فى الواقع دعم للنفس ، ولكن دعم يمنعها من أن تتغير . فلكى نبقى كمجتمع ديمقراطى وعادل وأن نتراجع عن سياسة القمع فى المناطق (الفلسطينية) يجب أن نتغير . لذلك فإننى أمل ، فى أن أكون بتفسيرى عبادة رابين قد ساهمت بشىء ما فى إزالة الأوهام التى تحول دون أن نرى الواقع وأنفسنا ، وبذلك ساهمت بشىء ما لإمكانية إحداث تغيير .

إذاً لماذا حدث هذا فى الحقيقة ؟ - خاتمة :

إجمالى الوضع السياسى

١٩٨٧ :

وسيرتاح المنسيون الغائبون عن الذاكرة ويتعافى الأحياء .

وستبدل البلاد صيفها وشتاءها

وتمتلىء بصوت الحداد وأغانى الأعراس .

ولكن إلى أين نذهب بالخزى والعار .

« الشاعر : ناتان الترمان »

لدى إحساس سيىء : إننى أخشى أن يستمر الوضع القائم بالضبط كما هو عشر أو عشرين سنة أخرى . ويوجد لذلك ضمانة واحدة ممتازة ، وهى - الحماقة الإنسانية والرغبة فى رؤية الكارثة التى تقترب . ولكنني واثق أيضًا من أنه ستحين اللحظة التى نكون فيها مرغمين على عمل شىء ما ويحتمل أن وضعنا حينذاك يكون أدنى من الأدنى ... فمنذ عشرين سنة نعيش فى وضع زائف ومدحوض ، معلق على أوهام ، على توازن واهن بين كراهيات ومخاوف ، فى صحراء عاطفية وإدراكية ، والزمن الذى يمر يتحول شيئًا فشيئًا إلى كيان منفصل ، ثقيل ، معلق فوقنا كطبقة ضبابية صفراء ، خانقة . ومن هذه الناحية لايوجد مثل وضع الاحتلال كتحد شخصى كبير ومفترق طرق إنسانى يطالبك بعمل أو موقف ".
«دافيد جروسمان - الزمن الأصفر » .

١٩٩٨ :

... دولة كاملة انحرفت عن سواء السبيل إلى داخل " جيب فى الزمن " تدور فى داخله بصورة ملتوية ، باللف والدوران ، وكأنه قد حكم عليها أن تعيد هناك تمثيل بعض المحن والمعضلات التى سببها لها تاريخها المأساوى . وربما لهذا السبب ، وبالذات فى الوقت الذى توجد فيه إسرائيل فى ذروة قوتها العسكرية ، يجعل الإسرائيليون من أنفسهم مجدداً مسلوبى القدرة على العمل ، لا خير فيهم ، وفى الحقيقة - ضحية (إلا إنه هذه المرة - ضحية أنفسهم") .

بسلبية تثير المعارضة آثمة ، بتسبب ستة ملايين شخص فى تفسخ وعيهم وقوة إرادتهم ، وإحساسهم للحكم على الأمور ، والقدرة على التفريق بين الخير والشر . وبشكل خاص - الغريزة السليمة التى تهزهم وتوقظهم وتذكرهم بما هى أهدافهم ومتطلباتهم الحقيقية العميقة كشعب وكمجتمع " « دافيد جروسمان : " حياة من تلك الحياة ، فلتذهب إلى الجحيم " » (يديعوت أحرونوت ١٩٩٨/٩/٢٠) .

لقد سردت فى هذا الباب تفاصيل المسارات الخارجية والأجهزة الداخلية التى جعلت "اليسار الصهيونى " خلافًا لمخاوفه الرهيبة ووعوده لنفسه ، يسلم بسياسة الضم حتى وإن لم يعترف بوجودها . ولدى الآن كابوس بسيط ، من شأن أحد من القراء ، مثل ذلك الشخص الذى أخذ غفوة فى المحاضرة ،.أن يستيقظ فى نهايتها ويطرح السؤال الساحق : " إذاً فلتقل لنا ، باختصار فى جملة واحدة ، لماذا حدث هذا فى الحقيقة ؟! " إذا كان هناك شىء ما

اعتقد أنه لا يجوز أن يحدث لكل إنسان متزن وعقلاني ، يبحث عن الإجابة المنذرة ، بين الإجابات النظرية التعميمية ، وأن يتوقع من شخص ما أن يشرح هذا كله لكي يستطيع أن يعود ويغفو في هدوء . فالنهج العلمي للسببية ، مثل السبب الجوهري في الواقع الملموس، على الأرض ، في جسم الإنسان نفسه . هذا ما حاولت أن أفعله هنا . وإنني أعرف بأقصى دقة لماذا حدث لي هذا في الحقيقة - أن محاولاتي لوقف الضم قد فشلت . وعليه فإن إجابتي على السؤال التعميمي هي : أن يسأل كل واحد أولاً وقبل كل شيء نفسه ، بأدنى مستوى تبسيط ممكن ، لماذا حدث له أو لها هذا ولكل معارفهم وأصحابهم ، وكيف ، وهل يوجد مذنبون وإذا كان هناك مثل هؤلاء فمن هم ولماذا ...إلخ .

إن من يسأل نفسه أولاً وقبل كل شيء ، ربما يجد دعمًا مثلما وجدت أنا في بعض تعميمات بمستوى أدنى وها هو ما اقترحه أنا هنا في الإجمال لاستكمال الصورة . وفي تقديري ، هذه الأفكار غير موجودة في خريطة مفاهيمنا عن أنفسنا .

أولاً : تلك الكومة من الرفاق الذين يجلسون على النجيل والتي كانت يجب أن توقف الضم ، هي كومة من الممتثلين للعرف والتقاليد . وقلائل جداً من يفكرون في " اليسار الصهيوني " في أن الامتثال للعرف والتقاليد بصفته دافعًا ومحركًا لسلوكنا السياسي .

ثانيا ، لا توجد في ثقافتنا وتعليمنا مفاهيم عن البطولة والتضحية والشجاعة في النضال ضد الشر ليست موجهة في أفاق حرب ضد " أعدائنا " وليست منظمة في أطر عسكرية .

ثالثًا ، (وليعذرني كل هواة " جيمعنا مذنبون ") هناك مذنبون في أن اليسار الصهيوني لم يخرج بنتيجة أكثر احترامًا من النضال ضد الضم ، وكلما كانت إمكانيات أحد من " اليسار الصهيوني " أكبر فإنه هو أو هي مذنب أكبر ويتحمل مسئولية أكبر ، فيوسي ساريد لو أنه أخذ كلامه هو نفسه بجدية لكان يجب عليه أن يشعر بأنه مذنب للغاية ، لأنه كان لديه ادعاء بأنه قادر علي تغيير الوضع ، الذى سبب له بحسب كلامه ، " صدمة " وكان هذا فيما يتعلق بقسوة وسوء معاملة جنود إسرائيل لسكان المناطق (الفلسطينية) وقد أطلق يوسى ساريد صرخات غضب وتأنيب أخلاقي هائل في مقال تحت عنوان " على ماذا أرفع دعوى ضد رابين " (هارتس ١٧/٥/١٩٩٠) :

" إنني أرقد ليلاً وأفكار تفزعني وإنني كمجنون : ربما كان يمكن أن يكون إبني أيضًا هناك، في تلك السرية في تلك الليلة . وفي أفكاري أناديه ويتملكني الرعب وأسأله : أنت

أيضًا يا إبنى ؟ وهو صامت ، يدير وجهه عني ويتوجه للذهاب . فأبكى حزنًا وحداداً . بسبب هذا الكابوس أرفع دعوى ضد رابين .

(أية عبرية !) رابين ، كما هو معروف نال العقاب عن دوره في الأحداث على الرغم من أنه لم يكن " يسار صهيونى " ولكن أحد النشيطات فى اليسار ، رونى طالمور ، تأثرت جداً ، مثلى ، من اعترافات يوسي ساريد ، وكتبت إليه بأنه طبقًا لمنطق كلامه ومشاعره عليه أن يشجع إبنه والآخرين على أن يرفضوا الخدمة العسكرية فى المناطق (الفلسطينية) وقد رد عليها يوسى ساريد فى نفس المكان بعد نحو شهر لاحقًا ، فى مقال تحت عنوان " تحذير أخير":

" نحن السد الأخير قبل أن يجرف رفض الخدمة العسكرية البلاد . عندما ندعو نحن إلى رفض الخدمة ، يمكن أن يستجيب لدعوتنا آلاف . وجيش الدفاع الإسرائيلى سيهتز وقد ينهار أيضًا ... " .

هكذا كان ادعاؤه ، وفي رأيى كان ادعاء فارغًا . فلم يكن هناك أى خطر فى أن يجرف الرفض البلاد " ، ليس لدينا . وعلاوة على هذا ، لم تكن لدى حركة يوسى ساريد أية صعوبة فى أن تدعو إلى رفض محسوب وأن نجند ، لنفترض ٣٠٠ شخصًا لـ " وحدات خاصة " من الرافضين (فالعقل الصهيونى اليسارى يفهم قيمة هذا المفهوم " التجنيد لوحدات خاصة "). فهذه الوحدة الخاصة كانت تقاتل من أجل لب ونظام حكم هذه الدولة ، كوسيلة ضغط سياسى ولكى لا يؤدى الأمر إلى " انهيار جيش الدفاع الإسرائيلى " .

إن أكثر شخص مذنب فى نظرى ، هو زعيم حزب مبام " وهاشومير هاتسعير " بطل صباى يعقوب حزان ، الذى قدم نفسه على امتداد كل سيرته ومجرى حياته الطويلة فى دور " الزعيم التاريخى " - بصفته داعية إنسانى . نفس الشخص النظيف لدى الرأى العام الإسرائيلى ، لم ينطق بكلمة معارضة أخلاقية للاستيطان وللضم ولم تكن لدى حزان ، خلافًا ليوسى ساريد ، معارضة داخلية فى حركته ، بل كانت له شعبية وقبول - كريزما وصلاحية أخلاقية هائلة . وعلى نقيض شديد من يوسى ساريد ، كانت لديه قوى ، قوى كثيرة منظمة فى الكيبوتسيم ، لم تكن تتردد فى السير وراءه .

رابعًا ، فيما يلى جزء فقط من الأسباب العامة التى أدت إلى أن المثقفين و الذين يميلون فى معظمهم إلى " اليسار الصهيونى - أساتذة جامعات وفنانون وأدباء وأشخاص فى مراكز

تأثير ثقافي - لم يؤثروا أكثر وبشكل آخر على مسار التاريخ في الفترة موضوع البحث. ولهذه التعميمات ثقل بديهيات وحقائق مقررة تدعمت ، وقد وصلت إليها من خلال محاولة لفهم الصمود غير الفعال وغير الناجح لطبقة الزعامة في " اليسار الصهيوني " ، وها قد تذكرت أن أحد مُعلمي الروحيين العظماء ، وهو الإنسان الذي يمثل عمق تفكيره ، ونقاء سريرته وشجاعته السياسية ، يمثل قدوة في نظري ، قد اكتشف نفس الأمور في واقع بلاد أخرى وفي زمن آخر . وكان لهذا الشخص ، وهو رومان رولان تأثير روحي كبير على المثقفين في البلاد في الأجيال السابقة . وإنني اعتقد أن فقدان التأثير وأثره وأثر أشخاص مثله ساهما في ضعف " اليسار الصهيوني " والواقع الذي يصفه كتاب " جان كريستوف " هي فرنسا ، باريس في بداية القرن العشرين ، وأورد هنا بعض مقاطع آملاً في أن تُساهم بشيء ما في فهمنا الذاتي . والترجمة هنا هي ترجمتي :

" كان يبدو كما لو أن المهم بالنسبة إليهم هو الحفاظ على طهارة ونقاء النار الداخلية التي اشتعلت أكثر منه تدفئة الآخرين بها . وكأنه لم يكن يهمهم أن تؤثر أفكارهم وتحدث تغييراً ، بل فقط أن يجدوا أنفسهم منبراً يستطيعون أن يقفوا عليه من وراءهم " ..

" وقد ألقى بعضهم في كتاباتهم أفكاراً فوضوية هدامة ربما تفيد شخصًا ما في المستقبل البعيد . ولكن في هذه الأثناء خربوا الروح . وكتب آخرون مسرحيات ساخرة ، لاذعة ، مجردة من أية أوهام ، تبعث على الاكتئاب فقط قدر الإمكان .. " .

" كانوا مثقفين جداً . يعوزهم الحب . عندما تكون لدى الفرنسي أفكاراً ، يحاول فرضها على آخرين إنه يحاول فرضها جتى وإن لم تكن لديه .. "

" كان من بينهم أشخاص رائعين أكفاء وأقوياء في معتقداتهم " .

" رجال ونساء كثيرون امتنعوا عن القيام بأي نضال سياسي أو عمل ثقافي ، لأن هناك أكثر مما ينبغي من المشتركين في هذه الشئون معدومي الرأي ومعدومي الضمير ، ولذلك خافوا من أن يحسبوهم على هؤلاء الدجالين والضالين . والسؤال المخيف " ما مغزى هذا ؟ يهدم حسن النية لدى الكثيرين جداً من الفرنسيين . أنهم عقلاء وأذكياء جداً بدون سعة أفق) معدمي القوة ومعدومي الحيوية .

خاتمة : قبس الحياة الإنساني :

مقاطع من يوميات إيتي هيلسوم ، ابنة السابعة والعشرين ، التي كتبتها في السنتين الأخيرتين من حياتها قبل أن تُرسل إلي معسكر أوشفيتس في سنة ١٩٤٣ :

" مع كل المعاناة الرهيبة من حولك فأنت تشعرين بالذنب لأنك تأخذين مصيرك الشخصى بمثل هذه الدرجة الكبيرة من الجدية . ولكن يجب عليك تضيفى وتأخذى نفسك بجدية ويجب عليك أن تكونى حاملة لشهادة نفسك ، وأن تنتبهى جيداً لكل ما يجرى فى هذا العالم ، ولا تغمضى عينيك أمام الواقع يتعين عليك أن تواجهى هذه الأزمنة المخيفة ، وأن تحاولى إيجاد الإجابات على الأسئلة الكثيرة التى يطرحها الزمن وربما تساعدك الإجابات ليس أنت فقط بل أيضًا تساعد آخرين " .

" إننى أشعر أحيانًا بأننى مثل عامود مغروز فى قاع البحر ، تضربه قوة الأمواج ، ولكننى مغروزة عميقًا وقد ساعدت السنين فى تحصينى ، أريد أن أعيش وأن أرى المستقبل، بصفتى مسجلة شهادة الأمور التى تحدث الآن " .

" إننى أعترف أنه سيأتى يوم جديد أكثر إنسانية ولطفًا . كم كنت أريد أن استمر فى العيش ولو فقط لكى أعبر عن كل الحب الذى أحمله فى داخلى . وهناك وسيلة واحدة لشق الطريق إلى اليوم الجديد ، عن طريق أن نعيشه حتى ولو الآن فى داخل قلوبنا " .

" غالبًا ما أتمشى على امتداد سياج السلك الشائك وأشعر كيف تصبح خطوتى مرنة ونابضة ومرة تلو أخرى يرتفع الأمر مباشرة من داخلى لا استطيع أن أمنع هذا ، هكذا يحدث هذا بالضبط ، كما لو كان على يد أية قوة أولية - الشعور بأن الحياة رائعة وجميلة وأنه ذات يوم سنبنى عالمًا كاملاً جديداً . فى مواجهة كل يوم شر جديد وفظاعة جديدة سنضع شريحة حب وطيبة قلب والقوة التى نستمدها من داخلنا .سيتعين علينا أن نتحمل كثيراً، ولكننا لن نخضع ولن نسمح لأنفسنا بأن نغرق ، وإذا بقينا سالمين جسديًا ونفسيًا ، ولكن أساسًا نفسيًا، بدون مرارة وكراهية ، وعندها ، بعد الحرب ، سيصبح لنا الحق فى أن نُسمع".

ملحق النصائح :

إن الجزء التطبيقى من نظرية اللاإنسانية ، " فيروس التعصب - وقاية وعلاج " ، يجب أن يصدر منفصلاً ، ويهدف هذا الملحق فقط لإعطاء رد للقارىء الذى يتساءل ماذا يمكن أن نفعل هنا والآن بروح الكلام الذى عرضناه هنا ويشعر بخيبة أمل إذا لم يجد على الأقل اتجاهات عامة يعتبرها المؤلف ، الذى هو مستشار تنظيمى في مهنته ، ملائمة للأشخاص الذين يتألمون مثله من ظواهر اللاإنسانية فى البلاد . وكل " النصائح تقريبًا هى تطبيقية لقواعد عالمية .

هوية : تقرير مصير على أساس أخلاقى وليس غيره :

طالما أن إسرائيل ليست دولة ديمقراطية ، أى طالما أن جهاز الحكم فيها مسيطر ويتطلع إلى أن يستمر فى السيطرة على المناطق التى يعيش فيها سكان لايتمتعون بحقوق سياسية وشخصية متساوية ، وطالما أنها تقرر هناك حقائق بالقوة ، بما يتناقض مع منطق وأخلاق أساسية مثلما تفهمون هذا - فإننى اقترح على من يشعر بنفس الشعور أن يُعرف نفسه أو نفسها بصفته معارض لنظام الحكم . أى مضمون يجب أن نصبه فى هذا التعريف فى الحياة اليومية - تلك هى نصائح يجب على كل واحد أو واحدة أن يقدمها لنفسه .

إننى اعتقد أن تعريف أنفسنا بأننا معارضون لنظام حكم الضم يستوجب الحفاظ على جدول أولويات سياسى وأيضًا وجدانى مشاعرى : قبل كل هذا ، أولاً وقبل كل شىء يجب على نظام الحكم أن يتوقف عن التصرف بشكل سلبى ويسبب ضرراً . وكل باقى جدول الأعمال القومى يضر باحتمال تغيير نظام الحكم ، من حيث أنه يصرف الأنظار عنه ، وأن القدرة على عدم الوقوع فى هوات يأس أو لا مبالاة تستوجب اختياراً على أساس جدول أولويات ، بالضبط ومثلما هو متبع ومعمول به فى سيكولوجية التفكير والعمل الأخلاقى : فى ساعات الاختبار - أولاً وقبل كل شىء يأتى إنقاذ الحياة ، بأكثر قدر ممكن ثم تأتى بعد ذلك كل باقى الأمور .

" من نحن ؟ " ، نحن الأقلية الأخلاقية ، نحن كل إنسان فى هذه البلاد ، بدون تمييز فى الأصل والقومية ، الذين يتطلعون إلى حل عادل للنزاع يلحق أقل معاناة بأقل عدد من الأشخاص . وقد سألنى شخص ما أمس بالاستغراب والدهشة المميزة لذوى الهوية المأسسة ، السؤال الذى يقول " إن " اليسار الصهيونى " يسأل نفسه بسعادة منذ ثلاثين سنة تقريبًا فيما يتعلق بـ " مسيرة السلام " : هل تعتقد أننا لم نفعل ما فيه الكفاية ؟ " وقد أجبت ، " نعم ، إننى واثق أنكم لم تفعلوا ما فيه الكفاية " وقد شعرت بأننى أفضل ... - إذا كنتم تريدون وقف الانزلاق الدائم فى المنحدر والوقوف على أرضية أخلاقية صلبة ، ليس هناك خيار سوى البدء من الهوية ذاتها .

حدود أخلاقية وحدود هوية شخصية :

إننى اقترح أن نتبنى مبدأ " توجد حدود " بالنسبة لأولئك الأشخاص الذين تجرون اتصالات معهم ، فى الحالات التى يرتكبون فيها مخالفات عنصرية أوتحريضًا إجراميًا وما شابه ذلك .

وكذلك بالنسبة للمؤسسة الحاكمة عندما نتعدى " الخط الأحمر " الأخلاقى لديكم. ليس كل شىء يجب أن نقبل به فى الحياة الشخصية ، يمكن أن تقول " لا " للشخص الذى فعل أو قال شيئًا شنيعًا أو رذيلة أخلاقية " على خلفية قومية " وأن نقول له أو لها بأنه إذا لم يتراجع أو يعتذر أو يعترف بأنه أخطأ هذا هو الموضوع الوحيد الذين أنتم مستعدون للتحدث معه عنه ، لا أى موضوع آخر ولا أية علاقة اجتماعية أخرى . ويمكن أيضًا رفض احتفالات كثيرة ومختلفة أو مناسبات اجتماعية تتيح عنصرية وبهيمية أخلاقية تحت ستار نمط حياة أو رعاية. إذا كنتم تقبلون " تبتلعون " كل شىء وكأن هذا لا يتعلق شخصيًا بمن تعدى الحدود وبكم ، فإنكم قد تنسحبون من المناطق الحيوية لوقفتكم وصمودكم الأخلاقى وأن تضروا بالشعور وبالتقدير الشخصى ، " أن تتسخوا وتتلطخوا " .

مصطلحات فنية سياسية :

مصطلحات فنية أخلاقية : التحرر من العبودية للمناطق (الفلسطينية) / أن نعود إلى أنفسنا / أن نرجع إلى الطريق السوى / أن نتركها وأن نكون فى حل منها / الخطر على وجودنا ذاته هو من المتعصبين الذين ينتزعون من إسرائيل روحها الديمقراطية ويريدون تحويلنا إلى دولة قمع وشر / " مسيحانية مسلحة " (بدلا من " صهيونية " بمفهوم استيطانى) / " حل عادل ، سلام عادل (بدلاً من " سلام " .

مصطلحات فنية استراتيجية : الإرهاب يأتى من المناطق / يجب فصل إسرائيل عن المناطق / الجبن (بدلا من الخوف أو خشية حرب شاملة) / إسرائيل هى الدولة الكبرى المسيطرة ، أى حاكم عربى يجرؤ على مهاجمتها سيجلب كارثة علي شعبه وسيفقد الحكم / تراجع عن سياسة الضم الآن .

استراتيجية :

* الحرب والجبهة الفَصْل هى نضال من أجل روح الشعب ضد التعصب .

* " وحدات مختارة (خاصة) " أو " قوة للتدخل السريع " غير عنيفة فى بؤرة قوة التعصب وبؤر تفجر هيجان الغوغاء ذوى النزعة القومية المتعصبة (المتعصبون " يفهمون " القوة فقط وبالطبع يفهمون بشكل ممتاز الضعف ولكى نواجه وننتصر يحتاج الأمر إلى

شجاعة وقوة : قوة أخلاقية ، قوة صمود ، قوة قدوة شخصية ، قوة معاناة إنه لم يكن هناك خيار ، ولكن قوة). وستؤدى أحداث عملية غير عنيفة مباشرة إلى مغنطة الحوار الجماهيرى ومسار الانجرار إلى التعصب سيغير مشكلة .

* المهم ليس شيئًا ما بإسلوب مسيحانى مثل " يوجد فقط حل سياسى " .. بدلاً من الانتظار لذلك المسيح المخلص يجب أن نطلب مطالب سياسية حقيقية من الأشخاص والجهات السياسية الأقرب إليكم ، بأن تضغط لاتخاذ خطوات تراجع عن سياسة الضم " هنا والآن " ، وأى عمل يفسر على أنه إظهار لحسن نية ومصالحة فى اتجاه الطرف الثانى وعودة إلى أنفسنا ، تسهيلات ، إطلاق تصريحات لبناء الثقة ، الإفراج عن مسجونين ، إخلاء مناطق معينة ، وقف البناء فى المناطق ، كبح قانونى للمستوطنين وما شابه ذلك : فقط أمور حقيقية ممكنة وقريبة تحدث تغييراً ، ولو قليلاً ، للصالح نحو الأفضل وتؤدى إلى تحرك فى مقابل الشعور بالجمود والتبعية المطلقة للحكم المركزى الذى يدير مناقشات المفاوضات السياسية .

* أعمال تظاهرية - فقط إذا كانت هناك فرصة حقيقية لتحقيق الهدف المحدد على المدى القصير ، وليس بأى شكل من الأشكال مظاهرات لكى تظهر (ضعفًا) من الناجح والفعال أكثر بكثير القيام بأعمال تظاهرية فى مراكز منظمات وأحزاب " اليسار الصهيونى " فى حالة عدم استجابتها لمطالب محددة .

* لا تكونوا الكلاب التى تنبح على القافلة التى تمر لأن هذا لا يؤدى فقط إلا دور علاقات عامة جيدة للقافلة .

مناقشات سياسية :

يجب تغيير عادة التناقش وعادة الشعور باليأس والقنوط وفقدان الأمل . ففى اللحظة التى يعبر فيها شخص ما بنمط من أنماط عَرَضْ اللاإنسانية (فى ٩٥٪ من هذه الحالات تكون أنماط " أعداؤنا " ، " العرب " الأشرار أو الذين يتسببون أو يتوقع أن يسببوا لنا شراً) يجب على الفور تغيير الموضوع من " أعداؤنا " إلى مجال العمى للإنسان نفسه . والقاعدة هى " ليس مهما ما يعتقده الإنسان الثانى ، المهم ما لا يعتقده هو / هى عنه ولايراه " . أنجح رد إذا كنا نريد مواصلة الحديث ، هو أن نطرح أسئلة شخصية مفتوحة موجهة إلى مجالات

العمى وأى شىء آخر ، طالما أن الإنسان الثانى مستمر في استخدام أنماط اللاإنسانية . وكأننا نشير إلى شىء ما نراه عبر النافذة ، على الأرض (سلوك إنسانى أولاً وقبل كل شىء للإنسان نفسه !) ، ونسأل دون غضب ودون عدوان ، بجدية وباستعداد للإصغاء لإجابة جدية، ما هو رد فعله . إذا كان نفس الشىء الذى يشير إليه موجود فى مجال العمى ، مثل الخطر الأخلاقى للتعصب الذى يتربص بنا ، فإننا نساعد بذلك نفس الإنسان ليستكمل خريطة مفاهيمه بالحقائق الإنسانية التى مُحيت من وعيه عن طريق " فيروس " اللاإنسانية .

تنظيم :

تشكيلة نصائح مهنية وعامة تماما لكل من يمد يده للغير وينجح فى أن يجد نفسه يجلس مع آخرين بهدف اتخاذ قرارات بطريقة ديمقراطية وتنفيذها .

تحذير : الإنسان ذو الروح الديمقراطية وقيم مساواة ، الذى يريد العمل مع أشخاص آخرين وليس ضدهم ولا يستجيب لهذه النصائح - سيجد نفسه محبطًا ، أو أن اتخاذ القرارات لايكون ديمقراطيًا وتتحول العلاقات إلى علاقات تنزع إلى استخدام القوة كما هو الحال فى كل الأحزاب ، أو ألا يكون ناجحًا ، بل يتحول إلى نادى مناقشات / ثرثرات .

* لا تبدأ المناقشة قبل أن يتقرر (أ) فى أية ساعة ستنتهى ، (ب) ما هى البنود على جدول الأعمال ، (جـ) كم من الوقت سيخصص للنقاش حول كل بند من البنود المطروحة على جدول الأعمال ، (د) من الذى سيحافظ على الوقت المسئول عن تنفيذ القرارات سالفة الذكر .

* لاتبدأ المناقشة قبل أن تتم المصادقة على جدول الأعمال . إعطاء حق لكل مشترك أو مشتركة فى أن يقترح موضوعًا للنقاش ولاتخاذ قرار فى نفس الجلسة أو حذف بند من جدول الأعمال (بدون تسهيلات للسكرتارية أو للزعامة) . تتخذ القرارات المطروحة علي جدول الأعمال دون مناقشات بالتصويت أو باتفاق عام .

* لاتنتهى المناقشة فى أى بند من البنود بدون أن تكون قد تمت صياغة القرار بشكل جوهرى وبصراحة بحيث يراه الجميع ودون أن يتقرر (أ) من المسئول عن التنفيذ (ب) إلى متى، (جـ) بمساعدة ما ومن إذا تطلب الأمر ذلك .

* ألا تستمر في البحث والتناقش حول موضوع ، بينما الوقت المخصص قد انتهى . عندما يقترب الوقت من نهايته - من المسموح أيضًا صياغة مشروعات قرارات بدون تبرير أكثر - واتخاذ قرار .

* من المرغوب فيه جداً أن الشخص الرئيس رقم واحد في تنظيمكم ألا يكون هو الذى يتولى إدارة النقاش في جلسة اتخاذ القرارات (هو أو هى متداخلان جداً في القرارات ، ويجب على من يتولى / تتولى إدارة النقاش أن يكون متداخلاً / متداخلة جداً في عملية اتخاذ القرارات) .

* من المرغوب فيه جداً (!!!) أن يتم تخصيص ١٥ دقيقة في نهاية كل جلسة لتصحيح المعايير بين الإنسان وزميله في التنظيم : لا توجد بنود للنقاش ولا يوجد اتخاذ قرارات ولا يوجد حتى رئيس للجلسة توجد فقط إنسانية للوضع ... نتحدث عن أشخاص وأحداث في نفس الجلسة ، ساهموا ، عرقلوا ، ساعدوا ، أضروا ، تضرروا ، وأثروا على العمل المشترك وعلى أن تكون أولا تكون للمشتركين رغبة في الحضور أيضًا في المرة القادمة .

إدارة منظومة إقناع علنية :

(إذا لم نعرف ما هى اللاإنسانية وكيف تؤثر على روح الشعب فليس هناك احتمال للانتصار عليها في الانتخابات) .

* فلنلق جانبًا خرافات ومهاترات رجال الإعلان ، كلها : فالاستراتيجية الإعلانية التسويقية تقوم على أن الأشخاص يتوقون لشراء المنتج ، أو على الأقل يمكن أن نذكى ونبث فيهم هذه الرغبة . ولكن السياسة المرتبطة بتقديم تنازلات لـ " أعداؤنا " هى منتج لايثير رغبة بل يثير خوفًا لدى الجميع ، ولدى من يميلون لمفهوم تعصبى بمزيد من الشدة .

* لا يستطيع " اليسار الصهيونى " أن يضلل جمهوره المستهدف عن طريق ترويج وبيع شعارات فقط مثل " سلام " أو سلام آمن " وإخفاء حقيقة أنه يقترح استراتيجية تنطوى على شىء ما يتعارض مع المفهوم التعصبى : تنازل لـ " أعداؤنا " . إن إخفاء هذا الموضوع يؤدى فقط إلى تأكيد وإذكاء الخوف ، جمهور الخائفين مقتنع بأن نفس " معسكر السلام " يخاف من أن يكشف له نواياه الحقيقية . هذا لا يماثل ، الإعلان عن السجائر ، الذى يخفون فيه مرض

السرطان ، لأن مستهلكى السجائر المحتملين يتوقون إلى استنشاق الدخان كعادتهم فى الماضى والحاضر ، على الرغم من إدراكهم لأخطار ممكنة ، ولايريدون أولاً ينجحون فى تغيير العادة . فى مقابل هذا ليست لدينا أية عادات سلام ، ثقة ، نظرة إنسانية للعرب وشعور بالأمن ؛ وكذلك هؤلاء الذين يؤيدون تنازلات معينة لايتوقون إليها ويخشون من التغيير المتوقع . الأمر الذى يجب أن نروجه لهم وهو أن يتجرأوا على تغيير العادة .

* من وجهة نظر القوة الأكثر اعتدالاً ، التى تريد إقناع الأشخاص المتأثرين من تصعب قطيعى ، أنه لايمكن تغيير مخاوف ومشاعر غير عقلانية بدون مواجهة مباشرة معها وبدون تجنيد القوى العقلانية فى الإنسان . ولايعرف أحد مدى قوة الفطنة ، ولكن للفطنة والشعور بالكرامة الشخصية الذى يطلب أن ينظروا إليك ويعاملونك كإنسان بالغ وليس كطفل يمكن إلهاب حماسة بحماقات ، وللرغبة فى التفكير واتخاذ القرار بشكل مستقل ، وللقيم الإنسانية ، لكل هذه العناصر مكان فى عالم مفاهيم ومشاعر كل إنسان . إن الإعلان التجارى والدعاية السياسية تعتبر هذه القوى عدواً ، وبحق من ناحيتهما ، وعلى ذلك فإنهما تتنازلان مسبقًا عن محاولة الارتباط بها . ولكن إذا كنا نريد التأثير ضد أنماط تصويت وتفكير تعصب يجب أن نرتبط مع الأسس المناقضة للنزعة القطيعية : مع الفطنة والحكمة والأخلاقية الموجودة فى الإنسان ، وأن نبنى عليها التغيير الممكن .

لم يتم حتى الآن تجربة الوسيلة الناجحة والفعالة للتأثير بواسطة التلفزيون ، التى هى أقوى وسيط : البرامج التى يتم بثها يجب أن تجرى مثل إنسان يدق على باب المشاهد ويعرض عليه شراء شىء ما لا يرغب فيه صاحب الشقة ، بل ينظر إليه بارتياب شديد . وأن عميل - تغيير كهذا - يجب أن يتصرف باحترام تجاه الفطنة والأخلاق والتروى الذاتى للإنسان الذى يتوجه إليه ويخاطبه ، يتعين عليه أن يحصل على ميزة من أنه يحميه من عملاء المبيعات السياسيين الآخرين الذين يحاولون بوسائل دعاية الاستحواذ على رأيه (هذه هى كل فنيتهم ومهارتهم المهنية) وتناسب ذلك طريقة الوقت المخصص لتعديل المعايير : بث البرنامج يجب أن يكون وسيلة ضد تأثير إعلان / دعاية الخصوم ، عن طريق التوعية بوسائلها - الخدع الفنية المرئية والموسيقية - باقتباس ونقل مباشر . ويجب أن تبث الرسالة بدون ضجة - خلفية ، كتعبير مباشر من إنسان إلى إنسان وطبقًا لكل ما هو معروف لنا عن الشخصية التى تميل إلى

التعصب يجب أن نقوى خاصيتها وأن نجند فطنتها وكرامتها الشخصية والأخلاقية ، لكى نجعلها تدرك مجالات العمى وأن نقويها ضد التأثير القطيعى الذى يسبب البلادة والغباء .

اللاإنسانية والتعليم :

إن تطبيق نظرية اللاإنسانية فى إطار تعليمى هو أمر سهل نسبيًا ، لأن معلم واحد (أو معلمة وحيدة) يمكنه يمكنها عمل هذا بدون الانتظار لموافقة جهاز التعليم على هذا . كل ما هو مطلوب من أجل الاشتغال بصورة فعالة بمنع تعصب قطيعى هو معلم فى دروس التاريخ، والعهد القديم « الكتاب المقدس لدى اليهود »، أو الأحداث الجارية ، ودراسة أنماط العَرَضْ وبمناسبة قراءة النصوص / يشتغل أو تشتغل بتحليل أنماط تعبير اللاإنسانية .

عندما يصل الأولاد إلى سن يدرسون فيها معرفة أن العالم مُقسم إلى " نحن " و"أعداؤنا"، ومنذ الأزل كان " نحن " و " هم " لدينا مثل لدى كل الشعوب فى العالم ، التى دارت بينها حروب ، وأعمال قتل جماعية وفظائع ، وكان هناك أوغاد وأبطال ، مكابيون ورومان ، موسى وفرعون ... إلخ ، إلخ – فإنهم يصبحون بالغين بما فيه الكفاية لكى يتعلموا أنه يوجد وكان يوجد متعصبون . المتعصبون هم أناس وأولاد طيبون مثلهم بالضبط أحبوا شعبهم ووطنهم وعندما أصبحوا رجالاً ارتكبوا أعمال شر وحماقة وقتل جماعى ، من خلال اعتقاد كامل بأنهم على حق .

يجب دراسة السمات الحقيقية للظاهرة وأن نحددها ونرصدها فى نصوص وفى أقوال أشخاص أحياء ، لكى لاتكون المعرفة نظرية فقط ، بل نعرف كيف نميزها عندما تحدث لدينا ولدى آخرين . يجب أن نسعى إلى أن يتحول " التعصب " / اللاإنسانية إلى واحد من الرموز الثقافية القوية ، مثل رموز بلادنا ، وطن ، أسرة ، دولة ، الشعب ، العدل ، الشر .... إلخ . أبسط وسيلة للتحصين ضد التعصب هى تعلم تحديد سمات الظاهرة . ويجب أن يكون التكنيك العادى تحليل أنماط تعبير أساسية فى النصوص ، حتى نمط تعبير واحد فى مقطع من نص . عندما نقرأ مقطع تاريخى يمكن ، بالإضافة إلى كل أساليب التحليل والتفسير المتبعة – يمكن أن نسأل أيًا من هذه التعبيرات الواردة فى النص ملائمة لفكرة "أعداؤنا أشرار بطبيعتهم"، أو " أعداؤنا يسببون شراً " . أو فى صورة أعلى ، أن نسأل هل يوجد فى المقطع

تعبير عن أى مجال عمى ، وعن خطر أخلاقى بأن نصبح قساة أو نتسبب فى معاناة لا لزوم لها أو أن نكون على غير حق إذا حاربنا أكثر من الضرورى ، إلخ ،

إن أقرب شيء للتحصين والعلاج فى هذا السياق هو رفع مجالات العمى إلى المدركات . ويضعف الفيروس ويموت فى ضوء المدركات : عندما يتعلم الإنسان كيف يحدد ويشخص الأعراض لدى آخرين ولدى نفسه فإنه يصبح حراً فى تجنبها .

مواجهة عدوان (مدخل مختصر جداً لعدم العنف) :

للصمود الأخلاقى فى مواجهة عدوان قيمة تأثير كبير ليس فقط على المشتركين بل كقدوة تدعم وتقوى كثيرين أخرين ، ولذلك فإن جزءاً من الاستراتيجية هو الاهتمام بأن يتواجد ممثلون لوسائل الإعلام (" دفاعنا الوحيد " ، كما كتب أندريه سخاروف من مكان منفاه " هو تسليط الأضواء ") .

وهناك نموذج مميز للنظرة المألوفة عن رقيقى المشاعر فى الصراع مع المتعصبين ، يمكن أن نراه فى الحادث الآتى (هاعير ١٩٩٥/٥/٢٥) : حايا نواح ، سكرتير عام حركة "سلام الآن " تقوم بزيارة " جفعات هاحرسينا " فى الخليل .. وتصادف بانى كتسوفر رئيس مجلس كريات أربع ، الذى يخاطبها بالطبع ، على الفور بأنماط لا إنسانية بالنسبة لـ " رقيقى المشاعر مرهفى الأحاسيس " وبالعدوانية العرضية : " هل لديك ما تفعلينه هنا ؟ كليبة مثلك ! هل لديك ما تفعلينه هنا ؟ إننا نتحدث عن الدم الذى أريق ! أنتم تسخنون الجو ، ليس لديكم ما تشجعون به العرب . أربع عمليات قتل جرت بعد مظاهراتكم ! " . وقد أعربت ، حايا نواح – التى تعرضت للهجوم من جانب كتسوفر – أعربت بعد ذلك عن رأيها فى الحادث وقالت : " فى اللحظة التى ينتقل فيها الأمر إلى عنف لفظى ، إذاً فقد انتهى " . وتعبير " انتهى " يعكس بشكل قاطع الرأى المألوف وهو أنه ليس هناك ما يمكن عمله .

ويعود البديل إلى وسائل نضال عدم العنف . فالعنف اللفظى من الطرف الثانى ليس فقط أنه لا يجب أن يسبب القطيعة التى تتمثل فى " إنتهى الأمر " بل مأخوذ فى الاعتبار كنقطة البداية المتوقعة فى المواجهة مع متعصبين ، إنه شيء حيوى وثابت . هذا بالضبط ما يجب مواجهته وإلى الأبد . كان يجب على حايا نواح أن تأتى إلى الخليل مستعدة تماماً للالتقاء

بأشخاص مثل كتسوفر وعنيفين أكثر منه بكثير ، والدخول فى مناظرة معهم كبشر مثلها ، بلا خوف وبلا كراهية . إن من يعمل بدون عنف يبحث عن الطرف الثانى ، لكى يوجد اتصالاً معه، وأن يتناظر معه . " لدى ما أفعله هنا - أن أتحدث معك ! إننى مستعدة لأن أصغى لك بجدية وباحترام ، تحدث إلىّ ... " هذه بداية ممكنة . وإذا ما أستدار على عقبيه بازدراء ومضى ، مايزال يمكنها - إذا كان هذا هو هدفها - أن تسد طريقه بجسمها وتوقفه وتنظر فى عينيه ، وأن تقول له رسالتها بشكل مختصر وصريح وواضح ، وسيتردد صداها فى أذنيه ويصل أيضًا إلى وسائل الإعلام ، وأن تعرف أن لديها فى هذا قوة هائلة ، وسيحس بها حتى هو نفسه ويتأثر بها . ففى العلاقات الإنسانية العنف هو ضعف وعدم العنف هو قوة .

* ظاهرة النبوة الإسرائيلية	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
* جامع التعريب	تحقيق وشرح نصوص أونال قره أرسلان
* الحساب القومى	ترجمة أ.د / محمد محمود أبو غدير
* الشخصية الإسرائيلية	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
* الصهيونية الدينية	ترجمة أ.د / محمد محمود أبو غدير
* الحركة الصهيونية	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
* المجتمع الإسرائيلى	ترجمة د. / محمد أحمد صالح
* اسلام حقائق اور الزامات	ترجمة د. / يوسف عامر
* أدب المهجر الشرقى	تأليف د. / محمد عبد الرحمن الربيّع
* الكلام والفكر والشىء	ترجمة د. / محمد صالح الضالع
* قاموس المختصرات العبرية	إعداد د. / شعبان محمد سلام
* الموازنة بين اللغة العبرانية والعربية	نقله إلى العربية د./ أحمد محمود هويدى
* حكايات أيسوبوس	ترجمة ودراسة د./ صلاح محجوب
* البعد الدينى للصراع العربى الإسرائيلى	تأليف أ.د / محمد خليفة حسن
* اتجاهات التراجم والتفاسير القرآنية فى اللغة الأردية	تأليف أ.د / سمير عبد الحميد إبراهيم
* الجنيزا والمعابد اليهودية فى مصر	تأليف أ.د/محمد خليفة حسن والأستاذ النبوى سراج
* سياسة إسرائيل فى طرد السكان العرب	ترجمة وتعليق د. محمد أحمد صالح
* الرموز الدينية فى اليهودية	تأليف أ.د/ رشاد عبد الله الشامى
* الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى الحاضر والمستقبل	تأليف أ.د/ أحمد فؤاد متولى ود. هويدا محمد فهمى
* المشكلة الكردية	ترجمة وتعليق / أ.د محمد علاء الدين منصور
* المسرح الإيرانى	تأليف / د. عبد الوهاب علوب .
* الأدب الفارسى عند يهود إيران	ترجمة / أ.د. محمد نور الدين عبد المنعم
* الصراع الدينى العلمانى داخل الجيش الإسرائيلى	تأليف أ.د/ محمد محمود أبو غدير

العنوان	المؤلف
* الأقليات المسلمة والصراعات فى الكومنولث	تأليف د. / هويدا محمد فهمى
* الشخصية الفلسطينية فى القصة العبرية القصيرة	تأليف د. / محمود على صميده
* مستوطنة معالية أدوميم وانتهاك حقوق الإنسان الفلسطينى	ترجمة د. / عبد الوهاب محمود وهب الله
* يهود مصر « دراسة فى الموقف السياسى »	تأليف د. / محمود عبد الظاهر .
* فلسفة الحرب فى الفكر الدينى الإسرائيلى	تأليف أ.د/ محمد جلاء إدريس
* التركمان بين الماضى والحاضر	ترجمة أ.د/ عبد العزيز عوض
* اليهود فى ظل الحضارة الإسلامية	تأليف أ.د/ عطية القوصى
* التأثيرات الإسلامية فى العبادة اليهودية	ترجمة أ.د/ محمد سالم الجرحى
* اليهودية	تأليف أ.د/ محمد بحر
* المحاضرة والمذاكرة	نقله إلى العربية أ.د/ عبد الرازق قنديل
* قضايا إيرانية (العدد الأول)	إعداد أ.د/ محمد نور الدين عبد المنعم
* التأثيرات العربية فى البلاغة العبرية	تأليف د.شعبان محمد سلام
* حرب أكتوبر وأزمة المخابرات الإسرائيلية «جـ١»	ترجمة أ.د/ محمد محمود أبو غدير
* مستقبل الصراع على فلسطين	تأليف د.عبد الله بن عبد الرحمن الربيعى
* التقرير الاستراتيجى الإيرانى (العدد الثانى)	إعداد مجموعة من المتخصصين
* الشعر العبرى الأندلسى	إعداد وتأليف مجموعة من المتخصصين
* معجم المصطلحات الفلسفية	تأليف : أ.د. محمد نور الدين عبد المنعم
* ضمير الشأن مسائله ومواطنه	تأليف : د.فاطمة عبد الرحمن رمضان حسب
* علاقة الإسلام باليهودية رؤية إسلامية فى مصادر التوراة الحالية	تأليف : أ.د . محمد خليفة حسن
* الإيقاع الشعرى دراسة صوتية مقارنة بين بحور العربية والعبرية	تأليف : د. ليلى إبراهيم أبو المجد
* دراسات فى جنيزا القاهرة	ترجمة أ. النبوى جبر سراج
* التغير المعجمى عند الجواليقى	تأليف : د . طيبة صالح الشذر
* الحياة الحزبية فى تركيا	تأليف : أ.د. عبد العزيز محمد عوض الله
* المعجم التأصيلى للفعل الناقص فى اللغات السامية	تأليف : أ.د. عمر صابر عبد الجليل
* رسالة المشرق « مجلة دورية محكمة »	

كتاب " فيروس التعصب - حل الشفرة السياسية الإسرائيلية " . صدر بالعبرية ومؤلفه عالم نفس خبير فى العلوم السلوكية ، ويقدم فى هذا الكتاب تحليلاً نفسيًا للسلوك اللاإنسانى المسيطر على السياسة الإسرائيلية . وهو يعتبر هذا السلوك اللاإنسانى ظاهرة نفسية تشير إلى مرض اجتماعى أصاب السياسيين والعسكريين فى المجتمع الإسرائيلى . وهو يقدم هذه الدراسة النفسية من خلال نهج إكلينيكى فى بحث الأمراض الاجتماعية . وقد استخدم المؤلف أولك نيتسر كلمة فيروس ليشير إلى وباء اجتماعى فتاك متأثراً فى ذلك بالمتخصصين فى بحوث الفيروسات الذين يدرسون الأمراض للبحث عن وسائل علاجية وقائية وعن أدوية مضادة لانتشار الفيروس . والفيروس الذى يبحثه المؤلف هنا هو فيروس التعصب والتعصب مرض نفسى ويمثل وباء اجتماعى يحتاج إلى التحليل والدراسة من أجل الوصول إلى علاج وقائى يمنع انتشار عدوى التعصب . ويعبر المؤلف عن هذا بقوله : " يجب علينا أن نشرع فى التصدى للتعصب والعنصرية ، وانعدام الإنسانية ، وسفك الدماء والحماقات والجهالة والشلل الفكرى . وهى أمور تتشكل فى أنماط تفكير سياسية وأيديولوجية دينية وغير دينية .... كما يشرع إنسان مثقف عالم فى عصرنا الحالى فى التفكير فى التصدى لمرض الإيدز أو السرطان " .